الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أبي بكر بلقايد -تلمسان-
كلية الآداب واللغات
قسم : اللغة العربية وآدابها

تخصص: آداب المغرب الإسلامي والحضارة المتوسطية

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه نظام ل م د في الأدب و الحضارة الموسومة:

المظاهر الحضارية في مدونات الرحالة العرب

- رحلة العبدري نموذجا -

إعداد الطالبة: زواوية طيبي

إشراف: أ.د. محمد زمري

لجنة المناقشة

أ.د. محمد مرتاض	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيسا
أ.د. محمد زمري	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	مشرفا ومقررا
أ.د. محمد باقي	أستاذ التعليم العالي	جامعة سيدي بلعباس	عضوا مناقشا
د. محمد سعيدي	أستاذ محاضر (أ)	جامعة مستغانم	عضوا مناقشا
د. عبد القادر جلال	أستاذ محاضر (أ)	جامعة سيدي بلعباس	عضوا مناقشا
د.ة. فتيحة بن يحي	أستاذة محاضرة (أ)	جامعة تلمسان	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 2016- 2017

إهـــــــداء

إلى الذين قال الله في حقّهما :

﴿ وقضى ربك ألّا تعبدوا إلّا إيّاه وبالوالدين إحسانا ﴾

إلى النور الذي أضاء لي درب النجاح أمّي الغالية أطال الله عمرها .

إلى من ساعدني في كفاحي ولم يبخل عليّ ؛ إلى الذي ربّاني وتعب من أجل أن أشق لنفسي طريق النجاح أبي الغالي حفظه الله .

إلى كل إخوتي وأخواتي وزملائي الطلبة بكلية الآداب واللغات .

إلى كل الأساتذة من الطور الابتدائي حتّى الجامعي .

أهدي هذا العمل المتواضع .

شكر وتقدير

قال تعالى: ﴿ ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ .

لا يسعني وقد أنهيت هذا البحث بعون الله وتوفيقه؛ إلّا أن أتقدّم بوافر التقدير وجزيل الشكر إلى الأستاذ الدكتور محمد زمري الذي تكرّم بالإشراف عليه ومتابعته منذ أن كان فكرة إلى أن تجسّد نسخة مطبوعة. حيث كان حفظه الله موجّها ومصحّحا ومرشدا ؛ كما نعترف أنّنا وجدنا فيه علم العالم الكبير؛ وتوجيه الأستاذ القدير ؛وإرشاد الباحث الخبير ؛فجزاه الله تعالى كلّ خير ؛وإلى الأساتذة المناقشين ؛ وإلى أساتذة كلية الآداب واللغات .

المقدمة:

الحمد لله الذي خلق الإنسان وأعماله وراقب بمشيئته نواياه وأفعاله ؛ والصّلاة والسلام على من قال: "اعملوا فكلّ ميسّر لما خُلق له" ؛ ورضي الله عن العلماء العاملين الذين قد ساروا في الناس سيرة الجادّين المهتدين؛ وعلى أصحابه الذين اهتدوا بهديه إلى يوم الدّين.

وبعد:

لقد جاب الرّحالة العرب والمسلمون العالم القديم ؛وسجّلوا ملاحظاتهم ودوّنوا معلومات في غاية الأهمية عن التضاريس الجغرافية ؛من جبال وسهول ومواقع المدن الكبرى ؛وأهميتها السياسية والاقتصادية ؛ودرسوا البحار والأنهار والخلجان ؛ومواقع المدن ؛وتحدّثوا عن طرق المواصلات وقاسوا المسافات بينها ؛وسجّلوا في مدوّناتهم أحوال السكان الاجتماعية والاقتصادية.....إلخ ؛وربطوا بين البيئة والنشاط البشري ؛لما للعوامل الجغرافية من أثر على السكّان وصفاتهم وأخلاقهم وعاداتهم ؛وكانت المعلومات الجغرافية الوصفية والسكّانية ؛ومعرفة المسالك وطرق القوافل البريّة ؛والخطوط البحرية بين موانئ مدن الإسلام ذات أهمية بالغة لدولة إسلامية مترامية الأطراف ؛نشطت منها حركة النقل والتجارة ؛ بسبب ما تمّتعت به من أمان واستقرار وازدهار اقتصادي.

ارتبط لفظ رحلة بالانتقال من مكان إلى مكان، ومن حالة إلى حالة فهو فعل سبق كلّ الأفعال، وسمة سبقت كل السّمات؛ وتحوّلت إلى حلم وشوق تتطلّع إليه كل نفس، وهاجس ملّح يحوم في أعماق الكثير من المخلوقات حتّى الحيوان والطّير، ولعّل الطيور المرتحلة و المهاجرة معلم شهير من معالم الطبيعة التي تبحث عن وجودها وأحلامها في الأمن والطعام، فتندفع بالأجنحة والقلوب نحو بلاد بعيدة وآفاق رحبة، تعانق فيها صورا جديدة من صور الحياة وتجلّياتها.

الرحلة حركة، والحركة روح الحياة، وقد هيّأ الله لها جيناتها وخلاياها فيما خلق، وصمّم لها التّشكيل الجسدي والنفسي والعقلي كأدوات لازمة لتعمير الأرض بالحركة، وبثّ الحياة بالعمل والتنقّل

ليكون الإنسان من صنّاع الحياة وعمّار الكون لقوله تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (سورة هود الآية 61).

عرف العرب الرحلة منذ القديم، فكانت رحلتا الشتاء والصّيف أول رحلة مارسها العرب للتجارة من اليمن إلى الشّام، وبعد الفتوحات الإسلامية اتّسع نطاق الرحلات لتشمل الرحلة الدينية والعلمية، حمل لواءها كلّ من ابن جبير وابن بطوطة...إلخ ؛ فعرف هذا الفن (أدب الرحلة) ازدهارا بسبب تنوّع الموضوعات والمشاهد التي شاهدها الرحالة، فكان الوصف زبدة الرحلة باعتماده على المشاهدة والمعاينة، فاصطبغت الرحلات بصبغة دينية علمية، ومع نهاية القرن التاسع عشر ميلادي اكتسى أدب الرحلة بحلة جديدة تمثّلت في الانبهار بالحضارة الغربية، ومعرفة مقوّمات تمدّنها فكان رفاعة الطهطاوي سفير المشرق العربي إلى باريس، وبعده أحمد فارس الشدياق ومحمد عياد الطنطاوي ؛ فكانوا روّاد النهضة في العصر الحديث لما حملته نصوص رحلاتهم من مظاهر حضارية شملت الجانب العلمي ؛ والعادات والتقاليد والعمران ؛ وبذلك خرجت الرحلة عن المألوف من وصف للأماكن المقدّسة ولقاء العلماء، إلى رؤية العالم الغربي من خلال الرحلات التي أثرت التراث العربي بهذه المادة العلمية. ويبرز التنوّع في الرحلات ؛لا بمستواها الأدبي فحسب ؛بل بمنحاها التّاريخي والجغرافي؛أو الأثنوغرافي في قوالب يتآزر فيها الجانب التعليمي بالإمتاع الأدبي.

أمّا اختياري للموضوع فيرجع إلى دافعين:

إنّ الدّافع الذاتي الذي جعلني أطرق باب أدب الرحلة باعتبار هذا الأخير أكثر استجابة للتحوّلات، والأحداث التي تعبّر عنها الأمم والمجتمعات، إضافة إلى انجذابي نحو نصوص هذا الفن من حبّ الإطّلاع الجغرافي واكتشاف الجديد، بغية تحصيل المعرفة من هذا النّبع الذي لا ينضب معينه، ثمّ تحقيق حلمي كمشروع كانت الرغبة فيه منذ أن كنت طالبة بالماستر.

أمّا الدافع الموضوعي فتمثل في استنطاق نصوص الرحلات وكشف خباياها، لما يتمتّع به هذا الفن من متعة أدبية، جعلتني أخوض البحث فيه، متمنّية أن يكون عملي هذا المتواضع مشروعا أضيفه إلى ما كتبه السابقون في هذا المجال.

وبعد هذه التوطئة أطرح الإشكاليات الآتية:

-ما مفهوم الحضارة عند العرب والمستشرقين؟

- ما مقوّمات الحضارة العربية الإسلامية؟

-ما علاقة الرحلة بالأدب؟ وما الذي يضفي عليها صفة الأدبية؟

- ما هي الدوافع الأساسية وراء الرحلات القديمة والحديثة؟

- أين تكمن جماليات أدب الرحلة؟

-ما هي نقاط التشابه والاختلاف بين رحلات العصر الوسيط ورحلات العصر الحديث؟.

- أين تتجلّى المظاهر الحضارية في رحلة العبدري؟

إنّ أيّ بحث لا يستطيع أن يبني نفسه من فراغ، لذلك اعتمدنا على دليل أو معين ييّسر عملنا، فهذا البحث اتّكأ على دراسات سبقته ومصادر أضاءت دربه، ولاسيما المضان الأكثر التصاقا بهذا الموضوع على غرار:

- الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر عبد الرحيم مودّن.

- أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، الحسن الشاهدي.

- أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع عشر، نوال عبد الرحمان الشواكبة.

- الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، دراسة تحليلية نقدية مقارنة، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، إعداد الطالب عواطف محمد يوسف نواب.

- وبعد اطّلاعي على مختلف المناهج الفنّية بدا لي أنّ أنسب منهج لبحثي هو المنهج الوصفي القائم على التحليل، مع الاستعانة بالمنهج التاريخي.

ولمحاولة إيصال ذلك إلى المتلقّي فقد اتّبعنا خطة تتمثل في مدخل وأربعة فصول وخاتمة وفهرس الموضوعات.

ففي المدخل تعرضنا لمفهوم الحضارة العربية الإسلامية عند العرب المسلمين والمستشرقين، ومقوّماتها، وخصائصها ؛وذكرنا بعض أعلام الحضارة ومنجزاتهم العلمية.

وفي الفصل الأول: الذي كان عنوانه:" لمحة عن أدب الرحلة" تناولنا فيه التعريف بأدب الرحلة لغة واصطلاحا، ثم أشرنا إلى بواعث الرحلات، ثم تطرقنا إلى الرحلة والجغرافيا الوصفية ؛ ثمّ تبعنا ذلك بعلاقة الرحلة بالعلوم (علم التاريخ والآثار علم الاجتماع...) وانهينا الفصل بالحديث عن الخصائص الفنية لأدب الرحلة الذي اعتمد على الوصف والسرد.

وفي الفصل الثاني:**الموسوم**:" مدونات رحالة العصر الوسيط" حاولنا أن نتناول فيه الرحلات التي بدأت من القرن الرابع الهجري إلى القرن التاسع الهجري، بداية من ابن فضلان وابن جبير وابن بطوطة والعبدري، فتطرقنا إلى التعريف بكلّ رحالة، ومضمون رحلته، وانتقينا المشاهد والأماكن التي كانت تمثل بؤرة الحدث في متون هذه الرحلات.

وفي الفصل الثالث: الموسوم" مدونات رحالة العصر الحديث" التي كانت بالانفتاح على الغرب وأهمّ منجزاته، فكان رفاعة الطهطاوي رائدا لتنوير العقل العربي بالاطّلاع على فنون وعلوم الغرب؛ وتبعه أحمد فارس الشدياق الذي اختار مالطة وأوربا نموذجا في رحلته الحضارية، أمّا محمد عياد الطنطاوي فاختير مدرسا بكلية بترىورغ بروسيا. فرحل ليعلّم ويتعلّم .

أمّا الفصل الرابع: توجّهنا فيه بالتحليل للجانب التطبيقي، حيث قمنا بدراسة المظاهر الحضارية في رحلة العبدري التي تنّوعت بين الجانب التاريخي والاقتصادي ؛ والاجتماعي والثقافي والعمراني، وكان للجانب الفّني نصيبا كبيرا أثبتنا من خلاله شاعرية العبدري وأدبيته.

وأنهينا بحثنا بخاتمة كانت عبارة عن أهمّ النتائج التي توصلنا إليها في البحث.

وفي الأخير أقول أنيّ لا أدّعي أنّي بلغت الكمال في إنجاز هذا العمل ؛ ولا أزعم حاجة هذا البحث إلى المزيد ؛ إذ سيكون فتحا لدراسات أخرى، فالحمد لله والشكر لكل من كان لي عونا من

قريب أو بعيد في إنجاز هذا العمل المتواضع، خاصة الرجّل الذي تبنّى فكرة الموضوع، وتتبّع خطواته وأشرف على إنجازه، الأستاذ الدكتور محمد زمري أدام الله عطاءه.

زواوية طيبي

تلمسان في: 08/ 05/ 2017.

تعريف الحضارة لغة:

جاء في القاموس المحيط **حَضَر** كنصَر وعَلم، حضُورًا أو حضارة: ضد غَابَ **كاحتضَر وتحضَّرَ**، ويعدى يقال: حَضَرهُ وتحضَرَهُ، واحْضَرَ الشيء وكان بحَضرته **وحَسَنُ الحضْرَة** بالكسر إذا حضَر بخيْر **والحَضَرُ الحَضْرَةُ والحاضرَةُ والحضَارَةُ** خلاف البادية، **الحضارةُ** الإقامة في الحضَر[1].

ورد لفظ الحضارة في معجم الصّحاح للجوهري على أن:

حَضَر، حضرَةُ الرجل قرْبهُ، **الحَضْرُ**: بلدٌ بإزاء مَسْكن ويقال كلمته **بحضَرة** فلان و **بمحْضَر** من فلان أي بمشهد منه، **المَحضَرُ** السجل **المحضَرُ** المرجع إلى المياه، **الحُضْرُ** بالضم العَدُو ويقال **أَحْضَرَ** الفرسَ **احْضَارًا واحْتَضَرَ** أي عدَا، هذا فرسٌ **محْضرٌ** أي كثير العدو.

الحضر: الحي العظيم، قال حسّان (الطويل):

لنا **حاضرٌ** فَعْمٌ وباد كَأنّهُ   قَطين الإله عزّةً وتَكُّر مَا [2].

جاء في معجم مقاييس اللغة **حضر**: الحاء والضاد والراء، إيراد الشيء وروده ومشاهدته، وقد يجيء ما يبعد عن هذا وإن كان الاصل واحد، فالحضر خلاف البدو وسكون الحضرِ الحِضَارَةِ قال:

فمن تكن الحضارة أعجبته   فأي رجال البادية ترانا

قال أبو زيد بالكسر، وقال الأصمعي هي الحَضارة بالفتح، يقال المحاضرة المغالبة، وحاضرت الرجل جاثيته عند سلطان أو حاكم، ويقال ألقت الشاة حضيرتها وهي ما تلقيه بعد الولد من المشيمة وغيرها وهذا قياس صحيح .

---

[1]- معجم القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيزور أبادي؛ تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة؛بإشراف محمد نعيم العرقسوسي؛ مؤسسة الرسالة ؛ ص377.

[2]- معجم الصحاح للإمام اسماعيل بن حماد الجوهري، ، اعتنى به والأمثال العربية، دار المعرفة بيروت، لبنان؛ص241-242.

الحضيرة ما اجتمع من المدة في الجرح يقال: حضرت الصلاة، ولغة أهل المدينة حضِرَتْ[1]

تعريف الحضارة اصطلاحا:

اصطلح الناس على تعريف الحضارة على أنها" **كل ما ينشئه الإنسان في مختلف جوانب حياته خدمة لبقائه واستكمالا لمسيرة بنائه من بعده أو هي كل ما انجزه الإنسان على اختلاف العصور وتقلّب الأزمان"**[2]

تعريف الحضارة يشمل كل ما أبدعه وأنشأه الإنسان في جوانب متعدّدة من حياته بغية الحفاظ على الاستمرارية والبقاء وهذا يعني أنّ الحضارة في ديمومة مستمّرة.

مفهوم الحضارة عند ابن خلدون:

يعتبر ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع ؛ باعتبار الإنسان كائن اجتماعي لا تصّح حياته إلاّ بوجود جماعة من النّاس؛ تعيش في بقعة جغرافية لها تضاريسها وظروفها الطبيعية ؛التي أوجبت على هذا الإنسان أن يتكيّف مع الطبيعة ومع عمرانها . **فمن خلال نظرية الحضارة عند ابن خلدون؛** نلاحظ أنه يربط الحضارة بالعمران الذي يتحقق باستقرار جماعة تكون محكومة بمقتضيات الإقليم الذي تقيم فيه ؛حيث يبدأ العمران بالرجل البدوي الأول ؛ وينتهي برجل المدينة الحضاري ؛ **ويعّرف بن خلدون الحضارة على أنها" تفتّن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والابنية وسائر عوائد المنزل وأحواله"**[3].

---

[1]- معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بتحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، ، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991.؛المجلد الثاني ص75-76.

[2]-تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، فخري خليل الدين التجّار؛ ، دار الصفاء للنشر والتوزيع عمّان، ط1 2009.؛ص20.

[3]- مقدمة ابن خلدون، الإمام عبد الرحمن بن خلدون ، تحقيق الاستاذ درويش الجويدي، ماجستير في اللغة العربية، ، المكتبة العصرية، صيدا ، بيروت.؛ص160.

نرى أنّ ابن خلدون يربط الحضارة بالجانب المادي ؛ المتمثل في الصنائع وحاجات الإنسان الضرورية وكل ما يعود على الإنسان بالمنفعة ؛وأهمل الإنسان الذي له الدور الفعّال في بناء الحضارة بمبادئه الاجتماعية والخلقية التي يتواصل بها مع أفراد مجتمعه.

مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي:

اهتم مالك بني بمشكلات الحضارة؛ وكانت دراسته معتمدة على المنهج التحليلي الذي جعل الحضارة تتكون من معادلة الإنسان؛ باعتباره صانع الحضارة والتراب هي الأرضية التي تنجز عليها المشاريع؛ والوقت فهو مقياس للإنجاز والإبداع ؛ ومن هذه النتيجة خرج بالتعريف الآتي "**الحضارة هي جُملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوّفر لكل فرد من أعضائه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتقدّمه**"[1] من خلال تعريف مالك بن بني للحضارة نلاحظ أنّه يربطها بالخدمات المادية والمعنوية ؛التي توّفر للفرد الرّاحة والطمأنينة التّامة حتّى ينعم بالعيش الهنيء ويؤدي واجبه على أكمل وجه. إنّ الحضارة حسب مفهومه لا تعني تقدّم وتطّور طبقة معينة على حساب طبقة؛ فالحضارة ظاهرة شاملة ومشروعية لكافة الطبقات والشرائح ينتعش فيها كل فرد ويحيا حياة سعيدة.

الحضارة عند أرنولد توينبي:

يرى آرنولد أنّ نشوء الحضارة ونّموها يكمن في مدى استجابة الناس للبيئة التي تتحدّاهم بظروفها الصعبة، فالظروف الصعبة لا السهلة هي التي تستحثّ الإنسان على التحضّر؛ بل إنّ رّقة العيش حائل دون قيام الحضارة.[2]

[1]- مالك بن بني ومشكلات الحضارة، دراسة تحليلية نقدية تقديم جررت سعيد ؛ ط1 1992، دار الصفرة بيروت، لبنان؛ ص74.

[2]- ينظر مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وأرنولد توينبي، ، آمنة تشيكو، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1989؛ص94.

من خلال نظرية توينبي فهو يؤكد أنّ البيئة تتحدّى النّاس ؛ فإن استجابوا للتحدّي بنجاح فإنّهم سوف يتمكّنون من إنشاء حضارة قويّة ذات شأن كبير، وإن هم فشلوا فإنّ نمو الحضارة سيكون أمرا عسيرا، من خلال هذه النظرية نرى أنّ نمو الحضارة أمر مرهون لدى استجابة النّاس للتحدّيات التي تواجههم.

وهناك من يربط تعريف الحضارة بالزمن "كحسين مؤنس" في كتابه ؛ فيعرّف الحضارة:" هي **ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته ؛سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصودا أم غير مقصود، سواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية"**[1]

فالحضارة هي ثمرة الإنتاج الحضاري الذي صنعه الإنسان وأبدع فيه ؛ وهذا المجهود مرتبط بزمن معين له بداية ونهاية حتى يخرج على صورته الكاملة؛ فيجب إضافة الزمن إلى جهد الإنسان حتى يصنع الفرد حضارته، فالقيمة الحقيقية للحضارة مكونة من ثنائية العمل والزمن يتحكم فيهما الإنسان باعتباره صانع الحضارة.

مفهوم الحضارة عند المستشرقين:

المستشرق الأمريكي "رالف لينتون"[2]، عرّف الحضارة من خلال ربطها بالفرد والمجتمع قال: **"فالمجتمع عبارة عن مجموعة منظمة من الأفراد. والحضارة مجموعة من الاستجابات التي تعلّمها الأفراد، وأصبحت من مميزات مجتمع ما. أمّا الفرد فهو عضو حيّ قادر على التفكير**

---

[1]- الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، حسين مؤنس عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978.؛ص13.

[2]- رالف لينبون (1893-1953) عالم أمريكي متخصص في علم الأنتروبولوجيا، طور مفهوم المرتبة ومفهوم الوظيفة وهي من المعالم المستعملة لدى علماء الاجتماع

المستقل، وله شعور مستقل وأعمال مستقلة، ولكن هذا الاستقلال يتحدّد واستجاباته التي تتعدّل تعديلا أساسيا نتيجة لاتصاله بالمجتمع ؛ والحضارة التي ينشأ ويشبّ فيها"[1]

ا□ضارة لا □كن أن تنشأ إلاّ في ظلّ مجتمع له قيمه ومبادئه ومقومات شخصيته التي ترقى به لأن يصنع حضارته. والفرد هو اللبنة الأساسية في المجتمع ؛ يؤثر ويتأثر من استجاباته لمتغيرات العصر، وبالتالي الحضارة حمل لواءها الفرد ونهض بها المجتمع .

ا□ستشرقة الأ□النية "زيغريد هونكه"[2]، أقرّت في كتابها وانصفت العرب حقّهم، بأنّهم السّبّاقون في كل العلوم و الفنون، وأنّ أوروبا نقلت علوم العرب وترجمتها واستفادت منها في أبحاثها، وهذه شهادة حيّة لهذه العالمة التي تأثّرت برقي ا□ضارة العربية الإسلامية قالت: **"إنّ هذه القفزة السريعة المدهشة في سلم الحضارة ، التي قفزها أبناء الصحراء والتي بدأت من اللاشيء لهي ظاهرة جديرة بالاعتبار في تاريخ الفكر الانساني. وإنّ انتصاراتهم العلمية المتلاحقة التي جعلت منهم سادة الشعوب المتحضرة في هذا العصر، لفريدة في نوعها لدرجة تجعلها أعظم من أن تقارن بغيرها، وتدعونا هنا أن نقف هنيهة متأملين كيف حدث؟ وكيف أمكن لشعب لم يمثل دورا حضاريا، او سياسيا يذكر أن يقف مع الإغريق في فترة وجيزة على قدم المساواة؟"[3]**

الحضارة ولدت في البدو، ونهض بها أبناء الصحراء، ونافست ا□ضارات الاغريقية والرومانية. لكنها ما زالت شامخة لحد الآن.

من خلال التعاريف السابقة يمكن أن يخرج بتعريف عام وشامل للحضارة.

---

[1]- شجرة الحضارة، رالف لينتون، ، رسالة تقديم محمد سويدي؛63/1.

[2]- زيغريد هونكة (1999/1913)، مستشرقة ألمانية معروفة بكتاباتها في مجال الدراسات الدينية .

[3]- شمس العرب تسطع على الغرب، أثر الحضارة العربية في أوروبا، المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه، ، نقله عن الألمانية فاروق بيضون وكمال دسوقي، راجعه ووضع حواشيه مارون عيسى ا□وري، منشورات دار الآفاق ، بيروت.؛ص453.

*الحضارة هي كل ما أنجزه الإنسان عبر العصور في مجالات مختلفة محاولا إعطاء صورة تعكس مظاهر الحياة ومتطلبات العصر.

ومنهم من يعمّم تعريف الحضارة في " **الحضارة هي نتاج الإنسان المدني الاجتماعي بخصائصه الفكرية الروحية والوجدانية والسلوكية تحقيقا لأهداف أمته وما ارتضته هذه الأمة لنفسها من قيم ومثل ومبادئ**"[1]

من خلال هذين التعريفيين نخرج بالنقاط الآتية:

1) الحضارة في ديمومة وحركة مستمرة فهي عكس الجمود والخمول وهذا النشاط يشمل الجانب المادي والروحي للإنسان الذي مثّله وعبّر عنه في جميع ميادين الحياة الاجتماعية والخلقية....إلخ .

2) الحضارة تمثلت في الجانب المادي الذي يشمل جميع جوانب الحياة من صناعة وزراعة وفنون...؛والجانب الروحي المتصل بالقيم الروحية والقواعد الأخلاقية والإنتاج الفكري، فهذا الجانب المعنوي والروحي يوصل لمظاهر الرقيّ الحضاري.

الحضارة الإسلامية: تعدّدت تعريفات الحضارة الإسلامية " **فهي ما قدّمه الإسلام للمجتمع البشري من فكر يرفع شأنه وييّسر حياته ويعني ذلك أن الإسلام قدّم مآثر للناس جميعا...كالنظام السياسي الذي ابتكره الإسلام وتمسّك به الغرب**..."[2]

من هذا التعريف يجدر بنا أن نقف وقفة تأمل عند مقومات الحضارة الإسلامية بين الحضارات الإنسانية؛ باستقاء صورها من القرآن الكريم والسنة النبوية المطّهرة، فالحضارات السابقة

[1]- معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوربية، عبد الله ناصح علوان ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة.؛ص04.

[2]-موسوعة الحضارة الإسلامية، الدكتور أحمد شلبي، ، أستاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بكلية دار العلوم، القاهرة مكتبة النهضة المصرية، وشارع عدلي القاهرة، ط6 1989؛ص23.

زالت واندثرت لأنها كانت قائمة على مصادر وثنية مادية؛ أما حضارتنا الإسلامية فلا زالت شامخة وقائمة على أساس متين ؛ هو الإسلام الذي سيرفع راياتها وينهض بالهمم ؛ ما دام دينا أزليا ثابتا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ومن مصادرها:

1) **القرآن الكريم**: القرآن الكريم هو المصدر الأول والأساس لدراسة الحضارة والنظم الإسلامية، فالقرآن هو التنزيل المحكم الذي انتظمت فيه القوانين وقرّرت فيه القواعد التي انضبطت في المجتمع الإسلامي؛ فبفضل هذه القوانين والقواعد شيّد المسلمون حضارتهم وفي إطارها قامت وتطورت نظمهم السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية ؛قال عزّ شأنه: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[1] وقال أيضا: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾[2].

حيث وجد المسلمون في هذا التنزيل المحكم كل ما يحتاجون إليه في تنظيم دولتهم وإدارة شؤونهم وبناء مجتمعهم ؛وتحديد علاقة الأفراد بالدولة وعلاقة الدولة بالرعّية؛ وفيه يتجلّى الإحكام الإلهي لكل نواحي الحياة الإنسانية؛ وتنظيم جوانبها وفيه ضبط لسلوك الفرد وسلوك الجماعة في وقت السلم والحرب سواء بسواء .كما ينظّم القرآن الكريم أصول المعاملات وآدابها؛ ليظّل دائما النبع الذي يستّمد منه المسلمون أساليب حياتهم وأصول نظمهم، وعن القرآن انبثقت كل الأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، وقد طبّق المسلمون نظريات القرآن الكريم في الحكم والسياسية، كما طبّقوها فيما يتعلق بالإدارة وتنظيمها؛ وتنفرد الحضارة الإسلامية بين كل الحضارات باستثناء نظمها وتشريعاتها وقوانينها من القرآن الكريم الكتاب السماوي الأوحد ؛ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛والّذي سيّظل المنهل العذب الذي تنهل منه الحضارة الإسلامية أسسها

[1]- سورة فصّلت الآية 42.

[2]- سورة الأنعام الآية 38.

ومبادئها، فالقرآن هو منهاج ودستور حياة المسلمين جاء شاملا جامعًا لكل ما يحتاجه الإنسان في حياته الدنيوية والأخروية.

2) السنة النبوية المطهّرة:

إذ كان القرآن الكر□ هو أصل التشريع وا□صدر الأساس، فإنّ السنة النبوية ا□طهّرة هي الشارحة لهذا المعين لتوضيح ما يصعب على المسلمين فهمه؛ ومن ثّم كانت السنة هي المصدر الثاني من مصادر ا□ضارة الإسلامية، وما قدّمته من نظم فقد كان رسول ا□ صلّى ا□ عليه وسلم إمام ا□سلم□ وقاضيهم وقائدهم ومعلّمهم ومربيهم؛ وفوق هذا وذاك كان نّبيهم الذي بلغهم رسالة ربّه كما أوحى بها إليه فهي توضيح لدين الإسلام، وتعّمق فهم الأصول والأسس التي وضعها الإسلام وجاء بها القرآن الكر□، وقد نصّ هذا ا□نهج الرباني على ضرورة إتّباع الرسول صلى ا□ عليه وسلم وطاعته مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَمَا ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ [1] ومن هنا كانت أهميته السنة النبوية الشريفة بالنسبة للمسلم□، باعتبارها مصدرا أساس من مصادر ا□ضارة الإسلامية، حيث أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم الدولة الإسلامية في المدينة ؛ واضعا اللبنات الأولى لنظام ا□كم والإدارة والاقتصاد وا□رب ؛حيث كانت ا□دينة ا□نورة ا□ركز الأول للحضارة الإسلامية ؛وفيها وُلدت وتّمت واكتملت ؛ ومنها انتقلت الحضارة الإسلامية مع الفاتحين المسلمين لتصل إلى كل مكان وصلوا إليها.

خصائص الحضارة الإسلامية:

قامت الحضارة الإسلامية على دعامتين أساسيتين هما: العروبة والإسلام فحسب هذه الحضارة أنّها اتخذت من اللغة العربية أداة عبّرت بها عن نفسها وأفكارها، وربطت بين أهل المشرق

---

[1]- سورة ا□شر الآية 07.

والمغرب ومكّنتهم من التفاهم بلسان مشترك، ويكفي أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين كما أن الحضارة الإسلامية ولدت في حجر عربي، وأنّ العرب هم الذين خرجوا بها ليبشروا بالإسلام وتعاليمه السمحة، ورغم أن العروبة صفة لازمة ومميزة للحضارة ؛ ولكننا نقدّم على صفة العروبة صفة الإسلام ؛لأن الإسلام في نظرنا هو الأساس وهو الأصل، وهو حجر الزاوية في بناء هذه الحضارة فلولا الإسلام لبقي العرب على جهلهم ؛ ولما خرجوا من الجزيرة ليفتحوا المناطق التي لم ينتشر فيها الإسلام، وتميّزت الحضارة الإسلامية بمجموعة من الخصائص نجملها فيما يلي:

أولا: إنها حضارة إيمان:

تؤمن بالله ورسالاته وأنبيائه عليهم السلام فقد قامت على توحيد الله وعبوديته، فهي أول حضارة تنادي بالإله الواحد الذي لا شريك له في حكمه وملكه، وهو وحده الذي يُعبد ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[1] وهو الذي يُعز ويذّل ويعطي ويمنح وما من شيء في السموات والأرض إلا وهو تحت قدرته وفي متناول قبضته، هذا السمو في فهم الوحدانية كان له أثر كبير في رفع مستوى الإنسان؛ وتحريره من طغيان الملوك والأقوياء وتصحيح العلاقة بين الحاكمين والمحكومين؛ وتوجيه الأنظار إلى الله وحده خالق الخلق ورب العالمين فالحضارة الإسلامية " **وحدها تقوم على التوحيد والإيمان بالله وكتبه واليوم الآخر وتتمثل الأخلاق وتنتهج الوضوح والصدق**"[2] من هذا القول نرى أنّ الحضارة الإسلامية تتحصّن بالوحدة والتّوحد؛ وتّتسم بالكمال والشمول وتستعلي بالألفة والمحبة والانسجام والطهر والصدق والقوة؛ وتزهو بالتحّرر والحركة والانطلاق الاجتماعي الخيّر في وجهته يقودها إلى الله التزام بطاعته وأخذ بشريعته ؛واتّخذت من الإيمان ركيزة لها حتى تحمي نفسها بسياج منيع من القيّم الروحية والأخلاقية. وحتى يكتمل إيمان الإنسان الصّحيح يجب أن يحسّن علاقته مع

---

[1]- الفاتحة الآية 5.

[2]- جوانب من الحضارة، الدكتور عبد الرحمن علي الحجي، مكتبة الصحوة بيروت،ط1 1979.؛ص09.

خالقه ومع من يعيش في وسطهم " **فالحضارة هي قدرة الإنسان على إقامة علاقة سويّة مع ربّه والبشر الذين يعيشون معه ؛وكذلك البيئة بكل ما فيها من ثروات وأنه كلّما ازدادت هذه العلاقة سموا زادت الحضارة رقيّا وتقدّما وكلّما قلّت هذه العلاقة وضعُفت صار الإنسان متخلّفا منحدرا**"[1]

فالحضارة بذلك هي ناتج التفاعل بين الإنسان وربّه من ناحية ؛وبين الإنسان وبقية الناس على اختلاف درجاتهم وصفاتهم من ناحية ثانية؛ وأخيرا علاقة الإنسان بالبيئة التي ترعرع فيها باعتبار الأرض مهد الإنسان وحده؛ فإذا أحسن علاقته وحافظ على ثروات بيئته من كائنات ومخلوقات ومعادن صنع مجد حضارته.

ثانيا: إنها حضارة تقدمية:

لا جمود فيها ولا رجعية ذلك أنّ الإسلام الذي وُلدت هذه الحضارة وشبّت وترعرعت بين أحضانه؛ جاء ثورة ضد الظلم والاستغلال والجمود تأخذ بكل جديد طالما هذا الجديد لا يتعارض مع روح الإسلام ومثله وآدابه "**فهي حضارة تميّزت بتفاعل موزون بين الأصالة والانفتاح وبين القدرة على حماية الذات من التفكّك والتغيّر والانحلال**"[2]

فالحضارة الإسلامية حافظت على كيان الإنسان باعتباره هدف الحضارة ووسيلتها؛ وهو محل الثقافة وحاملها لذلك لا يتخيّل حضارة لا تركّز على الإنسان ؛تهتم بواقعة وتحسّن أحواله وتحلّ مشاكله وتحترم حقوقه الأساسية ؛حتى ينشط للحركة ويتطلّع للزيادة ويعمل للتغيير.

---

[1]- ماذا قدّم المسلمون للعالم، إسهامات المسلمين في الحضارة الإنسانية الدكتور راغب السرجاني ، مؤسسة أقرأ للنشر والتوزيع والترجمة القاهرة ط2 2009.؛ج1ص08.

[2]- مدخل إلى الحضارة الإسلامية، الدكتور عماد الدّين خليل ، المركز الثقافي العربي، الدار العربية للعلوم، الطبعة 1، 2005.؛ص140.

ثالثا: إنها حضارة تتّصف بالمرونة وسعة الأفق:

الحضارة الإسلامية لم تكن أبدًا منغلقة على نفسها، وإا كانت:"تتغذى على ما جادت به اضارات السابقة فتنهل من تراثها"[1]، وحسب هذه الحضارة أنّها احترمت تراث الوثنية في شتّى العلوم والفنون ؛ولم تقف من هذا التراث موقفا معاديا، ولم تجد هذه الحضارة ما يحول دون الإفادة من تراث الحضارات السابقة التي احتكّت بها، كل ما في الأمر أنّها أحسنت الانتقاء فلم تتقبل كل ما صادفته من عناصر اضارات الأخرى ؛وإّا تخيّرت ما من شأنه أن يساعدها على الاحتفاظ بادئها ومثّلها، ورفضت كل ما يتعارض مع روح الإسلام وقيمه.

رابعا: إنها حضارة تتصّف بالقيم الخلقية:

تمثل الأخلاق الجانب الروحي في الحضارة الإسلامية، والجوهر الأساس الذي تقوم عليه أي حضارة وفي الوقت نفسه تضمن سرّ بقائها وصمودها عبر التاريخ والأجيال، وهذا الجانب إذا اختفى يوما فإنه يُؤذن بزوال الدفء اعنوي للإنسان الذي هو روح الحياة، فيصير وقد غادرت الرحمة قلبه وضَعُف ضميره عن أداء دوره؛ فأصبح مكبّلا بقيود مادية لا يعرف منها خلاصًا ؛في حين نجد أن الحضارات السابقة والمعاصرة لم تحظ بدور كبير في جانب الأخلاق؛ ويشهد على ذلك علماء الغرب منهم الكاتب الاليزي "جود" **"إن الحضارة الحديثة ليس فيها توازن بين القوة والأخلاق، فالأخلاق متأخرة جدّا عن العلم، فقد منحتنا العلوم الطبيعية قوة هائلة ولكننا نستخدمها بعقل الأطفال والوحوش فالانحطاط هو خطأ الإنسان في فهم حقيقة مكانته.في الكون؛وفي إنكاره عالم القيّم الذي يشمل قيّم الخير والحق والجمال"**[2]

[1]- اضارة الإسلامية وآثارها على ادنية الغربية ؛موسى عبد اللّاوي؛ دار العلوم للنشر والتوزيع عنابة؛دط؛ص37.

[2]- القيّم والأخلاق في الحضارة الإسلامية؛ د. راغب السرجاني ؛تصميم وإخراج موقع نصرة رسول ا ؛ص09.

نلاحظ أنّ الحضارة الحديثة فصلت بين جانب العلم وجانب الأخلاق ؛في حين قامت الحضارة الإسلامية على أساس القيّم الخلقية المستوحاة من القرآن الكريم ؛ والهدي النبوي باعتبارهما المصدران الأساسيان للتّشريع الإسلامي، فكان لزامًا على هذه الحضارة أن تعمل بضوابط ومعايير الشرع الإسلامي.

فالحضارة الإسلامية قامت في الأساس على القيّم والأخلاق التي حمل لوائها المسلمون فجاءوا ليطّبقوا شريعة نبّيهم الذي بعث ليتّمم مكارم الأخلاق ويكمّلها " **فالأخلاق ركيزة من ركائز الحضارة وهي الروح التي تسري في عروقها؛ فتجّمل صورتها ولا يعلقُ بذاكرة الزمان منها سوى تلك الشمائل الحميدة والأخلاق الفاضلة؛ ويعدّ القرآن الكريم كنز الأخلاق ومستودع جواهرها ومُبعث فضائلها ومحاسن خصالها**".[1]

نفهم من هذا القول أنّ الأخلاق لبنة أساسية في الحضارة الإسلامية؛ وهذه الأخلاق تستمدّ طاقتها وتُشّع نورها من القرآن الكريم.

والحضارة الإسلامية ناشدت بالأخلاق وجعلتها في أسمى القمم، فبالأخلاق شيّد المسلمون حضارتهم وحافظوا على مبادئهم؛ فالحضارة " **جعلت للمبادئ الأخلاقية المحل الأول في كل نظمها ومختلف ميادين نشاطها، وهي لم تتخل عن هذه المبادئ قط، ولم تجعلها وسيلة لمنفعة دولة أو جماعة أو أفراد. ففي الحكم وفي العلم وفي التشريع وفي الحرب، وفي السلم وفي الاقتصاد، وفي الأسرة روعيت المبادئ الأخلاقية تشريعا وتطبيقا، وبلغت في ذلك شأوًا ساميا بعيدًا لم تبلغه حضارة في القديم والحديث، ولقد تركت الحضارة الإسلامية في ذلك**

[1]- مقومات الحضارة وعوامل أفولها من منظور القرآن الكريم، رسالة ماجستير في أصول الدّين بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية، نابلس فلسطين إعداد الطالب "عمّار توفيق احمد البحري" إشراف الدكتور سميح الخالدي 2005.؛ص60.

آثاراً تستّحق الإعجاب وتجعلها وحدها من بين الحضارات التي كفلت سعادة الإنسانية سعادة خالصة لا يشوبها شقاء".[1]

فالحضارة الإسلامية هي الوحيدة التي حققّت للإنسان الأمن والسعادة؛ باتّخاذ الأخلاق الجانب الروحي في شخصية الفرد ؛فبالأخلاق يا المجتمعات وتنفض غبار الجهل والظلام، فإذا رجعنا إلى الحقبة الأولى لتاريخ الأدب العربي وخاصّة العصر الجاهلي؛ لوجدنا أنّ الناس تجردّوا من لباس الأخلاق والحياء؛ فصار الرجل كالحيوان يفعل كل ما يحلو له من شهوات ومسكرات ؛وهذا راجع إلى الدّين الوثني الذي اعتنقه كافة النّاس آنذاك، وعند ما سطع نور الإسلام أزال تلك الغشاوة عن أعين الناس؛ فهذّب ألفاظهم ونظّم حياتهم ؛وأنار عقولهم فصارت تربطهم أواصر المحبة، فساد الأمن والسلام وعاش المسلمون في كنف الأخلاق والقيّم الروحية.

خامسًا: إنها حضارة تسامح:

لا حقد فيها ولا كراهية فقد أمر الله عز وجّل رسوله الكريم بالصفح والتسامح في أكثر من موضع ﴿ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾[2] فقد عاش المسلم وغير المسلم في ظّل الدولة الإسلامية، لأنّ الإسلام ساوى بين جميع النّاس رغم اختلاف ألوانهم ولهجاتهم ؛ فلكل واحد حقوقه وواجباته؛ دون الاعتداء على الحريّات العامة للأفراد والجماعات، كأهل الذّمة الذين كانوا يعيشون مع المسلمين:" **فكان وجودهم أول الأمر حائلا بين شعوب الإسلام وبين تكوين وحدة سامية ؛فقد ظلت كنائس اليهود والنصارى وأديرتهم أجزاء غريبة ؛واستند أهل الذمة إلى ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود وما منحوه من حقوق، فلم يرضوا بالاندماج في المسلمين، وقد حرص اليهود أن تظّل دار الإسلام غريبة عنهم ؛إلاّ أن بعض المصلحين نادوا بمبدأ التسامح تطلبته**

---

[1]- من روائع حضارتنا مصطفى السباعي، ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة القاهرة، ط1 1998.؛ص39.

[2]- سورة الزخرف الآية 89.

ظروف المعيشة المشتركة بين المسلمين وأهل الذّمة، وتمثلت مظاهر التسامح في نشوء علم مقارنة الأديان أي دراسة الملّل والنحل على اختلافها والإقبال على دراسة هذا العلم بشغف كبير"[1]

الدّين الإسلامي دين يسر وتسامح ؛فقد جاءت معظم نصوصه تؤكّد أنّ كلّ ما ينضوي تحت راية الإسلام ؛ساهم في بناء الحضارة الإنسانية بغضّ النظر عن أجناسهم المختلفة وألوانهم المتباينة ولغاتهم المتعدّدة؛ ويحدّثنا التّاريخ أنّ العنصر الغير عربي في الدولة الإسلامية كانوا يتبوّؤون أسمى المراتب وينالون أعلى المناصب ؛بل كانوا من أشهر الرجال في النبوغ العلمي والتفوّق الحضاري كأمثال أبي حنيفة، سيبويه...ومئات غيرهم ممّن حملوا ألوية الفقه والطب والرياضيات الفلسفة، التاريخ وسائر العلوم، بل ساهم أولئك في بناء الحضارة أكبر إسهام وما زال التاريخ يتغنّى بعظمة نبوغهم وحميد آثارهم ؛فوجب على هؤلاء المتعصّبين للدّين اليهودي والمسيحي أن يقفوا وقفة تأمّل وإجلال في تعاليم وضوابط الدّين الإسلامي ؛الذي رفع من شأن الإنسان وساوى بينه وبين جميع النّاس في الحقوق والواجبات.

سادسا: إنها حضارة إنسانية:

محورها الأساسي هو الإنسان باعتباره صانع الحضارة ؛فحافظت على كرامته ونهضت بمستواه الفكري والاقتصادي والاجتماعي ؛ومنعت استغلال الإنسان لأخيه الإنسان ؛ وحمته عن كل ما يلحق الضرر بأخيه المسلم ؛من أجل ذلك نظّم الإسلام حياة الناس ورفع قدرها، فالإسلام هو الوحيد الذي أنصف المرأة وأعطاها حقوقها على أكمل صورة؛ فبعدما كانت جارية في العصور الماضية و مجرّد سلعة تباع وتشترى بثمن زهيد؛ يأخذها الرجل لحما ويرميها عظما ؛ فجاء الإسلام ليرفع من شأن المرأة ويحصّنها بالزّواج ؛حتىّ يعرف الرجل قيمتها ولا يهضم حقوقها، فجاءت الحضارة

[1]- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، تأليف آدم متز، تعريب محمد عبد الهادي أبو ريدة ، دار الكتاب العربي بيروت، ط4.؛75/1.

الإسلامية حاملة لهذه المبادئ التي اقتبستها من رسالة سيّد الأنام عليه صلوات الله فحسب هذه الحضارة " أنّها اتصّفت بالصفات السابقة من إيمان ونزعة تقدمية ؛ومرونة وسعة أفق وسلام وتسامح وحيوية. فإن هذه الصفات جميعا تستهدف سعادة الإنسان وخيره، فالإنسان هو محور هذه الحضارة وسعادته غايتها وهدفها"[1]

فالحضارة الإسلامية جاءت جامعة لأحكام وتقارير الدّين الإسلامي؛ من مساواة ومحبة وعدل وسلام محورها الأساس الإنسان؛ فكرّمته وأعطته منزلة رفيعة بشرط أن يتقّيد بضوابط الشّرع الإسلامي.

سابعا: إنها حضارة كرّمت الإنسان ورفعت مكانته:

مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[2]

فالحضارة سنّت قوانينها من القرآن الكريم الذي كرّم بني آدم ؛وفضّله عل سائر المخلوقات بالعقل ليتدّبر في خلقه، ويسّخر الطبيعة خدمة له فالإسلام حرّر الإنسان من حياة العبودية والظلم إلى حياة النور والهداية .وهاهي حضارتنا ترفع من شأن الإنسان وتحثّه على العلم والعمل باعتبار الإنسان" خليفة الله في الأرض فهو إذا سيّدها والقائم عليها والمالك لزمامها والمستخرج

---

[1]- دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، سعيد عبد الفتاح عاشور منشورات ذات السلاسل الكويت ؛ ط2 1989؛ص20..

[2]- سورة الإسراء الآية 70.

لدفائنها؛ والمستجْلي لكل سرّ فيها، ولا يتأتى ذلك إلاّ أن يسلك سبيل العلم والمعرفة ليسخّر هذه القوى الطبيعية والنواميس الكونية لخدمة الحضارة"[1]

سابعًا: إنّها حضارة علم وتعلّم:

الإسلام خاتمة الدّيانات الربّانية، وقد أرسى الله ورسوله فيه أسس حضارة إسلامية قويمة لسعادة البشرية ؛وهي تتوزع بين أسس عقيدية وأسس اجتماعية وأخرى أخلاقية، فالحضارة الإسلامية تأسس وأرست قواعدها بالعلم الذي سَمَا بالإنسان عن كل ما يشغل ويعكر صفو حياته ؛ فأول كلمة نزلت على خير الأنام صلوات الله عليه ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾[2]لتكون أول إشارة بُعثت إلى النبي صلى الله عليه وسلم إيذانا بالوحي السّماوي، فكانت هذه الآية دعوة صريحة إلى طلب العلم والتدّبر في آيات المولى عز وجّل، فلبّى المصطفى نداء ربّه، وحمل طيلة الثلاث والعشرين سنة هذا السراج المنير، الذي أخرج الناس من غياهب وظلمات الجهل إلى أنوار الهداية، فبالعلم نفضت الأمة الإسلامية غبار الجهل والكسل؛ وبالعلم توطّدت أواصر المحبة بين المسلمين وبين غيرهم من العرب والعجم، فجاء العلم حاملا لرسالة المصطفى يبشّر بها في كل أنحاء العالم؛ فلولا العلم لما ارتقت الحضارة الإسلامية وبقيت شامخة طوال هاته السّنين، فتفرّعت جذورها في كل بقاع العالم الإسلامي؛ تناشد وتعظّم العلم وطالبه ؛ باعتبار حامل العلم يلقى جزاءه في الدّنيا ؛ويرفعه الله درجات يوم القيامة ويحشره في زمرة العلماء والصدّيقين ؛وحسب هذه الحضارة" **أنّها حضارة علمية عقلية إلى أقصى الحدود ؛ وليس بصحيح ما يزعمه خصوم الإسلام من أنّه يدعوا المسلمين بالجبر والإذعان للقدر ؛ فآيات القرآن تكرّر أنّ الإنسان يختار بمعنى إرادته هداهُ وضلالَهُ"[3].**

---

[1]- مصدر سابق معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوربية ص 12.

[2]- سورة العلق الآية 1.

[3]- الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة، شوقي ضيف، ، دار المعارف؛ دط؛ص09.

فالحضارة الإسلامية قدّست العلم ؛ واقتبست نوره من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهّرة ؛لتكون للمسلمين نبراسا يتحصّن به المسلم لمواجهة خطر الجهل والظلم، ومن بين عوامل ازدهار النهضة العلمية في العصر الإسلامي المكتبات الضخمة؛ التي انتشرت في العالم الإسلامي وخاصّة في العصر العبّاسي، ومن أمثلة ذلك دار الحكمة في بغداد **"حيث اقتفى أثر أبي جعفر المنصور الخليفة المشهور هارون الرشيد الذي أنشأ دار الحكمة، وجعل فيها طائفة من المترجمين، ومن أشهرهم يوحنا بن ماسويه..."**[1]: وكانت تضّم ما يقارب المليون ونصف مليون كتاب، وعلى الوتيرة نفسها كانت مكتبة دار العلم في القاهرة التي أنشأها الفاطميون ؛وتليها مكتبة قرطبة بالأندلس؛ وهذا الزخم الكبير للكتب لأكبر دليل على شغف المسلمين بالقراءة ؛كما أنّ بعض المسلمين يملكون مكتبات خاصّة في بيوتهم تجمع بين مختلف الفنون؛ ويشهد التّاريخ الإسلامي على نبوغ وتفوّق العرب المسلمون في جميع المجالات العلمية ؛التي أثرت المكتبة العربية بكثير من المؤلفات التي ظلّت ترافق القارئ العربي وغير العربي على مرّ العصور، والعامل الأساس الذي شجّع الحركة العلمية هو الترجمة ؛التي ساعدت المسلمون على فهم تراث وحضارة الأمم الغابرة ؛ فأصبح عمل الترجمة في العصر العباسي عملا رسميّا ؛بعدما كان في العصر الأموي يقوم به ذووا المواهب الخاصّة، حيث شجّع المنصور كل من يترجم كتابا لحضارة أخرى يستفيد منه المسلمون أن يهديه مقدار الكتاب وزنه ذهبًا ؛فكان حب العلم شائعا بين المسلمين وغير المسلمين ممّن عاشوا في كنف الحضارة الإسلامية، فسطّرت المصادر التاريخية الكثير من الأعمال التي كانت تعكس حبّهم للعلم ؛ورغبتهم فيه من خلال الرحلة في طلب العلم، والتي كانت مظهرا شائعا في حياة المسلمين، والحضارة الإسلامية احتكّت بالحضارات السابقة:" **فهي تتغذّى على ما جاءت به الحضارات الأخرى السابقة ؛فتنهل من تراثها وتسقي من مواردها، لتأخذ ما يُطعم صحتّها، ويدعّم كيانه ويمدّد بقاءها لتستفيد ممّا هو مفيد، وتضيف إليه من عبقريتها كل جديد ؛ وهكذا كان شأن الحضارة**

[1]- الأدب العربي في العصر العباسي، د. ناظم رشيد، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، د.ط، ص 15.

الإسلامية في هذا الإطار، حيث كانت متفتحة على الحضارات الأخرى"[1] من مفاخر حضارتنا أنها تعاملت مع جميع الحضارات وأخذت منها ما ينفعها ؛من علوم وفنون ورفضت كل ما يسيء للإنسان ويحطّ من قيمته ويبعده عن دينه ؛ مهما كان هذا العلم ومهما كانت فائدته.

نماذج من الحضارة العربية الإسلامية:

الإسلام أرسى قواعد الحضارة العربية الإسلامية الذي جاء رسالة عالمية؛ ومن مفاخر الإسلام أنّه قدّم للمجتمع البشري أسس حياة تكفل السلامة لهذا المجتمع ؛وإن اختلفت عقائد الدول وأديانها، فقدّم الإسلام نظما للتعاون بين الأمم في مجال السياسة والاقتصاد، والحياة الاجتماعية والثقافية، فالنبيّ صلّى الله عليه وسلم هو باني الحضارة بحيث وضع أول لبنة لها ؛وذلك ببناء مسجد جامع للمسلمين يؤمون إليه وقت الصلاة ويجعلهم على دين واحد، وكلمة واحدة، فكان المصطفى نبّي الأمة ومعلّمها بالرغم من أنه كان أميّا، إلاّ أن الصحابة تعلّموا على يديه الأخلاق والصدق والأمانة وعدم رد السيئة بالسيئة ؛بل بعكسها حتى تتوطّد أواصر المحبة والمودّة بين المسلمين وغير المسلمين، وعندما انتشر الإسلام في بقاع العالم الإسلامي احتكّت حضارتنا مع غيرها من الحضارات السابقة : " فازدهرت الحياة العقلية ازدهارا كبيرا ؛ وتلاقت الجوانب الإسلامية بشتى الثقافات التي تمثل حضارات الأمم العريقة في أثرها في العلم والثقافة ؛وكانت الدولة مزيجا من شعوب كثيرة ؛وكانت عقلية هذا الشعب الجديد يتجلى عليها أثر الثقافات والوراثات"[2] فعن الحضارة اليونانية أخذ عنها العرب علم المنطق والفلسفة، وعن الحضارة الفارسية أخذوا عنها نظام الحكم وفن العمارة، وعن الحضارة الهندية أخذ العرب عنها الأمثال والحكم ؛وكان لهذا التلاقح والتزاوج الثقافي بين الحضارات ازدهار الحياة العلمية بمختلف علومها وفنونها، وقد كان للعنصر الغير عربي دور بارز

---

[1]- الحضارة الإسلامية وآثارها على المدنية الغربية، الأستاذ موسى عد اللاّوي ؛ص37.

[2]- الحياة الأدبية في العصر العباسي، د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الوفاء للطباعة و النشر، الاسكندرية، ط1، 2004، ص26.

في رقيّ وتطوّر هذه الحياة الثقافية خصوصا العصر العباسي؛ الذي شهد قفزة نوعية في مختلف العلوم والفنون، حتى سمّي بالعصر الذهبي، ومن بين منجزات الحضارة العربية الإسلامية نستهلها بالحياة الفكرية الأدبية كما كان لها من ثراء وازدهار نتيجة عوامل عدة منها.

* التطور العقلي والتأثر بالثقافات المختلفة شمل الأدب في شقيه الشعر والنثر، ازدهار الثقافة الدينية من تفسير للقرآن وجمع للحديث وظهور المذاهب الفقهية.

* العناية بالعلوم اللّغوية وظهور مدرستين النحو، واحدة في الكوفة والأخرى في البصرة و لكل هذه النواحي أثر كبير على الأدب (شعرا ونثرا).

* تشجيع ا□لفاء وا□كّام على العلم وإغداق طالب العلم بالعطايا والهدايا.

* الحركة الواسعة التي شهدها هذا العصر خاصّة في مجال الترجمة والتأليف؛ والتي أعطاها العلماء والأدباء أولى اهتماماتهم لأنها كانت حلقة وصل بينهم وبين غيرهم من العرب والعجم.

الشعر:

هو ديوان العرب فهو يحوي أيّام العرب ومآثرهم ومفاخرهم، فقد ازدهرت وتطورت القصائد العربية واكتست حلّة جديدة، فقد حافظ الشاعر العربي على الأغراض التقليدية وعلى وقوافيها ؛فلم يخرج عن هذا القديم إلاّ ما جاء عفويا. وبالمقابل ظهرت فنون جديدة تناسب ا□ياة الحضارية في بغداد: "**وقد حاول بعض المحدثين التجديد في بناء القصيدة وأغراضها ؛فدعوا إلى ترك الأطلال ومساءلتها في مبادئ القصيد**"[1] كشعر ا□مرة الذي ظهر بسبب الترف والبذخ ؛الذي عاشه ا□لك وحاشيته ؛ومن شعراء ا□مرة أبو نواس؛ الذي غيّر مطلع القصيدة العربية بوصف ا□مرة ورياض العراق وجنّاته ؛عوض المقدمة الطلالية لأنه يراها مجرّد جهل ومضيعة للوقت، فجاءت

[1]- الحياة الأدبية في العصر العباسي، د. محمد عبد المنعم خفاجي، ص 53.

قصائدهُ ثورة ضد القديم والدعوة إلى الجديد، وإذا نظرنا إلى الناحية الجمالية لقصائد أبي نواس؛ سنجد أنه يوظّف الوصف ويجسّم الشيء المعنوي ويبث فيه الروح والحياة ويحاكيه؛ وكأنه كائن بشري فشاعت قصائده وتأثّر بها الناس؛ فكان الدافع الحقيقي لنظم هذه القصائد هو أن يجرف الناس لتيار اللّهو والمجون ؛ويحطّم المبادئ الأخلاقية التي تعوّد الرجل العربي على التمسّك بها؛ فكان أبو نواس يسخر من العنصر العربي في قصائده ويعتّز بشعوبيته؛ فثارت فئة قليلة وتحاملت على قصائد أبي نّواس محاولةّ ردّ الناس إلى طريق الهداية بعد ما سلكوا طريق الغواية، فظهر غرض شعري جديد سمي "بالزهد" حمل لواءه أبو العتاهية فجاءت قصائده كلها موعظة ؛تذّكر بالآخرة وعقاب النار وتنهى عن حب الشهوات والانغماس فيها، باعتبار الدنيا فانية فعلى الإنسان أن يعمل لآخرته ويعدّ العدّة ليوم الرحيل.

ولا يفوتنا أن نقف وقفة تأمّل لأشعار المتنبي الذي ملأ الدنيا وشغلها بأدبه، فجاءت قصائده بصورة جديدة تبدأ بحكمة خلافا على وصف الخمرة، أو البكاء على آثار الديار ؛ فهاته الحكم جاءت لما رآه المتنبي من حال الناشئة ؛ الذين انغمسوا في الشهوات الدنيوية ولم يكترثوا للآخرة وحسابها، فجاءت قصائد الزهد والحكمة لمحاربة تيّار اللّهو والمجون، والرفع من شأن المسلم حتى يترفّع عن الدّنايا وعن كل ما يسيء لكرامته وإنسانيته.

لمّا فتح المسلمون الأندلس عام 92هـ وظلّت تحت راية الإسلام أكثر من ثمانية قرون؛ فاستوطنها العرب وكثر عددهم ؛فكوّنوا جيلا جديدا يتصّف بعادات وتقاليد بيئة الأندلس ؛تحمل في طيّاتها معالم الحضارة الأندلسية ؛ التي أثّرت بجميع نواحيها على عقلية الرجل العربي، فأصبح له مزاج وتفكير وإحساس يتماشى مع طبيعة العصر؛ فكثر الشعراء وأصبحوا يتغنون بطبيعة الأندلس الخلابة من خلال الوصف ؛ الذي أصبح يغلب على جميع القصائد ؛ قال ابن رشيق في تعريفه

للوصف:"الشعر إلّا أقلّه عائد إلى باب الوصف ولا سبيل إلى حصره واستقصائه؛وهو مناسب للتّشبيه ؛مشتمل عليه؛ وليس به"[1].

فالوصف كان تعبيرا عن مشاعر الإنسان تجاه الطبيعة التي سُحر بجمالها واتخذها أنيسه يلجأ إليه كلّما قست عليه الدنيا، فراح يصف مياهها وطيورها واخضرارها وصّور الإنسان والحيوان أحّسن تصوير باعتبارهما سيّد الطبيعة وحاكمها؛ ومن الوصّافين المشهورين الشاعر ابن خفاجة الذي لقب بوصّاف الطبيعة الحر، فلقد وصف كل ما رأته عينه ووطأته قدماه، فوظف الصور البيانية من تشبيهات واستعارات ليضخّم الشيء ويعطيه أكثر من صورته الحقيقية، فنلاحظ أن غرض الوصف صبغ بصيغة فنية ؛فبعدما كان في العصر الجاهلي يقتصر على وصف الراحلة والرمال الذهبية صار شاملا لكل ما تحتويه الطبيعة من كائنات حيّة وصامتة؛ ويرجع تفوق الأندلسيين لفن الوصف هو سحر الأندلس وجمالها مما فرض على معظم الشعراء أن يصفوا هذا الجمال في قطع مفردة أو قصائد طويلة ؛ولعل خير دليل على ذلك وصف ابن خفاجة لطبيعة الأندلس فيقول:

يا أهل أندلس لله دركـــــم ماء وظّل وانهار وأشجـــــار

ما جنّة الخلد إلا في دياركم ولو تخيّرت هذا كنت اختارُ[2]

ففي هذه الأبيات اتضّح لنا مدى حب الشاعر لوطنه الأندلس حتى انه وصفها بالجنّة ولن يختار غيرها إن خيّرا.

ومن أسباب هذا التفوّق في فن الوصف أيضا مجالس الأنس؛ سواء الخاصّة أو العامة حيث كانت تتخّذ من الطبيعة مسرحا لها، وكان الشعراء يقومون بمزج الوصف بمجالسهم ؛ ووصف الطبيعة التي

[1]-العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده؛ ابن رشيق القيرواني؛ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد؛ دار الجيل؛ بيروت ؛لبنان؛ ط4 1972؛ ج294/1..

[2]- ديوان ابن خفاجة، دار بيروت للطباعة والنشر؛ د ط ؛ ص117..

أثارت المشاعر وألهبت القرائح في نفوسهم، فتغنّى الشعراء الأندلسيون برياض العراق وجنّاته موظف البيان والبديع؛ من أجل إضفاء سة فنية على القصيدة العربية ؛ فصارت المعاني والألفاظ موحية ؛تعبّر عن نشوة وفرحة الشاعر الأندلسي لرؤية مناظر بلاده ؛التي أضحت تحفة ثريّة يتهافت عليها الزوار والسائحون لرؤيتها، فسبحان الخالق الذي صوّر وأبدع وأنعم على الإنسان بهاته العطايا الربانية؛ ليتأمّل فيها ويتذوّق جمالها وسحرها الخلاّب؛ حتّى غدت الأندلس لؤلؤة يتغنّى بها ذوو اليول اصة في دواوين شعرية سدّت الفراغ العاطفي الذي كان موجودا في المكتبات العربية.

العمارة الإسلامية:

خلق الله الإنسان على أكمل صورة وميزّه عن باقي المخلوقات بالعقل؛ ليفّكر ويتدبّر في الكون وما يحيطه به من بحار وجبال وأشجار...وكرّم الله سبحانه وتعالى هذا الإنسان الضعيف بحيث جعله خليفته في الأرض ؛يبني ويشيّد من أجل استقرار البشرية واستمرار الحياة، فما كان على الإنسان إلى أن يستجيب لنداء الخالق رغبة في طاعته، ورغبة في التواصل مع أفراد المجتمع فبنى الإنسان بيته قدا من جر وأغصان الأشجار؛ ليحميه من البرد و ار فكانت الوسائل ستعملة في البناء بسيطة فرضتها الظروف آنذاك، ومع انتشار الإسلام وبزوغ شمسه أزال تلك الظلمة عن قلوب وعيون الناس حيث :"**اتخذت عمارة المسجد وطرق إنشائه طابعها من الطرز التقليدية الموجودة بالأماكن التي انتقل إليها الإسلام، فاختلفت الطبائع من دولة إلى أخرى ؛ومن بلد إلى آخر ليعبر عن شخصية المجتمع الذي وجد فيه** "[1] فَبَنى النبي عليه الصلاة والسلام أول مسجد ليجمع الناس على دين واحد ويبعدهم عن حياة هل والوثنية ؛ويطهّر نفوسهم من الكفر والشهوات الحيوانية الدنيوية فلقيت رسالته ودعوته قبولا كبيرا ؛تمثّلت في تعلّق الناس وحبهم لهذا الدّين الجديد الذي جاء دين يسر وليس دين عسر وليحررّهم من طغيان الملوك وجبروتهم، وينّقيهم من

[1]- العمارة الإسلامية في مصر (النظرية والتطبيق) ؛رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في العمارة ؛ إعداد الأستاذ شوكت محمد لطفي عبد الرحمن القاضي ؛ إشراف الأستاذ الدكتور كامل عبد الناصر أحمد ؛جامعة أسيوط 1998 ؛ص 46.

الدنس الذي لحق بهم من آثار الجاهلية ؛فتعلّم الناس الوضوء من معلم البشرية عليه صلوات الله وكيفية أداء الصلاة فصار المسلمون يواظبون على الصلاة في المساجد حتى يثبّت الله أفئدتهم وينّمي فيهم روح المحبة والتآزر، ومع الفتوحات الإسلامية لبعض المناطق الغير عربية، احتّك العرب والمسلمون بغيرهم من العجم وأخذوا عنهم كل علم نافع ؛بعدما قرؤوا تاريخ الحضارات السابقة ومقوماتها وآثارها فيها من مدن ومقدسات.... فكانت العمارة الإسلامية ذات طابع إسلامي وذوق فنّي مميّز؛ وما يؤكد علمية المدينة الإسلامية :" **تميزها وانتشارها وأهميتها التاريخية والحضارية ؛وأثرها الواضح في تاريخ المدينة العالمي؛ باعتبارها ممتدة في عمق التاريخ ؛مرتبطة بالإسلام ودعوته قائمة على منهجه وتعاليمه**[1] "جعلها تفتخر بعظمة عباقرتها وعلمائها ؛ الذين وضعوا بصماتهم فأبدعوا ورسموا وتفننوا في مجالات متنوعة تنضوي تحت الفن الإسلامي العريق؛ الذي يعدّ مظهرا من مظاهر الثقافة ؛ ومرآة ناصعة للحضارة تعكس تاريخها وتراثها. ومن عظمة الحضارة الإنسانية أنها تشّبثت بأصالتها ؛وأعطت للجمال مقياسا ومعيارا في حياة الإنسان ؛باعتبار النفس الإنسانية مجبولة على حب كل ما هو جميل: "**فإن جمال الطبيعة يكتسب علاقة خاصة بنا ؛لأنه يبتعث الأحوال الانفعالية ويسبب تناغمه معنا**[2] ". لأن هذه النزعة الجمالية فطرية في الإنسان تعكس ميوله ورغباته، وكل نفس إنسانية تنفر من الجمال هي شخصية معقدة منطوية لا تتجاوب مع الفن، فوجب علينا في هذا المقام أن نتحدث عن جوانب الحضارة المادية الإسلامية الذي تمثل في التراث المعماري الخالد الذي يعد شهادة حيّة على عراقة وأصالة الحضارة الإسلامية؛ وما وصلت إليه من رقي وازدهار لبى كل الأذواق والنفوس التوّاقة إلى كل ما يريح النفس ويُبهج القلب، ومن أجمل وأروع المدن الإسلامية التي لقيت ترحابا إلى كل زائر؛ وشدّت عيون الناس الأندلس بما تحويه من آثار خالدة وبنايات شامخة ظلّت تحفة نادرة على مرّ العصور؛ وقرطبة بوابة الأندلس وحاضرة العلم والأدب بمكتباتها

---

[1]- المدينة الإسلامية، د. محمد عبد الستار عثمان، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، د.ط، ص 11.

[2]- علم الجمال وفلسفة الفن، فريدريك هيجل، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، مكتبة دار الحكمة، ط1، 2010، ص 213.

وعلمائها ومساجدها وبساتينها" وقد حظيت العمارة الدينية في الأندلس بنصيب وافر من هذه الأبحاث وتلك الدراسات ؛غير أنه يلاحظ أن غالبيتها قد ركّزت بصفة خاصّة على دراسة التخطيط التقليدي للمساجد والجوامع ؛الذي يمثل جامع قرطبة الأشهر أنموذجه الرئيسي الذي صار بحق إماما نسج على منواله سواء في الأندلس أو في المغرب"[1]

العمارة الإسلامية في الأندلس **اهتّمت وركزت على التخطيط الأمثل** ؛والمحكم لتعمير وبناء **المساجد، ومسجد قرطبة واحد من آثارها المقدسة الخالدة الذي صبغ** بصبغة **إسلامية** بعيدة عن كل ما هو وثني.

إنّ المتصفّح لتاريخ العمارة الإسلامية من مسجد رسول الله ؛الّذي بناه بنفسه فكان بسيط في **ظاهره** عظيما في باطنه؛ لأنه بيت المسلمين ومحلّ عبادتهم وبعد وفاة النبيّ عليه الصلاة والسلام **وصحابته والتابعين عليهم صلوات الله حصل للمسجد ترميمات وتعديلات؛ وهكذا توالت بناء** المساجد في كل رقعة من رقع العالم الإسلامي، والملاحظ لهذه العمارة أنها أصبحت موحّدة وعالمية بعيدة عن كل تجسيم ساعدها على ذلك: **"الاتّساع الجغرافي والمدى الزمني للعمارة الإسلامية يجعلان منها بالضرورة عمارة كونية حافلة بكثير من التجارب على أكثر من صعيد"**[2]

يعتبر التراث المعماري سجّلا لإبداع الأمة ورمزا من رموز عبقريتها ومقوّما من مقومات هويتها **الحضارية؛** التي تنفرد بها بين الثقافات **والحضارات** الأخرى بما يحمله من مظاهر جمالية وفنيّة ظلّت تتسّم بالوحدة والأفكار المشتركة في جميع أقطار العالم" **وتكونت للعمارة مفاهيم وأفكار وتقاليد**

---

[1]- بحوث ودراسات في العمارة الإسلامية، الدكتور محمد حمزة إسماعيل الحدّاد، أستاذ العمارة والآثار والحضارة الإسلامية، كلية الآثار جامعة القاهرة، ط2 2004.؛ص169.

[2]- مبادئ العمارة الإسلامية وتحولاتها المعاصرة، قراءة تحليلية في الشكل، الدكتور هاني محمد القحطاني، ، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1 2009؛ص537..

على تلك الأسس المشتركة بين جميع أقطار الدولة؛ مما أضفى على الطراز كلّه في جميع تلك الأقطار وفي جميع العصور طابعا مشتركا"[1]

من مقوّمات الدّولة الإسلامية الدّين واللغة العربية باعتبارهما رمزا للعروبة والإسلام ؛اللذان فتحا الباب لكل مبدع وفنّان بأن يخطّط وفق مقاييس ومعايير؛ تنادي بوحدة الطراز العربي الإسلامي وفي ذلك يقرّ " در منغايم " بوحدة الفن العربي "**فرغم اختلاف الأقطار الإسلامية وابتعادها فإننا نلاحظ قرابة وشيجة لا تنقطع بين لوحة من الجص المنحوت في قصر الحمراء وصفحة من قرآن في مصر وتزيين لوعاء من النحاس الفارسي"[2]**

رغم اختلاف اللّهجات والألوان وبعد المسافات ؛ستظّل العمارة الإسلامية تتّصف بجمالية الرسم والنحت والتصوير لعناصر الطبيعة بعيدا عن كل تجسيم ؛يشكّك في حقيقة الدّين وحقيقة الفن الإسلامي العريق الذي امتاز عن بقية الفنون بالثبات ؛والوحدة والإبداع فاكتسى حلّة جديدة لا فتة تجمع بين الأصالة والمعاصرة.

المسجد الحرام:

انتشرت أماكن العبادة الإسلامية مع انتشار الإسلام في أقطار العالم وكان بعضها بسيطا غرضه إقامة مكان للمسلمين ومركز تجمع ديني، ثلاث أماكن دينية شدّت عيون الناس نحو زيارتها خلال القرون الطويلة منذ قيام الدّين الإسلامي؛ هي الحرم المكي الشريف بمكة المكرمة، وجامع رسول الله بالمدينة المنورة والمسجد الأقصى بالقدس الشريف؛ قال تعالى: ﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ

[1]- العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها، د. فريد محمود شافعي أستاذ العمارة الإسلامية كلية الهندسة، جامعة الملك سعود، ط1 1989؛ص08.

[2]- جمالية الفن العربي، الدكتور عفيف بهنيسي، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس للثقافة والفنون والآداب الكويت.؛ص61.

فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَا فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴾ [1]

لقد ورد ذكر المسجد الحرام في أكثر من موضع دلالة على مكانته المرموقة، فلما فتح المسلمون مكة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بتطهير الكعبة من الأصنام والصور والتماثيل ؛أما البناء فقد ظل كما هو دون تغيير أو تحويل، فلم يكن للمسجد الحرام جدران تحدّده كما لم يكن بينه وبين الحدود المجاورة سور أو حاجز؛ وظلّت الحالة على ذلك حتى خلافة أبي بكر الصديق، ولكن عندما استقّرت الأمور وانتشر الإسلام تكاثر الحجّاج والمصلّون حول الكعبة زمن الخليفة عمر بن الخطاب فعزم على توسيع الحرم؛ وذلك بهدم ما حوله من دور بعد شرائها من أصحابها فأحاط الكعبة بجدار يزيد على قامة رجل، وفي زمن خلافة عثمان أراد توسيعه بشراء دور أخرى ملاصقة للمسجد وهدمها وادخلها في مساحة المسجد وهو أول من جعل أروقة للمسجد الحرام في التاريخ الإسلامي.

وفي العهد الأموي قام الخليفة الوليد بن عبد الملك بتوسيع المسجد وأقام بناءً محكها ؛فجاء بالأساطين من مصر والشام، وزّين الجدران بالفسيفساء وزاد الوليد بن عبد الملك رواقا واحدا حول الكعبة من الجهة الشرقية، وفي عصر الدولة العباسية قام الخليفة المهدي بتوسيع المسجد واتخذ له أروقة جديدة سّقفها بخشب الساج (نوع نادر من الخشب موجود بالهند) وبلغ عدد أبواب الحرم ثلاثة وعشرون بابا ؛وكان للمسجد في زمانه أربع منارات أحد هما فوق باب العمرة والثانية فوق باب الوداع والثالثة فوق باب عليّ والرابعة فوق باب السلام ؛وبلغت مساحة المسجد الحرام في عهد الخليفة المهدي 104× 304 ذراعا. وفي العهد العثماني اعتنى الخلفاء عناية كبيرة بشؤون المسجد الحرام وجعلوا سقوف المسجد قباباً بدلا من الأخشاب.

---

[1]- سورة البقرة الآية 144.

إنّ الأهمية البالغة التي حظي بها المسجد الحرام خلال الحقب الزمنية المتعاقبة ؛ لم تكن لتغير هذا المكان المقدّس باعتبار المسجد الإسلامي يحمل ميزتين؛ مكان يؤمّ فيه المسلمون ويسعهم جميعا ؛ ومكان متميّز عن باقي الكنائس بما يحمله من معاني إسلامية روحية وأخلاقية.

ومسجد رسول الله لا يقل أهمية عن المسجد الحرام؛ فكان أول عمارة في الدولة الإسلامية بسيطا بساطة الدّين الحنيف ؛فكان عبارة عن مساحة من الأرض مربعة الشكل بها جدران من الحجر واللّبن وسقف مرفوع من جريد النخل ؛ولم يكن للمسجد مئذنة بل كان المؤذن بلال بن رباح الحبشي يؤذن من على سطح دار مجاورة للمسجد؛ فلم يكن للمسجد آنذاك قبابا ولا أعمدة من رخام بل كان بسيطا باعتباره "المسجد البسيط العادي مكانا مقدّسا واضح الشخصية لا يقل في هيبته عن أضخم المساجد؛ لأنّ المسجد قبل كل شيء فكرة وروح ؛ فأمّا الفكرة فهي التي وضعها رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما بنى مسجده الأول ؛وأمّا الروح فهي روح الإسلام ؛ولقد أنشأ رسول الله مسجده في المدينة بوحي من الإسلام وحده لم ينظر قبل إنشائه إلى عمارة كنيسة أو بيعة ؛وجاء مسجده على بساطته المتناهية وافيا تماما بكل ما تطلبت الجماعة منه وحده هي الأصالة بذاتها"[1].

إنّ عمارة المساجد وحي من الله أوحى بها إلى نبيّه الكريم؛ ليعمّر الأرض ويقضي على الأوثان التي صرفت الناس عن الدّين ؛ فكان المسجد يجمع الناس في أوقات الصلاة وخطب الجمعة وصلاة العيدين ؛باعتبار هذه الشعائر دينية تحمل معاني روحية تسمو بالإنسان من عالم المادة إلى عالم الروح، والمسجد هو منارة الحضارة فكل بلد يخلو من المساجد هو بلد ميّت بلا تاريخ وبلا حضارة، فالمسجد ليس مكانا لأداء فرائض الصلاة بل هو مكان للمناجاة والتعبّد؛ فما أجمل الوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالى وأنت في بيته العتيق؛ تهلّل وتكبّر وتتذوق الجمال والفن الأصيل الذي لا

---

[1]- المساجد، الدكتور حسين مؤنس ، عالم المعرفة سلسلة كتب شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت.؛ص48.

يضاهيه أي جمال ؛وأيّ فن مهما تفنّن الغرب ومهما أبدعوا من رسوم وتخطيطات؛ لن يصلوا إلى ما وصل إليه المسلمون في عمارتهم للمساجد التي ستبقى خالدة، ورمزا من رموز الدّين الإسلامي ومقوّما لهوية وشخصية الأمة الإسلامية ؛بتمسّكها بمبادئ الإسلام ومثله العليا والحفاظ على ممتلكات المسلمين ؛والسّهر على توطيد العلاقات الأخوية. إن بناء المساجد وتعميرها مشروع حضاري ناجح.

أعلام الحضارة العربية الإسلامية:

نبغ العرب في كثير من العلوم وابدعوا فيها أحسن إبداع، ونجحت تجاربهم العلمية وهذا راجع إلى تعلّقهم الشديد بالبحث، ومحاولتهم إيجاد الطب البديل فعكفوا على دراسة أعمال اليونان والسريان في الطب وأضافوا بعض الشيء لتلك الأعمال؛ فكان عملهم مبنيا على التجربة والملاحظة من أجل الخروج بنتيجة إيجابية فظهرت ثلّة من العلماء والأطباء الذين حملوا لواء العلم، ونهضوا بالهمم فكان من بينهم الطبيب والجرّاح والفيلسوف والفلكي والرياضي...إلخ.

كان العرب قديما يعالجون مرضاهم بالأعشاب أو الكي؛ إن استلزم الأمر ومنهم من كان يضطر إلى قطع رجل أو ذراع الرجل إذا كان مصابا بمرض خبيث ؛حتى يستأصل المرض ولا تنتقل العدوى إلى كافة أنحاء الجسم، ومع مرور الأيّام وجد الأطباء الحل الأمثل والناجح لكل داء، فكانوا يبحثون عن أعراض ومسببات المرض ويعقدون مقارنة وفي الأخير يخترعون الدواء ، و "ابن سينا " واحد من الّذين تركوا بصماتهم في سجّل التاريخ ؛إذ تشهد له أعماله النبيلة التي قام بها فكان يداوي مرضاه بالعقاقير أو بالأعشاب؛ وكتابه " القانون " سيكون خير مرجع تفتخر به الحضارة الإسلامية على مرّ الزمان ؛لما يحوي هذا الكتاب لمبتكرات وانجازات ابن سينا في الطب والجراحة، فهو أول من يبتكر الأدوية ويصنعها بنفسه؛ من " ابتكاراته في العلاج استخدام ما يشبه كيس الثلج المعروفة

في عصرنا هذا لإزالة صداع الرأس وخفض الحرارة، كما كان أول طبيب يقوم بحقن المريض تحت الجلد، وأول من استخدام التخدير لإجراء العمليات الجراحية"[1]

سيظل ابن سينا واحد من أعلام الحضارة الذين حملوا المشعل؛ وواصلوا المسير في طريق العلم والابتكار حتى تنعم هذه الأمة بالرخاء ويمنّ الله عليها بالصحة والعافية.

العرب لم يكونوا نقلة للطب اليوناني فقط ولم يقتنعون بالجانب النظري منه؛ وإنما كانوا مبدعين وعمليين أيضا؛ ففيما يتعلق بالمرض لم يكتفوا بتلك الملاحظات النظرية؛ بل كانت لهم تجارب ميدانية وملاحظات سريرية استنتجها الأطباء من خلال احتكاكهم المباشر مع مرضاهم ففي الوقت الذي كانت تنظر فيه أوربا إلى الأمراض أنها عقوبة إلهية تحلّ بالمجرمين من العباد، وكان المريض يُعامل كمجرم فيسجن ويهان ، بالمقابل كانت موجود مستشفيات عربية ساعدت على تطور الطب ونجاحه ؛وقد بُنيت هذه المستشفيات وفق شروط صحّية كمستشفيات بغداد وقرطبة.

كذلك تعلّم العرب علم الجراحة عن الهنود واليونان وتوسّعوا فيه ؛ونجحت عملياتهم ولعل أول ما يلفت نظرنا في هذا العلم الزهراوي الذي اخترع آلات الجراحة ولعل" **كتاب الجراحة للزهراوي فهو أطيب ما أنتجه العرب في هذا الفن؛ وهو يبحث في العلاج بالكيّ وفي الجراحة العامة مع وصف العمليات الجراحية وفي علاج كسر العظام وخلعها وفيه ما يزيد على مائتي شكل للآلات الجراحية التي يستعملها..."[2].**

الزهراوي طبيب جرّاح ناجح لاقت أعماله الطبية ترحابا من طرف المرضى؛ وكتابه " التصريف لمن عجز عن التأليف " عبارة عن موسوعة علمية جمع فيها بين الطب والجراحة والكيمياء، و"ابن

---

[1]- موسوعة أعلام الحضارة الإسلامية، مصطفى فتحي، دار أسامة للنشر والتوزيع.؛ص119.

[2]- علماء العرب وما أعطوه للحضارة، قدري حافظ طوقان، عضو المجمع العلمي العربي بدمشق ، منشورات الفاخرية، الرياض ودار الكتاب العربي بيروت؛ص26..

زهر " واحد من أعلام علم الجراحة فقد كان مسؤولا عن إدخال الأسلوب التجريبي في الجراحة قبل تطبيقها على المرضى من البشر.

من كل ما سبق يمكن القول بأن الطب وعلم الجراحة بلغا شأوا كبيرا عند العرب ؛وذلك لاجتهادهم في هذين العلمين، كذلك كانت أعمالهم تركّز على الجانب التطبيقي الذي خضع للفرضية والملاحظة والتجربة؛ كما لا ننسى المستشفيات الخاصة المجهّزة والتي ساعدتهم على نجاح أعمالهم، بالإضافة إلى العامل النفسي الذي يعاني منه المريض فعالجهُ الأطباء بوضع دروس خاصّة في الموسيقى باعتبار النفس الإنسانية توّاقة إلى سماع كل ما يريحُ النفس من أنغام موسيقية لأنها تناغم وتداعب القلب قبل العقل.

الرياضيات:

كل الأمم المتحضرة تستخدم اليوم الأرقام التي تعلمّها الجميع عن العرب ؛ولولا تلك الأرقام لما وجد اليوم دليل تليفونات أو تقارير البورصة ؛فأوربا قبل أن تصلها الأرقام العربية كانت تكتب حساباتها بالأرقام الرومانية ؛ومن انجازات علماء الرياضيات المسلمين تطوير علم الجبر والخوارزميات وذلك بواسطة عالم الرياضيات العربي " محمد بن موسى الخوارزمي " كاختراع علم المثلثات الكروية وإضافة العلامة العشرية إلى الأرقام العربية، وألفّ الخوارزمي كتابا شرح فيه الجمع والطرح والقسمة والضرب، لقد برع العرب في علم الجبر وهذا ما جاء على لسان " كاجوري " يقول:" **إن العقل ليدهش عندما يرى ما عمله العرب في الجبر وهم أول من أطلق لفظة جبر على العلم المعروف الآن بهذا الاسم وعنهم أخذ الافرنج هذه اللّفظة (Algebra) وكذلك هم أول من ألّف فيه بصورة علمية منظمة**..."[1] العرب كانوا سباقيّن في علم الجبر والحساب وأدخلوا الصفر

[1]- علماء العرب وما أعطوه للحضارة، قدري حافظ طوقان ص 57.

في حساب العدد؛ بعدما كان الصفر عند الهنود يعني الفراغ فطّوره العرب وجعلوه مكان الخانة الفارغة في الحساب.

الفلك:

عرف العلماء المسلمون علم الفلك وتعمّقوا فيه، فعرفوا المواقيت الزمانية والمكانية وحدّدوا جهة القبلة ومواقع البلاد الإسلامية حسب خطوط الطول ودوائر العرض؛ ومن الآلات الفلكية التي شاع استعمالها عند العرب آلة الإسطرلاب التي اخترعها أحمد السّجزي أبو سعيد رياضي وفلكي؛ومن منجزاته:**"أنّه أبدع الأسطرلاب الزورقي على أن الأرض متحركة تدور حول محور لها وكذلك الكواكب السبعة السيّارة وما تبقى من الفلك ثابت ولذلك يعدّه معظم الباحثين أنه أول من قال بحركة الأرض"**[1]

علم الفلك أصبح علما مستقلا بذاته؛ بعدما كان في العصر الجاهلي مرتبط بالخرافة والتنجيم ؛إذ كان الكهنة يستخدمون الأجرام السماوية والأحجار لحساب الأيّام وبعد مجيء الإسلام؛ الذي دعا إلى التدبّر والتفّكر في خلق الله باعتبار الكون مقيّد وتحكمه قوانين ربّانية لا علاقة لها بالعقل البشري ؛كظاهرة الخسوف والكسوف فهاتان الظاهرتان لا علاقة لهما لموت أحد أو لميلاد آخر؛ بل هما آيتان من آيات الله لذلك طوّر العرب المسلمون علم الفلك وابتعدوا عن كل خرافة تشكّك في حقيقة الإله ؛الذي يسيّر الكون بما فيه ويجعل كل ما فيه تحت رحمته يحيا بأمره ويموت بإذنه.

الفلسفة الإسلامية:

لمّا احتّك العرب بالحضارات السابقة ورثوا عنهم علوما كثيرة، فأخذوا عن اليونان الفلسفة والمنطق وكانت باللّغة اللاتينية فترجم العرب مؤلفات أرسطو طاليس؛ وأفلاطون صاحب الجمهورية فالفلسفة

[1]-أعلام الحضارة العربية الإسلامية في العلوم الأساسية والتطبيقية، زهير حميدان ، وزارة الثقافة دمشق.؛ 121/1.

هي علم ونظر ومعرفة وتفكير ؛فقد وجّه الإسلام للمسلمين ضرورة التفكير وتحصيل المعرفة النافعة والرفع من شأن العلم والعلماء وأطلق العرب على هذا العلم بالفلسفة الإسلامية لأنها تقتبس مبادئها وأصولها من القرآن والسنة ؛ومن بين مؤسسي الفلسفة الإسلامية "الفارابي" الذي أفنا حياته في البحث والدراسة فدرس الرياضيات والعلوم وعاش حياة زهد وتقشّف، فكان يرحل إلى الطبيعة باعتبارها أنيسه ؛فيتدبّر في خلق وملكوت المولى عزّ وجل وهاته الوحدة والعزلة عن الناس كانت بداية لموهبة النبوغ والتفكير الصحيح؛ التي أثارت قريحته للبحث والكتابة والتأليف حتى سمي " بالمعلم الثاني " بعد أرسطو، ومن شهادات بعض المستشرقين في حق هذا الفيلسوف النابغة يقول أحدهم:" **إنّ مؤلفات الفارابي مهدّت السبيل لظهور ابن سينا وابن رشد وكانت نبراسا لحكماء الشرق والغرب ؛وسراجا وهّاجا يستضيئون بنوره ويسيرون على هداه"**[1].

الفارابي واحد من أعلام الفلسفة الإسلامية؛ الذين ستكتب أسماءهم بحروف من ذهب في سّجل التاريخ وستزخر المكتبة العربية بمؤلفاتهم ؛حتى تكون عوناً ومرشدا لمن أراد أن يقف عند التفكير الصحيح والصائب للفلسفة واستنباط أحكامها.

ومن أعلام الحضارة نخص بالذكر الرحالة العبدري:

التعريف بالرّحالة العبدري:

هو محمد بن محمد بن علّي بن احمد بن مسعود العبدري الحَاحي[2] وتشير النسبة أنّ اسم العبدري ينحدر من عبد الدّار من بني قصّي وهذا الخير هو الّذي تُنسَبُ إليه الأسطورة توحيد قبيلة قريش[3] مرتبط ببلنسية من حيث أصل أسرته بالصويرة (على مقربة من مغادور) لمرّاكش من حيث

---

[1] - موسوعة أعلام الحضارة الإسلامية، مصطفى فتحي ص 77.

[2] -الأعلام بمن حلّ مرّاكش واغمات من الأعلام، العباس بن ابراهيم السملالي قاضي مرّاكش الجزء الرابع، رَاجعه عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط ط2، 1993، ص288.

[3] -تاريخ الأدب الجغرافي، كراتشوفسكي، الجزء 1، ص367.

سُكنى هذه الأسرة[1] إذا كنّا لا نعرف الكثير عن نشأة العبدري الأولى، إلاّ أنه من الثابت أنّه عاش هو وأسرته فترة من حياته على الصويرة في المغرب الأقصى حين عزم على الخروج لتأدية فريضة الحج[2] وتشير المصادر أن العبدري من أصل عربي قرشي إلاّ أن بعض الباحثين ينسبه إلى بلنسية[3] (الأندلس)، ولم نعثر في المصادر التي بحثنا فيها عن سنة الولادة، إلا أننا وجدنا في بعض **المصادر أن سنة وفاته كانت** 678هـ[4]، وعن أسرته والظروف التي كوّنته وجعلت منه رحالة ومؤرخا وفقيها وشاعرا فحلا وأديبا ناقداً، ما نعرفه عنه أنّه أخذ العلم والمعرفة عن جماعة يطول ذكرهم موجودون في رحلته **منهم شرف الدّين الدمياطي، وابن دقيق العيد، وعبد الله بن هارون وا**لطائي القرطبي نزيل تونس، وعبد الرحمن الأسدي القيرواني[5].

بالرغم من تنوع مشارب العبدري الثقافية إلاّ أنه لم يخلّف سوى رحلته المسّماة **الرحلة المغربية أو رحلة العبدري** .

دوافع الرحلة:

العبدري كغيره من الرحّالة كان له هدفان جعلاه يمضي في سفره دون تراجع:

السبب الأول: ديني وهو القيام بفريضة الحج، وزيارة الأماكن المقدسة والاتّصال بالمتصوفة والصالحين، وقد صّح مرارا بأنّه كان ينوي الإقامة بمكة ومجاورتها، وأنه قد اكترى منزلا وجهزّ لوازمه، وصرف الركب إلى المغرب، لولا حدوث فتنة أرغمته على الرحيل عن مكة[6].

السبب الثاني: علمي تمثل في رغبته في لقاء العلماء والمشايخ والأخذ عنهم والبحث عن السند العالي، فصرف جلّ اهتمامه للناحية العلمية في البلدان التي زارها، وترجم للكثير من العلماء الذين لقيهم ترجمة وافية شملت أخلاقهم، ثقافتهم...

[1]- الجغرافيا والرحلات عند العرب، نقولا زيادة، الشركة العالمية للكتاب دار الكتاب اللبناني، د ط، ص170- 170.

[2]- الرحلة والرحالة المسلمون، احمد رمضان أحمد، د ط، ص 347.

[3]- الرحّالة المسلمون في العصور الوسطى، زكي محمد حسن، ص107.

[4]- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002، ج1، ص 175.

[5]- جذوة الاقتباس في ذكر من حّل من الأعلام مدينة فاس، أحمد ابن القاضي المكناسي، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، دط، ص287.

[6]- رحلة العبدري، أبي عبد الله محمد بن محمد العبدري، حققها وقدّم لها الدكتور علي ابراهيم الكردي، دار سعد الدّين للطباعة والنشر والتوزيع ط2، 2005، ص391.

وتنوّعت المصادر العلمية التي نقل عنها العبدري في رحلته من مصادر تاريخية وجغرافية، إضافة إلى كتب الحديث والفقه ودواوين شعرية متنوعة.

وصفوة القول أن العرب المسلمين أبدعوا في جوانب علمية وثقافية متعددة؛ **فكانت** إسهاماتهم كثيرة في علوم عدّة **اشتهروا** بها في مجالا**ت** مختلفة؛ فكان العقل العربي المسلم هو المحرّك والمبدع لهذه الإنجازات التي جاء**ت تلبية لرسالة الدّين العالمية؛** الذي يلّح في أكثر من موضع على **طلب العلم والانتفاع به؛** وأن يجعل الإنسان علمه خالصا لوجه الله يبتغي رضاه وعفوه **؛ولا يكون** ذلك العلم حكرا على الآخرين نقضي به مآربنا الدنيوية المتمثلة في المشاهرة وال**متاجرة.**

الفصل الأول

لمحة عن أدب الرحلة

الرحلة لغة

الرحلة اصطلاحا

بواعث الرحلة

الرحلة والجغرافيا

الرحلة وعلاقتها بالعلوم

الخصائص الفنية لأدب الرحلات

الرحلة لغة:

وردت في لسان العرب كلمة رَحَلَ والرَّحلُ لتدل على مركب للبعير والناقة وجَمَعَهُ أرحُلٌ ورِحالٌ قال طرقة

جَازَتْ البَيْدَا إلى أَرْجُلنَا آخِرَ اللَّيْل بِيَعْفُورٍ خدرِ

الرَّحْلُ: رَحْلُ البَعير وهوَ أصْغَرُ من القُتَبِ وثلاثةُ أرْحُلٍ، ورَحَلَ البَعِيرُ يرحَلُهُ رَحْلاً فَهُوَ مَرْحُولٌ ورَحيلٌ وارتَحَلَهُ جعَل عليه الرَّحْلَ، رَحَلَهُ رَحْلَةً شَدَّ عليه آداته، قال الأعشى:

رَحلتْ سُمية غُدوةَ أجْمالِها غَضَى عليْكَ فما تقُولُ بدا لها؟

وإنه لحسن الرِّحلةِ أي الرِّحلُ للإبل أعْني شدّها لِرِحالِها.[1]

جاء في القاموس المحيط رَحَلَ الرَّحلُ : كالرّحُول حول جمْع أرْحُلٍ وَرِحالُ مَسْكَنُكَ وما تستصحبهُ من الأثاثِ، رَحَل البعيرُ كنع وارتَحَلَهُ حطّ عليه الرّحْلُ فهو مرحُولٌ ورحيلٌ، وإنه كحَسنُ **الرّحلَةِ** بالكسر أي **الرّحْلُ** للإبل و**المُرَّحَلَةُ** كعُظةٍ وإبلٍ عليها رحالُها والتي وُضعتْ عَنْها و**ارتَحَلَ** البعيرُ سارَ ومضَى، والقَوْمُ عن المكانِ انتقلُوا **كترحَّلُوا** والاسم **الرُّحَلَةُ** و**الّرِحْلة** بالضم والكسر، **وراحيلُ** أم يوسف عليه السلام.[2]

مادة **رحَلَ** في المعجم الوسيط: **تَرحِيلٌ**، تهجير، هجرة، نزوج، جلاء، طرد، نفيٌ، إبعاد، تحويل، نقلٌ.

---

[1]– لسان العرب، ابن منظور الأنصاري الأفريقي، مج 1218/6. دار صادر للطباعة والنشر، ص ب 01بيروت، لبنان.

[2]– القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي الجزء الثالث، ، دار الجيل بيروت.؛ص 394.

حياة **الترْحالِ**: الحياة البدوية، كثرة السفر[1].

الرحلة اصطلاحا:

تجمع معاجم اللغة على أن الرّحلة هي الانتقال من مكان إلى آخر، وبهذا المعنى يكون العديد من المشارقة والمغاربة، وغيرهم من البشر قديما وحديثا قد أنجزوا رحلات لا تعدّ ولا تحصى، لأن الحركة والتنقل من مقتضيات الحياة وطبيعة البشر بيد أننا لا نعرف أي شيء عن كل تلك الرحلات لأنه ليس كل من ارتحل قد دوّن رحلته "**فالرحلة كتابة ملتبسة سواء على مستوى الهوية الأجناسية أو على مستوى محاورتها في سياق نظرية الأدب الأجناس أدبية أو غير أدبية**"[2]

فالرحلة جنس أدبي انفرد عن سائر الأجناس الأدبية الأخرى باعتماد الوصف والمشاهدة اللذان يعتبران اللبنة الأساسية لمسار الرحلة. فالرحلة تجمع بين معنيين، المعنى الأول هو الانتقال والحركة المتعارف عليهما. أما الرحلة بالمعنى الثاني فهي كتابة وخطاب، هي كتابة يحكي فيها الرحالة أحداث سفره وما شاهده وعاشه مازجا ذلك بانطباعاته الذاتية حول المُرتَحِلَ إليهم، ويجب أن يكون الرحالة ذا مستوى ثقافي يؤهله لنقل أحداث سفره إلى كتابة، أما الخطاب فهو يواكب انتقال الرحالة في أماكن متعددة، من ومختلفة واصفا إيّاها جغرافيا وعمرانيا واجتماعيا وبشريا، وذاكرًا ما لقيهُ من رجالات العلم والأدب، وما دار في مجالسهم من مناقشات، إضافة إلى ذكر الفوائد العلمية والدينية والتاريخية والأدبية، وكل ذلك يسوقه الرحالة بأساليب مختلفة يكسب الخطاب الرحلي صبغة أدبية وفنيّة.

[1]- المعجم الوسيط واستدراكات المستشرقين، محمد محمد داود، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2008، ص89.

[2]- الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر (مستويات السرد) عبد الرحيم مودّن، ، دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1، 2006.؛ص23.

عرف إنجيل بطرس أدب الرحلات "**هو ما يمكن أن يوصف بأدب الرحلات الواقعية وهي الرحلة التي يقوم بها رحّال إلى بلد العالم ويدوّن وصفا لها يسجّل فيه مشاهداته وانطباعاته بدرجة من الدّقة والصّدق وجمال الأسلوب....**"[1]

من خلال هذا التعريف نفهم بأن الرحلة هي رصد للواقع والمجتمع البشري الذي زاره الرّحالة وعليه أن يلتزم الصدق والدّقة في وصف الأماكن التي زارها ويراعي براعة الأسلوب وجماليته في تصوير الحقائق.

بواعث الرحلة:

إنّ الفتوحات الإسلامية كان لها دور كبير في نشر الإسلام وترسيخ مبادئه وتعاليمه السمحة. فالإسلام بمجيئه غيّر مجرى الحياة، فأخرج الناس من غياهب الظلام وضبط حياتهم بشرائع سنّها القرآن الكريم لتكون عونا للمسلم ؛تنظّم حياته وسلوكاته وبدأت دعوة الإسلام تنتشر في ربوع العالم الإسلامي وأضحى العالم يمثل وحدة إسلامية متكاملة، والرحلة واحدة من الركائز واللّبنات الأساسية التي ساعدت على ترسيخ جذور الحضارة العربية الإسلامية، فالرحلات كانت حلقة وصل بين الأمم والمجتمعات العربية الإسلامية، لأن المسلمين عند ما أردوا أن يفتحوا البلدان ويبشروا بالإسلام كانوا يرتحلون ويقطعون مسافات طويلة ؛ويصبرون على مشقة وتعب السفر كل هذا لأجل أن تنعم الأمة الإسلامية بالأمن والاستقرار؛ ويعيش النّاس أمة واحدة تجمعهم وتربطهم أواصر المحبة والتضامن . وكما نعلم أن الرحلة هي الانتقال من مكان إلى آخر بغرض تحقيق هدف رسمه الرحّالة لنفسه من أول نقطة الانطلاق إلى نقطة الرجوع؛ وهذه الرحلة كانت قبل الإسلام محصورة ومحدودة حسب طبيعة البيئة آنذاك لأن شبه الجزيرة العربية كانت صحراوية ؛ومع مجيئ الإسلام عرفت الرحلة تحوّلا بالغ الأهمية سواء من حيث الظروف المحيطة بالرّحالة أو من حيث الهدف الرئيسي من وراء الرحلة، فالرحلة

[1]- الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع الهجري) ناصر عبد الرزاق الموافي نفلا عن إنجيل بطرس، الرحلة في الأدب الإنجليزي، ص 38.

تعدّدت أسبابها وتنوعت أهدافها مما حذا بها أن تكون فنّا من فنون القول الأدبي، وللرحلة دوافع وبواعث فرضتها عليها ظروف العصر نوجزها في الآتي:

باعث الحج:

الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام فرضه الله على المسلمين في الجاهلية وأقرّه الإسلام بعد تطهير الكعبة من الأصنام وهو واجب إلزامي على المسلم ما لم يعوقه عائق ضعف صحة أو قلّة مال.

فكل سنة تشهد مكة المكرمة حركة نشيطة، يتوافد عليها الحجاج من كل حدب وصوب ويلتقي فيها العربي والعجمي ؛والأبيض والأسود كلهم سواسية في مشهد تقشعرّ منه الأبدان وإن اختلفت ألوانهم ولهجاتهم ففي ذلك المكان يجمعهم لباس واحد ودين واحد ؛فقد تركوا عائلاتهم وأعمالهم وكل الدنيا خلفهم ليلبوا نداء سيدنا إبراهيم عليه السلام ؛ويستجيبوا لأمر الله تعالى؛ وطبيعي أن الدافع إلى الحج كان أداء الفرض طاعة ؛ ولا ننسى أنّ الدافع الأكبر لزيارة بيت الله هو التكفير عن الذنوب التي اقترفها المؤمن في حق نفسه وغيره "**فقد استمرّ ناصر خسرو (394 هـ/ 481م) يعيش معيشة ترف وبطالة حتى سنة (437هـ/1051م) نظر له في رؤيا شيخ طلب إليه أن يكف عن تلك الحياة وعن شرب الخمر، فسافر إلى تأدية الحج وقام في هذه المناسبة برحلات طويلة إلى الشرق الأدنى**"[1]

ما أروع الإنسان حين يتوب ويندم على ما فاته ويحاول إصلاح زلاّته وأخطائه قبل أن يفوته الوقت ولولا هداية الله لناصر خسرو من خلال رؤية رآها كانت عبارة عن رسالة حذّرته من الكفّ

[1]- أدب الرحلة، حسين نصّار، الشركة المصرية العالمية لونجمان 1931، ط1، دار نوبا للطباعة، روض الفرج، شبرا، القاهرة.؛ص19؛20.

عن المعاصي لقوله تعالى ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾[1]
فهذه الرؤية كانت صادقة ودعوة صريحة إلى ترك الذنوب والالتزام بطاعة الله سبحانه وتعالى؛ فرحلة ناصر خسرو كانت دينية فتحت الباب أمامه لزيارة مدن المشرق العربي .

ومن الرّحّالة الذين زاروا بيت الله ودونوا ما شاهدوه خلال رحلتهم "محمد السنوسي" الذي يصرّح بأنه كانت له رغبة شخصية في السفر فيقول: **"وهذا للعبد الضعيف المكتفي بالموضوع عن التعريف منذ عقلت فضيلة الإجماع وأدركت سرّ الله في التعاون بتجاذبي الانتفاع رغبة تدعوه في كل وقت للسياحة للحصول على النظر الذي عهد الدّين نجاحه"**[2] وقال أيضا بخصوص وسم رحلته للحجاز: **"...وبما أن أصل السفر للحجاز كان أوّل غرض فيما عرض نسبت إليه جميع الكتاب اعتبارا لشرف ما اختصّ به من المزيد وسميته الرحلة الحجازية"**[3]

من كل ما سبق نرى أن الدّافع الأساس الذي جعل الرحّالة يقومون بفريضة الحج كان من أجل التكفير عن الذنوب، فتركوا الدنيا بما فيها راحلين عن الأهل والولد إلى مكان يجتمع فيه الناس فيجمعهم دين واحد وغاية واحدة. فالجميع قد جاؤوا من كل فجّ عميق يحدوهم الأمل ويحفّهم الخوف والرجاء رافعين أكفّ الضراعة إلى الله عزّ وجلّ راغبين في مغفرته، طامعين في فضله ورضوانه.

كما نجد أن معظم الرحّالة الذين قاموا برحلات كان هدفها الأوّل هو زيارة بيت الله والتبرك بأرض مكّة الطّيّبة والقرى المباركة حولها ؛والشيء العظيم أن هؤلاء الرحّالة وسموا رحلاتهم بعناوين متعدّدة منها الرحلة الحجازية أو الرحلة إلى مكة المكرمة...إلخ.

---

[1]- سورة القصص، الآية 56.

[2]- الرحلة الحجازية محمد السنوسي، تحقيق علي الشنوفي مبرز ودكتور دولة في الآداب، أستاذ محاضر بكلية الآداب، تونس، الشركة التونسية للتوزيع 1976، الجزء الأول،ص26.

[3]- المصدر نفسه، ص 27.

باعث التجارة:

إنّ للتجارة قيمة كبيرة فهي تبادل السلع يسعى من خلالها المجتمع إلى بيع ما يفيض عن حاجاتهم وشراء ما ينقصهم داخل الأسواق المحلية والخارجية . وبما أن شبه الجزيرة العربية ذات طبيعة صحراوية دفعت سكانها إلى ممارسة التجارة مع الأقوام الأخرى، فكان للرّحلة التجارية أثر كبير في ربط تلك المناطق ؛وقد ورد في القرآن الكريم هذه الرحلة لقوله تعالى ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾[1]

فالإيلاف هو تلك العهود والصفقات التي كانت تعقدها قريش لبيع سلعها ؛بيد أن أهل مكّة كانوا تجارا من الدرجة الأولى، فكانوا ينقلون بضائعهم من اليمن إلى الشام ومع الفتوحات الإسلامية، توسعت التجارة لتشمل مناطق لم يكن يمرّ بها التجار إمّا لأنّها لم تكن معروفة ؛وكذلك الطرق التي لم تكن مؤمنة فكان التاجر يخاف من قطّاع الطرق وبالتالي يفقد سلعته ويضيّع طريقه.

ومع مجيء الإسلام ساد الأمن في ربوع العالم الإسلامي ممّا سهّل عمل التجارة ؛فصار التاجر ينتقل من قطر لآخر إما في صحبة قافلة تجارية ؛أو يمتطي فرسه ويحمل عليها ما يحتاجه من مؤونة وعتاد يدخل البلد وهو مطمئن البال؛ ويتعرّف إلى أهل هذا البلد ويعقد معهم صفقات تجارية وروابط روحية أخوية ؛وبالتالي ازدهرت التجارة وتوسعت مجالاتها وتنوّعت أغراضها ، ولم تقتصر الرحلة التجارية على البرّ فقط، بل كان للرحلة البحرية دور كبير في حياة العرب بسبب إحاطة الجزيرة العربية بالبحار، ممّا أدّى بالتجّار إلى ركوب البحر؛ ولعلّ أشهر تلك الرحلات رحلة سليمان التاجر المعروف بالسيرافي "**وقد سافر مرارا بغرض التجارة إلى الهند والصين، وقد محض ما ورد عنه وتابع خطواته على ضوء الخرائط الحديثة للمستشرق الفرنسي "فيرن" فوجدها من حيث الدقة**

[1]- سورة قريش، الآية 2.

والأمانة العلمية بمكانة تذكر له، يقول: وهو خير مثال للتجار العرب والفرس الذين توجّهوا إلى الصين...." [1]

إنّ رحلة السيرافي كانت نموذجا للرحلات التجارية، حيث لقيت اهتمام المؤرخين والمستشرقين لما تحويه من طرائف وغرائب؛ ووصف للسواحل والجزر وأنواع المنتجات الزراعية، فالوصف كان قائما على الملاحظة والدقة زاد من جماليته سهولة اللغة وبراعة الأسلوب.

اشتهر العرب بتجارة البخور قديما والتي يَرجع تاريخها إلى أيّام ملكة سبأ؛ وكانت تستخدم البخور في المعابد القديمة حسب رغبة الكهنة ؛ومع مجيء الإسلام تنوّعت تجارة البخور بين العطور المركّبة والبخور كاللّبان الذي يستخرج من شجرته الأصلية وذلك بتشريط شجرة الكندر واستخراجه وهو عبارة عن علك مّر أو صمغ يستعمل كبخور له رائحة زكية، له عدة استخدامات عديدة في وصفات الطب الشعبي. وقد اشتهرت اليمن بتجارة البخور وكانت مصدرا ومركزا تموينيا لهذه المادة فأصبحت القوافل التجارية تمرّ بطريق الهند ومصر لتصل إلى اليمن "وحضر موت هي البلاد الوحيدة في العالم القديم التي كانت تنتجه، فكان لزاما على الناس أن يحصلوا عليه منها وكانت اليمن مركز هذه التجارة، ومنها تنقل إمّا بطريق البحر الأحمر أو بطريق الحجاز ومن ثمّ توزع في أقطار العالم القديم"[2].

أفرزت الحضارة اليمنية تجارة البخور التي لاقت رواجا كبيرا لما جلبته من ربح وفير هيأ لحضارة اليمن مكانتها الفريدة بين الحضارات، حيث كانت حلقة وصل ومعبر تجاري بين الشرق والغرب كما أن دولة اليمن اشتهرت بصناعات مختلفة كالتّوابل والذهب والفضة، إضافة إلى الصناعات النسيجية...الخ. إلا أن البعد التاريخي لطريق البخور وارتباطه مع الحضارات الإنسانية والعالمية القديمة

[1]- رحلة السيرافي تحقيق عبد الله الحبشي، ، المجمع الثقافي 1999، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ص.ب 238، الطبعة الأولى؛ص06.

[2]- الجغرافيا والرحلات عند العرب، الدكتور نقولا زيادة ، الشركة العالمية للكتاب ؛دار الكتاب اللبناني ؛ دط؛ ص215.

يجعل منه في اليمن محط أنظار واهتمام الباحثين من علم الآثار بهذا المنتوج الحضاري الذي توالت الدراسة والتنقيب عنه على مر العصور.

من كل سبق نلاحظ أن معظم الرحّالة التجار لم يكن هدفهم من الرحلة تحميل بضائعهم والمشاهرة بها، بل منهم من كان داعية إلى دين الله الأوحد والتبشير برسالة رسوله الأعظم، فكانت التجارة الباعث الأكبر الذي أخذ حصة الأسد ؛وكان السبب المباشر في توحيد المسلمين على كلمة الحق ؛كما نعلم أن المسلمين عند فتحهم للدولة الإسلامية لم ينتشر فيها الإسلام بصورته الكاملة؛ فالرحّالة لعب دور التاجر الذي يسافر من بلد لآخر من أجل الكسب الحلال في نفس الوقت كان حلقة وصل بين المسلمين يدعوهم إلى الدخول في دين التوحيد.

الباعث العلمي:

طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة وأنّ ذلك واجب ديني، فمن واجب كل مسلم أن يطلب المعرفة وأن يصل إليها وينالها أيّا كان مصدرها ومكان تواجدها ؛فقد رغّب الرسول صلى الله عليه وسلّم في الرحلة إلى طلب العلم في قوله: "**أطلبوا العلم ولو في الصين**" وقد كان طالب العلم يتمّ تعليمه في بلاده ؛ثمّ يسافر بعيدا وينزل بإحدى حواضر العالم العربي، ويجالس من اشتهر بها من علماء عصره ويحضر دروسهم ويسعى في الأخذ عنهم ونيل إجازاتهم. فقد جاء هذا الطالب إلى مجالس العلم بقلب مخلصٍ ونيّة عالية ؛وقد بذل جهدا وسلك طريقا وعرًا تحمّل فيه عناء السفر ومكابدة أهوال الطريق ؛ وتكلّم ابن خلدون عن الرّحلة في طلب العلم فقال: "**الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال من التعلّم؛ والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم ؛وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علمًا وتعليقا وإلقاء؛ وتارة محاكاة**

وتلقينا بالمباشرة؛ إلاّ أن حصول الملكات المباشرة والتلقين أشدّ استحكاما وأقوى روحًا ؛فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكة ورسوخها"[1]

الرحلة في طلب العلم هي عبادة وجهاد في سبيل نيل رضى ا وعفوه فكم من طالب علم ارل بعيدا عن الأهل والولد متفرغًا للعلم والإحاطة بكنوزه تحمّل من أجله

الصعاب من فقر وشظف عيش أو صعوبة وسائل السفر، فقطع البراري والقفار من أجل صيله فعزُ العلم عنده أغلى من الولد والمال ؛وهو بهذه الصفات قد صقل شخصيته وأكسبها حب التعلّم والاستزادة من الشيوخ والتلق عنهم، حتى خرج الطالب إلى هذه الدّنيا وهو حافظ لكتاب الله والعمل بالهدي النبوي فيرتقي بعمله ؛ويسمو به إلى أعلى المراتب خصوصا أن الله سبحانه يرفع طالب العلم درجات يوم القيامة.

لما كان الحديث النبوي هو المصدر الثاني للإسلام وكان منه بهذه المثابة، فقد أعطاه العلماء غاية اهتمامهم، فقد كان العالم يقطع المسافات الطويلة من أجل سماع حديث واحد والتأكد من صحة سنده، فرغم كل الصعوبات والعوائق التي تتعرض طريق طالب العلم إلاّ أنه كان يقابلها بسعة صدر امتثالا لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[2].

---

[1] - مقدمة تاريخ العلامة ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني ومدرسة بيروت، لبنان؛ص1044.

[2] - سورة التوبة، الأية 122.

وقد كانت الرحلة في طلب العلم منهج العلماء في سبيل تحصيل العلم قال "يحي بن معين" **"أربعة لا تُؤَنَس منهم رُشْدًا حارسُ الدّرب ؛ومنادي القاضي وابن المحدّثِ ؛ورجل يكتب في بلده ولا يرحل في طلب الحديث"**[1]

نرى أن المحدثين قد أسهموا بنصيب وافر في تثبيت الرحلة كأساس علمي ضروري ولم يقتصر دورهم على هذا فحسب، بل أسهموا في إنضاج أدب الرحلة بإنتاج نماذج طيبة منه وكان الدافع لإنتاجها رغبتهم في بيان مدى ما عانوه في سبيل جمع الحديث الواحد، والرحلة في طلب الحديث ليست بالأمر السهل كما يعتقد البعض، بل كان طالب العلم تستغرق رحلته شهورا وسنوات يكابد فيها مشقة السفر من نصبٍ وقلة مال ؛كل هذا من أجل خدمة الحديث النبوي وذلك بإحصاء الأحاديث النبوية والتأكّد من صحة أسانيدها.

ومن فائدة الرحلة في طلب العلم أنها الجزء المتمّم للتفكير الفكري والعلمي للرحّالة. فالتنقل بين المدن والأقطار والأوطان يثري خبرة الطالب، كما أن احتكاك الطالب بالشيوخ يكوّن شخصيته العلمية الخاصّة، زيادة على الاستفادة الكبيرة حتى تتنوّع منابع المعرفة وتختلف مصادرها، ويرى ابن خلدون أن الرحلة في طلب العلم تتيح للطالب **"لقاء أهل العلوم وتعدّد المشايخ يفيد تمييزا لمصطلحات ما يراه من اختلاف طرقهم فيها"**[2]

الرحلة في طلب العلم لا تقتصر أن يؤخذ العلم من شيخ واحد، بل يجب أن يتعلّم الطالب على أيدي ثلّة من العلماء حتى تتنوّع معارفه ؛وتميز بين المصطلحات ودرجة اختلافها من شيخ لآخر، وقد تعدّدت أهداف وغايات الرحلة في طلب الحديث. فبعضهم يحصر مقاصدها في **"أهدافٍ**

[1]- الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي، ، حققه وعلّق عليه نور الدّين عتر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1975.؛ص71.

[2]- المقدمة، تاريخ العلامة ابن خلدون، ص 1045.

سنيّة ومقاصدَ جليّة، فمن أهدافها: طلب العلم في السند والبحث عن أحوال الرّواة والتثبت من الحديث دفعًا للخلل والخطأ وهذا لكثرة العلماء في نقد الأحاديث وعللها"[1]

إن الرحلة ي طلب الحديث قد أسهمت في إثراء الرحلة مختلف العلوم، خاصّة علم الحديث الذي كان ينقل مشافهة من خلال احتكاك الطلبة بالمشايخ والاستزادة من عملهم ونيل إجازاتهم. هذا الإثراء كلّه جعل الرحلة تطغى عليها الصبغة العلمية.

الرغبة الشخصية:

طبيعي أن يقوم أشخاص عديدون بالسفر من أجل حب السفر وتحلّيهم بروح المغامرة والمجازفة، ورغبتهم في التمتع بالحياة ومجالي الجمال في كل مكان وكل ركن من أركان المعمورة بغية الترفيه عن النفس وما يختلج فيها من متاعب وإرهاق نفسي، فهناك أناس يقومون بالسفر بمحض إرادتهم دون دافع خارجي يلزمهم بذلك؛ وخير دليل على ذلك الرحّالة ابن بطوطة الذي وصفه زكي محمد حسن يقول: "**هو أعظم الرحّالة المسلمين قاطبة وأكثرهم طوافًا في الآفاق وأوفرهم نشاطا واستيعابا للأخبار وأشدّهم عناية بالتحدّث عن الحالة الاجتماعية في البلاد التي تجوّل فيها....ولكن حديث رحلاته الطويلة...يشهد بأن ابن بطوطة كان من المغامرين الذين لا يقرّ لهم قرار من الذين يدفعهم حب الاستطلاع والرغبة في الاستمتاع بالحياة إلى أن يركبُوا الصعب من الأمور"**[2]

ابن بطوطة واحد من الأفذاذ الذين جبلوا على ركوب الكثير من الصعاب دفعه إلى ذلك حب الاستطلاع؛ والتعرف على أحوال الشعوب والأمم ؛ونقل مظاهر الحياة الاجتماعية التي

---

[1]- الحسرات فيمن رحل للسماع على محدثٍ فوجده قد مات، الدكتور محمد بن عزوز، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، دار ابن حزم، ط1، 2005؛ص06.

[2]- الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، د.وكي محمد حسن، شركة نوابغ الفكر القاهرة، ط1، 2008، ص 110.

اتسمت بوحدة الروح الإسلامية ؛والتي عاشها العالم الإسلامي؛ فجاءت هذه الأخبار في أسفارٍ متصلة ورحلات متعاقبة تشهد لهذا رحلته التي يقرّ فيها بعدم العودة من الطريق التي **سلكها "من عادتي في سفري أن لا أعود على طريق سلكتها ما أمكنني ذلك"**[1]

هذا قول صحيح على أن ابن بطوطة كان كثير التجوال والطواف في البلاد الإسلامية والعربية **و الغربية و**التي احتكّ فيها بالنّاس **فعايشهم عاداتهم وتقاليدهم ؛و وتقرّبه من رجال الصوفية وخدمتهم لنيل بركتهم ؛فجاءت رحلته حافلة بالغ**رائب والعجائب التي شاهدها حتى غدت **مثار اهتمام** الباحثين والطبقة المثقفة و ترجمت إلى لغات كثيرة.

دوافع شخصية واستطلاعية:

الرحلة وسيلة مهمّة للترفيه عن الإنسان المُتعب والمكدود من مشكلات الحياة **؛وتعقيداتها** والتي تتزايد يوما بعد يوم، **ولا شك أن المريض إذا أخذ إجازة يقضيها خارج مدينته يمكن أن تعيد له عافيته** ؛ويشعر بالراحة التي تساعده على مواصلة العمل وزيادة النشاط. فقديما كان الإنسان يعيش في أحضان الطبيعة، فإذا اشتكى من مرض تناول الأعشاب فيزول مرضه بسرعة، ومع مرور الزمن **والتطور الصناعي** والتكنولوجي الذي شهده العالم؛ والذي تمثل في كثرة المصانع والتي شهدت حركة نشيطة ترجمتها كثرة الإنتاج الذي تنوّع حسب حاجات الناس والذي أدّى إلى نمو ديمغرافي متزايد، فتمركز معظم الناس في المدن والتي أصبحت مكتظة بالمارة والسيارات، فسيطر الضجيج على حياة **البشر والذي ولّد أمراضا جسمية وأخرى نفسية تفاقمت مع الوقت، لذا نجد أن الأطباء ينصحوا مرضاهم للقيام برحلة؛** وهو تغيير الجو خصوصا إلى المناطق الريفية التي تتميّز بالهدوء والسكينة إضافة إلى المناظر الطبيعية الخلاّبة والتي تبعث في النفس البهجة والطمأنينة، فإذا زار **المريض هاته المناطق يستطيع** أن يسترجع عافيته؛ ونجد مثال ذلك عند عبد الرحمان بك سامي فيقول: "**إنني في أثناء**

[1]- رحلة ابن بطوطة، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت؛ ص191.

الصيف الماضي بعد منحي الرخصة من الحكومة السنّية قصدت الأقطار السورية حسب مشورة الأطباء لتغيير الهواء والترويح النفسي إثر ما ألمّ بي من انحراف الصحّة..." [1]

الرحلة شيء محبّبٌ للنفوس ففي السفر أنسٌ بالصديق وتفريغ للضيق ؛وكسب للمهارات والخبرات وفوز بالسبق إلى الخيرات؛ فتغيير الجو وسيلة ناجحة للتفريج عن النفس والقلب، يبثّ الراحل أشجانه وهمومه من خلال أصدقاء يلتقي بهم فيشاركوه همومه ويقاسمون أفراحه. فالرحلة وإن تعدّدت أسبابها ودوافعها الشخصية تسيطر عليها الحركة التي هي الانتقال من مكان إلى آخر بغية الترفيه عن النفس؛ فهذا الانتقال فيه من الإيجابية التي تجعل الإنسان في حركة دائمة يكتسب من خلالها مهارات ويستعيد نشاطه ويشعر بالانفتاح على العالم.

الرحلة هي الانتقال من مكان إلى آخر من أجل هدف رسمه الرحّالة لنفسه قبل الخروج من موطنه الأصلي، فتعدّدت الدوافع بتعدّد الحاجة والرغبة الملحّة على السفر والطواف في أنحاء المعمورة، فمعظم الرحّالة يشتركون في مطلب ديني واحد تمثل في أداء الركن الخامس من أركان الإسلام وهو زيارة بيت ا، ومنهم من قصر رحلته على التجارة وزيادة الرزق؛ وـد آخر قام برحلة حضارية وهي اـروج من بلد نامي وزيارة بلد متقدم بغية اكتساب الثقافة والـعرفة عن العلماء ؛ويصبّ الرحّالة اهتمامه على المعالم الحضارية لذلك البلد المتقدم كالآثار التاريخية التي خلّدها المسلمون ؛والتي مازالت باقية كاـساجد ودور العلم، والقصور وما صاحبها من زخارف ولمسات فنيّة مزجت بين جمالية الفن الاسلامي وبـ التمسّك بتراث المسلمين الأصيل ؛فكانت الرحلة حضارية من بدايتها إلى نهايتها أراد من خلالها الرحّالة الوقوف على منجزات المسلمين وما وصلوا إليه من تطور وازدهار شمل جميع مجالات الفنون، الأمر الذي أهّل هذا البلد اـتقدم أن يكون بلدا سياحيا تتهافت الأفئدة والعيون لرؤيته ومركز علمي تزوره النخبة اـثقفة للنهل من نبعه الصافي. ومنهم من قام برحلة كان هدفها اجتماعيا تمثل في معرفة ظروف البشر ومصدر دخلهم الاقتصادي الذي تنوع بـ الزراعة والصناعة

[1]- أدب الرحلة حسـ نصّار، ص 47.

والحرف اليدوية ؛وإحصاء عدد السكان واللغة التي يتكلمون بها مثل البيروني الذي مكث في الهند أربعين سنة نقل صورة حيّة عن عادات وتقاليد المجتمع الهندي؛ فوصف طباع الناس وأخلاقهم ومزاجهم وانتمائهم الدّيني فهو "**لم يدرس طبيعة هذه البلاد وأحوال سكانها فحسب ، بل درس كذلك لغتها وآدابها في مختلف بيئاتها ووقف بنفسه على رسومها وتقاليدها وهو فيما يكتبه عنها يعتمد على ما شاهده بنفسه وسمعه بأذنيه أكثر مما يعتمد على ما قرأه**"[1].

هذه الرحلة الطويلة للبيروني أكبر دليل على أنّه تأثّر بالحياة الاجتماعية للهنود فنقلها للقارئ كما لاحظها وعاينها ولعل هاته الصفة (المشاهدة والمعاينة) هي التي أعطت للرحلة مصداقيتها، وهناك دوافع أخرى غير معروفة الهدف حتى الرحّالة نفسه لا يعرف أين يتّجه ولماذا؟ربما الخروج من البلد فيه متنفّس وراحة نفسية ؛فمرافقة الأصدقاء أثناء السفر تجلب المحبة وتوطّد العلاقات الأخوية ؛ومنهم من يهرب من المجتمع بسبب جريمة اقترفها في حقّ غيره فيرى أنّ الارتحال وسيلة لتهدئة الأوضاع وقد:"**لا نعدم أن نجد أسبابا أخرى للارتحال كالسّخط على الأحوال وضيق العيش أو الهروب من عقوبة**".

الرحلة وإن تعدّدت أهدافها فهي كشف للذّات المرحلة وفهم ذات الآخر فضلا عن كونها وثيقة تاريخية تكشف النقاب عن المجتمع في سلوكاته وأحواله الاجتماعية والاقتصادية والحضارية ...إلخ.

الرحلة والجغرافيا:

منذ أن وجد الإنسان على سطح الأرض وهو يحاول معرفة خصائص المكان الذي يعيش فيه والذي تعلوه سماء زاخرة بأجرام سماوية، وكواكب وأرض كروية الشكل تحتوي كل ما خلقه المولى عزّ

[1]- أدب الرحلة، حسين محمد فهيم، ص 66، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989.

وجلّ من نباتات وحيوانات وإنسان، فالشيء الذي ولّد في نفس الإنسان البحث عن مكونات هذه الأشياء هو حب الاستطلاع باعتبار النفس الإنسانية ترنو دائما إلى معرفة المجهول وقد كانت تلك الغريزة هي الأساس لنشأة الفكر الجغرافي وذلك عندما أخذ الإنسان في إعمال فكره فيما حوله من ظواهر طبيعية وكونية، وإدراك الاختلاف الموجود بين هذه الظواهر من خلال تجواله وترحاله، الأمر الذي زاد من اتّساع الفكر الجغرافي وتطوره، فكانت الرحلة من ضمن الوسائل التي مهّدت للناس معرفة أقاليم الشعوب المجاورة، فعلم الجغرافيا يعتمد بالدرجة الأولى على الوصف التام والدقيق للمدن والمواقع المزارة.

لذلك كان لزاما على الرحّالة الجغرافي والذي كانت رحلته علمية بالدرجة الأولى على أن يتّصف بروح المغامرة وسعة الاطلاع، وسلامة الحواس و قوّة الذاكرة حتى يسترجع بين الفينة والأخرى ما شاهده من ظواهر طبيعية؛ ويربطها بالإنسان باعتباره خليفة الله في الأرض فسخّر الله له هذه الطبيعة ليستفيد منها، فأنعم عليه بالتربة ليزرعها وينوّع في زراعتها من قمح وفواكه وخضر وزاد على هذه النعمة بالماء الذي هو الحياة لا يستطيع أي كائن حيّ أن يستغني عنه؛ فاجتهد الإنسان في حفر الآبار حتى يلبي حاجاته، ويعوّض النقص في كمية الأمطار المتساقطة **"وبذلك فإن التراث الجغرافي العربي خلّف تراكما من المعرفة الطبيعية والبشرية، الاجتماعية الاقتصادية لجهات العالم المعروف يومذاك وقد أدرك الجغرافيون العرب المسلمون التنوع الإقليمي الجغرافي وعرفوا أثاره في تنوع الإنتاج الاقتصادي والفعاليات البشرية الاقتصادية"**[1]

علم الجغرافيا شهد تنوعا في مجالات المعرفة الطبيعية والبشرية والاجتماعية والاقتصادية للعالم، ومن خلال الدراسة العلمية والبحث المتواصل لعلماء الجغرافيا اكتشفوا أنّ تنوّع الأقاليم يؤثّر حتما في

[1]- دراسات في التراث الجغرافي العربي الإسلامي، عبد عليّ الخفاف ومحمد أحمد عقلة، ص 56، دار الكندي للنشر والتوزيع، المملكة الأردنية الهاشمية، 2000م

تنوّع الإنتاج الاقتصادي؛ والذي يؤدي إلى زيادة اليد العاملة البشرية والتي ستشهد تنوّعا في التخصّصات المطلوبة حسب مقتضيات وحاجات الناس اليومية.

الجغرافيا علم مستقل بذاته بعدما كان في القديم يقتصر على معرفة الإقليم الحار والبارد، واستقرار فئة من الناس في إقليم واحد وانزياح البعض الآخر عن هذا الإقليم، ومع مرور الزمن تطوّر هذا العلم (الجغرافيا) واتّسعت أفاقه فهو **"علم يتعرف منه أحوال الأقاليم السبعة في الربع المسكون من كرة الأرض وعروض البلدان الواقعة فيها وأطوالها وعدد مدنها وجبالها وبراريها وبحارها وأنهارها إلى غير ذلك من أحوال الربع..."**[1]

إنّ اتساع الرقعة الجغرافية بعد الفتوحات الإسلامية التي فتحت الآفاق أمام الناس ومهدت السبل للتجارة؛ فصار النّاس يتنقّلون في ربوع العالم الإسلامي ساعدهم على ذلك أمن الطرقات وتعبيدها الأمر الذي ولّد في نفوس الناس معرفة الشعوب وأقاليمها ومصدر عيشها ودخلها الاقتصادي قام بهذا العمل فئة من الناس يتميزون بسعة الاطلاع وقوّة الذاكرة فبحثوا ونقبوا عن مكنونات الأشياء والظواهر الطبيعية وعوامل تأثرها، وتأثيرها في الكائن البشري في المحيط الطبيعي على وجه الخصوص.

الجغرافية الوصفية:

تعد الملاحظة الشخصية أهم مصدر من مصادر الجغرافيا، إضافة إلى المصادر الأخرى، والتي تتمثل في تراث الإنسان الذي يتركه بعد وفاته مضافا إليه ما تتركه الطبيعة من آثار متداخلة الأسباب والنتائج.

ولما عاش الإنسان في أحضان الطبيعة صار يقوم بحفظ أوصاف الظواهر الطبيعية والبشرية والتي تقوم على أساس تحديد أبعاد كل ظاهرة وساعده على ذلك أعضائه الحسيّة، إلا أنه وصف

[1]- تاريخ الأدب الجغرافي، كراتشوفسكي ، نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان بن هاشم. قام بمراجعته إيفور بليايق، ص 93.

الظواهر الطبيعية ليس ثابتا عند كل البشر فهو متباين من شخص لآخر تتحكم فيه **الظروف الطبيعية ودرجة الذوق الفنّي** عند كل وصّاف.

وبعد أن تمرّن الإنسان على الكتابة أخذ يدوّن تلك الأوصاف، فجاءت أوصافه أكثر دقّة وتفصيلا. ولمّا كان العرب يعيشون في بيئة مفتوحة جاءت أوصافهم واسعة كسعة أفقهم الجغرافي إضافة إلى سعة أفق اللغة العربية، والتي تعدّ من أوسع اللغات في اشتقاق الألفاظ لوصف الظاهرة الواحدة، وقد امتاز الوصف الجغرافي بالتأكيد على الجانب البشري والجانب الطبيعي، وهذا بحدّ ذاته وفّر للجغرافيا العربية جانبا علميا مهمًا لأن الظروف الجغرافية البشرية متغيرة بتغيّر الظروف الطبيعية المناخية، وهناك رحّالة جغرافيون ركّزوا في رحلاتهم على الجانب الجغرافي في المدن المزارة مثل "ا□قدسي" في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" ويعدّ هذا الكتاب موسوعة جغرافية ظهرت في القرن (الرابع الهجري) وقد أفرد المقدسي مصنّفة بذكر الأقاليم الإسلامية وما فيها من بحار وأنهار، ووصف أمصارها ا□شهورة ومدنها ا□سكونة، وطرقها المستعملة، واختلاف أهل البلدان في كلامهم وأصواتهم وألسنتهم ومذاهبهم، ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم، وذكر الأخطار التي تهددهم، السهول، ا□بال، التلال، مواضع الرزق وا□ذب، ا□شاهد، ا□مالك وفي كتابه هذا يتحدث عن ذكر البحار والأنهار يقول: **"اعلم أنا لم نر في الإسلام إلا بحرين حسبه أحدهما يخرج من نحو مشارق الشتاء بين بلد الصّين وبلدان السودان فإذا بلغ مملكة الإسلام دار على جزيرة العرب كما مثلناهُ، وله خلجان كثيرة وشعب عدّة وقد اختلف النّاس في وصفه والمصوّرون في تمثيله فمنهم من جعله شبه طيلسان يدور ببلد الصين والحبشة وطرق بالقلزم ولم يذكر شعبة وبلة وعنقه بالعراق..."**[1]

---

[1]- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، شمس الدّين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء البسامي المقدسي، طبع في مدينة ليون ا□روسة 1877؛ص 10.

أعطانا المقدسي وصفا مفصّلا عن البحار والأنهار وما يحيط بها وهذا الوصف المشفع كان مبنيا على المشاهدة المباشرة للأقاليم العربية والإسلامية التي زارها المقدسي.وهناك كتاب جغرافي آخر **لا** يقل أهمية عن سابقه وهو "**المسالك والممالك لابن خرداذبه**" الكتاب غنيّ بمعلومات جغرافية ورياضية ولاسيما وصف هيئة الأرض ثم يتحدث المؤلف قليلا عن اتجاه القبلة في مختلف **المدن وبعدها** يفصل في الحديث عن سواد العراق وتقسيمات الأرض ونوع الخراج فيه وتاريخه كما يذكر **القدماء من** الملوك والسلاطين إلاّ أن القسم الأعظم من الكتاب يحوي وصف الطرق، فالكتاب فيه تفصيل منظم للأرض ومسالكها وقد أفرد جزءاً من الكتاب لذكر قبلة أهل كل بلد فيقول: "**فقبلة أهل أرمينية وأذربيجان وبغداد وواسط والكوفة والمدائن والبصرة وحُلوان والديتور ونهاوند وهمذان وإصبهان وطبرستان وخراسان كلّها وبلاد التحزر وقشمير الهند إلى حائط الكعبة الذي فيه بابها وهو من القطب الشمالي عن يساره إلى وسط المشرق وأمّا التُبّت وبلاد الترك والصين والمنصورة فخلف وسط المشرق بثمانية أجزاء لقرب قبلتهم من الحجر الأسود**"[1]

حققت الجغرافيا الوصفية تقدما كبيرا تمثل في عرض مادة علمية مهمّة وواضحة عن معالم حضارة مجهولة للأنظار فكان الوصف الدقيق هو السمة الغالبة على كتب الرحلات الجغرافية بحيث عرّف بمناطق مختلفة في العالم شمل التعريف تضاريسها وجبالها، مناخها، عدد السكان...إلخ.

وقد أثرى بعض الرحّالة هذا الجانب الجغرافي بغرض مشاهداتهم وملاحظاتهم الدقيقة لبعض المناطق الغير معروفة "**فكان البيروني من أكبر الكتاب والرحّالة المسلمين، كما أنه كان رائدا في دراسة جغرافية المناطق المحيطة ببحيرة بيكال وسكانها، وقد وصف كذلك الفايكنجر والبحار المتجمّدة في العروض الشمالية، وأشار إلى صناعة المعادن في شمال أوربا**"[2]

---

[1]- المسالك والممالك، أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله ابن خرداذبه، طبع في مدينة ليون المحروسة سنة 1889.؛ص 19.

[2]- الموجز في تاريخ الكشف الجغرافي، جورج هراب، المترجم الدكتور عبد العزيز طريح شرف، مؤسسة الثقافة الجامعية الإسكندرية 1993، ص 54.

أبو الريحان البيروني واحد من أعظم من أنجبتهم الحضارة الإسلامية في القرنين الرابع والخامس الهجريين، جاب هذا الرحّالة بلاد الهند باحثا منقبا نبغ في ميادين مختلفة من فروع العلم والمعرفة فكان لإسهاماته العلمية أثر واضح في تاريخ العلم، وتقدّم مسيرة الحضارة.

دوافع وغايات الرحلات الجغرافية:

1- حب المعرفة والاطّلاع ونقل المظاهر الحضارية في الأقاليم التي زارها الرحالة.

2- أداء فريضة الحج والعمرة فكانت هذه المناسبة الدينية مجالا خصبا لتنافس أقلام الرحالة العلماء للإفاضة في تصوير الأماكن المقدسة وفرصة ثمينة للتعاون بين مختلف الشرائح الاجتماعية لتوطيد أواصر المحبة، وقد زودتنا كتب الرحلات مثل رحلة ابن جبير وابن بطوطة بمعلومات مفصّلة عن مكّة والمدينة المنورة وما جاورها.

3- الرحلات الجغرافية كانت لغرض كسب الرزق، وخدمة الحكام بتحقيق أهدافهم السياسية كالجوسسة، فساعد الرحّالة على معرفة الأماكن وتحديد المسالك.

4- الرحالة الجغرافيون رفعوا من شأن الحركة العلمية وصدقوا في عملهم واهتمّوا بالإنسان في سلوكه، آدابه وتعلقه بأرضه.

5- اختلاف الوصف من شخص لآخر حسب طبيعة الظروف المحيطة بالرّحالة وطبيعة الذوق الفني، فكل رحّالة قدم وصفا لبلدٍ ما في معالمه الجغرافية، والمناخية والحضارية كوصف الأندلس من قبل بعض الرحّالة والذين تفننوا في وصفها، وأبدعوا في تصويرها وسموها الفردوس المفقود.

6- الكشف عن ظواهر الطبيعة، وتأثيرها على حياة البشر بحيث يختلف مزاج كل شخص حسب طبيعة المناخ والتضاريس كما أن الوصف الجغرافي للأماكن المزارة شمل توزيع السكان حسب الأقاليم فاستقرّت فئة معينة في إقليم، انزاحت الفئة الأخرى عن هذا الإقليم لأسباب نفسية واجتماعية.

الرحلة وعلاقتها بالعلوم:

الرحلة هي بناء فنّي وإبداع له أسسه الخاصة وملامحه الذاتية التي تميّزه عن غيره من فنون الأدب الأخرى، كما أنها تؤدي دورا أساسيا في انتقال القيّم الحضارية والثقافية، وانتشارها بين الأمم والشعوب، مما جعل النخب الحاكمة تشجع الرحّالة المنتمين إلى بلدانها على كتابة تقارير عن الرحلات التي قاموا بها، الشيء الذي أعطى الرحلة إمكانية الإحاطة بواقع البلد المزار، ودراسة أحواله السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية ولهذا يمكن للباحث أن يدرس الرحلة من مقاربات وزوايا مختلفة كونها وثيقة تاريخية تُعنى بدراسة تاريخ البلد المقصود في معالمه الحضارية بطولاته، شهداء ذلك البلد والمستعمر الذي استوطنه، فمعظم الرحّالة ذكروا لنا مكّة المكرمة ووصفوا طرقها ومسالكها، أئمتها وعلمائها وللرحلات **"أهمية ظاهرة هي معرفة كيف ينظر الغرب إلينا وإلى ديننا وقيّمنا وأخلاقنا وتقاليدنا..."** [1] فلولا التاريخ لما عرف الغرب تراث العرب الحافل بالانتصارات والبطولات، والآثار الخالدة التي خلّفها سلفنا الصالح كالمساجد التي أصبحت قبلة المسلمين في كل مكان، فالتاريخ كما عرّفه ابن خلدون في مقدمته **"اعلم أن فنّ التاريخ فن عزيز المذهب جمّ الفوائد، شريف الغاية، إن هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيّرهم، والملوك في دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك الحق يرومه في أحوال الدّين والدنيا فهو محتاج إلى مآخذ متعدّدة ومعارف متنوعة..."** [2]

التاريخ إذن هو ماضي الأمم السابقة، وهو السّجل الذي يلجأ إليه الباحثون لمعرفة أصالة وعراقة العالم الإسلامي، بما فيه مقدّساته بواديه وحواضره، وحتى العالم الغربي رغم شساعته، فقد أصبح قرية صغيرة يستطيع كل واحد الاطّلاع على تاريخ ذلك العالم الغربي عن طريق الرحلات التي

---

[1]- المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة المنورة اختيار وتهذيب وفهرسة الدكتور محمد بن حسن الشريف، ، دار الأندلس الخضراء، ط1، 2000.؛ المجلد 1ص10.

[2]- المقدمة تاريخ العلاّمة ابن خلدون ، دار الكتاب اللبناني مكتبة المدرسة، بيروت، لبنان، د ط.؛ص12.

كشفت عن ماضي الحضارات والأمم الغابرة. فالرحلة هي مخزون تاريخي قدّم للقارئ معلومات هامة ارتبطت بذكر مخلّفات العالم العربي الإسلامي وتدوين أهم الأحداث السياسية التي شهدها هذا العالم في فترات زمنية متعاقبة.

علم الآثار يدرس المخلّفات الماديّة للإنسان من هياكل عظمية وعمائر وصنائع على اختلاف أنواعها وربطها بزمن معين، وقد وصلت إلينا بعض الأخبار والمعلومات عن تلك الآثار الإسلامية التي حملتها كتب الرحلات في طياتها كتلمسان التي تكرّر وصفها في مدونات الرحّالة، بل زادوا من تعظيمها و تصويرها أحسن تصوير لما تحتويه هذه المدينة الحضارية من آثار خالدة ظلت محط أنظار السوّاح وتهافت الباحثون على دراسة تاريخها من حيث الناحية السياسية والاجتماعية والأدبية والعمرانية...فصار لهذا البلد العظيم اسمًا وصيتا كبيرا كتبت عناوينه بمختلف الخطوط واللغات.

ومن أبرز رحّالة القرن الخامس الهجري ناصر خسروا الذي زار مدن إسلامية فكشف عن تاريخ وحضارة ذلك البلد من خلال مشاهداته المباشرة لتلك الحصون والقلاع والمساجد والبنايات فوصف بيوت القاهرة: **"وكانت بيوت القاهرة من النظافة والبهاء بحيث تقول أنها بنيت من الجواهر الثمينة لا من الجصّ والآجر والحجارة وهي بعيدة عن بعضها فلا تنمو أشجار بيت بسور بيت آخر، ويستطيع كل مالك أن يعمل ما ينبغي لبيته في كل وقت من هدم وإصلاح دون أن يضايق جاره..."** [1] فالتخطيط المحكم في البناء يزيد من جمال المدينة ويساعد على توفير الاستقرار للنّاس، وزاد ناصر خسروا على ذلك بوصف المشاهد: **"ويأتي على رأسها جميعا مشهد الخليل إبراهيم عليه السلام والذي كان مزارا للكثير من الغرباء..."** [2]هذه المشاهد مفعمة بالروحانيات ولقد حظي الرحّالة برؤية هذه المشاهد والتبرّك بها محاولا إعطائنا صورة حقيقية عنها، فحتى الغرباء من

[1] - الرحلة الحجازية كتابات بعض الرحّالة المسلمين، الدكتور رحاب السيد جناحة، دار الآفاق العربية، القاهرة، ، ط1 2014.؛ص381.

[2] - المصدر نفسه، ص 383.

أوطان مختلفة زاروا قبور الصالحين، وهذا دليل قاطع أن أنبياء الله وأوليائه الصالحين موجودة قبورهم في **أماكن** مقدّسة اختصّها الله برحمته وكرمه حتى يستميل قلوب الناس إلى زيارتها والتعرّف على مقدّسات العالم الإسلامي.

كما نجد معظم الرحّالة زاروا مصر والقاهرة وأبدوا انطباعاتهم ومشاهداتهم لها، فمنهم من كان وصفه لها وصفا عاما شمل مدنها، سكانها، مدارسها، مساجدها...والبعض **انبهر بوصف نهر النيل** والتركيز عليه في المتون الرحلية، لكنّ منهم من كان رحّالة أثري همّه جمع الآثار ودراستها كالهروي الذي جُبل على السفر والتّرحال فجاب العالم حتى أنه كلما **زار موضعا ما وأعجب** بأثاره يكتب اسمه عليه ومن بين الآثار التي زارها أهرامات مصر قائلا: "**الأهرام من عجائب الدنيا وليس على وجه الأرض شرقيها وغربيها عمارة أعجب منها ولا أعظم ولا أرفع ورأيت بمصر أهراما كثيرة منها خمسة كبار والباقي صغار...**" [1]

وزاد في حديثه **عن اختلاف الروايات عن** سبب بناء الأهرامات ومن هو بانيها؟ وما الغرض والفائدة من بناءها؟ قال: "...**منهم من قال إنها قبور للملوك ومنهم من قال إنهم عملوها خوفا من الطوفان**"[2]

الأهرامات المصرية هي أبنية قديمة وهي رموز للحضارة المصرية القديمة وصفوة القول أن المكتشفات الأثرية هي مخلفات مادية لحضارة من الحضارات ونتائج مجتمع من المجتمعات استخدمها في مختلف الأغراض، فالأثري لما ينقّب عن الآثار ويدرسها من حيث صلتها وعلاقتها بالإنسان فهي مرآة عاكسة له ومنها يمكن التعرف على قدرته الصناعية، وذوقه الفنّي، ومستواه الحضاري والاقتصادي وأفكاره ومعتقداته. ويعدّ علم التاريخ بمثابة القلب النابض لعلم الآثار، فهو يمدّه بمعلومات هامة حول المدن والمعالم المندثرة والباقية، فكم من معلم أو حضارة انمحت واندثرت آثارها

[1]- الرحّالة المسلمون في العصور الوسطى، الدكتور زكي محمد حسن، شركة نوابع الفكر القاهرة، ط1، 2008، ص 77.
[2]- المرجع نفسه، ص 77.

ولم نكن نسمع بها لولا ما حفظته كتب التاريخ، والرحّالة على اختلاف مقاصدهم الجغرافية والأثرية باعتبار هذه المصنفات التاريخية شاهد عيان على حقب تاريخية متزامنة، ومعالم أثرية أو عمائرٍ إسلامية خالدة خطتها أنامل الإنسان في نصوص رحليه كشفت عن تاريخ الحضارات والأمم السابقة باعتبارها تراث الأمة وسجّل ماضيها وحاضرها ومستقبلها.

اهتمّ أدب الرحلات بوصف الحياة الاجتماعية للبشر، الذين زارهم الرحّالة وتعّرف إليهم محاولا رصد جوانب هامة من حياتهم اليومية كاهتمامات كل طبقة من المجتمع، مشاغلهم اليومية، إحصاء الفئة العاملة من رجال ونساء **"كما اشتغلت بعض النساء العاملات بالتجارة، حيث ذهبن إلى الإسكندرية عن طريق رشيد ودمياط إلى ميناء بولاق ومعهن السلع والبضائع"**[1] فالمرأة شاركت الرجل في عمل التجارة فكانت تسافر من منطقة لأخرى لتحميل البضائع إما عن طريق البرّ أو البحر، واستقصت الرحلات عادات وتقاليد الشعوب التي اختلفت أعرافها من بلد لآخر فعقد الرحّالة مقارنة استوفت أوجه الشبه والاختلاف في العادات والتقاليد كالاحتفال بالمولد النبوي الشريف الذي يولّيه المسلمون اهتماما كبيرا، لكن طريقة الاحتفال به تختلف من بلد لآخر فعند المصريين **"كان له طابع خاص لأنه أوّل الأعياد الإسلامية، وقد حرص سلاطين المماليك وعامة الشعب على الاحتفال به احتفالا يفوق الوصف من حيث العظمة والفخامة، وكان الاحتفال يبدأ من بداية شهر ربيع الأوّل ويستمرّ حتى الثاني عشر من نفس الشهر، وكان السلطان يقيم خيمة في الحوش السلطاني بالقلعة سميت بخيمة المولد، وأوّل من أقامها هو السلطان قايتباي وكلّفها ثلاثون ألف دينار، وكان الاحتفال الرسمي يبدأ ظهرًا ويستمرّ حتى ساعة متأخرة من اللّيل، ويبدأ بقراءة القرآن ويجلس مع السلطان شيخ الإسلام والقضاة الأربعة وشيوخ العلم**

[1]- الأوضاع الحضارية في مصر والشام في العصر المملوكي، الدكتور سماح السلاّوي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2014؛ص236.

وبعد صلاة المغرب تمد أسمطة الطعام المنوّع، وبعدها ينشد المنشدون ويمدحون في الرسول عليه الصلاة والسلام"[1]

فالاحتفال بمولد خاتم الأنبياء إنه عادة تعوّد المسلمون على تعظيمها كل سنة تعبيرا عن حب الناس وامتنانهم لهذا الرسول الأعظم رغبة في رضاه، فجاء الوصف مفعما بالروحانيات التي ترجمتها كثرة قراءة القرآن وإلقاء دروس فقهية تعليمية، والتذكير بسيرة الحبيب المصطفى ونضاله الطويل في نشر رسالة الإسلام وتثبيت قلوب الناس على دين واحد.

رمضان شهر عظّمه الله سبحانه وتعالى وفضله على سائر الشهور والأيام لأنه نزل الوحي على الصادق الأمين في هذا الشهر المقدّس. فكلما حلّ رمضان حلّت البركة والاطمئنان في قلوب ا□سلم□ □ا فيه من نورانية تعمل على تصفية القلوب كما أنه يأتي مصطحبا معه عادات وتقاليد تميّزه عن باقي الأشهر، فهناك عواصم إسلامية تشترك في تقاليد تعودت عليها كشراء الأواني الجديدة، تنظيف البيت وإحضار لوازمه من ستائر وبعض الأثاث التي يستوجب وجودها، إعداد الحلوى وشراء التوابل ا□اصة بشربة رمضان وزيادة على هاته التجهيزات المادية هناك عبادات وفرائض اعتاد المسلم على القيام بها كالصلاة في المساجد، قيام الليل حتى وقت السحور، ومن عادات أهل مكة في رمضان **"إذا حلّ رمضان تضرب الطبول والدبادب عند أمير مكة، ويقع الاحتفال بالمسجد الحرام من تحديد الحصر وتكثيرا الشّمع والمشاعل حتى يتلألأ الحرمُ نورا ويسطع بهجة وإشراقا، وتتفرق الأئمة فرقا، وهم الشافعية والحنبلية والحنفية والزيدية، وأما المالكية فيجتمعون على أربعة من القرّاء يتناولون القراءة، ويوقدون الشمع، ولا تبقى في الحرم زاوية ولا**

[1]- الاوضاع الحضارية في مصر والشام في العصر ا□ملوكي؛ د.سماح السلاوي، ص 215.

ناحية إلا فيها قارئ يصلي بجماعته، فيرتج المسجد لأصوات القرّاء وترق النفوس وتحضر القلوب وتهملُ الأعين..." [1]

شهر رمضان شهر الصيام وتلاوة القرآن، شهر الغفران والعتق من النار، تضاعف فيه الحسنات وتفتح أبواب الجنات، وتُجاب فيه الدعوات، شهر يجود الله فيه سبحانه على عباده بأنواع الكرامات والعطاءات. فصيامه واجب لأنه يطهّر النفس ويحصّنها من ارتكاب الفواحش ومن نفحات رمضان تزكية النفس ومجاهدتها على تحمّل الجوع والعطش، الإحساس بحاجة العبد إلى ربه بغية مغفرته والفوز بالجنة، ونجد في كتب الرحلات أن معظم النصوص تشيد بعظمة هذا الشهر، وكيفية التحضير لاستقباله، والذي زاد من فضله الإكثار من تلاوة القرآن الكريم وإعطاء الصدقات للمحتاجين فهذا السلوك النبيل ما هو إلاّ مظهر من مظاهر الحضارة العربية الإسلامية ودعامة من دعامات الإسلام.

اللباس تمثّل الانتماء، فكل بلد له لباس خاص يتميز به عن باقي البلدان كالفقهاء الذين اعتادوا على وضع العمائم على رؤوسهم، في بعض الدول الإسلامية كما كشفت الرحلة النقاب عن الفرد في سلوكه وعقيدته، الظروف المحيطة به والتي كانت سببًا في نجاحه وترقيته في المجتمع أو العكس، اهتمت بعض الكتب بوصف الرجل البدوي الذي عاش في الفيافي والأرياف وكان دخله اليومي يقتصر على رعي الغنم والتكسّب منه، بينما رجل المدينة عاصر متطلبات الحياة اليومية الراقية، فكان أكله مميزا ولباسه كذلك درس في المدارس والجامعات التي فتحت أمامه الباب لمستقبل جديد وحياة جديدة.

نجد في النصوص الرحلية أنها تحفل بالحديث عن أمراء وسلاطين الدولة العباسية، التي غلب على حياتها الاجتماعية البذخ والترف فعاش الحكام في القصور الفخمة المليئة بأنواع الزينة ومظاهر العبث والمجون بسبب التأثر بحضارة الفرس من وجوه كثيرة.

---

[1]- رحلة ابن بطوطة، ص 166.

الرحّالة رفاعة الطهطاوي زار فرنسا ومكث بها خمس سنوات فكان سبب القيام بالرحلة أنه كُلّف ببعثة علميّة من طرف محمد علي حاكم مصر آنذاك، فلما زار باريس انبهر بحضارتها فراح يصف الحياة هناك من جوانب متعددة، ثقافة الناس، عاداتهم وتقاليدهم، الطابع الجغرافي في البلد بيوته، طريقة الأكل واللباس، الصنائع والقوان□ الدستورية □ا فيها أن سكان فرنسا متساوون في ا□قوق والواجبات: "...سائر من يوجد في بلاد فرنسا من رفيع ووضيع يختلفون في أجزاء الأحكام المذكورة في القانون..." [1]

إنّ صورة الآخر كانت من ب□ أهم النقاط الإسلامية التي توقف عندها الرحّالة باعتبار أن هذا الأخير جال العالم من شرقه إلى غربه فحاور الناس وشاركهم حياتهم، وصوّر معيشتهم وأسلوب تعاملهم مع بعضهم البعض ومع الغريب الذي دخل ديارهم وهو لا يعرف سوى تسمية البلد الذي دخله. فكيف ينظر الناس إلى الآخر؟ هل هو واحد منهم يجب احترامه وتوفير الجوّ المناسب لراحته؟ أم هو مجرّد عابر سبيل يلقى الصدقة من أحد المحسنين بعدها يغادر ا□كان الذي نزل به.

إنّ الصراع بين الأنا (الذات الراحلة) والآخر ولّد ضغوطات نفسية واجتماعية وثقافية خصوصا إذا كان الأنا رجلا مسلما دخل ديارا غربية لا يتقن لغتهم فهو من طينة غير طينتهم، له دين وعادات وتقاليد خاصة به، وله مستوى ثقافي محدود لا يؤهله لأن يتأقلم مع الغرب مثل أمين الريحاني، عندما سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية أحسّ بغربة روحية وفكرية، كيف يتعامل مع الأمريكيين، فهو يحسن بعض الشيء من اللغة العربية والفرنسية قال: "**هجرت وطني وفي صدري الخوف ممّن أتكلّم لغتهم والبغض لمن في عروقي شيء من دمهم والبغض والخوف هما توأما الجهل**"[2].

فأمين الريحاني كان يعاني الأمرّين معا خوفه من إتقان لغة الأمريكيين حتى يتأقلم معهم وتستقيم حياته بجوارهم وبغضه للعرب الذين يحمل دمهم في عروقه، ويخاف أن يخرج عن عاداتهم

1- أدب الرحلة عند العرب، الدكتور حسني محمود حسين، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1983، ص 74.

2- ملوك العرب، أمين الريحاني، دار الجيل بيروت، ط8، 1987، ج8/1.

وأعرافهم. فهذا الصراع ولّد في نفسه الجهل بما تخبئه وتحمله صفحات الحاضر والمستقبل. بالمقابل نجد بن بطوطة عند زيارته للدول الإسلامية لم يشعر أنه غريب لأنه وجد من يستقبله ويقدّم له الطعام لا على سبيل التكرم والتفضّل بل لأنه كان هناك تنظيما محكما وضعته الدولة وهو ما يسّمى بنظام الزوايا أو الربط، وهي دور للضيافة ينشئها رجال الصوفية أو بعض أهل الخير من مالهم الخاص، يتولوا أمر المسافرين ويشرفون على توفير الراحة لهم.

كما حضي الآخر بوصف مشفع في كتب الرحلات، التي أفردت نصوصا كثيرة لأشخاص تعرّف إليهم الرحّالة كالشخصيات السياسية والدينية والأمراء والسلاطين وحتى الشخصية العادية أخذت نصيبها من الحوار والوصف، وقد لفت انتباهنا تركيز ابن خلدون في رحلته على وصف الآخر وتقديم ملامح كل شريحة من شرائح المجتمع، فنراه يصف تيمورلنك وهو في ذلك يقرّ بتجربته الشخصية في الحكم على أحد الملوك: "**وهذا الملك تيمور من زعماء الملوك وفراعنته والناس ينسبونه إلى العلم، وآخرون إلى اعتقاد الرفض، وآخرون إلى انتحال السحر وليس من ذلك كلّه في شيء، إنما شديد الفطنة والذكاء كثير البحث واللّجاج بها يعلم وبما لا يعلم**"[1]

فصورة الملك تيمورلنك في نظر ابن خلدون تبقى في حدود الاستقبال الحسن الذي لقيّه منه عندما سأل عنه فخرج إليه ملبيّا نداءه ومن هنا نستنتج أن ابن خلدون كان ينزل الناس منازلهم.

ومن الشخصيات الدينية والعلمية التي كان لها وقع مشهدي على رحّالينا جمال الدين، الرجل الفقيه، الملتزم بقضايا بلده وشعبه فيصفه ابن جبير ويثني عليه: "**...كان رحمه الله وزير صاحب الموصل تمادى على هذه المقاصد السنية المشتملة على المنافع العامة للمسلمين في حرم الله تعالى**

[1]- التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، عبد الرحمان ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، د ط، ص 428.

وحرم رسوله صلى الله عليه وسلم أكثر من خمسة عشرة سنة ولم يزل فيها باذلا أموالى لا تحصى في بناء رباعٍ بمكة مسبّلة (جعل الماء في سبيل الله) في طرق الخير والبرّ مؤبدة..." [1]

شخصية جمال الدين تستحق التقدير والتعظيم، فبورك لهذا الرجل الصالح الذي سيشهد له كل ركن من أركان المدينة وكل مشعر حرام في مكة على سخائه وعطائه وسيظل التاريخ شاهدا على عمله النبيل.

إنّ حضور صورة الآخر في أدب الرحلات دليل على وجود التواصل الإنساني بين المجتمعات العربية الإسلامية والغربية، فهذا الآخر شكّل حدثا مهمّا في متون الرحلات بحيث كان محطةٌ يستوقف عندها الرحّالة ليشكل منه صورة حيّة تبقى خالدة في التاريخ والذاكرة "**فقد رسمت الرحلات الأندلسية صورا وأشكالا متنوعة للآخر حملت في إطاراتها كثيرا من ملامح الآخر. وطبيعة حياته، وأسهمت بشكل لافت في إدراج العربي الأندلسي ضمن المنظومة الكونية من خلال الانفتاح على الآخر البعيد ونقل عدد من عادات وتعاملات الشعوب خارج الحضارة الإسلامية وداخلها**"[2].

الرحلات الأندلسية سلّطت الضوء على الآخر باعتباره المحرّك الأساسي لمسار الرحلة فتنوعت مذاهبه بين عربي مسلم وأعجمي غير مسلم وتعددت مواهبه التي صقلت شخصيته وفتحت المجال أمام الآخر البعيد موطنا وفكرا للانفتاح على حضارته.

الرحلة منابع غنية تختلف مظاهر حياة الجامعات البشرية فيها من صور وأخبار ومغامرات، ومعارف وعلوم، إنها خزائن تفل بالمادة النثرية في مختلف المجالات، وتمثل تجربة تعكس صور الإنسان عبر العصور، فامتازت الرحلات بخصوصيات كونها تدخل في مصاف الأدب لأنها تحوي عناصره

[1]- رحلة ابن جبير، دار بيروت للطباعة والنشر، د ط، ص 102.

[2]- صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية، رسالة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، إعداد الطالب بلال سالم الهروط، إشراف الدكتور فايز القيسي، ص 24.

الأربعة ما حدا بالدكتور شوقي ضيف إلى اعتبار أدب الرحلة عند العرب "**خير ردّ على التهمة التي طالما اتهم بها هذا الأدب وتقصد تهمة قصوره في فن القصّة ومن غير شك من يتهمونه هذه التهمة لم يقرؤوا ما تقدّمه كتب الرحلات من قصص عن زنوج إفريقية وعرائس البحر، وحجاج الهند وأكلة لحوم البشر وصنّاع الصين...**"[1]

أدب الرحلة غنية موضوعاته التي تأرجحت بين العلمي والأدبي فعمد أصحابها إلى انتهاج أسلوب الحقيقة والخيال في بعض الأحايين باعتبار نصوص الرحلة تحوي الغريب والطريف لذلك يجد القارئ في الأدب متعة فنية تجعله يتعايش مع أحداث الرحلة من بدايتها إلى نهايتها.

عندما نقرأ بعض الرحلات ونتمعّن فيها ونستخرج مكنوناتها، الشيء الذي يلفت انتباهنا هي اللغة التي وظّفها الرحّالة لتوصيل خطابه إلى المتلقي كما نعلم أن معظمهم لم يقبل على كتابة رحلته بنفسه بل كلّف غيره ليقوم بهذه المهمة لذا اختلف كل واحد منهما في تقديم مادته "**لم يسلك أصحاب الرحلات الأخرى منهجا واحدا في تقديم ما دونوه، بل اختلفت مناهجهم تبعا لاختلاف الموضوع والوجهة وطبيعة المادة التي اهتموا بها**"[2]

وقد سلك ابن بطوطة في رحلته منهجا معينا تمثل في تنوع المادة الوصفية من أشخاص وبلدان وطرق ومعالم أثرية حتى رجال الصوفية كان لهم حظ من التبجيل والتعظيم لمثل قول في شيخ زاوية أصفهان: "**أقمت عند الشيخ قطب الدّين بهذه الزاوية أربعة عشر يوما، فرأيت من اجتهاده في العبادة وحُبّه في الفقراء والمساكين وتواضعه لهم ما قضيتُ منه العجب، وبالغ في إكرامي وأحسن ضيافتي وكساني كسوة حسنة...**"[3].

---

[1]- الرحلات، شوقي ضيف، دار المعارف، ط4، ص 8.

[2]- أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، الحسن الشاهدي، الجزء 1، منشورات عكاظ، د ط، ص 603.

[3]- رحلة ابن بطوطة، ص 201.

الشيء الملفت للنظر هو النزعة الصوفية التي تحكّمت في نصوص الرحلة من لقاءاته المتكرّرة مع الشيوخ والأولياء وذكر كراماتهم، فالرجل متحمّس أشدّ الحماس لعالم التصوّف والمتصوفة، حتى أن رحلته كانت بحثا دائبا عن الأولياء والصالحين لنيل بركتهم.

أمّا ابن جبير فقد سلك طريقا آخر حيث اقتصر وصفه على الآثار الخالدة والمشاهد المباركة كونه عالما فقيها يولّي المساجد وقبور الصحابة والأولياء جلّ عنايته واهتمامه، ففي كل بلد يحلّ فيه يشغل نفسه في إحصاء مساجده. فعند زيارته للقاهرة ذكر بعض مشاهدها "...**فمن ذلك المشهد العظيم الشأن الذي بمدينة القاهرة حيث رأس الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وهو في تابوت من فضّة مدفون تحت الأرض قد بني عليه بنيان حفيل يقصر الوصف عنه ولا يحيط الإدراك به ...**" [1].

كان وصف ابن جبير للمشاهد والأماكن المقدّسة وصفا مفصّلا ترجمته نزعته الدّينية؛ والتي عبّرت عن عاطفته الجيّاشة نحو معالم الحضارة الإسلامية ؛لذا امتاز أسلوب الرّحالة بالحيوية وسهولة اللغة بحيث لا يشعر القارئ بالملل عند قراءته لنصوص الرحلة لأن صاحبها يلجأ كثيرا إلى الاقتباس من القرآن الكريم؛ حتى غدت رحلته نموذجا يحتذى به في الوصف ؛وخاصّة وصف المقامات المقدسة وكشف مدى اشتياق الحجّاج إلى زيارة مكّة ومدينة الرسول عليه الصلاة والسلام ؛وكل مشعر حرام فيهما باعتبار الحجاز كان ولا يزال إن شاء الله مركزا لتجمّع المسلمين من كل حدب وصوب تتهافت أنظارهم ؛وتهوى أفئدتهم للنّظر إليه ولمس كل حجر موجود في هذا المكان المقدّس.

القارئ لنصوص الرحلات يلاحظ أن بعض الرحّالة يضمّن رحلته أبياتا من الشعر إمّا امتنانا للسلطان الذي لقيه وتعبيرا صادقا عن حبّه للبلد الذي نزل به كما فعل ابن بطوطة لكن كاتب الرحلة ابن جزّي يستشهد بأبيات شعرية لعلي بن حبيب التّنوخي في وصف بلده صفاقس بتونس:

[1]- رحلة ابن جبير، أبي الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، مركز ودود للمخطوطات، دط، ص 44.

سقيا لأرض صفاقـــــس ذات المصانع والمصلّى

محمى القصير إلى الخليج فقصرها السامّي المعلّى

بلدٌ يكادُ يقولُ حيـــــن تزورهُ: أهلاً وسهـــــلاً

وكأنه والبحر يَحْـــــسُ رُ تارةً عنه ويِمـــــلاً[1]

فهذا المقبوس الشعري يُؤكد بوضوح جمال مدينة صفاقس التي ألهبت المشاعر لرؤية محاسنها حتى غدا بهاء طبيعتها مقياسا لتفوقها في جلب السيّاح والزائرين.

ثم تظهر شعرية ابن جبير عند وصوله مكّة المكرمة ناشدا:

أقول وآنست باللّيل نــاراً لعلّ سراجَ الهُدى قد أنَــارَا

وإلا فما بالُ أُفُق الدُّجى كأن سنَا لبرق فيه استطارا

وهذا نسيمُ شذَ المسكِ قدْ أُعيرَ أمِ المِسْكُ منه استَعَارَا

جرى ذكر طيبة ما بيننـــا فلا قلبٌ في الركب إلاّ وطارا

حنينَا إلى أحمد المصطفى وشوقا يهيج الضُلوع استعارًا[2]

الأبيات الشعرية تكشف عن العاطفة الدينية العظيمة لأبن جبير وعن شوقه المتوهّج لرؤية مرابع الطّهر والقداسة فشعره هذا قد أطرب النفس وأطنب في وصف مقدّسات المسلمين التي لا يماثلها أي

---

[1]- رحلة ابن بطوطة، ص 18.

[2]- رحلة ابن جبير، ص 17.

تصوير على وجه المعمورة لأن الرّحالة كانت تشغله المعالم الحضارية كالآثار والمساجد فوصفها بكل صدق وعفوية واسترد في وصفه كل ما يتصل بهذه المعالم تواريخها وأعلامها.

ومنهم من يوظف الشعر لأغراض بلاغية ليخرج من دائرة السرد المباشر ويجعل القارئ لسطور الرحلة يتذوق متعة القراءة من محاكاته لتلك الأبيات وكأنه عايش أحداث الرّحلة، وبعض النصوص الرحلية يغيب فيها الشعر لأن **"أسلوب الكتابة واللّغة التي يتوسّل بها كاتب الرحلة فإنه قد يضيف إليها قيمة أدبية وبخاصة عندما يحتفل الكاتب بالأساطير والخرّافات، وبعض المحسّنات البلاغية، وجمال اللفظ وحسن التعبير وارتقاء الوصف، وبلوغه حدّا كبيرا من الدقة علاوة على ما يستعين به أحيانا من أسلوب قصصي، سلس، مشرق، وهذا الذي يجعل بعض الدارسين يُدخلون أدبيات الرحلات ضمن فتون الأدب العربي عندما تصبح قراءة هذا اللّون من الكتابة متعة ذهنية**[1]

نلاحظ أن هذا اللون النثري لم يخرج عن الأسلوب البلاغي والأدبي الذي طغى على الفنون الأخرى وهو أسلوب التصنّع والتزويق اللفظي ومن الرّحالة من ضمّن رحلته بعض ا□كم فحسب علمنا أن ا□كمة هي ذلك النظر ا□عمّق لتجارب ا□ياة، فسبل السفر قد□ا كانت صعبة للغاية لأن وسائل التنقل اقتصرت على الدواب □ا جعل ا□سافر يتعرّض □رارة ا□ّو وبرودة ا□ّو الشديدة. الأمر الذي عرقل مواصلة السفر، فمنهم من كان يمرض ولا يجد من يساعده خصوصا إذا رحل الرجل لوحده دون مرافق، فمن تقاليد السفر، أن يختار ا□سافر رفيقا حيث **"لا يخرج وحده فالرفيق ثم الطريق وليكن رفيقه ممن يُعينه على الدّين فيذكّره إذا نسي ويعينه ويساعده إذا ذكر فإن المرء على دين خليله ولا يعرف الرجل إلا برفيقه"**[2].

---

[1] - مشوار كتب الرحلة قد□ا وحديثا، الدكتور سيّد حامد النسّاج، مكتبة غريب ، د ط، ص 08.

[2] - إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي مع مقدمة في التصوف الإسلامي ودراسة تحليلية لشخصية الغزالي وفلسفته في الإحياء بقلم الدكتور بدوي طبانة، الجزء الثاني، مكتبة ومطبعة "كرياط فوتر" سمارانج أندونيسيا ، د ط، ص 251.

المسافر يعاني من وحشة الطريق بلا رفيق وقد تتقلب الأجواء من حرّ لافع وبرد قارص يجب على الرجل إذا عزم على الرحيل أن يخرج بمعيّة مرافق سواء كان من القرابة أو من الأصدقاء.

ومن حكم ابن جبير في خيانة الصديق:

وكم من صاحب عاشرته وألفتُهُ فما دام لي يوْمًا على حُسنِ عَهْدِه[1]

فطابع الالتزام والتديّن كان مصاحبا لحياة ابن جبير لذا عرفهُ النّاسُ رحالةً أكثر منه شاعرًا.

الرّحلة هي لون نثري له أسسهُ وبنيته الخاصة التي تجعل منه خطابا حكائيا يجمع بين الإفادة والإمتاع، فالرّحّالة يتقمّص شخصية السارد لأحداث عايشها أو أماكن شاهدها موظّفا لغته التي تخدم غرضه كناقل للأخبار ومن هنا يظهر أسلوب الكتابة الذي يتحرّى الصدق والموضوعية، فنرى السجع غلب على بعض النصوص الرحلية كما جاء في نثر ابن جبير من وصفه لدمشق:

"جنّة المشرق، ومطلع حسنه المؤنق المُشرق، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها، وعروس المدن التي اجتليناها. قد تحلّت بأزاهير الرياحين، وتجلّت في حلل سندسية من البساتين، وحلّت من موضوع الحسن بالمكان المكين، وتزيّنت في منصّتها أجمل تزيين وتشرّفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمّه ؛صلّى الله عليهما ؛إلى ربوة فيها ذات قرار معين، ظلّ ظليل، وماء سلسبيل، تنساب مذانبه انسياب الأراقم بكل سبيل..."[2].

إنّ عبارات ابن جبير الموحية في وصف دمشق وما صاحبها من مباني وعمائر غلبت عليها الصنعة اللفظية كالجناس التام في قوله (المشرقِ والمُشْرِق) والسجع الذي نكرّر كقوله: (استقريناها

---

[1]- أدب الرحالة الحجازية عند الأندلسيين من القرن السادس حتى سقوط غرناطة، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي، إعداد عبد الله بن عثمان الياقوت، إشراف الدكتور محمود حسن زيني، 2001، ص 183.

[2]- أدب الرحلات، الدكتور حسين محمد فهيم، ص 18.

واجتليناها) وزاد أيضا (الرياح□ والبسات□) والشيء ا□لفت في هذا النص هو الاقتباس من القرآن الكريم كقوله: (المسيح وأمه عليهما السلام، قرار، ظل ظليل، ماء سلسبيل...)

الرحالة لم يلتزم أسلوبا واحدا في وصفه؛ بل زاوج بين أسلوب الصنعة والاقتباس فهو أسير الصنعة يلتزمها التزاما كلّيا أمّا اقتباسه من القرآن الكريم دلالة على وازعه الدّيني وعاطفته الدّينية القوية تجاه الإسلام وحامل رسالته السماوية.

من قراءتنا لبعض النصوص الشعرية والنثرية لبعض الرحّالة التي ذكرنا أسماءهم، وقد ركّزنا على رحلة ابن جبير لما لهذه الرحلة من قيمة علمية لأن عصر تدوين الرحلات بدأ من رحلة ابن جبير خلصنا إلى النقاط الأساسية في أسلوب كتابة النصوص:

- لم يسلك أصحاب الرحلات منهجا واحدا في تقديم المادة العلمية.

- شعر ابن جبير كان قويا خصوصا في وصف مكّة وما جاورها. فجاء حاملا لقيم إسلامية خلقية غلبت عليها النزعة الدينية ا□تأجّجة في الرغبة لزيارة هذه الآثار الخالدة.

- النثر جاء جامعا لكل ما شاهده الرحّالة ولاحظه كذكر المنازل، الأعلام، المقدسات، المشاهد، البساتين...إلخ

- ظهرت شخصية الرحّالة الذي امتاز أسلوبه بالسلاسة والصنعة اللفظية التي تأرجحت بين السجع والجناس مما أطرب النفس وجعلها ترنو إلى قراءة المزيد.

- النثر يعبّر عن ذوق العصر الحضاري للرحّالة.

- المحتوى الأدبي للرّحلة أيّا كان هدفها سواء ديني، أو □اري أو علمي تسهم في تثقيف القارئ وإثراء فكره وصقل شخصيته.

- الرحالة ظهر بشخصيات متنوعة تقمّص أدوارا مختلفة كونه رحّالة جال العالم، شاعرًا غلبت عليه العاطفة الدّينية ؛واعظا رافضا لكل ما يشين إلى حضارة الإسلام ويعرقل مسارها؛ و ناثرا مبدعا في كلامه، صادقا في وصفه، دقيقا في ملاحظاته.

- كتب الرحلات خصوصا متونها تصوّر ملامح الحضارة وثقافة شعوبها ؛لذلك ظهرت أدبيتها التي ناشدت آداب وأخلاق الرّحالة المبدع على وجه الخصوص.

الخصائص الفنية لأدب الرحلات:

أدب الرحلات يتميز بجملة من الخصائص الفنيّة نجملها في:

الوصف:

قامت حياة العربي على الرحلة والانتقال سعيا وراء الكلأ وبحثا عن الماء يقيم حيث يرى الرزق، فيحلّ بخيمته وينصب أثافيه[1] ويوقد النار ويعيش حتى ينضب[2] هذا المورد، فينتقل إلى غيره ويعيش بذلك في مسّاس مع الطبيعة وتجاور مستمر، يراقب النجوم والسحب والرعد، فيصف الرمال الذهبية، والراحلة باعتبارها مرافقه يقضي له مآربه، فكلما انتقل العربي إلى مكان آخر انتابته عاطفة الشوق والحنين إلى مرابعه الأولى فيصف الأطلال ويذكر اسم الحبيبة، كما فعل امرئ القيس في معلقته:

وليل كموج البحر أرخى سدوله ... عليّ بأنواع الهموم ليبتلـــــــي
ألا أيّها الليل الطويل ألا أنجل ... بصبح وما الإصباح منك بأمثل[3]

---

[1]- أثافيه: الحجارة الثلاث تستخدم لتثبيت القدر عند طهي الطعام.

[2]- ينضب: ينفذ، يفرغ.

[3]- الأدب العربي في آثار أعلامه، الجزء 1، الجاهلية وصدر الإسلام، واصف بارودي خليل تقيّ الدين، الطبعة الكاثوليكية، بيروت، د ط، ص 6.

فتخيل امرئ القيس الليل حين يرخي ستائره على الكون بالبحر حين يغمر السابحين فشبّه هموم القلب بالليل في سواده فجاء وصفه صادقا يصوّر حالته النفسية المتوترة في الليل.

وقد سلك الرحّالة طريق الشعراء الجاهليين في وصفهم لمظاهر الطبيعة الحيّة **والصامتة، ، فنجد الوصف يطغى على النص الرحلي، فكل** رحلة تخلو من الوصف لا ترتقي إلى مصاف الأدب، فالرحالة هو خبير كونه الترحال وأكسبه معارف جغرافية وصفية، ليرصد غرائب ما شاهده ويدقّق في المشاهد التي مرّ بها **وتصويرها تصويرا فنّيا.**

الوصف ليس ثابتا في كل الحالات. قد يتراوح من شخص لآخر تتحكّم فيه طبيعة **العصر، وطبيعة الحالة النفسية للرّحّالة كابن خلدون** الذي عاش في عصر كثرت فيه الصراعات والحروب فنجد ملكة الوصف قد خمدت عنده، فلم يصف لنا كل المشاهد والأحداث التي عايشها فوصفه اقتصر **على وصف القاهرة فقط "رأيت حضرة الدنيا بستان العالم، ومعشر الأمم، ومدرج الذّر من البشر وإيوان الإسلام وكرسي الملك تلوح القصور والأواوين في جوّه وتزهر الخوانك والمدارس بآفاقه، وتضيء البدور والكواكب من علمائه، وقد مثل بشاطئ نهر النيل، نهر الجنّة، ومدفع مياه السماء يسقيهم النهلَ والعَلَل سَيحُهُ ويُجْبي إليهم الثمرات ...ومازلنا نحدّث عن هذا البلد وبعد مداه في العمران واتساع الأحوال"[1]**

فهو يحجّ بيت الله، ولا يذكر لنا سوى طريق الذهاب والعودة **فلم يصف لنا مكّة المكّرمة، أو أي مشعر حرام بالرغم من قدسية وعظمة المكان فأي إنسان زار الكعبة إلا وصفها ليشوّق الناس** زيارتها والتبرّك بتربتها.

---

[1]- **التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا**، عبد الرحمان ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني بيروت، لبنان، د ط، ص 264، 265.

بينما القلصادي قد تأجّجت نار الشوق في قلبه لزيارة مكّة المكرّمة، فراح يصف الكعبة الشريفة حـ قام بأداء مناسك العمرة: **"وحين أشرفنا على الكعبة الشريفة رأينا ما يُدهش الناظر ويحيّر الفكر والخاطر، بما خصّها الله تعالى به من الهيبة والتعظيم، فطفنا بها سبعا وصلينا الركعتين في مستقر الأمن والأمان: مقام أبينا إبراهيم عليه السلام، ثم خرجنا من باب الصفا إلى الصفا، وسعينا سبعًا، وقد تمّت العمرة بالحلاق"**[1]

القلصادي جاء وصفه مفصّلا راحل مناسك العمرة فنستشعر عفويته التي غلب عليها الطابع الروحي، فبدت المقاييس الدينية متحكمة في نصوص الرحلة، لأنه كلّما وصف مكانا حلّ به يثني على اشايخ الذين التقاهم ؛ويذكر اسم كل واحد منهم متطرّقا إلى إجازاتهم في القراءة والعلوم الأخرى.

السرد:

يعدّ السرد من أهم معالم البناء الفنيّ للرحلة فهو العمود الفقري الذي تُبنى عليه موضوعات الرحلة، فالرّحّالة يقصّ علينا الأحداث من بدايتها إلى نهايتها **"ولعل جسد الرحلة يتمثل في السرد الذي يعطي للرحلة شرعيتها الأدبية"**[2] ويجعلها ترقى إلى فنون القول الأدبي، فالسارد في الرحلة هو الذي يتولّى رواية الأخبار وترتيبها حسب تسلسلها الزمني، فالرحلة تقوم على الحركة التي قد تشترك فيها جماعة من الناس، وقد يتفرّد فيها الرحّالة بنفسه فهذه الحركة يتحكّم فيها عنصران مهمّان هما عنصر الزمان والمكان والرحّالة يسرد لنا كل وقائع الرحلة فيذكر كل حادثة مرّت عليه في زمانها **"فالمسلمون يتجهون في كل عام من شتى أنحاء العالم الإسلامي إلى مكّة والمدينة لتأدية هذه**

---

[1] - رحلة القلصادي لأبي الحسن علي القلصادي الأندلسي، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، د ط، ص 132، 133.

[2] - جمالية المشهد في أدب الرحلة الجزائري الحديث، رسالة ماجستير في الأدب الجزائري الحديث، إعداد الطالب عيسى بخيتي، إشراف الأستاذ الدكتور محمد مرتاض، جامعة تلمسان، 2011، ص 77.

الفريضة وكان النابهون منهم عند عودتهم إلى بلادهم يدوّنون مشاهداتهم ويصفون ما مرّوا به من البلدان ويعملون على أن ينفعوا الناس بتجاربهم فيصفون رحلاتهم تسجيلا لفضلهم وهداية لغيرهم"[1]

زيارة مكّة المكرّمة ومدينة رسول الله عليه أفضل الصلوات كانت من بين المحطّات الأساسية التي توقف عند الرحّالة فسرد ووصف لنا طريق الذهاب والصعوبات التي لاقاها في طريقه إلى أن وصل وصوّر مشاعره عند وصوله مكّة وتأدية مناسك الحج أو العمرة قصد التأثير في المروي له، وتشويقه وإثارة تعاطفه مع الراوي، ومع أحداث الرحلة، فالسرد في النص الرّحلي واقعي قائم على المشاهدة والمعاينة، وهو ليس من تأويل الخيال حتى لا تعتبر حوادث الرحلة مجرّد خرافات وأساطير لا تخدم فن الرحلة والسارد ينتهج عدّة اتجاهات حيث يقوم بسرد الأحداث سردًا منتظمًا، ثم يقوم بتقديم الشخصيات التي لفتت انتباهه والتي كانت المحرك الأساسي لمسار الرحلة فيذكر أسماءها وظيفتها ويسمي الأشياء والأماكن بمسمياتها، فالسرد هو مرجعية لما يتم سرده من أحداث ووقائع فيستخدم الراوي ضمير الغائب عند حديثه عن بلد ما في تراثه الثقافي والحضاري وقد يلجأ السارد أحيانا إلى انتهاج النمط التفسيري لشرح بعض الظواهر التي شدّته وطرحت بعض التساؤلات مثل أمين الريحابي عندما زار الحجاز، وأقام في ضيافة الملك حسين بن علي فلاحظ أن بعض الناس عندما دخلوا على الملك قاموا بإلقاء التحية "...**فكان الواحد منهم يقبل يد الملك مرة والآخر مرّتين، والآخر ثلاث مرّات، ومنهم من قبّل منها الكفّ والظهر ومنهم من زاد على ذاك فقبّل الركبة الملكية وكان جلالته يأذن بذلك ويقبل بعض الزائرين في وجوههم وقد يسحب مانعا من هم أرفع مقامًا من الجميع أي الأشراف العبادلة وهم أقارب الملك الأدنون"**[2]

---

[1]- الرحلة الحجازية كتابات بعض الرحّالة المسلمين، الدكتور رحاب السيد جناحة، ص 53.

[2]- ملوك العرب، أمين الريحاني، ص 32.

أمين الريحاني أبهرته طريقة إلقاء التحية فكان عليه أن يكتفي بذكر تقبيل يد الملك لكنّه فسّر هذه الطريقة وزاد عليها حسب مرتبة كل شخص من حاشية الملك.

إنّ تقبيل اليد سلوك حضاري يرمز إلى الاحترام والانقياد والخضوع؛ فكل من المقبِلين والمقبَّلين يعرف مقامه ولا يتعدّاه ولا يخجل من تصرفه هذا إزاء الملك.

كذلك يتجاوز السارد وظيفة السرد ووظيفة التفسير إلى التعليق على بعض الأشياء انطلاقا من وجهة نظره؛ ومن موقفه الفكري أو الأخلاقي أو وصفه لإحدى الشخصيات ؛ولكن بطريقة ساخرة تعبّر عن نوع من التهكّم والاحتقار مثل العبدري عند زيارته لتونس فوصف قابس وأهلها "....**ثم وصلت إلى مدينة قابس، ذات المخبر الخبيث، والمحيّا العابس، هواء وخيّم، ولؤم طبع وخيم، وتضييع المصليّات والمساجد وقلّة اعتناء بكل راكع وساجد**"[1]

العبدري كان جريئا في حكمه على مدينة قابس وأهلها؛ فجاء نقده لاذعًا عبّر من وراءه عن شعوره تجاه البلد وساكنيه ؛فهذا الرأي نابع من شخصية الرحّالة فآلمه ما حلّ بالنّاس من عدم تمسّكهم بتعاليم الدّين الإسلامي.

وصفوة القول أنّ السرد هو النقل المباشر للأحداث والوقائع التي عاشها الرحّالة وتحليلها ومعالجة أوضاعها؛ فلغة السرد ألفيناها بسيطة في معظم النصوص الرحلية كابن بطوطة بالرّغم من أنّه لم يُقدّمْ على كتابه رحلته بنفسه إلاّ أنّ سرد الأحداث جاء بسيطا بساطة شخصيته المتدينة ؛فنقل لنا حقائق ومشاهد عايشها بنفسه، نفس الشيء بالنسبة لرفاعة الطهطاوي الذي زار باريس وانبهر بحضارتها فجاء سرد الحقائق واضحًا لا غموض فيه.

[1]- رحلة العبدري، أبي عبد الله بن سعود العبدري، حققها وقدّمها الدكتور علي إبراهيم الكردي، ط1، 1999، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، ص 180.

إنّ هذا التباين في لغة السارد ومنهجه ما هو إلا امتداد للتواصل الحضاري الذي نقلته نصوص الرحلات عبر العصور الأدبية المتزامنة.

الفصل الثاني:

مدونات رحالة العصر الوسيط

1–ابن فضلان:

أ. التعريف به.

ب. مضمون رحلته.

2–ابن جبير:

أ. التعريف به.

ب. مضمون رحلته.

3–ابن بطوطة:

أ. التعريف به.

ب. مضمون رحلته.

4–ابن خلدون:

أ. التعريف به.

ب. مضمون رحلته.

توطئة:

اعتنى الرحالة بأدب الرحلة، و أولوه اهتماماتهم؛ فتعدّدت الدوافع للتأليف في هذا الفن، فمنهم من دوّن يوميات رحلته لتكون مرجعا يستفيد منه القارئ في مختلف المجالات العلمية ؛و منهم من قام بالرحلة لكنه امتنع عن تدوينها و أبقاها في سجل الذاكرة ؛يسترجع الرحالة أحداثها بين الفنية والأخرى؛ و الشيئ المشترك بين هؤلاء الرحالة الذين جابوا البلاد العربية الإسلامية ؛هو التعريف بالمدن التي زارها الرحالة كالأماكن المقدّسة و المعالم الحضارية ؛التي خلفها العرب و المسلمون خلال الحقب الزمنية المتعاقبة. فأدب الرحلة هو تراث ثري لما تحويه نصوص الرحلات من روافد تاريخية واجتماعية وثقافية وعمرانية...

تنضوي هذه المدوّنات تحت لواء أدب الرحلة؛ الذي تمخض به ثلة من الرحالة المشارقة والمغاربة؛ فوصفوا و أبدعوا في ذكر المشاهد و الأماكن التي شدّت انتباههم؛ فحوّلوا الوصف المحسوس والمرئي إلى نص أدبي؛ تتحرك معانية بواسطة لغة أدبية فصحى و أسلوب مسترسل ؛عبّر عن أحاسيس وعواطف الرحالة الذين تأجّجت نار الشوق فيهم لزيارة بيت الله ؛فكان المطلب الديني هو الذي غلب على معظم الرحلات ؛فطغت عليها الصبغة الدينية، فمن الرحالة الذين سجلّت أسماءهم بحروف من ذهب في سجل التاريخ و الحضارة ؛نذكرمنهم الأسماء الآتية.

ابن فضلان:

هو أحمد ابن فضلان بن عباس بن رشد بن حماد مولى محمد بن سليمان، كما أجمعت عليه جلّ المصادر التي احتفت بذكره.؛ [1]على الرغم من عدم وجود أيّة معلومات عنه ؛إلّا أنّه يحاول دائما في الرسالة أن ينسب إلى نفسه الدور الرئيسي؛. [2] عاش في القرنين الثالث و الرابع الهجريين، ولم تذكر الموسوعات أو كتب التاريخ عن ميلاده ووفاته، و لا سيرة حياته ؛تميّز الرحالة ابن فضلان ببراعة قلمه، و حسن بيانه و جودة عباراته، و عظيم إيجازه في التعبير، كان شديد الإيمان بالله متمسّكا بدينه و أخلاقه ،عرف بورعه و تقواه رغم الأخطار التي واجهته، و المشقّة الطويلة التي عناها.

دوافع الرحلة:

يروى أنّ الخليفة العباسي المقتدر بالله انتدبه للقيام برحلة سفارية لدى ملك الصقالبة من سكان الشّمال في أوربا على أطراف "نهرالفولجا" ومردّ ذلك: " ... **أنّ ملكهم ألمش بن يلطوار طلب الى الأمير المؤمنين المقتدر بالله أن يرسل إليه بعثة من قبله، تفقّهه في الدّين، و تعرّفه شرائع الإسلام و تبني له مسجدا، و تنصب له منبرا يقيم عليه الدعوة للخليفة في جميع مملكته، وسأله إلى ذلك أن يبني له حصنا يتحصّن فيه من الملوك المخالفين له."**[3]

فلبّى الخليفة العباسي دعوة الملك؛ و بعث إليه بعثة كان من ضمنها ابن فضلان أحد أعضاء الوفد في تلك السفارة، والذي أحسن القيام بالمهمّة الموكّلة إليه على أكمل وجه و صورة [4]. تحتلّ

[1]. العجائبية في أدب الرحلات, رحلة ابن فضلان نموذجا، رسالة ماجستير في الأدب العربي، إعداد الطالبة علاوي الخامسة، إشراف الدكتور حمادي عبد الله، 2005، ص 156.

[2]. تاريخ الادب الجغرافي، كراتشوفسكي، ص 187.

[3]. رسالة ابن فضلان، أحمد بن فضلان، في وصف الرحلة الى بلاد الترك و الخزر و الروس و الصقالبة، حققها الدكتور سامي الدهان، دط، ص 22.

[4]. ينظر الرحلات المغربية و الاندلسية، عواطف محمد يوسف نواب،ص 52.

رحلة ابن فضلان مكانة مرموقة في أدب الرحلات؛ سواء من الناحية الزمنية، أو من ناحية غنى الرحلة بمعلومات سياسية واجتماعية ودينية واقتصادية للمدن التي زارها ؛و عرّفنا بأحوال الصقالبة والروس والخزر مع اختلاف مذاهبهم وأخبار ملوكهم، أمّا المنهج الذي اعتمده ابن فضلان في سرد أخبار رحلته هو المنهج الوصفي و التاريخي؛ لذلك تعد رحلته أشبه بالقصة تتماسك حلقاتها و أحداثها، لقد أجاد ابن فضلان تصوير حياة الشعوب التي احتكّ بهم، ووقف عند أهمّ المحطات التي لفتت انتباهه ؛ووصفها بأسلوب سهل خدمته اللغة البسيطة المألوفة ؛حتّى إنّه عمد إلى توظيف ألفاظ اللغة البسيطة المناسبة للغة العصر الذي عاش فيه.

تأتي أهمية رسالة ابن فضلان في وصف بلاد البلغار؛ لأنها الأولى من نوعها؛ فقد جاء وصفه جامعا؛ شمل حضارتهم و عاداتهم و تجارتهم ؛و بأنّهم كانوا لا يزالون متخلّفون ؛مقارنة بماوصل إليه العرب المسلمون في مدنيّتهم التي فاقت كل الحضارات السابقة.

شهادة علماء الغرب لابن فضلان:

لقد نال ابن فضلان إعجاب الكثير من علماء الغرب من خلال رسالته التي لقيت رواجا واستحسانا كبيرا، فقد عرّف العالم بتاريخ و حضارة روسيا التي كان يجهلها معظمهم، فجاءت رحلته لتزيل ذلك الإبهام بما حوته من أخبار طريفة نسجها ابن فضلان بأسلوب جميل و لغة بسيطة، و من هؤلاء المنصفين لنجاح رسالة ابن فضلان نجد المستشرق الروسي كراتشكوفسكي يتحدث عنه قائلا: **" و يحتلّ ابن فضلان المكانة الأولى بينهم سواء من ناحية الزمنية، أو الأهمية الذاتية ؛و ذلك بسبب رسالته المشهورة، التي تجدّد الاهتمام بها في الأعوام الأخيرة، بنفس الدرجة التي تمتّعت بها لأول مرّة منذ مائة و عشرين عاما، و هذا الأثر بلا شك جدير بهذا الاهتمام خاصة في الآونة الحاضرة بعد أن أصبح لأوّل مرّة في متناول الجميع".**[1]

[1]. تاريخ الادب الجغرافي، كراتشوفسكي، ص187.

مضمون رسالة ابن فضلان:

خرجت البعثة من بغداد: " **يوم الخميس أحد عشرة صفر ميلادية، و ظل يصعد شرقا و شمالا مارّا بإقليم الجبال.. حتى وصل إلى الفولغا، عند ملك الصقالبة يوم الأحد إثنا عشر محرم ثلاثمائة و عشرة هجرية، فاستغرقت رحلته أحد عشرة شهرا في الذهاب، لاقى خلالها مصاعب و أحوالا مذهلة.**"[1]

فمرّ بإقليم الجبال فهمذان، فالريّ، و نيسابور و مرو؛ حتى وصل إلى بخارى التي أقام بها ثمانية و عشرون يوما.

وصف دراهم بخارى:

لاحظ ابن فضلان أثناء إقامته ببخارى أنّ الدّراهم المستعملة عندهم ليست واحدة بل مختلفة و لديها أسماء متعدّدة:"**ورأيت الدّراهم ببخارى ألوانا شتّى؛منها دراهم يقال لها الفطريفية؛وهي نحاس وشبه وصفر؛يؤخذ منها عدد بلا وزن مائة منها بدرهم فضّة؛وإذا شروطهم في مهور نسائهم:تزوّج فلان ابن فلانة بنت فلان؛ على كذا وكذا ألف درهم غطريفية ؛وكذلك أيضا شراء عقارهم؛ وشراء عبيدهم؛ لا يذكرون غيرها من الدراهم ؛ولهم دراهم أخر؛ صفر وحده أربعون منها بدانق؛ولهم أيضا دراهم صفر يقال لها السمرقندية ستّة منها بدانق**"[2]

عادات و تقاليد سكان بخارى تختلف تماما عن مناطق أخرى زارها ابن فضلان، فلاحظ أنّهم يستعملون نقودا غطريفية في شراء حوائجهم و مستلزمات بيوتهم، فحتّى في الزواج يكون مهر الفتاة صداقا قدره ألف درهم غطريفية ؛فهم لا يعيرون قيمة للذهب مادامت هذه النقود تكفي و تقضي مآربهم.

[1]. رسالة ابن فضلان، احمد بن فضلان. ص 25.

[2]- المصدر نفسه ؛ص 80.

وصف ابن فضلان لبلاد الترك:

خرج ابن فضلان من بخارى و مرّ على الجرجانية فأقام بها أيّاما ؛كان البرد قد بلغ حدّته، ممّا جعل النّاس لا يخرجون من بيوتهم و لا يتسوّقون. " **ولقد رأيت لهواء بردها ؛بأنّ السوق بها والشوارع لتخلو ؛حتىّ يطوف الانسان أكثر الشوارع و الأسواق فلا يجد أحدا، ولا يستقبله إنسان، و لقد كنت أخرج من الحمّام فإذا دخلت إلى البيت نظرت إلى لحيتي و هي قطعة واحدة من الثلج حتى كنت أدنيها إلى النار".**[1]

ثم واصل ابن فضلان السفر لتكون وجهته بلاد الترك؛ فلمّا وصل لم يجد من يستقبله هو ورفقائه ؛و كان الجوّ باردا لدرجة لم يجدوا حطبا يتدفّئون به، فواصلوا المسير ليكون مقرّهم إحدى القبائل التركية تعرف بالغزية.".......**إذاهم بادية لهم بيوت شعر، يحلّون و يرتحلون، ترى منهم الأبيات في مكان و مثلها في مكان آخر، على عمل البادية و تنقّلهم، فإذا هم في شقاء، وهم مع ذلك كالحمير الضالة لا يدينون لله بدين و لايرجعون إلى العقل، و لايعبدون شيئا، بل يسمّى كبراءهم أربابا فإذا استشار أحدهم رئيسه في شيئ قال له: يارب إيش أعمل في كذا و كذا؟**..."[2]

إنّ سكان هذه القبيلة الغزية مازالوا يعيشون الجاهلية الأولى ؛فقد عبدوا عليّة قومهم واتّخذوهم أربابا، و كانو كثيري التّرحال لا يعرف لهم الثبات والاستقرار في مكان معين، يعيشون عيشة ضنك ؛فتراهم كالدّواب ترعى في مكان مقفر؛ ثم واصل ابن فضلان في حديثه ليعرّفنا عن سكان هاته القبيلة ؛الذين تعوّدوا على عدم الاستحمام، فلا يستحي الرّجل من المرأة، و تظهر نسائهن عاريات دون مراعاة عواقب هذا التصّرف:..." **لا يغتسلون من جنابة و لا غير ذلك ؛**

[1]. رسالة ابن فضلان ؛أحمد ابن فضلان، ص 86.

[2]. المصدر نفسه ؛ص 92.

وليس بينهم وبين الماء عمل، خاصة في الشتاء، ولا يستتر نساؤهم من الرجال ولا من غيرهم، وكذلك لا تستر المرأة شيئا من بدنها من أحد من النّاس."[1]

هذا النّص دليل قاطع على أنّ هذه البلاد لم تعرف أي نوع من التحضّر؛ سواء أكان أخلاقيا أو اجتماعيا.

وصف عادات الزواج و الوفاة عند سكان غزية:

رغم الاختلاط المباح بين سكان هذه القبيلة؛ إلا أنّهم لا يعرفون للزنا طريقا، و إذا انتهك أحدهم حرمة النساء علّقوه بين أغصان شجرتين و شقوه نصفين، و من مراسيم الزواج عندهم: " **أن يخطب الواحد منهم إلى الآخر بعض حرمه إما إبنته أو أخته، أو بعض من يملك أمره، على كذا و كذا ثوب خوارزمي، فإذا وافقه حملها إليه، و ربّما كان المهر جمالا أو دوابا أو غير ذلك، و ليس يصل الواحد إلى امراته حتى يوفّي الصداق الذي قد وافق و ليّها عليه، و فإذا وفّاه إيّاه جاء غير محتشم حتى يدخل إلى المنزل الذي هي فيه، فيأخدها بحضرة أبيها و أمّها وإخوتها، فلا يمنعونه من ذلك".**[2]

ومن عاداتهم الاجتماعية التي جبلوا على ممارستها" **أنّه إذا مات الرجل منهم و له زوجة وأولاد، تزوّج الأكبر من ولده بإمرأته إذا لم تكن أمّه..**" [3] ومن طقوسهم أيضا: "إذا مات أحدهم يضعونه بحفرة ويسقفونها عليه، ويأتون ببعض الدواب ويذبحونها ويأكلون جزءا منها، ويتركون ما يزيد منها للميّت، ويقولون إنّها دوابه يركبها في الجنّة، وبعد ذلك ينحتون على قطع من خشب أشكالا

[1] – رسالة ابن فضلان ؛أحمد ابن فضلان، ص 93.

[2]. المصدر نفسه، ص 93، 94.

[3]. المصدر نفسه، ص 94.

لأناس كان الميّت قد قتلهم، و تقديرا لشجاعته يتركون هذه المنحوتات حول قبره ويقولون هؤلاء غلمانه يخدمونه في الجنة".[1]

لقد نقل لنا ابن فضلان مراسيم الزواج و الدفن بكل حذافرها ؛مع مراعاة الصدق في نقل الأحداث، فهو شاهد عيان لحياة شعوب؛ كان مجرّد التفكير بالوصول إليها ضرب من المستحيل.

بعد المدة الزمنية التي قضاها ابن فضلان و رفاقه في قبيلة غزية ؛عزموا على مغادرة المكان؛ والتوجّه الى قبيلة تركية عرف قومها باسم الباشغرد و هم أقذر الناس و أشدّهم إقداما على القتل ولقد تعدّدت الآلهة عندهم: " **ومنهم من يزعم أن له إثني عشر ربا: للشّتاء ربّ، و للصّيف ربّ، وللمطر ربّ، وللرّيح ربّ، وللشّجر ربّ، وللنّاس ربّ، وللدّواب ربّ، و للماء ربّ، و للّيل ربّ، و للنّهار ربّ، و للموت ربّ، و للأرض ربّ، و الرّب الذي في السماء أكبرهم، إلاّ أنّه يجتمع مع هؤلاء باتّفاق، و يرضى كلّ واحد منهم بما يعمل شريكه**".[2]

و رأى طائفة أخرى تعبد الحيّات، و طائفة تعبد السمك و طائفة تعبد الكراكي، فسألهم ابن فضلان عن سبب عبادتهم للكراكي و تمسّكهم به، فردّوا عليه: " **فعرّفوني أنّهم كانوا يحاربون قوما من أعدائهم فهزموهم ؛و أنّ الكراكي صاحت وراءهم ؛ففزعو و انهزموا، بعدما هزموا فعبدوا الكراكي لذلك و قالوا: هذه ربنا و هذه فعالاته، هزم أعداءنا فهم يعبدونها لذلك**".[3]

نحن نعلم أنّ طريق السّفر حافل بالمشقات والأخطار وقطّاع الطّرق؛ و ابن فضلان كغيره من المسافرين تعرّض للسّجن ؛بحجّة أنّ الترك اعتبروهم جواسيس لذلك احتجزوهم و تآمروا على قتلهم ؛و بعد مشاورات قرّروا إطلاق سراحهم، و السّماح لهم بالسّفر إلى المكان المقصود، وقد عبّر ابن

[1]. ينظر رسالة ابن فضلان ؛أحمد ابن فضلان، ص، 100.
[2]. المصدر نفسه. ص 109، 110.
[3]. المصدر نفسه، ص 110.

فضلان عن هذه المخاطر التي تعرّض لها بقوله:... **"فما زالوا يتراجعون بينهم هذه الأشياء سبعة أيّام و نحن في حالة الموت، حتى أجمع رأيهم على أن يخلوا سبيلنا".**[1]

بعد المتاعب و المصائب التي مرّ بها ابن فضلان و الوفد المرافق له إثر إقامتهم بتلك القبائل التركية؛ و مشاهداتهم لعادات و تقاليد منافية تماما لعرف العرب والمسلمين، عزم ابن فضلان على مواصلة المسير لتكون أرض البلغار الهدف المرسوم لهم.

كان وصول ابن فضلان ومن معه؛ يشكّل مرحلة جديدة و مهمة في حياة الرحالة، فقد أنستهم حرارة الاستقبال المشاق و المخاطر التي تعرّضوا لها، فقد أرسل ملك البلغار لاستقبالهم: " **الملوك الأربعة الذين تحت يده، و إخوته، و أولاده فاستقبلونا و معهم الخبز و اللّحم والجاورس، و ساروا معنا ".**[2]

وصف ابن فضلان لبلاد الصقالبة:

بدأت مهمّة ابن فضلان إلى بلاد البلغار، حيث كان عليه أن يوصل الرسالة التي انتدب لأجلها، و هي قراءة كتاب الخليفة الذي قوبل بالتّرحاب من الجميع: " **و بدأت فقرأت صدر الكتاب فلمّا بلغت منه: سلام عليك فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، قلت: ردّ على أمير المؤمنين السلام، فردّ، و ردّوا جميعا بأسرهم...**"[3]

و يسرد ابن فضلان بعض عادات الصقالبة منها طريقة تناول الطّعام: " **حيث بدأ الملك بتناول الطّعام، ثم بدأ بتوزيع الطّعام على الحاضرين للمأدبة، و كل من يحصل على قطعة طعام**

[1]. رسالة ابن فضلان ؛أحمد ابن فضلان، ص 105.

[2].المصدر نفسه؛. ص 114.

[3].- المصدر نفسه، ص 115.

من الملك تأتيه مائدة خاصّة به، و بعد الانتهاء من الطّعام ؛يأخذ كل ضيف ما فضل من مائدته معه الى منزله".[1]

الطعام له أهمية تتعدى كونه و سيلة لتغذية الجسم بغية الحياة؛ فالطّعام يرتبط بالبيئة والاقتصاد والمعتقدات الشّعبية؛ كما أنّ طهيه و طريقة تقديمه تختلف من بلد لآخر، فالطّعام له دلالة جتماعية و رمزية وثقافية.

و يبرز دور ابن فضلان المصلح، العالم الفقيه عندما يرى أو يسمع أشياء منافية تماما لتعاليم الدين الإسلامي مثلما سمع الإمام الخطيب يقول على المنبر: " **اللّهم أصلح الملك بلطوار ملك البلغار، فقلت: أنا له: إنّ الله هو الملك و لا يسمّى على المنبر بهذا الإسم غيره عز وجل، وهذا مولاك أمير المؤمنين قد رضي لنفسه أن يقال على منابره في الشرق و الغرب: اللّهم أصلح عبدك و خليفتك جعفر الإمام المقتدر بالله أمير المؤمنين و كذا من كان قبله..."**[2]

لقد نجح ابن فضلان في توعية الإمام في نظرته الصحيحة إلى الدّين الإسلامي و معرفته لشرائع الإسلام ؛التي لا تقبل الربوبية إلا لله سبحانه و تعالى.

و من العجائب التي شاهدها ابن فضلان ببلاد الصقالية:

" و رأيت في بلده من العجائب ما لا أحصيها كثرة، فأول ليلة بتناها في بلد رأيت قبل مغيب الشّمس بساعة قياسية أفق السماء و قد إحمرّت إحمرارا شديدا، وسمعت في الجوّ أصواتا شديدة و همهمة عالية، فرفعت رأسي فإذا غيم أحمر مثل النار قريب مني، و إذا تلك الهمهمة، و الأصوات منه، و إذا فيه أمثال النّاس و الدّواب... ففزعنا من ذلك، و أقبلنا على التضرّع و الدعاء؛ و هم يضحكون منّا و يتعجّبون من فعلنا، قال: و كنّا ننظر إلى القطعة

---

[1].- رسالة ابن فضلان؛أحمد ابن فضلان، ص 116، 117.

[2]-المصدر نفسه؛ص124-125

تحمل على القطعة فتختلطان جميعا ساعة ثم تفترقان، فما زال الأمر كذلك ساعة من اللّيل ثم غابتا، فسألنا الملك عن ذلك فزعم أن أجداده كانوا يقولون: إنّ هؤلاء من مؤمني الجنّ وكفّارهم، و هم يقتتلون في كل عشية و أنهم ما عدموا هذا مذ كانوا في كل ليلة"[1].

من خلال هذا النّص ؛ندرك الفروقات الشاسعة بين التقدم الفكري الذي وصل إليه العرب في ذلك الوقت من تفسير الظواهر الطبيعية على الوجه العلمي الحقيقي، و بين ما كان عليه الفكر عند الأمم الأخرى، ومنهم البلغار الذين كانوا يفسّرون المظاهر الطبيعية بالغيبيات المختلفة الممزوجة بالكثير من عناصر الخيال.

وقد عرض ابن فضلان في رسالته أيضا لطول اللّيل شتاء و طول النّهار صيفا، و تعذّر تحديد ساعات الصّلاة، فكتب في هذا المجال:

" ودخلت أنا و خيّاط كان للملك من أهل بغداد قبّتي لنتحدث ؛فتحدّثنا بمقدار ما يقرأ إنسان أقلّ من نصف سبع، و نحن ننتظر آذان العتمة، فإذ ابالآذان فخرجنا من القبّة وقد طلع الفجر فقلت للمؤذن: أيّ شيء أذّنت، قال: آذان الفجر ؛قلت: فالعشاء الآخرة ؛قال: نصلّيها مع المغرب ؛قلت فاللّيل، قال: كما ترى؛ وقد كان أقصر من هذا؛ إلاّ أنّه قد أخذ في الطول..."[2].

إنّ هذا التباين في طول الليل والنهار الذي رصده لنا ابن فضلان ؛ماهو إلاّ حقيقة عايشها بنفسه، و نقلها للقارئ بكل معطياتها.

---

[1]- رسالة ابن فضلان؛أحمد ابن فضلان؛ص125.

[2]- المصدر نفسه، ص125-126

ثم يعود ابن فضلان ليخبرنا مرة أخرى عن تبرّك سكان الصقالبة بعواء الكلاب و تفاؤلهم به: " **رأيتهم يتبرّكون بعواء الكلاب جدا و يفرحون به، و يقولون: سنة خصب و بركة و سلامة".** [1]

ولاحظ الرحالة بهذه البلاد كثرة الحيّات، حتّى أن الإنسان لا يفرّق بينها و بين غصن الشجرة لشدة إخضرارها و طولها: " **و رأيت الحيّات عندهم كثيرة، حتّى أنّ الغصن من الشجرة لتلتفّ عليه العشرة منها و الأكثر، و لايقتلونها و لا تؤذيهم حتّى لقد رأيت في بعض المواضع شجرة طويلة يكون طولها أكثر من مائة ذراع، وقد سقطت و إذا بدنها عظيم جدا؛ فوقفت أنظر إليه إذ تحرّك فراعني ذلك، و تأمّلته فإذا عليه حيّة قريبة منه في الغلظ و الطول، فلمّا رأتني سقطت عنه، وغابت بين الشجر فجئت فزعا، فحدّثت الملك و من كان في مجلسه ؛فلم يكترثوا لذلك وقال: لا تجزع فليس تؤذيك".** [2]

لقد تعّود سكان الصقالبة العيش وسط الحيّات ؛التي صارت ترافقهم بوجودها في كل مكان دون أن تؤذيهم؛ ممّا ترك انطباعا في نفسية ابن فضلان الذي أصابه الفزع و الرعب عند رؤيته الحيّات بشتّى أشكالها.

الوضع الاقتصادي لبلاد الصقالبة:

دولة الصقالبة دولة كبيرة و غنيّة لكثرة أموالها و سعة خراجها ؛ممّا جعل ابن فضلان يندهش لكثرة بساتين التفّاح: " **ورأيت لهم تفّاحا أخضر شديد الخضرة، و أشدّ حموضة من خلّ الخمر؛ تأكله الجواري فيسمن عليه، ولم أر في بلدهم أكثر من شجر البندق.. و أكثر أكلهم**

[1]. رسالة ابن فضلان ؛أحمد ابن فضلان، ص128.

[2].المصدر نفسه ؛.ص 128، 129.

الجاووس و لحم الدّابة ؛على أنّ الحنطة و الشعير كثير ؛كل من زرع شيئا أخذه لنفسه ليس للملك فيه حقّ..."[1]

ممّا لا شك فيه أنّ الحياة الاقتصادية قد ازدهرت في دولة الصقالبة ؛مادلّ عليه تنوّع زراعة الحمضيات ؛بالإضافة إلى غنى الدولة وعدم حاجتها لمطالبة النّاس بمحصول الحنطة. لقد اهتمّ ابن فضلان في رسالته بالجانب العمراني للمدن التي زاها ومن ذلك حديثه عن منازل الصقالبة: **" و كلّهم في قباب ؛إلاّ أنّ قبّة الملك كبيرة جدّا، تسع ألف نفس و أكثر مفروشة بالفرش الأرمني، له في وسطها سرير مغشّى بالدّيباج الرّومي".[2]**

الإنسان يتعامل مع العمارة على أنّها و سيلة اتّصال، فالمسكن لا يمكن أن يكون مجرّد مأوى للحماية من العوامل البيئية التي لا يقوى على مقاومتها ؛بل هو (المسكن) أيضا يحتوي على جملة من التعبيرات الرمزية، كالقباب التي تعبر عن العلوّ و الانفتاح على العالم الخارجي.

عادات الصقالبة في التبنّي و الميراث:

كل بلد له تاريخه و حضارته و عاداته التي تميّزه عن البلدان الأخرى، و الأعراف والتقاليد التي صارت جزءا من شخصية النّاس تطبّعوا عليها، و لسكان الصقالبة رسوم أصبحت سجيّة فيهم: **" و من رسومهم أنّه إذا ولد لابن الرجل مولود أخذه جدّه دون أبيه، و قال: أنا أحقّ به من أبيه في حضنه حتّى يصير رجلا".[3]** نلاحظ أنّ الأجداد أقحموا أنفسهم في تربية أحفادهم؛ و أعطوا لأنفسهم الأولوية لممارسة الأبوة دون مراعاة مشاعر الآخرين، و هذا من جهة و نظر عرفهم

[1]. رسالة ابن فضلان ؛أحمد ابن فضلان، ص 129-130.
[2]. المصدر نفسه، ص 132.
[3]-المصدر نفسه ص 132.

الاجتماعي، و عملية تفسير الميراث عند الصقالبة لا تكون بالصورة الصحيحة التي قنّنها الإسلام؛ ومن عاداتهم:" **إذا مات منهم الرجل ورثه أخوه دون و لده**"[1].

لم يكتف ابن فضلان بتنفيد مهمته بتوصيل الرسالة الى ملك البلغار،فقد اندمج في الحياة الاجتماعية لهذه الشّعوب الغربية، فكان يمارس دور المراقب و الناصح في بعض الأحيان: " **فعرّفت الملك أنّ هذا غير جائز، و عرّفته كيف المواريث حتى فهمها.**"[2]

لقد كان ابن فضلان أمينا في نقل ما يتعارض مع دينه إلى حد الواقعية المفرطة، فقد قصد إلى نقل هذه العادات للمسلمين و لهم أن يقارنوا بين دينهم، و أديان الشعوب الأخرى التي عاش معها.

ومن الأشياء الغريبة التي رآها ابن فضلان ببلاد الصقالبة ؛اختلاط الرجال مع النساء للسّباحة في النّهر دون رادع أخلاقي يمنعهم من ذلك:" **وينزل الرجال و النساء إلى النّهر فيغتسلون جميعا عراة لا يستتر بعضهم من بعض، و لايزنون بوجه و لا سبب ومن زنى منهم كائنا من كان؛ ضربوا له أربع سكك و شدّوا يديه ورجليه إليها و قطعوا بالفأس من رقبته الى فخذيه...**"[3].

سعى ابن فضلان إلى تنوير بصيرة النّاس بالإحجام عن هذه التصرّفات المخلّة بالأخلاق، لكنه فشل في ذلك: " **و ما زلت أجتهد أن يستتر النساء من الرجال في السّباحة فما استوى لي ذلك**"[4].

[1]- رسالة ابن فضلان ؛أحمد ابن فضلان ص132-133
[2]- المصدر نفسه، ص 133
[3]- المصدر نفسه، ص135
[4]- المصدر نفسه، ص 135

لقد اجتهد ابن فضلان على تعليم النّاس شرائع و تعاليم الدّين الإسلامي بحكم ثقافته الدّينية، فاعتنق بعض الأشخاص الإسلام على يديه: " **و لقد أسلم على يدي رجل يقال له طالوت فأسميته عبد الله فقال: أريد أن تسمّيني باسمك محمدا، ففعلت و أسلمت امرأته، وأمّه و أولاده، فسمّوا كلهم محمدا و علّمته (الحمد لله) و (قل هو الله أحد) فكان فرحه بها تين السورتين أكثر من فرحه أن صار ملك الصقالبة"**[1].

نظرا لمكانة ابن فضلان العلمية و الثقافية و إحاطته بعلوم الشريعة؛ نجح في ترسيخ قواعد الإسلام و تثبيتها عند الصقالبة.

لباس سكان الصقالبة:

اللّباس هو رمز ثقافي تشكّل بفعل التطوّرات وظهور الأديان؛فلكل حضارة عاداتها ومذاهبها؛ التي تنفرد بها عن باقي الحضارات الأخرى؛ فاللّباس في بادئ الأمر كانت الحاجة إليه بدافع حماية الجسم من البرد وأشعّة الشّمس؛ ومع مرور الوقت لم يبق اللّباس بالمعنى المادي في طريقة ارتدائه؛ بل تعدّى ذلك وتغيّر معناه بتغيّر الرؤى الاجتماعية والمذهبية ؛وصار يمثّل الانتماء الحضاري. فالملبس عامّة وغطاء الرأس خاصّة يتنوّع بين العمائم والقبّعات ؛وسكان الصقالبة اشتهروا بغطاء الرأس المتمثّل في القلنسوة عند الرجال والنساء؛وفي هذا قال ابن فضلان: "**وكلّهم يلبسون القلانس ؛فإذا ركب الملك ركب وحده بغير غلام ؛ولا أحد يكون معه ؛فإذا اجتاز في السوق لم يبق أحد الّا قام وأخذ قلنسوته عن رأسه فجعلها تحت إبطه ؛فإذا جاوزهم ردّوا قلانسهم الى رؤوسهم ؛وكذلك كلّ من يدخل الى الملك من صغير وكبير حتّى أولاده وإخوته ساعة ينظرون إليه قد أخذوا**

[1]- رسالة ابن فضلان ؛أحمد ابن فضلان، ص136

قلانسهم فجعلوها تحت آباطهم ؛ ثمّ أوموا إليه برؤوسهم وجلسوا ثمّ قاموا حتّى يأمرهم بالجلوس"[1]

يشترك سكان الصقالبة في تغطية رؤوسهم بالقلانس ؛ومن عاداتهم إذا دخلوا على ملكهم نزعوا قلنسوتهم ووضعوها تحت الإبط احتراما لهذا الملك ؛فغطاء الرأس يمثّل مظهرا من مظاهر حضارتهم في ذلك العصر.

وصف ابن فضلان لبلاد الروس:

يرتحل ابن فضلان ثانية ؛و يخرج من بلاد الصقالبة و يحطّ الرّحال ببلاد الرّوس، ويصفهم:" **و رأيت ببلاد الرّوسية و قد وافوا في تجاراتهم، و نزلوا على نهر إتل، فلم أر أتّم أبدانا منهم كأنّهم النّخل شقر حمر لا يلبسون القراطق، و لا الخفاتين، و لكن يلبس الرّجل منهم كساء يشتمل به على أحد شقيه، و يخرج إحدى يديه منه، و مع كلّ واحد منهم فأس وسيف، وسكين لا يفارقه".[2]**

إنّ سكان الرّوس مميّزون ببشرتهم التي تميل إلى الحمرة ؛إضافة الى ارتدائهم الملابس الخفيفة بالرّغم من برودة الجوّ عندهم ؛إلا أنّهم تعوّدوا عليها و تأقلموا مع مناخ بلادهم، و يضيف ابن فضلان بأنّهم: " **أقذر خلق الله لا يستنجون... و لا يغتسلون من جنابة، و لا يغسلون أيديهم من الطعام بل هم كالحمير الضالّة..."[3]**

الصفات الذّميمة التي تطبّع عليها الرّوس ماهي إلاّ صورة سلبية تعكس حياة هذا المجتمع؛ الذي مازال متخلّفا فكريّا و أخلاقيّا و اجتماعيّا... بالرّغم من توفّر و سائل العيش ؛كما تكلّم ابن

---

[1]- رسالة ابن فضلان حـأحمد ابن فضلان ص 131

[2]. المصدر نفسه، ص، 149.

[3]. المصدر نفسه، ص 151.

فضلان عن تقاليد و عادات الرّوس عند موت أحدهم و كيف يتمّ حرق جثّتهم بعد الموت في مراسيم و طقوس تصاحبها تضحية بشرية: **" و إذا مرض منهم الواحد ضربوا له خيمة ناحية عنهم، و طرحوه فيها، و جعلوا معه شيئا من الخبز و الماء، ولا يقرّبونه و لا يكلّمونه، بل لا يتعاهدونه في كل أيّام مرضه لا سيما إن كان ضعيفا أو مملوكا، فان برئ و قام رجع إليهم، وإن مات أحرقوه، فإن كان مملوكا تركوه على حاله تأكله الكلاب و جوارح الطير".**[1]

يبدو أنّ ظاهرة إحراق الموتى صارت عادة طبيعية عند البشر خصوصا الذين مازالوا يتخبّطون في غياهب الجهل و الشّرك، و قد حرص ابن فضلان على نقل هذه المشاهد: **" فكنت أحب أن أقف على ذلك ، حتى بلغني موت رجل منهم جليل ؛فجعلوه في قبره وسقّفوا عليه عشرة أيّام حتىّ فرغوا من قطع ثيابه و خياطتها..."**[2]

لقد أسهب ابن فضلان في وصف مراسيم دفن الميّت التي تشبه إلى حدّ ما عادات الهنود والصينيون.

كما تناول ابن فضلان الحياة الاقتصادية للرّوس ؛و التيّ كانت راقية و مترفة الى درجة عيش الملوك في القصور الفخمة: **" و من رسم ملك الرّوس أن يكون معه في قصره أربعمائة رجل من صناديد أصحابه، و أهل الثّقة عنده فهم يموتون بموته و يقتلون دونه، و مع كلّ واحد منهم جارية تخدمه و تغسل رأسه، و تصنع له ما يأكل و يشرب، و هؤلاء الأربعمائة يجلسون تحت سريره؛وسريره عظيم مرصّع بالجواهر، و يجلس معه على السرير أربعون جارية..."**[3]

[1]. رسالة ابن فضلان ؛أحمد ابن فضلان، ص 154، 155.

[2].المصدر نفسه ص 155..

[3]. المصدر نفسه، ص 165.

انبهر ابن فضلان بثراء ملوك الرّوس الذين كانوا يعيشون في بذخ و لهو؛ ومجون ترجمته كثرة الجواري الموجودات في القصر، فكل واحدة منهن تسهر على راحة و سعادة الملك بتلبية حاجاته حتىّ و لو كلّفها هذا حياتها.

كانت هذه جولة في ربوع روسيا، أراد ابن فضلان أن يكشف حضارة هذا البلد الذي بدا يعيش خلفية فكرية ؛من خلال القيام بعادات و رسوم منافية لحضارة العرب ؛التي كانت تنعم بالازدهار الفكري و العلمي عكس أوروبا التي كانت غارقة في ظلال الجهل والظلم .

وصف ابن فضلان لبلاد الخزر:

كان شعب الخزر هم آخر الشعوب الذين تحدّث عنهم ابن فضلان؛ فبدأ حديثه عن ملكهم: " **أمّا ملك الخزر، واسمه خاقان فإنّه لا يظهر إلاّ في كلّ أربعة أشهر متنزها، ويقال له خاقان الكبير، و يقال لخليفته خاقان به، وهو الذي يقود الجيوش و يسوسها ويدبّر أمر المملكة، ويقوم بها و يظهر و يغزو وله تذعن الملوك الذي يصاقبونه، و يدخل في كلّ يوم إلى خاقان الأكبر متواضعا يظهر الأخبات و السكينة؛ و لا يدخل عليه إلّا حافيا و بيده حطب، فإذا سلّم عليه أوقد بين يديه ذلك الحطب...**"[1]

يبدو من نّص ابن فضلان أنّ ملك الخزر لا يهمّه أمر رعيّته؛ لذلك أوكل مهمة قيادة الجّيش لنائبه الذي يخلفه ؛زيادة على ذلك هناك طقوس يقوم بها الخليفة خاقان به تجاه الملك الأكبر؛ كإظهار السكينة و الوقار و الدخول حافي القدمين عليه امتنانا له و طمعا في عفوه ورضاه.

ويتحدّث ابن فضلان عن مراسيم دفن ملكهم الأكبر: " **ورسم الملك الأكبر إذا مات أن يبنى له دارا كبيرة فيها عشرون بيتا و يحفر له في كلّ بيت منها قبر، و تكسّر الحجارة حتى**

[1]. رسالة ابن فضلان ؛أحمد ابن فضلان، ص 169- 170.

تصير مثل الكحل و تفرش فيه، و تطرح النورة فوق ذلك، تحت الدّار نهر و النّهر نهر كبير يجري، و يجعلون فوق ذلك النّهر ويقولون: حتى لا يصل إليه شيطان و لا إنسان و لا دود."[1]

إنّ طريقة دفن الموتى خصوصا الملوك و السلاطين لها مميّزات خاصّة مقارنة مع عامّة النّاس، وهذا يؤكّد ما راج في الدّول الأوروبية نتيجة تشبّثهم بعبادة الأوثان و عدم معرفتهم بالأديان السماوية.

و يضيف ابن فضلان أنّ مدّة حكم الملك أربعون سنة، و إذا أكمل مدّته و هو ملك قتلته الرعيّة و قالوا: " **هذا قد نقص عقله و اضطرب رأيه**"[2] وإذا انهزم جيشه في الحرب فإنّه يعاقب قادته ؛بأن يهب نساءهم و أولادهم لغيرهم و هم ينظرون؛ وكذلك دوابهم و متاعهم و سلاحهم، وربما قطع كل واحد منهم قطعتين وصلبهم، وربما علّقهم بأعناقهم في الشّجر و ربّما جعلهم إذا أحسن إليهم ساسة[3].

وينهي ابن فضلان حديثه بالقول أن لملك الخزر مدينة عظيمة: " **على نهر إتل و هي جانبان، في أحد الجانبين المسلمون و في الجانب الآخر الملك و أصحابه، وعلى المسلمين رجل من غلمان الملك يقال له خن و هو مسلم، و أحكام المسلمين المقيمين في بلد الخزر والمختلفين إليهم في التجارات مردودة إلى ذلك الغلام المسلم؛ لا ينظر في أمورهم و لا يقضي بينهم غيره."**[4]

[1]. رسالة ابن فضلان ؛أحمد ابن فضلان، ص 172.

[2].المصدر نفسه؛.ص 172

[3]- ينظر المصدر نفسه ص 172.

[4]. المصدر نفسه، ص173.

قدّم لنا ابن فضلان صورة واضحة عن بلاد الخزر شملت معاشهم و عاداتهم و حكمهم، والأشياء التي لم تعجبه في تلك البلاد كطريقة دفن الموتى، و الإذعان و الخضوع لملكهم الأكبر الذي لا يبدي اهتمامه لرعيّته.

كانت هذه تفاصيل رحلة ابن فضلان في بلد الترك و البلغار و الروس ؛نقل حياة هذه الشّعوب ؛حيث اندمج في الحياة الاجتماعية للدول الغربية، فكان يقوم بدور النّاصح و المرشد إذا لم يعجبه سلوك النّاس، فاضطرّ لتعليم النّاس تعاليم الدّين الإسلامي بحكم وازعه الدّيني و الأخلاقي؛ وكان يتضايق و يغضب إذا رأى اختلاط الرجال مع النساء فحاول إصلاح حالهم لكنّه لم ينجح في ذلك.

مثّلت رحلة ابن فضلان اختراقا لثقافة الشعوب ؛لم يعرف العرب عنها شيئا في تلك الحقبة فكانت رسالته دراسة اثنوغرافية* ؛ و لمّا حلّ ابن فضلان لأول مرّة بتلك البلاد الغربية رأى أنّ الثقافة التي ينتمي إليها تتعارض مع الثقافة التي يراها أمامه ؛فيقف موقف المعارض والمعجب، لأنّه جاء من بلاد و صلت إلى مرحلة متقدّمة من التطوّر العلمي و الاجتماعي، و تحكمها مفاهيم عامّة مستمدّة من الشريعة الإسلامية.

وهكذا تعدّ رحلة ابن فضلان حلقة تاريخية في تاريخ التواصل الحضاري بين البلغار و الرّوس والخزر، كما تمثّل رسالته نقلة مهمّة في علاقة العرب مع الغرب ؛و علاقة الإسلام بالآخر المختلف عرقيّا و اجتماعيّا و أخلاقيّا و فكريّا، فتعتبر المشاهد التي نقلها إلينا مرجعا مفيدا يتناوله علماء الجغرافيا وعلماء الاجتماع ؛الذين استفادوا منها في توثيق حياة الشعوب، ووصف جغرافيتها وطبيعتها.

* الاثنوغرافية نقصد بها الدراسة الوصفية لحياة الإنسان بما فيها العادات و التقاليد، و القيّم... .

ابن جبير:

هو من أشهر الرحالّة المسلمين الذين قاموا برحلات إلى المشرق العربي، دوّن خلالها الكثير من المعلومات التي تعتبر و ثائق من الدرجة الأولى؛ لأنّه حسن الملاحظة و صريح العبارة، فكانت رحلته مصدرا مهمّا للباحثين في مجال الاجتماع و التاريخ و الحضارة العربية في القرن السادس الهجري ؛هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني صاحب الرّحلة ؛من ولد ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة أندلسي شاطبي بلنسي مولده ليلة السبت عاشر ربيع الأوّل سنة أربعين وخمسمائة (540هـ) ببلنسية[1] أتمّ دراسته بعد أن حفظ القرآن بمدينة بلنسية ؛وفي شاطبة تلّقى علوم الدّين عن أبيه وعلماء عصره[2] عني بالآداب فبلغ منها الغاية ؛وتقدّم في صناعة القريض وصناعة الكتابة ؛ونال بها دنيا عريضة ثمّ رفضها وزهد فيها ؛وتحرّك لنيّته الحجازية في شوّال سنة ثمانية وسبعين وخمسمائة (578هـ)[3].

عرف عن ابن جبير أنّه كان يتّصف بأخلاق حسنة و شخصية متوازنة ؛فكان كريم الأخلاق ، ذائع الصيت، أديبا بارعا و شاعرا مجيدا؛ فأهّلته صفاته لتقلّد أرفع المناصب في الدّولة و هو الكتابة ، وأتاح له ذلك المنصب الاطّلاع على العديد من الأمور المهمّة و التي لايتاح للمؤرخين العاديين معرفتها[4].

مكانة ابن جبير العلمية:

تلقّى ابن جبير العلم على عدد كبير من العلماء؛ الذين تتلمذ على يديهم و نهل من نبعهم ؛فتعدّدت مشاربه الثقافية خصوصا عندما رحل إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج" **ولقي في هذه**

---

[1]- نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب أحمد المقري، ص381-382

[2]- الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجازفي القرنين السابع والثامن الهجريين؛عواطف محمد يوسف نواب ص98

[3]- الحلل السندسية في الاخبار والآثارالاندلسية ؛ شكيب أرسلان، ص119

[4]- مصدر سابق ؛ص 99

المرحلة جماعة من أعلام العلماء و أكابر الزهّاد و الفضلاء منهم بمكة شرّفها الله ضياء الدّين بن أحمد بن عبد الوهاب..."[1]و أضاف المقري أنّ أبن جبير أخذ " **من أبيه بشاطبة و من أبي عبد الله الأصيلي و أبي الحسن بن أبي العيش و أخذ عنه القراءات"**[2]

ولمّا رحل ابن جبير الى دمشق و أقام بها لقي" **أبا الخشوعي فأخذ عنه مقامات الحريري من قراءة و سماع"**.[3]

إنّ هذا التنوّع في معارف ابن جبير الثقافية من علم القراءات و مقامات الحريري و حفظ القرآن الكريم؛ ما هي إلاّ كرامة من كرامات الأولياء و هبها الله لهذا الرّحالة الفاضل الذي جاب العالم؛ و تشهد على أفعاله و أقواله المدن التي زارها حيث " **أقام يحدّث و يروي بغرناطة و عظم بها قدره، و أشتهر في أهل الخير ذكره...سكن مكّة شرّفها الله تعالى ثم انتقل إلى القدس وبقى يتردّد بين الحرمين و بيت المقدس و الإسكندرية و في ذلك يزداد فضلا وورعا و علما يقرّبه الى الله تعالى"**.[4]

هذه المكانة المرموقة التي وصل إليها ابن جبير عائدة لعلمه و مجالسته لعلماء المشرق و غيرهم بالإضافة الى كونه كاتب أمير غرناطة بفضل ماتمتّع به من جمال النّظم سواء أكان شعرا أو نثرا.

شعر ابن جبير:

الذي لا يعرفه الكثير عن ابن جبير أنّه كان أدبيا شاعرا؛ و له ديوان شعر يسمى "نظم الجمّان في التشكّي من أخوان الزمان" ؛ وله كتاب آخر تحت عنوان " نتيجة جند الجوانح في تأبين القرين

---

[1]- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ؛ المراكشي ؛المجلد الثالث ؛السفر الخامس ص596

[2]- نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب ؛أحمد المقري ص382

[3]. الحلل السندسية في الاخبار و الاثار الاندلسية، شكيب ارسلان،ص 119.

[4]. جدوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس، احمد ابن القاضي المكناسي، دار المنصور للطباعة و الورّاق، الرباط، ص 278.

الصالح " في رثاء زوجته التي حزن عليها حزنا شديدا فاشتدّ كربه و عظم مصابه ؛فلم يجد إلاّ أن يعزّي نفسه في أبيات شعرية تخلّلتها عواطف الحزن و الأسى لفراق الزوجة.

من شعر ابن جبير الذي نظمه مخطبا حجّاج بيت الله:

ياوفود الله فزتـــــــم بالمنى فهنيئا لكم أهـــــــــل منى

قد عرفنا عرفات معكـــــم فلهذا برّح الشوق بنـــــا

نحن بالمغرب نجري ذكركم فغروب الدّمع تجري هتنـــا

أنتم الأحباب نشكو بعدكم هل شكوتم بعدنا من بعدنا ؟[1]

إنّ الدّافع الحقيقي لنظم هذه الأبيات هو الشّوق إلى الحجاز؛ باعتباره مهد الحضارة ومهبط الوحي؛ فجاءت معاني القصيدة مفعمة بالرّوحانيات التي تأصّلت في نفس ابن جبير باعتباره واحد من الذين جبلوا على حبّ زيارة بيت الله.

كما ترك ابن جبير مؤلّفات أدبية نثرية كثيرة ؛كتلك الرسائل التي تبادلها مع أصدقائه و التي كانت لها شهرة و صيت كبير؛ ماكتبه إلى الشّام متشوّقا شيخ الشيوخ إبن حمويه رادّا على خطابه: " **صدرت المخاطبة العزيزة العلائية حرس الله سناءه وسناه ويسّر له كلّ أمر وسنّاه، وعرّفه بعد طول العمر حسن خواتم مسعاه؛ بما يصدر عن مثله و يضيق بفضله..."**[2]

[1]. تراجم مغربية من مصادر مشرقية، جمعها و رتّبها وقدّم لها وعلّق عليها الدكتور محمد بن شريفة عضو اكاديمية المملكة المغربية، ص 112.

[2]. المصدر نفسه، ص115.

رحلات ابن جبير:

قام ابن جبير بثلاث رحلات متعاقبة، أمّا الرّحلة الأولى فكانت أطول زمن؛ و السبّب الذي جعله يقوم بهذه الرّحلة هو أداء فريضة الحج تكفيرا عن ذنب اقترفه حيث " **الأمير أبا سعيد استدعاه يوما ليؤلّف فيه كتابا وهو في مجلس شرابه و حدث أن دفع إليه كأسا من النبيذ، فاعتذر ابن جبير بأنّه ما شرب الخمر قط، فقال الأمير : و الله لتشربنّ منها سبعا فلم يستطع إلاّ الإذعان و كافأه الأمير بأن قدّم إليه القدح سبع مرّات أخرى مملوءة بالدّنانير وصبّ ذلك في حجره، و انصرف ابن جبير و عقد العزم في اللّيلة نفسها على أن يذهب لتأدية فريضة الحجّ تكفيرا عن ذنبه في شرب النبيذ، و أنفق تلك الدّنانير في سبيل البرّ و باع عقارا له تزوّد به**"[1]

كان لزاما على ابن الجبير أن تتّجه نيّته إلى الله سبحانه و تعالى طمعا في عفوه و رضاه وكانت الوجهة إلى مكّة المكرّمة هي الطريق الأنجح لمحو الذنوب و الخطايا.

هذه الرحلة الأولى استغرقت سنتين؛ سجّل فيها ابن جبير مشاهداته وملاحظاته بعين فاحصة؛ فشملت العديد من المعلومات المختلفة في النواحي السياسية و الحضارية...

ثم أتبع هذه الرحلة برحلة ثانية ؛فقد دفعه إليها أنباء استرجاع بيت المقدس من الصليبين من قبل السلطان صلاح الدّين الأيّوبي فرحل لتهنئته بهذا الفوز الكبير، أمّا رحلته الثالثة فكانت إثر وفاة زوجته عاتكة ؛فدفعه الحزن عليها إلى القيام برحلة ثالثة يروّح عمّا ألمّ به من حزن على فراقها.

[1]. الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، الدكتور زكي محمد حسن، شركة شوايع الفكر، ص60.

مضمون رحلة ابن جبير:

دوّن ابن جبير رحلته على شكل مذكّرات يومية، استعمل فيها التاريخين الهجري والميلادي؛ وكان الدّافع للقيّام بهذه الرّحلة- كما أشرنا سابقا- القيام بفريضة الحجّ، غادر ابن جبير وصاحبه أحمد بن حسّان غرناطة يوم الخميس الثامن من شوال سنة 578ه و عبرا البحر متوجّهان إلى الإسكندرية؛ و استغرقت رحلتهما ثلاثين يوما، وكان أوّل ما شاهده وصاحبه عملية التفتيش في الميناء حيث قال: " **فمن أول ما شاهدناه فيها يوم نزولنا ؛أن طلع أمناء إلى المركب من قبل السلطان بها لتقييد جميع ماجلب فيه، فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحدا واحدا... و سئل كلّ واحد عمّا لديه من سلع... ليؤدي زكاة ذلك كلّه دون أن يبحث عمّا حال عليه الحول**" [1] ثم تحدّث عن أخبار الإسكندرية و أثارها فوصف منارها و ذكر بأنّه من عجائب المدينة قائلا: " **و من أعظم ما شاهدناه من عجائبها المنار الذي قد وصفه الله عزوجل على يدي من سخّر لذلك آية للمتوسّمين وهداية للمسافرين.....مبناه في غاية العتاقة والوثاقة طولا وعرضا؛يزاحم الجوّ سموّا وارتفاعا يقصر عنه الوصف وينحسر دونه الطرف**"[2]

عني ابن جبير في رحلته بالنّواحي الدّينية، فاهتمّ بذكر مشاعر الحجّ بالتّفصيل ووصف الطّريق بين هذه المشاعر بدقّة ؛فوصف مكّة المكرّمة و شبّهها بالعروس ليلة زفافها و تحدّث عن جمالها الباهر بأسلوب رائع قائلا:" **ودخلنا مكة... و كان إسراؤنا تلك اللّيلة المذكورة؛و البدر قد ألقى على البسيطة شعاعه، و اللّيل قد كشف عنّا قناعة... فهي عروس ليالي العمر؛ و بكر بنيات الدّهر إلى أن وصلنا في الساعة المذكورة من اليوم المذكور، حرم الله العظيم و مبوأ الخليل إبراهيم، فألفينا الكعبة الحرام عروسا مجلوّة مزفوفة إلى جنّة الرضوان محفوفة بوفود الرحمن**".[3]

[1]. رحلة ابن جبير، دار صادر بيرت، د ط، ص 13.

[2]- المصدر نفسه؛ ص14-15.

[3]. المصدر نفسه، ص58.

كما أسهب في وصف المسجد الحرام من حيث الطول و العرض ؛و المساحة و الزخرفة ؛ وذكر الأماكن المجاورة للحرم، لم ينس أنّ للحرم الملكي أربعة ائمة سنيّة و إمام خامس لفرقة تسمّى الزّيدية ؛ووصف مدينة دمشق وكان دقيقا في وصفه إيّاها، حيث ذكر كل ما تحتويه المدينة من مناظر جميلة ، و حدائق خلاّبة ؛كلّ هذا تجسّد في جمال اللّفظ و حسن التركيب تمثّل في قوله:

" جنّة المشرق و مطلع حسنه المؤنق المشرق، و هي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها وعروس المدن التي اجتليناها وقد تجلّت بأزاهير الرياحين، و تجلّت في حلل سندسية من البساتين... قد سئمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت إلى الظماء... و لله صدق القائلين عنها: إن كانت الجنّة في الأرض ؛فدمشق لا شكّ فيها ؛و إن كانت في السّماء فهي بحيث تسامتها و تحاذيها".[1]

كما عني الرّحالة ابن جبير بالمظاهر الجغرافية؛ من سهول و جبال و بحار و أنهار و فصول السنة ؛ليدرك القارئ أن ابن جبير كان شاهد عيان ؛فقد رصد كلّ ما شاهدته عينه ووطأته رجله بأسلوب جميل؛ زاوج فيه بين المشاهدة و الملاحظة ؛من اهتمامه بالحياة الاجتماعية للنّاس، مشاغلهم،أرزاقهم؛ فتحدّث عن خيرات مكّة و اصفا إيّاها بقوله: **" و أمّا الأرزاق و الفواكه وسائر الطّيبات ؛فكنّا نظنّ أنّ الأندلس اختصّت من ذلك بحظّ له المزية على سائر حظوظ البلاد ؛ حتىّ حللنا بهذه المباركة فألفيناها تغصّ بالنّعم و الفواكه: كالتّين و العنب و الرّمان والسفرجل و الخوخ".**[2]

ولم يغفل ابن جبير تصوير العلاقات التجارية التي كانت تقام في مكّة قائلا"...**إليها ملتقى الصادر و الوارد ممّن بلغته الدّعوة المباركة، والثمرات تجبى إليها من كلّ مكان، فهي أكثر البلاد نعما و فواكه ومنافع ومرافق، ولو لم يكن لها من المتاجر إلاّ أوان الموسم ففيه مجتمع**

[1]. رحلة ابن جبير، ص 234، 235.

[2]. المصدر نفسه، ص97.

أهل المشرق والمغرب، فيباع فيها في يوم واحد فضلا عمّا يتبعه من الذّخائر النفسية كالجواهر والياقوت وسائر الأحجار، ومن أنواع الطّيب: كالمسك والكافور والعنبر إلى غير ذلك من جلب الهند و الحبشة..."[1]

و انتقد ابن جبير بعض الممارسات ؛التي كان يقوم بها رجال الضرائب المصريين الذين كانوا يضيّقون على الحجّاج؛ يفتّشونهم و يكلّفونهم بالضّرائب عن كلّ ما معهم من مال؛ من دون أن يتأكدوا من استحقاق الضريبة قائلا: " **وببلاد هذا الصعيد المعترضة في الطّريق للحجّاج والمسافرين؛ كإخميم و قوص من التعرّض لمراكب المسافرين و تكشّفها و البحث عنها وإدخال الأيدي إلى أوساط التجّار، فحصا عمّا تأبّطوه أو احتضنوه من دراهم أو دنانير، ما يقبح سماعه و تشنع الأحدوثة عنه كلّ ذلك برسم الزّكاة دون مراعاة لمحلّها او ما يدرك النّصاب منها.[2]**

كما تكلّم ابن جبير على المكوس التي كان على الحجّاج أن يدفعوها لشريف مكة ؛نظير ما يؤدّى لهم من خدمات طيلة إقامتهم بمكّة ؛و نوّه بمجهودات صلاح الدّين الأيّوبي الذي أزال رسم هذه المكوس على الحجّاج: " **ومن مفاخر هذا السلطان المزلفة من الله تعالى و آثاره التي أبقاها ذكرا جميلا للدّين و الدّنيا: إزالته رسم المكس المضروب وظيفة على الحجّاج مدّة دولة العبيد يين، فكان الحجّاج يلاقون من الضّغط ؛في استيدائها عنتا مجحفا... و ربّما ورد منهم من لافضل لديه على نفقته أداء الضريبة".[3]**

ولفت نظرنا عناية ابن جبير بالبّحث عن المدارس و المارستانات ؛و هذا ليس غريبا على رجل عالم فقيه تشبّث بالمبادئ و الأخلاق الحميدة منذ صغره؛ فها هو يصف بلدة حران قائلا: " **و لهذه**

---

[1]. رحلة ابن جبير ، ص97.

[2]. المصدر نفسه، ص 38.

[3]. المصدر نفسه، ص 30.

البلدة مدرسة و مارستان، و هي بلدة كبيرة و سورها متين حصين مبني بالحجارة المنحوتة المرصوص بعضها على بعض في نهاية من القوّة".[1]

كما أنّ شخصية ابن جبير الملتزمة بالدّين الإسلامي جعلته يتحدّث عن الزّهّاد و الرّجال الصّوفية طمعا في نيل بركتهم " ... **و لقينا أيضا بمسجد عتيق الشّيخ الزّاهد سلمة، فلقينا رجلا من الزّهّاد الأفراد ؛ فدعا لنا و سألنا، وودّعناه و انصرفنا ؛و بالبلد سلمة آخر يعرف بالمكشوف الرأس، لا يغطّي رأسه تواضعا لله عز و جل حتى عرف بذلك..."**[2]

هذه الإشادة برجال الصّوفية و كراماتهم دليل قاطع على التّواصل الإنساني و الاجتماعي الذي كان سائدا في ذلك الوقت؛ ترجمته كثرة المساجد و الزوايا ؛التي أصبحت مزار كلّ غريب يدخل تلك الدّيار فيستأنس بأهلها و يتبرّك بزهّادها.

حرص ابن جبير على إيراد إشارات عن مختلف الأوضاع الحضارية في المدن الإسلامية، من ذلك تناوله لطبائع النّاس و عاداتهم ؛كما ورد من عجيب أمر المشارقة: " **ومن عظيم أمرهم تعظيمهم للحاجّ على قرب مسافة الحجّ منهم ، و تيسير ذلك لهم، واستطاعتهم لسبيله. فهم يتمسّحون بهم عند صدورهم، و يتهافتون عليهم تبرّكا بهم، ومن أغرب ما حدّثناه من ذلك: أنّ الحاجّ الدّمشقي مع من انضاف إليهم من المغاربة عند صدورهم إلى دمشق في هذا العام الذي هو عام ثمانين، خرج النّاس لتلقّيهم: الجمّ الغفير نساء ورجالا ؛يصافحونهم ويتمسّحون بهم، وأخرجوا الدّراهم لفقرائهم يتلقّونهم بها..."**[3]

ومن مظاهر الاحتفال بشهر رمضان التي رصدها ابن جبير في رحلته " ... **ووقع الإحتفال في المسجد الحرام لهذا الشهر المبارك؛ وحقّ ذلك من تجديد الحصر وتكثير الشّمع والمشاعل**

---

[1]. رحلة ابن جبير، ص 221.

[2]. المصدر نفسه، ص 220.

[3]. المصدر نفسه، ص 259.

و غير ذلك من الآلات حتّى تلألأ الحرم نورا و سطع ضياء، و تفرّقت الأئمة لإقامة التّراويح فرقا..."[1].

ثمّ يتحدّث عن عادة السحور في هذا الشهر المبارك؛ و التي يتولّى هذه المهمّة المؤذّن الزمزمي: " **يتولّى التّسحير في الصومعة التي في الركن الشرقي من المسجد؛ بسبب قربها من دار الأمير؛ فيقوم في وقت السّحور فيها داعيّا و مذكّرا و محرّضا على السّحور و معه أخوان صغيران يجاوبانه و يقاولانه، و قد نصبت في أعلى الصومعة خشبة طويلة في رأسها عود كالذّراع ؛ وفي طرفيه بكرتان صغيرتان يرفع عليهما قنديلان من الزجاج كبيران لا يزالان يقدان مدّة التّسحير"**.[2]

إن هذا التنوّع في المشاهد و الأماكن و المرافق التي زارها الرّحالة ؛ساعدت على رفد ثقافته بالكثير من الخبرة و المعرفة ؛عن طريق اختلاطه بالنّاس و معرفة عوائدهم و أخلاقهم و إبداء رأيه وهذا تمثّل في تنوّع عواطفه، فنلمس عاطفته الدّينية القويّة عند وصفه للمدن التي فتحها المسلمون ؛فيختم كلامه بقوله: **حرسها الله تعالى** ،أو **حماها الله**... و إذا كانت تلك المدن التي مرّبها تحت سيطرة العدوّ دعا عليها بقوله: **دمّرها الله، أعادها الله**... كلّ تلك الأدعية كانت تنمّ عن عاطفة دينية قويّة، كانت تصدر من أديب مسلم تشبّث بدينه و عروبته، وتحسّر للوضع الذي عاشته الدول العربية والإسلامية من احتلالها من طرف المستعمرالمغتصب.

يعدّ ابن جبير أحد أشهر الرّحالة الذين دوّنوا أسماءهم في ذاكرة التّاريخ، لما قام به من رحلات غيّرت نمط حياته؛ وساعدت على رسم شخصية جديدة أثرت التّراث بفنون أدبية ؛و من خلال عرضنا لبعض النّماذج من نصوص الرحلة ؛حيث قطفنا من كل بستان زهرة حتّى نركّز على المشاهد والأماكن التي شدّت انتباه الرّحالة، نستشفّ من أسلوب ابن جبير في رحلته؛ جمالية التّصوير حيث

---

[1]. رحلة ابن جبير، ص 122.

[2]. المصدر نفسه، ص 123.

جعل من الشيء الجامد صورة حيّة تتحرك ؛وهذا برزفي وصفه لمكّة و مساجدها حيث جعل من نصوص الرحلة لوحات فنيّة رائعة.

تبقى رحلة ابن جبير من أهم الوثائق التّاريخية؛ حيث كشفت النّقاب عن حياة النّاس، وسلوكاتهم برصد أهمّ المظاهر الحضارية التي تنوّعت في الرّحلة، إلاّ أنّ المظهر الدّيني طغى على نصوص الرحلة. فلم يكن ابن جبير رحّالة توثيقيّا يسجّل مايشاهد و يراه فحسب، بل أخذ دور المصلح الاجتماعي في انتقاد بعض السلوكات المشينة للحجّاج، كما أسلفنا سابقا، و استطاع أن يصوّر المجتمعات الإسلامية و غيرها؛ و ما تمارسه من عادات و تقاليد و معتقدات ؛تصويرا و اقعيا معتمدا في ذلك على موهبته الأدبية و قدوراته اللّغوية.

إبن بطوطة:

هو ابن عبد الله، محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللّواتي الطنجي[1]، الملقّب بشمس الدّين، لكنّه أشتهر و عرف بابن بطوطة ؛ولد بطنجة يوم الإثنين السابع عشر من رجب سنة سبعمائة و ثلاثة الموافق لسنة ألف وثلاثمائة و ثلاثة ميلادية [2] ينحدر من أسرة عريقة عنيت بالعلوم الشرعية وعرفت بالبسطة في العيش، اهتمّ أبواه بتربيته فدرس الفقه و الأدب؛ وأصبح حريّا بأن يكون قاضيا مثل كثير من أهله.[3]

كان مالكي المذهب ؛و تعلّم شيئا من علوم الدّين و الفقه كغيره ممّن ينتمي إلى الطبقة الاجتماعية المتوسطة [4] ؛هو أعظم الرحالة المسلمين قاطبة و أكثرهم طوافا في الآفاق، وأوفرهم نشاطا و استيعابا بالأخبار[5]؛ يعتبر بحقّ شيخ الرّحالين العرب [6] كان ابن بطوطة شديد التأثّر، يقظ الوجدان، رقيق العاطفة تقيّا محبّا لوالديه، معظّما للأتقياء و الصّالحين يزورهم للتبرّك بهم[7]؛ كان من المغامرين الذين لا يقرّ لهم قرار و من الذين دفعهم حبّ الاستطلاع إلى ركوب الكثير من الصعاب.

لمّا بلغ ابن بطوطة الثانية و العشرين من عمره ؛قرّرأن يخرج حاجّا إلى مكّة و المدينة وبيت المقدس، وقد أمل من سفره أن يمارس الشّريعة في مختلف الدّيار الإسلامية.

---

[1] . الدرر الكامنة في اعيان المائة و الثامنة، السفر الثالث، ابن حجر العسقلاني، دط، ص480.

[2] . الرحل في المغرب و الاندلس، الدكتور علي ابراهيم الكردي، دراسات في الادب العربي وزارة الثقافة الهيئة العامة السورية للكتاب، دط، ص 65.

[3] .الرحلات، شوقي ضيف، دار المعارف، ط4، ص 95.

[4] . ابن بطوطة و صناعة ادب الرحلة: نسييج الواقع و الخيال، رسالة ماجستير في الاداب، اعداد شادي حكمت ناصر، الجامعة الامريكية بيروت، ص9.

[5] . الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، زكي محمد حسن، شركة نوابغ الفكر، ط1، 2007، ص 110.

[6] . الجغرافيا و الرحلات عند العرب، نقولا زيادة، دط، ص 187.

[7] . ابن بطوطة الرجل و الرحلة، اسماء ابو بكر محمد، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1992، ص 38.

رحلات ابن بطوطة:

قام ابن بطوطة برحلات ثلاث، رجال من خلالها العالم العربي و الإسلامي ؛و كان الدّافع للقيّام بهذه الرّحلات أداء فريضة الحجّ، بيد أنّ هذه الرّحلة ولدّت في نفسه حبّ معرفة الشعوب والاطّلاع على عاداتها، فكانت هذه الرّحلة أوّل انطلاقة للخروج من بلده والمرور بعدة أماكن، شاهد فيها أحوال النّاس، معيشتهم و مذاهبهم دامت رحلات ابن بطوطة زهاء الثامن و العشرين سنة في أسفار متصلة ورحلات متعاقبة، و لمّا بلغ ابن بطوطة سن الخمسين سنة ألقى عصا التسيار والترحال و عاد الى موطنه الأصلي فاتّصل بالسلطان أبي عنان المريني حاكم المغرب أنذاك، فأقام في حضرته يسرد على النّاس بما رآه من عجائب الأسفار و غرائب الأمصار، فأعجب به السلطان و بحكاياته الطريفة، و طلب من ابن بطوطة بأن تدوّن أخبار الرّحلة، حتى يستفيد منها الناس.

فأسند المهمّة إلى كاتبه محمد بن جزي الذي أقدم على كتابة الرّحلة وفق ما يمليه عليه الشّيخ ابن بطوطة، انتهى من كتابتها سنة ألف و ثلاثمائة و ستّة و خمسين سمّاها " تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" .

وقد ظلّت رحلة ابن بطوطة موضوع تقدير كثير من العلماء و الباحثين لمدة طويلة ؛ وترجمت إلى لغات كثيرة، توفيّ الرحالة ابن بطوطة سنة سبعمائة و تسع و سبعين[1] مخلّفا و راءه تراثا إسلاميّا زاخرا.

مضمون رحلة ابن بطوطة:

خرج ابن بطوطة من موطنه الأصلي ملبيّا نداء ربّه قائلا: **" كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس من شهر رجب الفرد عام خمسة و عشرين و سبعمائة معتمدّا حجّ بيت**

[1]. أدب الرحلة في الثرات العربي، فؤاد قنديل، مكتبة الدار العربية للكتاب، دط، ص 489.

الله و زيارة قبر الرّسول عليه أفضل الصّلاة و السّلام"[1] ثم يصف إحساسه عند مفارقته وطنه ووالديه:" **فجزمت أمري على هجر الأحباب من الإناث و الذكور و كانا و الداي بقيد الحيّاة، فتحمّلت لبعدهما وصبا ؛و لقيت كما لقيا من الفراق نصبا**"[2] فالرّغبة الملحّة لزيارة البقاع المقدّسة تجاوزت كلّ الصعوبات و العوائق ؛التي يمكن لأيّ رحالة أن يحسب لها ألف حساب قبل الاستعداد للسّفر، فرحالتنا ركب حماره و خرج بدون مرافق أو فلس من النقود يحتمي به من غدر الجوع والفاقة، ولحسن حظّه كان يلتقي في كلّ مرّة قافلة من التّجار يكرمونه و يواصل السير معهم إلى أن يصل الى المكان المقصود، فابن بطوطة عند زيارته للدّولة الإسلامية لم يشعر أنّه غريب، لأنّه وجد من يستقبله و يقدّم له الطّعام لا على سبيل التكرّم و التفضّل، بل لأنّه كان هناك تنظيما محكما و ضعته الأمّة، وهو ما يسمّى بنظام الزوايا أو الربط ؛و هي دور للضّيافة ينشئها رجال الصوفية، أو بعض أهل الخير من مالهم الخاصّ يتولّون أمر المسلمين، و يشرفون على توفير الرّاحة لهم. أوّل محطّة حلّ بها ابن بطوطة هي تلمسان: " **ويوم وصولي إلى تلمسان خرج عنها الرّسولان المذكوران، فأشار عليّ بعض إخواني بمرافقتهما، فاستخرت الله عزّ وجلّ في ذلك، وأقمت بتلمسان ثلاثا في قضاء مآربي**"[3] فأقام بها ثلاثة أيّام و للأسف لم يصف المدينة، ولا سلطانها ولا أيّ شيء له علاقة بتلمسان.

ثمّ يتوجّه إلى تونس فيصف سلطانها و مراسيم الاستقبال، و يضمّن نصّه شيئا من الشعر، امتنانا لهذا البلد و لحاكمه، فأنشد ابن جزي يصف بلدة صفاقس:

سقيا لأرض صفاقس ذات المصانع و المصلّى

---

[1]. رحلة ابن بطوطة، دار بيروت للطباعة و النشر، دط، ص 14.

[2]. المصدر نفسه، ص 15.

[3]- المصدر نفسه؛ ص

محمى القصير إلى الخليج فقصرها السّامي المعلّى[1]

من مزايا رحلة ابن بطوطة أنّها كشفت عن الكثير من الأنظمة ؛و المظاهر الحضارية للأماكن التي زارها ؛بالإضافة إلى الاقتصاد و التّاريخ و الأحوال الاجتماعية، عرف عن ابن بطوطة دقّة الملاحظة و فضوله و تطلّعه لاكتشاف المعرفة، فتنوّع الوصف في رحلته ليشمل الأشخاص ؛الأماكن المقدّسة والعادات والتقاليد.

ممّا لاشكّ فيه أنّ ابن بطوطة التقى أشخاصا عديدون ينتمون إلى جنسيات مختلفة ويتكلّمون لغات مختلفة، و لكنّ الرابط بينه و بينهم هو الدّين الإسلامي؛ كذكره لبعض علماء الإسكندرية: " **فمنهم قاضيها عماد الدّين الكندي إمام من أئمّة علم اللّسان، و كان يعتمّ بعمامة خرقت المعتاد للعمائم؛ لم أر في مشارق الأرض و مغاربها عمامة أعظم منها.**"[2] إلاّ أنّ الأشخاص الذين حظوا عنده بالمرتبة الأولى من الاهتمام ؛هم الأولياء و الصالحون والمتصوّفة ؛فنوّه بكرامة كبار الصالحين يسكن مدينة بساحل النيل: " **دخلت إلى هذا الشريف متبرّكا برؤيته و السّلام عليه، فسألني عن قصدي، فأخبرته أنّي أريد حجّ البيت الحرام على طريق جدّة، فقال لي: " لا يحصل لك هذا في هذا الوقت، فارجع و إنّما تحجّ أوّل حجّة على الدّرب الشّامي ؛فانصرفت عنه ولم أعمل على كلامه، و مضيت في طريق حتىّ وصلت إلى عيذاب فلم يتمكّن لي السّفر، فعدت راجعا إلى مصر ثم إلى الشّام ، كان طريقي في أوّل حجّاتي على الدّرب الشّامي حسبما أخبرني الشريف، نفع الله به**"[3].

فالشّيء الملفت للنّظر هو النزعة الصوفية التي تحكّمت في نصوص الرّحلة؛ فالرّجل متحمّس أشدّ الحماس لعالم التصوّف و المتصوّفة؛ حتىّ إنّ رحلته كانت بحثا دائبا عن الأولياء و الصالحين،

---

[1]- رحلة بن بطوطة، ص 18.

[2]- المصدر نفسه، ص 23

[3]- المصدر نفسه، ص 53

فكثيرا ما كان يعتزل القافلة التي تقلّه من أجل صحبة وليّ أو زاهد لخدمته و نيل بركته و ذلك راجع لنزعته الصّوفية.

لم ينس ابن بطوطة وحدة المجتمع الإسلامي الذي اتّصف بالتديّن و الورع، هذا ما تترجمه كثرة المساجد، التي أصبحت قبلة المسلمين في كلّ مكان، فراح يصف الأماكن المقدّسة بكلّ أمانة دون زيادة أو نقصان؛ فذكر مسجد رسول الله وروضته الشريفة: " **المسجد المعظّم مستطيل تحفه، من جهاته الأربع بلاطات دائرة به، ووسطه صحن مفروش بالحصى و الرّمل، و يدور بالمسجد الشريف شارع مبلّط بالحجر المنحوت، و الرّوضة المقدّسة صلوات الله و سلامه على ساكنها في الجهة القبلية مما يلي الشرق من المسجد الكريم"**[1].

كما أنّه وصف كلّ مشعر حرام في مكّة ؛دون أن ينسى أئمّتها و الأماكن المحيطة بمكّة والمدينة، فوصفه للأماكن المطهّرة لم يكن من نسج الخيال؛ بل كان مبنيا على المشاهدة و الاطّلاع المباشر، ممّا أعطى للرحلة مصداقيتها.

عندما زار ابن بطوطة الهند مكث حوالي سنتين بها فمارس القضاء و الشريعة، و احتكّ بأهلها و شاركهم حياتهم بحلوها و مرّها ؛فتقمّص دور الاثنوغرافي يصف و يفسّر و يقارن ما لفت نظره من عوائدهم و تقاليدهم، و من بين الأشياء الغريبة و العجيبة التي اتّصف بها سكان الهند وصارت عندهم عادة لا يتنازلون عنها إحراق موتاهم : " **و لمّا انصرفت عن هذا الشّيخ ؛رأيت النّاس يهرعون من عسكرنا و معهم بعض أصحابنا فسألتهم : ما الخبر ؟ فأخبروني أنّ كافرا من الهنود مات ؛و أجّجت النّار لحرقه؛ و امرأته تحرق نفسها معه، و لمّا احترقا جاء أصحابي وأخبروني أنّها عانقت الميّت حتى احترقت معه"**.[2]

---

[1]- رحلة ابن بطوطة ص114

[2]. المصدر نفسه، ص 411.

هذا العادات السيئة موجودة بكثرة عند سكان الهند و الصّين؛ و للأسف استأصلت في نفوسهم، و طغت على حياتهم اليومية.

ثمّ ننتقل مع ابن بطوطة إلى عادات المسلمين الحميدة كاحتفال أهل مكّة بحلول شهر رجب بقرع الطبول ايذانا بدخوله:" **و إذا أهل هلال رجب ؛أمر أمير مكّة بضرب الطبول و البوقات إشعارا بدخول الشّهر، ثم يخرج في أوّل يوم منه راكبا، و معه أهل مكّة فرسانا ورجالا على ترتيب عجيب ؛وكلّهم بالأسلحة يلعبون بين يديه... فيطوف الأمير بالبيت و المؤذّن الزمزمي بأعلى قبّة زمزم يدعو له عند كل شرط، فإذا طاف صلّى ركعتين عند الملتزم وصلّى عند المقام، و تمسّح به وهذا اليوم عندهم عيد من الأعياد يلبسون فيه أحسن الثياب".**[1]

تعرّض ابن بطوطة للجانب الاقتصادي للهند ؛و الذي اقتصر على زراعة الحبوب و الأرز: " **و أهل الهند يزرعون مرّتين في السّنة؛ فإذا نزل المطر عندهم في أوان القيظ زرعوا الزرع الخريفي و حصدوه بعد ستّين يوما من زراعته، و من هذه الحبوب الخريفية عندهم الكوذرو، وهو نوع من الدخن، و هذا الكوذرو هو أكثر الحبوب عندهم...**" ثم يضيف قائلا: " **و بلادهم كريمة طيّبة التّربة، أمّا الأرز فإنّهم يزرعونه ثلاث مرّات في السّنة ؛و هو من أكبر الحبوب عندهم، و يزرعون السّمسم و قصب السّكر مع الحبوب الخريفية".**[2]

ثم ينتقل إلى الحديث عن العملة التي يبيع بها أهل الصّين بضائعهم و يشترون بها: " **وأهل الصّين لا يتبايعون بدينار و لا درهم، جميع ما يتحصّل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعا كما**

---

[1]. رحلة ابن بطوطة ،ص 162.

[2]. المصدر نفسه ،ص 408، 409.

ذكرناه، وإنّما بيعهم وشراءهم بقطع كاغد، كلّ قطعة منها بقدر الكف مطبوعة بطابع السّلطان، وتسمّى الخمس والعشرون قطعة منها بالشّت، وهو بمعنى الدّينار عندنا..."[1]

وعندما زار مدينة مصر أعجب ببنائها و علمائها و بنهر النّيل؛ الذي يسمّيه بعضهم نهر الجنّة، لكنّ الشيء المهمّ الذي شدّ انتباه الرّحالة هو مشاهدته لأهرام مصر؛ فراح يصفها بكل عفوية و شفافية: " هي من العجائب المذكورة على مرّ الدّهور، و للنّاس فيها كلام كثير... و الأهرام بناء بالحجر الصّلد المنحوت متناهي السمّو، مستدير، متّسع الأسفل ضيّق الأعلى كالشّكل المخروط، و لا أبواب لها، و لا تعلم كيفية بنائها..."[2]

كما أنّه التفت إلى ذكر قضاة دمشق و هم أربعة؛ كلّ قاض ينتسب إلى أحد المذاهب الأربعة الإسلامية: "... قد ذكرنا قاضي القضاة الشّافعي بها جلال الدّين محمد بن عبد الرّحمن القزويني، و أمّا قاضي المالكية فهو شرف الدّين خطيب الفيّوم حسن الصورة و الهيئة من كبار الرؤساء، و هو شيخ شيوخ الصّوفية ؛و النائب به في القضاء شمس الدّين بن القفصي، ومجلس حكمه بالمدرسة الصمصامية، و أمّا قاضي قضاة الحنفية فهو عماد الدّين الحوراني، كان شديد السّطوة و إليه يتحاكم النّساء و أزواجهنّ، و كان الرّجل إذا سمع اسم القاضي الحنفي أنصف من نفسه قبل الوصول إليه، و أمّا قاضي الحنابلة فهو الإمام الصّالح عزّ الدّين بن مسلم من خيار القضاة..."[3]

كلّ قاض من هؤلاء القضاة الأربعة؛ تميّز عن غيره بمجموعة من الصفات أهّلته أن يكونا قاضيا عن جدارة و استحقاق؛ يحكم في النّاس وفق مبادئ الشّريعة الإسلامية.

---

1. رحلة ابن بطوطة ، ص 629.
2. المصدر نفسه، ص 31، 32.
3. المصدر نفسه ، ص 94.

كما نعلم أنّ ابن بطوطة زار دول عربية إسلامية و أخرى أجنبية؛ كالهند و الص، و جاوة وبلاد التّتار؛ و إفريقيا و تاركستان و البلغار، بعدها توجّه إلى القسطنطينية: " و سافرنا في العاشر من شوّال في صحبة الخاتون بيلون، و تحت حرمتها، ورحل السلطان في تشييعها مرحلة، ورجع هو والملكة ووليّ عهده، وسافر سائر الخواتين في صحبتها مرحلة ثانية ثم رجعن، وسافر صحبتها الأمير بيدره في خمسة آلاف من عسكره".[1]

وبعد أن قرّب السّلطان أو زبك خان ابن بطوطة منه ؛ و نال عنده المنزلة السّامية و الحظوة الرفيعة، كلّفه السّلطان بمرافقة زوجته الخاتون إلى القسطنطينية لزيارة أبيها الملك الرّومي ؛ الذي كان يعتنق ورعاياه الرّوم الدّين المسيحي، وهكذا أتيح لابن بطوطة وصف القسطنطينية: " هي متناهية في الكبر، منقسمة قسمين ؛ بينهما نهر عظيم المدّ و الجزر على شكل وادي سلا من بلاد المغرب، و كانت عليه فيما تقدّم قنطرة مبنية فخرّبت، و هو الآن يعبر في القوارب، و اسم هذا النّهر أبسمي، وأحد القسمين من المدينة يسمّى اصطنبول..."[2]

و يزيد في حديثه عن وصف الكنيسة العظمى: " و إنّما نذكر خارجها، أمّا داخلها فلم أشاهده، و هي تسمّى عندهم أياصوفيا؛ و يذكرأنّها في بناء آصف بن برخياء، وهو ابن خالة سليمان عليه السّلام، و هي من أعظم كنائس الرّوم، و عليها سور يطيف بها فكأنّها مدينة، وأبوابها ثلاثة عشر بابا، و لها حرم هو نحو ميل عليه باب كبير، و لا يمنع أحد من دخوله، وقد دخلته مع والد الملك..."[3] ثمّ يذكر لنا ملك الكنيسة الرّاهب جرجيس: "وهذا الملك ولّى الملك لابنه، و انقطع للعبادة وبنى ما نشارا.. و كنت يوما مع الرّومي المعيّن للرّكوب معي، فإذا بهذا الملك ماش على قدميه، و عليه المسوح، وعلى رأسه قلنسوة لبد ؛ وله لحية بيضاء

---

1. رحلة ابن بطوطة ، ص 344.
2. المصدر نفسه، ص350.
3. المصدر نفسه ، ص 451.

طويلة، ووجهه حسن عليه أثر العبادة، و خلفه و أمامه جماعة من الرّهبان، و بيده عكّاز و في عنقه سبحة".[1]

إنّ هذه الرّحلة الطويلة لابن بطوطة فتحت له أفاقا بعيدة ؛فهو لم يكن في نيّته زيارة هذا الكمّ الهائل من المدن ؛بل كان هدفه القيام بفريضة الحج، فكان الباب الدّيني الذي طرقه أتاح له معرفة العالم العربي و الأجنبي ليكشف لنا عوائد الناس، ومعيشتهم ، واقتصادهم، وطقوسهم الدّينية، وثقافة النّاس والعلاقات التّجارية التي كانت تقام بين القوافل، واتّصاله بالسّلاطين و الملوك و الأمراء و نيل حظوتهم و اهتماماتهم؛ فاستطاع بريشة ذاكرته الشفوية أن يرسم لنا صورا و مشاهد لانهاية لدقّتها و جمالها. سيظل ابن بطوطة المواطن و الرّحالة المسلم الذي طاف أرجاء العالم بدافع المغامرة وحب السفر؛ فكان أسير رغبتين تحققتا من خلال هذه الرحلة أوّلها دّيني و الثّاني سياحي، و سيبقى هذا الرّجل يمثّل وحدة الشعور الإسلامي؛ و نوعية فريدة من الرّحالة الذين كان همّهم الوحيد تزويد النّاس بمعلومات ؛و أخبار شاهدها الرّحالة بمرأى عينيه، و أشياء أخرى عدّها غريبة ؛فراح يكشف عن سرّ وجودها؛ و يفسّر عواقبها؛ لتظهر للقارئ العربي في صورة واضحة يستطيع أن يعتمد عليها في بحوثه العلمية.

رحلة ابن بطوطة هي مشروع حضاري؛ ساعدت في النهوض بتراثنا العربي الإسلامي و بأدب الرحلة ليصل إلى مصاف الفنون النثرية الأخرى؛ التي لا يقل أهمية عنها و رحلته ستظلّ ذلك الجسر الذي يربط الإنسان بحضارته.

---

[1]. رحلة ابن بطوطة، ص 354.

عبد الرحمن بن خلدون:

هو عبد الرحمن أبو زيد و لي الدين بن خلدون، اشتهر بابن خلدون و لّقب ولي الدّين بعد تولّيه وظيفة القضاء في مصر[1]؛ وكان يطلق عليه اسم الحضرمي نسبة إلى سلفه الأوائل، ينتمي ابن خلدون إلى أسرة عربية عريقة من يمن حضرموت، وكان جدّه الأعلى خالد المعروف بابن خلدون من بين قادة العسكريين؛ الذين شاركوا في فتح الأندلس تحت قيادة طارق بن زياد في سنة اثنان و تسعون هجرية ؛الموافق لسنة سبعمائة وأحد عشر ميلادية، و منذ هذا الفتح استقّرت أسرته في مدينة اشبيلية؛ و أصبحت من أكثر الأسر العربية نفوذا، و ثروة و مكانة اجتماعية [2].

اتّصف عبد الرحمن ابن خلدون بصفات و أخلاق حميدة كانت من بين عوامل نبوغه ؛فكان حسن الخلق جمّ الفضائل، رفيع القدر، ظاهر الحياء، أصيل المجد، و قور المجلس، عالي الهمّة، عزوفا عن الضيم، صعب المقادة قوي الجأش[3]، وجّهه والده لطلب العلم منذ صغره، حيث حفظ القرآن على أحد الشّيوخ، كما تنوّعت روافد المعرفة لديه بتنوع العلماء و المشاريخ الذين أخذ عنهم ؛ ولازمهم طيلة مكوثه بتونس فقرأ الحديث و الفقه، و أخذ المنطق، و سائر فنون المعرفة، و من المشايخ الأجّلاء الذين كانوا سببا في تنمية قدوراته العقلية الشّيخ محمد بن الشّواش الزرزالي، وأحمد بن القصار صاحب شرح البردة، سمع من ابن عبد السلام، وأخذ عن السطّي، و عن الحضرمي، و لازم

[1]. اعلام العرب، عبد الرحمن بن خلدون، حياته و اثاره و مظاهر عبقريته الدكتور علي عبد الواحد وافي، مكتبة مصر، دط،ص 12.

[2]. ابن خلدون انجاز فكري متجدد، اسماعيل سراج الدين، اعداد و تحرير محمد الجوهري و محسن يوسف، مكتبة الاسكندرية، 2008، دط، ص 11.

[3]. جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الاعلام مدينة فاس، احمد ابن القاضي المكناسي، دار المنصور للطباعة و النشر، الرباط، 1973، دط، ص410.

محمد الآبلي، كان دخوله مدينة فاس سنة خمسمائة و عشرون ؛و قدم بها للعلّامة عند أبي عنان فارس بن علي بن عثمان المريني و استعمله في الكتابة أوائل عام ستّة و خمسين .[1]

شغل ابن خلدون عددا من المهام أثناء حياته، فتنّقل بين عدد من المهام الادارية والسياسية ؛فعمل قاض عند نزوله مصر؛ و أصبح يدّرس بجامع الأزهر فانهال عليه الطلبة يلتمسون الإفادة منه.

بعد الحادثة الأليمة التي ألحقت بعائلته ؛إثر غرقهم في البّحر سنة سبعمائة و سبعة و ثمانين هجرية استقال من منصبه كقاض؛ و قّرر أن يزهد في الدّينا و تفرّغ للعلم و التدريس والتأليف، و في سنة سبعمائة و تسعة و سبعين خرج لتأدية فريضة الحج.[2]

مؤلفات عبد الرحمن ابن خلدون:

أشهر الكتب التي تركها ابن خلدون كتاب "العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيّام العرب والعجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"؛ و يسمّى تاريخ ابن خلدون يقع في سبعة أجزاء يتصدّرها كتاب المقدّمة الذي اشتهر به العلّامة ابن خلدون ؛و لاقى رواجا كبيرا بين مختلف شرائح المجتمع،إذ يتناول في المقدّمة جميع ميادين المعرفة من الشّريعة و التّاريخ و الجغرافيا و الاقتصاد؛ و العمران و الاجتماع و السّياسة و الطّب و تناول فيه أحوال البشر و اختلاف طبائعهم ؛و البيئة وأثرها في الإنسان؛ كما تناول بالدّراسة تطّور الأمم و الشّعوب و نشوء الدولة و أسباب انهيارها، حيث يرى أنّ حياة الدول و الشّعوب تمّر بفترات و مراحل قلّما تختلف، حيث تنتقل من طور البداوة و التوحّش إلى حياة البذخ و الترف؛ لتصل في نهاية المطاف إلى سنّ الشّيخوخة و الهرم ثم الفناء، وهي تتشابه في ذلك مع الأطوار التي تعرفها حياة أيّ فرد من النوع الإنساني؛ بدءا من فترة الطّفولة والشّباب إلى الكهولة ، ثمّ الشّيخوخة و الهرم ؛و توصّل من خلال نظريته في الدّولة أنّ العصبية لها دور أساسي في بناء الدول ؛حيث يعتبر ابن خلدون مؤسّس علم الاجتماع ؛و أوّل من وضعه على

[1]. جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الاعلام مدينة فاس، احمد ابن القاضي المكناسي، المصدر السابق، ص411.

[2].ابن خلدون انجاز فكري متجدد، اسماعيل سراج اسماعيل سراج الدين،ص 17.

أسّسه الحديثة ؛و يكون بهذا الإنجاز قد سبق العالم الفرنسي أوغست كونت في نظرياته حول علم الاجتماع.

كتاب"شفاء السائل و تهذيب المسائل": هو كتاب في التصوّف يحمل بين دفتيه تاريخ التصوّف، نشأته، مناهج الصّوفية ومجاهداتهم، وأحوالهم، وسلوكياتهم، والمصطلحات التي يستعملها أهل الصوفية ؛و اشتراط الإلتزام بالشّيخ في سلوك الصّوفي.

كتاب "التّعريف بابن خلدون ورحلته غربا و شرقا": يعتبر هذا الكتاب نموذجا جيّدا لنمط التّرجمة الذّاتية، حيث يترجم المؤلّف لسيرة حياته بقلمه، فقد أفاض في التّعريف بذاته ؛فبدأ كتابه بالتحدّث عن أصله وولادته بتونس: " **و أصل هذا البيت من اشبيلية، انتقل سلفنا، عند الجلاء و غلب ملك الجلالقة بن أدفونش عليها إلى تونس في أواسط المائة السابعة**".[1]

ثم يطيل الحديث عن الشّيوخ الذين تلقّى عنهم العلم في مختلف مجالات العلم و المعرفة: "... **وربّيت في حجر و الدي رحمه الله إلى أن أيفعت و قرأت القرآن العظيم على الأستاذ المكتب أبي عبد محمد بن سعد بن برّال الأنصاري... كان إماما في القراءات لا يلحق شأوه...**"[2]

وتعلّم اللغة العربية و آدابها من" **أبو عبد الله محمد بن بحر لازمت مجلسه، و أفدت عليه، و كان بحرا زاخرا في علوم اللّسان و أشار عليّ بحفظ الشّعر، فحفظت كتاب الأشعار السّتّة و الحماسة للأعلم ... وطائفة من شعر المتنبّي...**"[3]

---

[1]. التعريف بابن خلدون و رحلته غربا و مشرقا، عبد الرحمن بن خلدون، دار الكتابي اللبناني للطباعة و النشر، دط، ص3.

[2]. المصدر نفسه، ص 19.

[3]. المصدر نفسه، ص 57.

4-المصدر نفسه ص 22.

ومن الشّيوخ الذين أخذ عنهم العلوم العقلية: " ... **أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي، أصله من تلمسان، و بها نشأ، و قرأ كتب التعاليم وحذق فيها...**"[1]

إنّ المقام لا يسعنا أن نذكر كلّ الشّيوخ الذين تلقّى عنهم و أخذ منهم ابن خلدون جميع صنوف المعرفة في مجالاتها المختلفة؛ فالمتصفّح لرحلة ابن خلدون سيلاحظ أنّ صاحبها أفرد لذكر شيوخه و علمائه جزءا كبيرا من أجزاء الرحلة ؛و هذا يدلّ على أنّ العلّامة تأثّر بشيوخه ؛و حرص على ذكر أسمائهم من باب الأمانة العلمية و التنويه بمجهوداتهم.

وينتقل إلى الحديث عن ولايته العلامة بتونس: " **وأستدعاني أبو محمد بن تافراكين، المستبّد على الدّولة يومئذ بتونس الى كتابة العلامة عن سلطانه أبي إسحاق... فكتبت العلامة للسلطان وهي وضع" الحمد لله و الشكر لله" بالقلم الغليظ، ممّا بين البسملة وما بعدها، من مخاطبة أو رسوم**"[2].

وبعد المدّة الزّمنية التي قضاها في تونس متنقّلا بين دروس العلم و حلقاته، و لازم مجلس الشّيخ الآبلي مدّة ثلاث سنوات، فارتحل الشّيخ الآبلي بعد الدّعوة التي بعثها له سلطان المغرب أبو عنان فعزم على اللّحاق بشيوخه، فخرج ابن خلدون من تونس ومرّ بمدن جزائرية كتبسة، بجاية ، بسكرة، تلمسان؛ وكلّ مدينة من هذه المدن التي نزل بها غمره أهلها بحفاوة الاستقبال و حسن الضيافة، و لمّا وصل إلى المغرب أقام في حضرة سلطان فاس و تولّى مهنة الكتابة"... **فأخبره الذين لقيتهم بتونس عنّي، ووصفوني له، فكتب إلى الحاجب يستقدمني، فقدمت عليه سنة خمس و خمسين، ونظمني في أهل مجلسه العلمي، وألزمني شهود الصلوات معه، ثم استعملني في كتابته، والتّوقيع بين يديه على كره منّي،...و عكفت على النظر و القراءة، و لقاء المشيخة من أهل**

---

[1]- التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ؛عبد الرحمن ابن خلدون، ص57

[2]- المصدر نفسه، ص

المغرب، ومن أهل الأندلس الوافدين في غرض السّفارة؛ وحصلت من الإفادة منهم على البغية"[1].

مكث عبد الرّحمن ابن خلدون في فاس مدّة لم يحدّد زمنها في الرّحلة ؛إلاّ أنّه صرّح باحتكاكه بالمشايخ الذين أفادوه في علم القراءات و علوم أخرى، ثم عزم على الرّحيل مرّة أخرى وكانت وجهته تجاه الأندلس " و لمّا أجمعت الرحلة إلى الأندلس بعثت بأهلي وولدي إلى أخوالهم بقسنطينة، و كتبت لهم إلى صاحبها السلطان أبي العبّاس من حفدة السلطان أبي يحي، و أنّي أمرّ على الأندلس و أجيز إليه من هنالك..."[2].

لما وصل ابن خلدون إلى الأندلس توجّه إلى غرناطة فسمع ابن الخطيب بوصوله بعث له برسالة يهنّئه فيها بمقدمه:

حللت حلول الغيّث بالبلد المحل	على الطّائر الميمون و الرّحب و السّهـل
يمينا بما تعتو الوجوه لوجهـــــه	من الشّيخ و الطّفل المهدّإ و الكّهـــــل
لقد نشأت عندي للقياك غبطـــة	تنسّي اغتباطي بالشّبيبة والأهــــــــل
وودّي لا يحتاج فيه لشاهـــــد	وتقريري المعلوم ضرب من الجّهـــــل[3]

ويصف ابن خلدون مراسم الاستقبال التي حظي بها من السّلطان وحاشيته: " وقد اهتزّ السّلطان لقدومي، و هيّأ لي المنزل من قصوره بفرشه، و ماعونه ، و أركب خاصّته للقائي تحفيّا و برّا و مجازاة بالحسنى، ثمّ دخلت عليه فقابلني بما يناسب ذلك ؛و خرج الوزير ابن

[1] - التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ؛عبد الرحمن ابن خلدون، ص60-61
[2] - المصدر نفسه ص84
[3] - المصدر نفسه ص86

الخطيب فشيّعني إلى مكان نزلي، ثم نظمني في عليّة أهل مجلسه، و اختصّني بالنّجيّ في خلوته..."[1]

وكان الرّحالة يضمّن نصوصه شيئا من الشّعر؛ نضمه في فنون مختلفة منها ما أنشده في ليلة الاحتفال بالمولد النبوي:

حتّى المعاهد كانت قبل تحييني بواكف الدّمع يرويها و يظمئني

إنّ الألى نزحت داري دارهم تحمّلوا القلب في آثارهم دوني[2]

ثمّ يشّد ابن خلدون مّرة أخرى الرّحال و يتجه إلى بجاية؛ و يصير إماما خطيبا بإحدى جوامعها:" ...وركبت البّحر من ساحل المريّة منتصف ستّ وستّين، ونزلت بجاية لخامسة من الإقلاع، فاحتفل السّلطان صاحب بجاية لقدومي، و أركب أهل دولته للقائه، و تهافت أهل البلد عليّ من كلّ أوب يمسحون أعطافي، و يقبّلون يديّ، و كان يوما مشهودا... و قد أمر السّلطان أهل الدّولة بمباركة بابي؛ واستقللت بحمل ملكه، و استفرغت جهدي في سياسة أموره و تدبير سلطانه، و قدّمني للخطابة بجامع القصبة، و أنا مع ذلك عاكف إلى تدريس العلم أثناء النّهار بجامع القصبة لا أنفكّ عن ذلك".[3]

و الشيئ الّلافت للّنظر أنّ كلّ بلد مّر به ابن خلدون لم يعطه حقّه من الوصف والّتصوير، فنلاحظ أنّ ملكة الوصف قد خدمت عنده إلاّ ما قاله في وصف القاهرة : " فرأيت حضرة الدّنيا، و بستان العالم و محشر الأمم، و مدرج الذرّ من البشر، و ايوان الإسلام وكرسي الملك،

[1]. التعريف بابن خلدون و رحلته غربا و شرقا، عبد الرحمن بن خلدون، ص88.
[2]. المصدر نفسه، ص 89.
[3]. المصدر نفسه،ص 104، 105.

تلوح القصور و الأواوين في جوّه، و تزهر الخوانك و المدارس بأفاقه و تضيء البدور والكواكب من علمائه، قد مثل بشاطئ بحر النّيل نهر الجنّة ؛و مدفع مياه السّماء..."[1]

ماهو السّبب الذي جعل ابن خلدون يتفنّن في وصف القاهرة و نهر النّيل؟ هل هذا راجع الى إقامته بالإسكندرية التي دامت شهرا؛ أم ذوقه الفنّي فرض عليه إعطاء لوحة فنّية للقاهرة و مدنها ومعالمها الحضارية.

ثم ينتقل الرّحالة إلى الحديث عن المهنة التي أسندت إليه؛ وهي وظيفة القضاء بعد أن عزل قاضي المالكية من منصبه:

" فلمّا عزل هذا القاضي المالكي سنة ستّ و ثمانين، اختصّني السّلطان بهذ الولاية تأهيلا لمكاني، و تنويها بذكري، وشافهته بالتّفادي من ذلك فأبى إلاّ إمضاءه، و خلع عليّ بإيوانه، وبعث من كبار الخاصّة من أقعدني بمجلس الحكم بالمدرسة الصّالحية.."[2]

وأثناء إقامته بالقاهرة و تولّيه القضاء عزم على إصلاح ما أفسده القضاة، و كان يحكم بين النّاس بالعدل عاملا بأصول الشّريعة الإسلامية ؛فلا يبالي بجاه و لا بسلطة ؛همّه الوحيد إنصاف المظلوم و معاقبة الظّالم،و بعض الحاقدين لابن خلدون لم تعجبهم صرامته في إقامة الحقّ على وجهه الصّريح؛ فتعاقدوا على ظلمه ووشايته إلى السّلطان بحجّة أنّه غير خبير في أمور القضاء، إضافة إلى هذه المحنة صادفه خبر وفاة أهله وولده، إذ أبحروا من تونس ليلتحقوا به فغشيتهم ريح عاصف فهلكوا في البّحر جميعا: **" فكثر عليّ الشّغب من كلّ جانب، و أظلم الجوّ بيني و بين أهل الدّولة، و وافق ذلك مصابي بالأهل و الولد، وصلوا من المغرب في السّفين فأصابها قاصف**

[1]. التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا؛عبد الرحمن ابن خلدون،ص 264.

[2]. المصدر نفسه، ص273.

من الرّيح فغرقت، و ذهب الموجود و السّكن و الولد فعظم المصاب و الجزع، و رجّح الزّهد، و اعتزمت على الخروج من المنصب ؛فلم يوافقني عليه النّصيح ممّن استشرته".[1]

وبعد التّهمة التي أقت بابن خلدون من خصومه، وقف السّلطان موقف اكمة ؛فجمع بين الحزم في السياسة و كرامة ابن خلدون الذي أبت نفسه عدم الاستمرار في مهنة القضاء ؛فنظر إليه السّلطان بع الرأفة و عزله من منصبه:" و شملتني نعمة السّلطان أيّده الله في النّظر بعين الرّحمة و تخلية سبيلي من هذه العهدة التي لم أطق حملها... فردّها إلى صاحبها الأول..."[2]

وبعد عزله من منصب القضاء قضى ثلاث سنوات عاكفا على التّدريس و التّحرير، و قرّر اروج لقضاء فريضة اجّ: " ثمّ مكثت بعد العزل ثلاث سنين، و اعتزمت على قضاء الفريضة، فودّعت السّلطان و الأمراء، وزوّدوا وأعانوا فوق الكفاية، و خرجت من القاهرة منتصف رمضان سنة تسع و ثمانين ، إلى مرسى الطّور بالجانب الشّرقي من بحر السّويس، و ركبت البّحر من هنالك عاشر الفطر، ووصلنا إلى الينبع لشهر فوافينا المحمل ؛و رافقتهم من هنالك إلى مكّة ؛ دخلتها ثاني ذي الحجّة فقضيت الفريضة في هذه السّنة..."[3]

إنّ القارئ لهذه السطور أوّل شيء يشدّ انتباهه كيف لرحالة مسلم زار مكّة بهدف أداء اناسك، فهو يحجّ بيت الله و يعود و لا يذكر شيئا أكثر من طريق الذهاب و الإياب، فلا يتعرّض لوصف مكّة أو الكعبة ؛أو أيّ مشعر من مشاعر اجّ . وبعد قضاء الفريضة يرجع ابن خلدون إلى القاهرة وهو عازم على الاعتكاف في طلب العلم وتدريسه للطلبة، فتولّى التّدريس في إحدى اوانق صر؛ وهي عبارة عن رباط الصّوفية يختلي ويقيم فيها المتصوّفة والزّهاد انقطع عن الدنيا ؛فيتفرّغون

1. التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا؛عبد الرحمن ابن خلدون، ص 278، 279.
2. اصدر نفسه، ص279.
3. اصدر نفسه. ص281.

للعبادة من أذكار ونوافل والتخلّق بأخلاق تصوّفة؛ وكان ينفق على الطلبة قيم بوانق من الأراضي وقوفة[1].

وعندما كان ابن خلدون يلقي دروسه بهذه المدرسة حضر مجلسه أكابر النّاس و علّيتهم فخطب فيهم خطبة جامعة ذكّرهم فيها بعظمة الإسلام ؛و نوّه بطلب العلم من مجالاته المختلفة: " **الحمد لله الذي بدأ بالنّعم قبل سؤالها؛ ووفّق من هداه للشّكر على منالها؛ و جعل جزاء المحسنين في محبّته؛ ففازوا بعظيم نوالها ؛و علّم الإنسان الأسماء و البيان ومالم يعلم من أمثالها ؛و ميّزه بالعقل الذي فضّله على أصناف الموجودات و أجيالها... أمّا بعد؛ فإنّ الله سبحانه لمّا أقرّ هذه الملّة الإسلامية في نصابها؛ و شفاها من أدوائها و أوصا بها؛ و أورث الأرض عباده الصالحين من أيدي غصّابها...فزخر بها منذ دولتهم بحر العمران ؛و تجاوبت فيها المدارس بترجيع المثاني و القرآن ؛و عمرّت المساجد بالصّلوات و الآذان..."**[2]

لم يخرج ابن خلدون عن سابقيه في منهج كتابة الخطب؛ فقد استهلها بمدلة و الثناء والحمد لله عزوجل؛ و التّذكير بجليل نعمه و عظيم قدرته؛ و جاء أسلوبه سهلا واضحا وبدت تعابيره قويّة ؛إضافة إلى حسن توظيف الرّوابط التي حقّقت الانسجام ب فقرات النّص، و ابن خلدون لم يتحرّر من قيود السّجع الذي غلب على معظم العبارات؛ إلاّ أنّ اهتمامه بالمعنى كان سائدا على اهتمامه بالزّخرف اللّفظي.

من خلال تصفحنا لنصوص الرحلة تب لنا أنّ ياة الاجتماعية لم تكن موضوع اهتمام ابن خلدون؛ إذ لم د لديه أيّ اهتمام أو ذكر لعادات النّاس و طقوسهم الدّينية، بالرّغم أنّه زار تونس والأندلس؛ ومكث بمصر مدة طويلة تولّى فيها عمل القضاء أكثر من أربعة مرّات؛فوصفه للشّخصيات الدّينية والسياسية كان قليلا؛ إلّا ما قاله في وصف تيمورلنك قائلا:

---

[1]- التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ؛عبد الرحمن ابن خلدون، ص304.

[2]. صدر نفسه، ص308.

" وهذا الملك تيمور من زعماء الملوك و فراعنتهم، و النّاس ينسبونه إلى العلم و آخرون إلى اعتقاد الرّفض؛ لما يرون من تفضيله لأهل البيّت؛ و آخرون إلى انتحال السّحر، وليس من ذلك كلّه في شيء إنّما هو شديد الفطنة و الذكاء ؛كثير البحث و اللّجاج بما يعلم و بما لايعلم، عمره بين الستّين و السّبعين، و ركبته اليمنى عاطلة من سهم أصابه في الغارة أيّام صباه على ما أخبرني؛ فيجرّها في قريب المشي".[1]

صورة الآخر في رحلة ابن خلدون أخذت منحى آخر؛ فهو لم يصف كلّ الشّخصيات التي احتكّ بها؛ و الشّيوخ الذين تلقّى عنهم العلم ؛بل قصر وصفه على تيمورلنك ؛لما رآه فيه من عظمة الملك عند لقائه به في دمشق ؛وهو وصف ينمّ عن جوانب اهتمامه واحترامه لهذا الرّجل .

كما أنّنا لم نستشعر مشاعر الحزن و الألم عند ابن خلدون في بعض المواقف التي مرّ بها؛ فكان المجال واسعا لوصف هذه المشاعر و الأحاسيس كما في حديثه عن الطّاعون الذي جرف آلاف النّاس؛ و أودى بأبويه و بكثير من مشيخته؛ فهو لا يزيد على أن يقول فيه"...إلى أن كان الطّاعون الجارف ، و ذهب بالأعيان و الصدور ؛ و جميع المشيخة وهلك أبوايا رحمهما الله"،[2] و يذكر هلاك زوجته و أولاده في بحر الإسكندرية في مركب غرق بهم، فلا يزيد في تسجيل هذا الحادث المؤلم في كلمات مقتضبة"... فأصابها قاصف من ريح فغرقت، وذهب الموجود والسّكن و الولد؛ فعظم المصاب و الجزع.."[3]

يعتبر ابن خلدون واحد من الذين أرّخوا لتاريخ حياتهم؛ فجاءت رحلته مذكّرات شخصية عرّف فيها بنسبه، مشيخته، أصله، و شخصيته هي محور السّيرة و بؤرة الأحداث التي يرويها عن نفسه؛ و عن عصره الذي شهد اضطرابات سياسية فعاصرها الرحالة، و أدلى بآرائه في مواقف

---

[1].التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ؛عبد الرحمن ابن خلدون،، ص 428.

[2]. المصدر نفسه، ص 57.

[3]. المصدر نفسه، ص 279.

متضاربة ؛إضافة إلى تولّيه تدريس الطلبة و تكوينهم و إجازتهم ؛و كان عمله في القضاء بمصرالذي أخذ جزءا كبيرا من حياته؛ فأرغم على تولّي هذه المهنة لما رآه من حسد المنافسين له، فرغم هذه الظروف القاسية التي مرّ بها لم يتوان عن القراءة والكتابة؛ فالكتاب في طيّاته جمع بين ابن خلدون الرجل العادي ؛و المؤرّخ ، و الفقيه والقاضي، و عالم الاجتماع، هذه الصّفات اجتمعت فيه لتجعل منه شخصية فريدة أبدعت في التّعريف بنفسها؛ و أفاضت في ذكر الشّيوخ و الإشادة بعلمهم ؛ والحرص على ذكر تواريخ الأحداث السياسية بكل أمانة، الأمر الذي جعل رحلة ابن خلدون تمثّل تطوّر فن السّيرة عند العرب منذ زمن مبكّر؛ فكان هذا الكتاب أحد النماذج الأدبية في أدب الرحلات الذي عني صاحبها في التّعريف بتاريخه الحافل بالإنجازات العلمية و سيرته الشخصية.

الفصل الثالث:

مدونات رحالة العصر الحديث:

1- رفاعة رافع الطهطاوي:

أ- التعريف به

ب- مضمون رحلته

1- أحمد فارس الشدياق :

أ. التعريف به

ب. مضمون رحلته

2- محمد عيّاد الطنطاوي:

أ. التعريف به

ب- مضمون رحلته

توطئة:

إنّ حملة نابليون على مصر سنة 1798م أفرزت نتائج إيجابية ؛حيث أزالت ذلك الحاجز بين الشّرق و الغرب ؛و أخذت الرحلة منعرجا آخر؛ حيث احتكّ العرب بالحضارة الغربية عن طريق البعثات العلمية التي اختلفت دوافعها من رحالة لآخر؛ لكنّ الهدف الأساسي المشترك بين تلك الرحلات هو التعرّف على العالم الغربي؛ الذي ظلّ يمثّل الآخر المختلف عقائديّا و فكريّا واجتماعيّا و ثقافيّا عن الأنا (الشرق العربي) ؛ لذلك كان لزاما على الرحالة المسلمين أن يتّصلوا بهذا الآخر (الغرب) والتعرّف على حضارته.

لقد افتتن بعض المسلمين بالمدنيّة الحديثة و ببريقها اللّامع ؛و ظلّ هاجس السّفر إليها يراودهم بين الفينة و الأخرى بهدف التعرّف على عمرانها؛ و النّهل من علومها و فنونها، و من هؤلاء الذين جبلوا على حبّ السّفر إلى ديّار الغرب رفاعة رافع الطّهطاوي؛ الذي زار باريس و انبهر بحضارتها ؛و سجّل كل مارآه في هذه المدينة في رحلة طويلة جمع فيها بين علوم باريس ؛ و تقاليد وأعراف شعبها و عوائده و أحواله في رحلته الموسومة : " **الدّيوان النفيس في إيوان باريز** " أو "**تخليص الإبريز في تلخيص باريز**".

التعريف برفاعة الطهطاوي :

هو واحد من روّاد النهضة العلمية في مصر،ولد في مدينة طهطا إحدى مدن محافظة سوهاج بصعيد مصر يوم 15 أكتوبر 1801م[1] ؛و كان نسب والده ينحدر من أشراف الصّعيد و علمائه، حفظ القرآن في صغره و أجاد تعلّم القراءة و الكتابة في سن الثانية عشر؛ وبعد وفاة والده تكفّل به أخواله الذين ينتمون إلى أسرة زاخرة بالشّيوخ و العلماء و الصّالحين منهم: الشّيخ الأنصاري، الشّيخ عبد الصمد الأنصاري ... وفي هذا الجو العلمي نمت مدارك رفاعة؛ و حرص

[1]. الاعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي ، التمدن و الحضارة والعمران دراسة و تحقيق محمد عمارة ،دار الشروق ، 2010 ، 2011، ص41.

أحواله على تحفيظه جميع المتون المتداولة في المعقول والمنقول، و لمّا بلغ سن السادسة عشر قرّرت أمّه إلحاقه بجامع الأزهر ليكمل مساره العلمي؛ فصار يلقي دروسا بجامع مدينته " ملوى" يشرح فيها كتاب " صغرى الصّغرى" للسنوسي، فاندهش أقاربه و جيرانه عنه سماعهم الدّرس المذكور[1].

شيوخ رفاعة الطّهطاوي:

في تلك السّنوات تلقّى الطّهطاوي العلم على يد العديد من شيوخ الأزهر منهم : الشّيخ الفضالي الذي قرأ عليه الصّحيح البخاري ،و درس جمع الجوامع في الأصول و مشارق الأنوار في الحديث على الشّيخ حسن القويسني.؛ودرس الحكم لابن عطاء السكندري على الشّيخ البخاري؛كما أنّه درس شرح ابن عقيل على الشّيخ الدمنهوري[2].

وكان الشّيخ حسن العطّار أهمّ أستاذ تتلمذ عليه الطّهطاوي ؛ فشاء القدر أن يجلس بين يديه ينهل من علمه، و يصقل من حكمته ؛فكان وجود الشّيخ العطّار في حياة الطّهطاوي بمثابة المعلّم و الصّديق ؛فلمس فيه العطّار حدّة الذّهن و الأدب المتواصل في تحصيل العلم ؛وكان الشّيخ يعامل تلميذه رفاعة معاملة خاصّة من سائر طلبته " **فكثيرا ما كان الطّهطاوي يلازم بيت أستاذه المذكور في غير الدّرس ليتلقّى عنه علوما أخرى كالتّاريخ و الجغرافيا و الأدب**"[3].

مؤلفات رفاعة الطهطاوي :

ترك الطهطاوي تراثا أدبّيا زاخرا في مختلف العلوم نذكر أهم مؤلفاته :

- رحلته المشهورة " **تخليص الإبريز في تلخيص باريز**" .

[1]. ينظر الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي،التمدن و الحضارة و العمران ، ص 43.

[2]- المصدر نفسه ؛ص44

[3]- المصدر نفسه؛ص45

- كتاب "المرشد للبنات و البنين" و هو عبارة عن مشروع تربوي إصلاحي ؛ يحوي نصائح مفيدة إلى فئة الشّباب يدعوهم للتشّبث بالدّين الإسلامي و بتعاليمه السّمحة ، والتحلّي بالأخلاق الفاضلة؛ لأنّ صلاح المجتمع يكون بصلاح الفرد ، وطالب بتعليم المرأة وتثقيفها .
- كان مشرفا على مدرسة "الألسن" بمصر سنة 1835م[1]؛ كما تولّى الإشراف على جريدة الوقائع المصرية .
- و تولىّ كذلك نظارة مجلة " روضة المدارس "هي مجلة علمية[2]

توفي الطهطاوي سنة 1873م[3]؛ بعد أن وضع مصر على بداية حركة ثقافية علمية جديدة .

سبب القيام بالرحلة :

طلب حاكم مصر محمد علي أن ينتخب من علماء الأزهر إماما للبعثة المسافرة الى فرنسا ، فرشّح الشّيخ العطّار تلميذه الطهطاوي على رأس تلك البعثة ،و كان هدف محمد علي يرمي إلى تلقّي العلوم الحديثة ؛من أجل النّهوض بمصر و الدّفع بها الى مصاف الدّول المتقدّمة ؛و الوقوف على منجزات الحضارة الأوروبية الحديثة .

كان الطهطاوي يترأّس الوفد المتوجّه إلى باريس باعتباره إماما لهم يؤمّهم وقت الصلاة، ويذكّرهم بتعاليم الشّرع الإسلامي ؛كما أوصى الشّيخ حسن العطّار تلميذه عند سفره " ألاّ يكتفي

[1]- التاريخ والمؤرخون في مصرفي القرن التاسع عشر؛ جمال الشيّال ؛ص56
[2]- المرشد للبنين والبنات؛ رفاعة الطهطاوي؛ ص33
[3]- المصدر نفسه؛ص36

بعمله كإمام للصّلاة ؛بل عليه أن يسجّل كلّ مايراه أثناء رحلته ؛و أن يحاول الاستفادة من علوم الغرب"[1].

لما زار الطهطاوي باريس انبهر بالمدنية الحديثة التي شهدت تطوّرا و ازدهارا ، فدخل حياة جديدة لم يكن يعرفها من قبل؛ رأى عادات و أعراف منافية لما يعيشه الشّرق العربي الإسلامي؛ فراح يتعلّم لغة القّوم الذين احتكّ بهم ليأمن شرّهم ويرسم بقلمه أفكارهم ؛في هذه الرحلة يلوح صراع بين القديم والجديد ؛بين الأصالة والمعاصرة ؛ وهذا ما ستكشفه لنا نصوص الرحلة التي نحن بصدد دراستها.

مضمون رحلة رفاعة الطهطاوي:

وصف نهر السّين:

نهر السّين هو واحد من الأنهار التّاريخية العظيمة في أوربا؛لما له من أهمية كبيرة لمعظم الفرنسيّين فيعبرونه للوصول إلى المدينة؛ لذلك نجد أنّ الطّهطاوي أعجب بهذا النهرالممتلئ بالمراكب العظيمة وعلى ضفافه المباني العمرانية خاصّة الحمّامات:

" ومن غرائب نهر السّين أنه يوجد فيه مراكب عظيمة ،وفيها أعظم حمامات باريس المشيدة البناء ،و في كل حمام منها أبلغ من مائة خلوة [2]" ثم يسترسل في وصف نهر السّين بأن له ستة عشر قنطرة و لكل قنطرة خمسة قواصير من حديد[3].

[1]- المرشد للبنين والبنات؛ رفاعة الطهطاوي؛ ص24

[2]. تخليص الإبريز في تلخيص باريز؛ رفاعة الطهطاوي، ص79.

[3]. المصدر نفسه ،ص80.

العمارة في باريس :

العمارة هي فنّ تشّييد المباني و المنشآت ليغطّي بها الإنسان احتياجاته المادية والمعنوية، وذلك باستخدام مواد و أساليب إنشائية مختلفة،و العمارة في باريس حسب شهادة الطهطاوي بلغت أوجّها من التطّور " **وقد تقرّر أنّ الملّة الفرنساوية ممتازة بين الأمم الإفرنجية بكثرة تعلقّها بالفنون والمعارف؛ فهي أعظم أدبا وعمرانا، والبنادر أولى في العمارات عادة من القرى و الضياع. والمدن العظمى أولى من سائر البنادر ...فحينئذ لا عجب أن قيل: إنّ باريس التي هي قاعدة ملك الفرنسيّين من أعظم بلاد الإفرنج بناء وعمارة، وإن كانت عماراتها غير جيّدة المادّة؛ فهي جيّدة الهندسة و الصناعة** "[1].

إنّ العمارة في باريس و خاصّة في المدن خضعت لمقاييس هندسية و تخطيط معماري راق ما أضفى عليها لمسة جمالية .

عادات أهل باريس :

إذا انتقلنا إلى عادات أهل باريس وطباعهم نجد أنّ الطهطاوي وقف أكثر من مرّة موقف إعجاب؛ فوصف بيوتهم و نظافتهم و أغذيتهم و طريقتهم في الأكل و الشرب ،و اندهش في ذلك الوقت بنظام المائدة الذي رآه لأوّل مرّة في باريس ،فلا يملك إلاّ أن وصفه بأنّه ترتيب عظيم و فيه يقول :" **و ممّا يشاهد عند الإفرنج أنّهم لا يأكلون أبدا في صحون النّحاس ؛بل ولا في أونية أبدا؛ ولو مبيّضة؛ فهي للطّبخ فقط ؛بل دائما يستعملون الصحون المطلية ،وللطّعام عندهم عدة مراتب معروفة ، وربّما كثرت و تعدّدت كل مرتبة منها؛ فأوّل افتتاحهم الطّعام يكون (بالشوربة)،ثم بعده باللّحوم، ثم بكلّ نوع من أنواع الأطعمة ؛كالخضروات والفطورات ؛ثمّ(بالسلطة)؛ وربّما كانت الصحون مطلية بلون الطّعام المقدّم؛ ثم يختمون أكلهم بأكل الفواكه؛ ثمّ بالشّراب المخدّر ،إلاّ أنّهم**

[1]. تخليص الإبريز في تلخيص باريز؛ رفاعة الطهطاوي، ص 120.

يتعاطون منه القليل؛ ثم بالشّاي و القهوة ،وهذا الأمر مطرد للغني و الفقير ؛كلّ على حسب حاله.[1]"

إنّ موضوع الطعام نادرا ما أغفله الرحالة المسلمون سواء في القديم أو في الحديث ؛لما في الطّعام من أهمية كبيرة ليس لكونه غذاء الجسم فحسب؛ بل يرتبط ذكره بإدراك الوضع الاقتصادي والاجتماعي والمعتقد الدّيني لدى الشّعوب ،و ربّما تمّثل كافة مظاهر الحياة الانسانية المادية و الفكرية ؛ وعلى هذا الأساس " يشكّل الطعام مركّبا حضاريا في الفكر الأنثروبولوجي"[2]

فطريقة جمعه و طهيه و آداب تقديمه و تناوله ؛ماهي في حقيقة الأمر إلاّ سبيل ندرك من خلاله درجة مستوى رقيّ حضارة ما أوتدنّيها. و يعجب الطّهطاوي بطباع كثير من النّصارى قائلا:" إعلم أنّ الباريزيين يختصّون من بين الكثير من النصارى بذكاء العقل ؛و دقّة الفهم و غوص ذهنهم في الغويصات ؛... و ليسوا أسراء التّقليد أصلا، بل يبحثون دائما معرفة أصل الشيء و الاستدلال عليه، حتّى إنّ عامتهم أيضا يعرفون القراءة والكتابة؛ ويدخلون مع غيرهم في الأمور العميقة"[3].

فسكان باريس يتميّزون بقوّة الذّكاء ودقّة التّمحيص في معرفة أصل الأشياء؛ وهم من هوّاة التّجديد ،و نبذ التقليد .

و من طباعهم أيضا التغيير و التنوّع في ارتداء الملابس ،فتراهم يتّصفون بالخفّة في مشيتهم خصوصا على السكك الحديدية ،و هم متقلبوا المزاج يظهرون لك صفة الفرح ؛و بعد دقائق تبدو عليهم ملامح الحزن ؛ إلاّ أنّ آراؤهم في السّياسة ثابتة ،كلّ واحد يلتزم بمذهبه؛ وهم يحبّون السّفر طوّافين بين المشرق و المغرب ،حتّى أنّهم قد يلقون بأنفسهم في المهالك لمصلحة تعود على وطنهم، كما أنّهم يحبّون الغرباء و يرغبون في معاشرتهم خصّوصا إذا كان الغريب متجمّلا بالثّياب النفيسة ، وهم ليسوا كالعرب كرماء أسخياء ؛بل البخل سجّيتهم لأنّهم إذا قصدهم محتاج يواسونه بالقول ولا

[1].تخليص الإبريز في تلخيص باريز؛رفاعة الطهطاوي ،ص 58،59.

[2]- أدب الرحلات؛ محمد حسين فهيم؛ ص128

[3]- مصدر سابق، ص84.

يكرمونه بالمال ، و من استعار منهم مبلغا من المال لا يعطوه إيّاه إلاّ إذا وثقوا المكافأة عنده ،هذا إضافة الى تحلّيهم بالرّياء وحب النّفس و الترّفع عن الآخرين ،بالمقابل وجدهم يتخلّقون بصفات حميدة كالوفاء بالوعود وعدم الخيانة،و من صفاتهم القبيحة الكفر بالنّعم ؛فبعضهم يرون أنّ شكر المنعم واجب ،وآخرون يفتقدون إلى هذه الصفة ؛بالرّغم أنّ جميع الأمم ترى ذلك[1]".

أخلاق نساء باريس :

لمّا تحوّل الطّهطاوي في باريس لاحظ أنّ المرأة عندهم لها كامل الحرية باعتبارها كفؤا للرّجل ،فمن الخصال التي عابها الطّهطاوي على المرأة هناك منطلقا في حكمه من ثقافته الإسلامية :" و من **خصالهم الرديئة قلّة عفاف كثير من نسائهم؛ و عدم غيرة رجالهم فيما يكون عند الإسلام من الغيرة بمثابة المصاحبة و الملاعبة و المسايرة ؛و ممّا قاله أهل المجون الفرنساوية : لا تغتر بإباء امرأة إذا سألتها قضاء الوطر ،ولا تستدل بذلك على عفافها ... كيف و الزنا عندهم من العيوب و الرذائل ،لا من الذنوب الأوائل ؛خصوصا في حقّ غير المتزوج ،فكأنّ نساء هن مصداق قول بعض الحكماء : لا تغتر بامرأة ؛ولا تثق بمال و إن كثر؛ وقال: آخر النّساء حبائل الشيطان ".**[2] إنّ للمرأة في باريس مطلق الحرية في مصاحبة من تشاء دون مراعاة مشاعر الزوج ؛وهذا يتعارض مع تعاليم الشّرع الإسلامي.

كان سكان فرنسا يقدّسون العقل؛ حتّى وصل الأمر أنّه ذكر نقلا عنهم بعض عقائدهم القبيحة:"**إنّ عقول حكمائهم و طباعهم أعظم من عقول الأنبياء و أذكى منها**[3]".

هذا النّص يوحي بأنّ سكان باريس يؤمنون ببعض العقائد الشنيعة ؛والأفكار الخاطئة وهذا ما رفضه الطّهطاوي لكنّه لم يصرّح به مباشرة بل يفهم من سياق المعنى.

[1]. ينظر تخليص الإبريز في تلخيص باريز؛ رفاعة الطهطاوي، ص84.-85.
[2]. المصدر نفسه ص 88.
[3]المصدر نفسه ،ص89.

كما نعلم أنّ الطّهطاوي بعد وصوله إلى أرض فرنسا انكبّ على تعلّم اللغة الفرنسية ؛والتي سهّلت عليه الاندماج مع المجتمع الفرنسي ؛و لما حصل له ذلك بدأ بدراسة الجغرافيا عن طريق ترجمة بعض الكتب الجغرافية؛ ثم درس الدستور الفرنسي ،فحاول فهم نظام فرنسا في تدبير شؤون رعيّتها قائلا:" **ليكون تدبيرهم العجيب عبرة لمن اعتبر ؛فنقول: قد سلف لنا أنّ "باريس" هي كرسي بلاد الفرنسيس ؛وهي محلّ إقامة ملك فرنسا وأقاربه وعائلته المسمّاة "البربون "؛ ومملكة الفرنساوية متوراثة ....وإنّ السياسة الفرنساوية هي قانون مقيّد؛ بحيث إنّ الحاكم هو الملك؛ بشرط أن يعمل بما هو مذكور في القوانين التي يرضى بها أهل الدواوين ... و القانون الذي يمشي عليه الفرنساوية الآن و يتخذونه أساسا لسياستهم ؛هو القانون الذي ألّفه لهم ملكهم المسمّى لويز الثامن عشر؛ ولا يزال متّبعا عندهم و مرضيا لهم؛ و فيه أمور لا ينكر ذوو العقول أنّهامن باب العدل "[1].**

أصحاب السلطة من الفرنسيين يسيرون وفق القانون الذي سنّه ملكهم لويز الثامن عشر ، وبنود هذا القانون يجب اتّباعها حتىّ من قبل ملك فرنسا ،فحرّيته ليست مطلقة يأمر و ينهى كما يحب؛ بل يجب أن لا تخرج قراراته عن القانون المذكور؛ مع مصادقة و موافقة أهل الدواوين باعتبارهم أعضاء رسميين .

و قد أشار الطهطاوي إلى بعض البنود التي تنطوي تحت القانون العام :"**الفرنساوية مستوون في الأحكام على اختلافهم في العظم و المنصب و الشّرف والغنى... ومن الأشياء التي ترّتبت على الحرية عند الفرنساوية أنّ كلّ إنسان يتبع دينه الذي يختاره يكون تحت حماية الدّولة ؛و يعاقب من تعرّض لعابد في عبادته ؛ولا يجوز وقف شيء على الكنائس أو إهداء شيء لها إلاّ**

[1] تخليص الإبريز في تلخيص باريز؛ رفاعة الطهطاوي، ص104،105.

بإذن صريح من الدولة؛ و كل فرنساوي له أن يبدي رأيه في مادة السياسات ؛أو في مادة الأديان؛ بشرط أن لا يخلّ بالانتظام المذكور في كتب الأحكام[1].

إنّ هذه البنود تمنح للفرنسيّين حق التّساوي في الحقوق و الواجبات مع احترام رغبة كلّ شخص في اتّباع الدّين الذي يريد أن يكون تحت لواءه؛ مع مراعاة عدم الإخلال بالنّظام المذكور في الأحكام .

طقوس أهل باريس:

بعدما ظهر الطّهطاوي بصورة الرّجل المتجوّل؛ المعجب بحضارة باريس و عمرانها ؛يظهر لنا في موقف آخر ناقدا مهاجما لسكان باريس ؛ فنجد من العبارات التي تفصح عن نفوره من الأجانب واستنكاره لمعتقدهم ؛ ماورد في مقدّمة الرحلة قوله:" **في ذكر ما يظهر لي من سبب ارتحالنا إلى هذه البلاد التي هي ديار كفر و عناد بعيدة عنّا غاية الابتعاد[2].**"

هذه العبارة توحي بشدة تمسّك الطّهطاوي بدينه الإسلامي و بشرائعه المقدّسة و نفوره من معتقدات النّصارى .

سكان باريس لا يدينون بدين الاسلام ؛فهم على الإطلاق ينتمون إلى الدّيانة النّصرانية فقط بالاسم لا بالشّرائع التي جاءت في الإنجيل و عبّر عن ذلك بقوله:" **إنّ الفرنساوية على الإطلاق ليس لهم من دين النّصرانية غير الاسم فهم يدخلون في إسم الكتّابين[3].**"

فلا يحترمون ما حرّمه دينهم أو أوجبه، ففي أيّام الصّيام لا ينقطعون عن أكل اللّحم في سائر بلاد فرنسا إلاّ ما ندر.

---

[1]. تخليص الإبريز في تلخيص باريز؛رفاعة الطهطاوي ،ص 116.

[2]. المصدر نفسه ،ص14.

[3]. المصدر نفسه ،ص 173.

و من الخصال التي شانها الطّهطاوي و هو في بلاد الفرنسيين وضع قساوسهم الذين هم في مرتبة من الدّين النّصراني؛ و تعظّم مكانتهم في الكنائس فهم أناس لا يحلّ لهم الزواج:"**عدم الإذن بزواج القسيسين على اختلاف مراتبهم و درجاتهم[1].**" و هذا ما يسهّل وقوعهم في الرذيلة لقوله: "**إنّ عدم زواجهم يزيدهم فسقا على فسقهم[2].**"

و من الخصال الذّميمة التي عابها عليهم و التي هي معارضة لتعاليم الدّين الإسلامي ،ففي ديننا الحنيف أن المذنب اذا اقترف ذنبا أو خطيئة تكون توبته بينه و بين خالقه في وضع سري ،لكن في معتقد النصارى غير ذلك :" **إن القسيسين يعتقدون أنّه يجب على العامة أن يعترفوا لهم بسائر ذنوبهم ليغفروها لهم...".[3]**

فيمتثل المذنب بالجلوس على كرسي الاعتراف أمام القسيس فيعرّف بذنوبه فيغفر له.

و من أعياد النصارى يذكر الطهطاوي عيد الاحتفال بظهور السّيد المسيح :" **و يسمّى عند الفرنسيين عيد الملوك ،وذلك أن كل عائلته تصنع فطيرة عظيمة و تضع فيها حبة فول في عجينها و يقسّمون الفطيرة على الندامى فكل من جاءت حبة فول في نصيبه فهو ملك ويختار من النساء امرأة يجعلها الملكة[4].**"

و من جملة بدعهم في عيد القربان أنّهم يصنعون :" **موكبا يلبسون فيه حللا مطرّزة ويدورون المدينة بشيء يسمّونه "البونديو". و المراد عندهم بالبونديو عيسى عليه السلام.[5]....**".

هذه الأعياد تعوّد النّصارى الاحتفال بها في موسمها المعتاد من كل سنة، لذا وجب تقديم القربان تعبيرا عن انتمائهم للمسيحية.

---

[1]. تخليص الإبريز في تلخيص باريز؛ رفاعة الطهطاوي ،ص 174.

[2]. المصدر نفسه 174.

[3]. المصدر نفسه ،ص 174.

[4]. المصدر نفسه ،ص174،175.

[5]. المصدر نفسه ،ص175.

علوم و صنائع أهل باريس :

بلغت الحياة العلمية في باريس أوجّها؛ إذ كان للنّخبة دور فعّال في تنمية الحياة الثقافية بهذا البلد:" إنّه لا يوجد من حكماء الإفرنج من يضاهي حكماء باريس، بل ولا في الحكماء المتقدمين كما هو الظّاهر أيضا."[1] حيث أن سائر العلوم بباريس تظهر نتائجها من خلال معرفة العلماء لها. فمن العوامل التي ساعدت الفرنسيين على التقدّم في العلوم و الفنون سهولة لغتهم وما يكمّلها:"فإنّ لغتهم لا تحتاج إلى معالجة كثيرة في تعلّمها؛فأيّ إنسان له قابلية وملكة صحيحة يمكنه بعد تعلّمها أن يطالع أيّ كتاب كان"[2]؛ و يعقد الطّهطاوي مقارنة بين لغة أهل باريس وبين اللّغة العربية التي تحتاج إلى شروح و حواشي لفهم مضامينها فقال:" بخلاف اللغة العربية مثلا، فإن الإنسان الذي يطالع كتابا من كتبها في علم من العلوم يحتاج أن يطبّقه على سائر آلات اللغة ؛و يدقّق في الألفاظ ما أمكن ؛و يحمّل العبارة معاني بعيدة عن ظاهرها[3]."

ويشيرإلى أنّ اللّغة العربية واسعة المعاني كثيرة العبارات ،دون أن ننسى أنها لغة اشتقاقية فالكلمة الواحدة تحمل في طياتها معاني و رموز كثيرة ؛إضافة أنّها لغة القرآن و لغة أهل الجنة ؛ أمّا اللغة الفرنسية حسب شهادة الطّهطاوي فإنها لغة بسيطة تلقّن عن طريق الممارسة والاندماج في المجتمع .

إنّ الحركة العلمية المتطورة في باريس ترجمتها مجامع العلماء و مدارسهم و خزائن الكتب المتنوعة ؛و من هذه الخزائن يذكر الخزانة السلطانية ؛و هي تحوي سائر الكتب بلغات مختلفة إضافة الى وجود المصاحف يقدمونها لمن يريد قراءة القرآن أو ترجمتة إلى لغة أخرى ؛و تجد في مدينة باريس مصاحف للبيع و بعضهم يخلّص بعض سور القرآن التي يختارها للترّجمة ،و يضمّ إليها قواعد الإسلام

[1]- تخليص الإبريز في تلخيص باريز؛ رفاعة الطهطاوي، ص176

[2]- المصدر نفسه، ص178

[3].المصدر نفسه، ص 177.

و بعض شعبه؛ ويرى أنّ دين الإسلام هو أصفى الأديان ؛وأنّه مشتمل على مالا يوجد في غيره من الأديان[1]

احتوت رحلة الطهطاوي على مختلف العلوم و الفنون المنتشرة في بلاد فرنسا ؛فلم يكن في وسع الرحالة الوقوف عندها جميعا ،فكثيرا ما كان يشير إلى بعض العلوم و الفنون مكتفيا بالاسم فقط كأسماء الجمعيات و المعاهد و المدارس ؛و من المصطلحات التي أشار إليها قوله :" **و في باريس مدارس سلطانية تسمّى الكوليج ؛و هي مدارس يتعلّم فيها الإنسان العلوم المهمّة؛ يدرس فيها صناعة الإنشاء والتأليف؛ والألسن القديمة الغربية والرياضيات ،وعلم التاريخ، والجغرافيا، والفلسفة وأصول الطبيعيات**[2]."

كانت مدارس باريس قديما تعادل الجامعات في وقتنا الحالي ؛فهذه الكوليجات يوجد بها أكابر الأساتذة الذين يتميزون بمستوى علمي راق ؛ما يجعلهم ينجحون في تأطير تلامذتهم في مختلف التخصّصات؛ إضافة الى تكوين مهندسين في العلوم العسكرية ؛مثل إعداد مخطّطات هندسية للقلاع و الحصون و البروج ؛ و حمايتها من هجومات الأعداء .و أصحاب هذه المدارس لهم باع كبير في سائر العلوم؛ و يتمنّى أيّ شخص أن يكون من تلاميذها ؛حتّى يلقى العناية و الاهتمام من مدّرسيها؛ و ينهل العلم من مصنّفاتها العلمية المختلفة .

و فيما يخصّ الصّحافة التي يعبّرعنها الطّهطاوي باسم " الجرنلات" مفردها جرنال ؛و هو وسيلة من وسائل الإعلام التي لم تكن تعرفها بلاده ؛فوصفها بطريقة بيعها و محتوياتها و كذبها أحيانا:" **تباع لسائر النّاس ؛و سائر أكابر باريس يرتّبونها كل يوم ؛وهذه الجرنالات مأذون فيها لسائر أهل فرنسا أن تقول ما يخطر لها ؛وأن تستحسن وتستقبح ما تراه حسنا أو قبيحا؛و أن**

---

[1]. ينظر تخليص الإبريز في تلخيص باريز؛ رفاعة الطهطاوي، ص 181.

[2]. المصدر نفسه ،ص 189.

تقول رأيها في تدبير الدّولة ؛فلها حريّة تامّة ؛ما لم تضر بذلك ؛فإنّه يحكم عليها وتطلب بين يدي القاضي[1] ."

نوّه الطّهطاوي بحرّية الصّحافة لأنّها تعبّرعن صوت الشّعب ؛مشاكله و تطلعاته المستقبلية ،كما ترصد الصّحافة علاقة الدّولة بالشّعب؛ فحرية الصحافة من أبرز أسباب التقدّم و التمدّن؛ فهي العاملة على إصلاح المجتمع عن طريق حرية التعبير دون المساس بقاعدة الدولة الكبرى .

الطّهطاوي شاهد واقع المجتمع الغربي ،و شعر بالفرق الشّاسع بينه و بين مجتمعه الشّرقي في المضمار السّياسي و العلمي و الاجتماعي ؛فأبدى إعجابه بما رأى في الغرب ،كما أعرب عن ألمه لتخلّف الشّرق ؛و أحسّ أنّ هذا الشّرق لن يتطوّر إلاّ إذا اقتبس علوم الغرب و نظمه السياسية والاقتصادية ....؛ و عليه قال الطّهطاوي أنّه وصف مشاهداته في فرنسا كي يوقظ...:" **من نوم الغفلة سائر أمم الإسلام من عرب ومن عجم**"[2] .

من هنا نشأ الصراع الفكري و الحضاري ، فخرجت بذلك الرحلة عمّا ألفناه مع الرحلات في القديم من وصف للبلدان و الأقوام ؛ فكما وصف الطهطاوي الجمال كذلك وصف القبح ؛وكما أعجب بحضارة باريس و انبهر بعلومها و فنونها؛ أبدى نفوره من طباع أهل باريس؛ فتولّد في نفسه صراع يتأرجح بين التمسّك بالموروث الثّقافي ؛و بين الأخذ بالجديد المستحدث من حضارة باريس .

لم يتأثر الطّهطاوي فقط بما شاهد من مظاهر الحضارة الغربية ففي مؤلفاته ما يثبت إطلاعه على نتاج الغرب الفكري ؛و الأدبي فقد صرّح أنه :" **قرأ من كتب الفلسفة الفرنسية ؛مؤلفات "كوندياك "في الفلسفة و المنطق؛ و بعض مؤلفات "فولتير" منها معجم الفلسفة ؛و بعض مؤلفات " روسو" عقد التأنّس والاجتماع الإنساني**"[3].

1. تخليص الإبريز في تلخيص باريز ؛رفاعة الطهطاوي،ص 192.

2- المصدر نفسه؛ ص12

3- المصدر نفسه، ص149-150

وكتاب الطهطاوي " المرشد للبنات و البنين" ألفه بعد رجوعه إلى مصر فتأثّر بعلوم باريس ؛ وأراد أن يكون المصريون مثل النموذج الفرنسي في كل شيء؛و قارن بين المرأة في باريس و المرأة في مصر فلاحظ تخلّف المرأة الشرقية؛ لذا طالب في مشروعه الإصلاحي بتعليم المرأة حتى تصل إلى مرتبة المرأة الفرنسية ،و أقام جامعة الألسن لتعليم اللغات الأجنبية؛ ودعا إلى تعلّم علوم الغرب من أجل رفع مستوى الحركة العلمية والثقافية في مصر؛ بتطوير اللّسان العربي والتطلّع إلى آفاق جديدة في ظلّ الحضارة العربية الإسلامية ؛وظلّت رحلة الطهطاوي حلقة للتّواصل مع الآخر للتعرّف على مظاهر حضارته آنذاك.

أحمد فارس الشدياق:

هو فارس بن يوسف بن منصور الشدياق من طائفة الموارنة ؛و لقب الشدياق كان في الأصل يطلق على الشمامسة من رجال الدّين؛ ثم أخذ القوم يتوسّعون في استعماله حتى صار من ألقاب الشرف التي تطلق على كبار القوم من المتعلمين ؛و الكتاب الذين يرتفعون عن طبقة الأمين[1]؛ فكلمة شدياق صارت تحمل مدلولين : أولها ديني فهي عند النصارى تعني من كان أدنى من الكاهن درجة واحدة ؛و مدلولها الثاني علمي معرفي تطلق على النخبة المثقفة.

ولد فارس الشدياق في قرية صغيرة من قرى لبنان تسمى عشقوت سنة 1805م فكان ثالث ثلاثة من رواد النهضة الأدبية في القرن التاسع عشر.[2]

ينحدر الشدياق من أسرة من أعرق الأسر اللبنانية ومن أكثرها علما و أدبا شأن أسر البستاني و اليازجي...إلخ.[3]

في هذا الجو العائلي تربّى فارس و تلقى مبادئ العلم ؛و أخذ يقرأ على أخيه النّحو و اللغة العربية، كان شغوفا بالمطالعة حيث انكبّ على قراءة الكتب الموجودة بمكتبة والده ؛فاستنارت قريحته و نمت مداركه الفكرية ؛فالتحق بمدرسة عين ورقة لمواصلة تعليمه كبقية زملائه.

لما توفيّ والده عزم على العمل لمساعدة عائلته؛ فأوّل مهنة اشتغلها هي نسخ الكتب لأن عائلته كانت تمتهن هذا العمل؛ كذلك عمل في التجارة لكنه لم يوفّق في الربح ؛و ظلّ يعاني غصص الحياة و آلامها؛ و اكتملت مصائبه بوفاة أخيه أسعد؛ فسافر الى مصر سنة 1825م ليشتغل مدرّسا فتعرّف على الأستاذ نصر الله الطرابلسي ؛و الشّيخ محمد شهاب الدّين محرّر جريدة الوقائع

---

[1]. اعلام العرب، احمد فارس الشدياق، محمد عبد الغني حسن، دار المصرية للتاليف و الترجمة، ص 03.

[2]. المصدر نفسه، ص 04.

[3].أحمد فارس الشدياق ، حياته و أثاره و أراؤه في النهضة العربية الحديثة محمد الهادي المطوي،دار الغرب الإسلامي ،بيروت ص46.

المصرية ؛و قرأ عليه كتب اللغة و الأدب مع شرحها و حواشيها ، فتخرّج عليه و اشتغل بالتّحرير في جريدة الوقائع ، ثم سافر الى مالطة سنة 1834م و اشتغل بالتدريس في مدارس الأمريكان ؛إضافة الى تصحيح الكتب و ترجمتها ،وفي مالطة ألف كتابه "**الواسطة في أحوال مالطة** "؛ **و بعد مدة** استدعته وزارة خارجية انجلترا ليساعد الدكتور "لي" في ترجمة التوراة و تنقيحها؛ بعدها سافر الى باريس و تعرّف على باي تونس ،و لما دعاه في مجلسه أكرمه و قلده أسمى المناصب ؛و عهد إليه برئاسة تحرير جريدة الرّائد التونسي و مديرية المعارف، و ذات يوم التقى بشيخ الإسلام في تونس ؛فوقعت بين الشدياق و هذا الشيخ مجادلات في العقائد الدينية أدّت إلى اعتناق الشدياق الإسلام ؛و سمّي بأحمد فارس وكنّي بأبي العبّاس و اشتهر اسمه في الشّرق و الغرب[1].

لقد أطلق مارون عبود على الشدياق اسم صقر لبنان باعتباره زعيم المجددين في العلوم اللغوية و آدابها قائلا:" **لم نسم أحمد فارس الشدياق صقر لبنان عبثا و اعتباطا ،ولكنّه استحق هذا الاسم لأنّه فرّ كما فرّ صقر قريش ،هذاك شيّد دولة عربية غربية ،وهذا شاد دولة أدبية ؛ و بنى النّهضة الحديثة على أسس راسخة أقرّت له بذلك مصر؛ فوضعت جائزة سنيّة لمن يكتب عنه – من الكتّاب المصريين– كتابا موضوعه " أحمد فارس الشدياق و أثره في اللغة والأدب ووضع المصطلحات الحديثة"**[2] .

و يواصل مارون عبود حديثة عن الشدياق بأنّه :" **امرؤ قيس عصره و جاحظ زمانه وفولتير جيله ،و خليل القرن التاسع عشر؛ أبو الجريدة العربية المثلى الجامعة للأدب**

---

1. الاعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة للهجرة ،زكي محمد مجاهد الجزء الثالث ،دار الغرب الإسلامي ،ط2 ص 978 ، 979..

2. رواد النهضة الحديثة مارون عبود ،مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة جمهورية مصر العربية ،ص 151.

والسياسة و العلم؛ و أبو الكتّاب في هذه النهضة التي نتحدث عن روّادها؛ ذهب أحمد رائدا فأصبح مستعمرا و باني دولة أدبية شرقية غربية[1]".

هذه الألقاب التي أسقطها الكاتب على الشدياق توحي بأنّ الرحالة غزير العلم،متبحّرا في اللغة العربية و آدابها ، لم يترك فنّا أو علما إلاّ و طرقه وكتب فيه.

مؤلفات أحمد فارس الشدياق :

ترك الشدياق تراثا ضخما شمل العلوم العربية و أدب الرحلات ؛وصنذف كتبا ومؤلفات نذكر منها:

كتاب " الجاسوس على القاموس " انتقد فيه معجم المحيط للفيروز أبادي و كتب في علم النحو" غنّية الطالب "و" سرّ الليال في القلب و الإبدال"و"اللفيف في كل معنى ظريف"[2].

- ✓ كتاب "الساق على الساق في ماهو الفرياق " أو أيّام و شهور و أعوام في عجم العرب و الأعجام " طبع برعاية صديقة رفائيل كحلا الدّمشقي الذي كتب له تقديما بيّن فيه سبب تعهّده بطبعه ،الكتاب عبارة عن ترجمة شخصية لمؤلفه كما يحتوي على فلتات لغوية[3]؛ كتاب " الواسطة في معرفة أحوال مالطة "هو كتاب في أدب الرحلات يحوي عادات و أخلاق المالطيين .
- ✓ كتاب " كشف المخبّا عن فنون أوروبا " هو الكتاب الثاني الذي ألفه الشدياق بعد كتاب الواسطة؛ فوصف الحضارة الأوروبية و مدّنها،فجاء الكتاب جامعا لمدن أوروبية زارها الرحالة ، فلم يكتف بسرد مارآه و عاينه ،بل راح يكشف و يبحث عن أسباب نهضة أوربا و تحضّرها.

---

[1]. رواد النهضة الحديثة، مارون عبود ، ص 151.

[2]. دعوة الحق ،كتاب شهري محكّم يصدر عن إدارة الثقافة و الإعلام برابطة العالم الاسلامي ،العدد 256،ص 41.

[3]. أحمد فارس الشدياق ،حياته و أثاره و أراؤه في النهضة العربية الحديثة محمد الهادي المطوي ،ص 195.

مضمون رحلة الشدياق الى مالطة و أوروبا:

يضمّ الكتاب في دفتيه خلاصة تجربة علم من روّاد النهضة العربية الحديثة ؛يبدأ المؤلف رحلته بلمحة جغرافية و تاريخية عن جزيرة مالطة تبيّن موقعها على الخريطة قائلا:" **اعلم أن تخطيط مالطة هو 22 درجة و 44 دقيقة في الطول ،و في 25 درجة و54 دقيقة في العرض؛ أمّا موقعها في الكرة فإنّ بعض الجغرافيين ألحقوه بإفريقية بالنّظر إلى المكان ،و بعضهم ألحقه بجزائر إيطاليا ،فممّن ألحقها بإفريقية بثولومي ، وممّن ألحقها بأوروبا بلينوس و سطرابوس؛ ودليلها على على ذلك كونها على بعد ستّين ميلا من رأس باسرو،و على مائتين من كلبيه نومينا أركولي ،و المحلّ الأوّل أقرب إلى أوروبا والثّاني أقرب إلى إفريقية؛ فأمّا عرضها فاثنا عشر ميلا،و طولها عشرون ودورتها ستّون و قاعدتها الآن هي المدينة المسمّاة فالتة؛ فأمّا في الأعصر السالفة فكانت نوتابيلي ،ويقال لها الآن المدينة؛ و موقعها في وسط الجزيرة في أرفع موضع منها، وكأنّ الجزيرة منقسمة بها إلى شطرين أحدهما يمتد جهة الشّرق و الآخر جهة الغرب والذي بنى فالتة كان أحد أمراء الإفرنج و سمّاها باسمه و ذلك سنة 1576م"[1].**

ثمّ يفرد الشدياق فصلا خاصا للحديث عن هواء مالطة :" **أمّا هواء مالطة فلا يحمده من ألف البرور الواسعة؛ لأنّه كثير التقلّب فيختلف في اللّيل و النّهار عدّة مرات؛ فقد يكون في الصّباح صحو فلا تشعر إلاّ و الغيم قد طبّق أعنان السماء فيكفهّر الجوّ، و يهيج البحر ، وتثور الزوابع و تزمر الرّياح فترقص لها الأبواب ، بل قد يكون في النّهار برد وفي الليل حرّ هذا في الشتاء؛فأمّا في الصّيف فلا ترى في الجوّ لطخة سحاب ولا غادية أصلا."[2]**

يرى الشدياق أنّ مناخ مالطة متقّلب خلال فصول السنة ؛فتراه حارّا في الصّباح و باردا في الليل؛ هذا راجع إلى موقعها الجغرافي؛ ثمّ يعقد الرحالة مقارنة بين مناخ مالطة و مناخ مصر الذي

[1]- الواسطة في أحوال مالطة وكشف المخبّا عن فنون أوربا؛أحمد فارس الشدياق ص 06

[2]- المصدر نفسه، ص12

ينعش هواءه نهر النيل :" و لمّا كانت أرض الجزيرة خالية عن الأجم والغياض و الجبال والأنهار؛ إذ هي عبارة عن صحن في وسط البحر؛ فمتى أصابتها الشّمس مسحتها مسحا على السّواء ،فلا ملطا فيها من شيء ؛و ربّما زاد حرّها أيضا بسبب النار التي تخرج من جبل صقلية؛ و مع قربها من إيطاليا فليس في ديارها رخام كديار تونس ؛وليس في شيء منها مياه جارية كديار الشّام ؛و من جملة الأسباب التي تجعل شتاءها عارما مكروها كون بنائها من حجر رطب؛ لو جعل في مقمأة بضع سنين لا كلأ ؛و حين يستخرج أوّلا من مقطعة يكون أخضر مائيا ؛ولا يبيضّ إلاّ إذا نصب للهواء و الشّمس سنين ؛و من خواصه أنّه قابل للنقش ؛فلهذا ترى منه في الدّيار و الكنائس نسمات شتّى ؛وقد يبعث منه على سبيل التجارة إلى جميع البلاد ؛و كثيرا ما تتوارى الشّمس في فصل الشّتاء فلا تطلّ فيه ولا من شبّاك؛ فأين هذا من شتاء مصر حين يترّحب بالشّمس طالعة وتشيع غاربة ؛ وفي الصّيف يطفو نيلها فيرطّب الأرض ؛و ينتظم به شمل الأحباب و عقود المسرّات."[1]

هذه المقارنة التي عقدها الرحالة بين هواء مالطة و هواء مصر تكشف عن تعلّق الشدياق بمصر و بنّياته العيش بها رفقة الأحباب و الأصحاب .

و ينتقل الشدياق إلى الحديث عن الوضع الاقتصادي بمالطة حيث يكثر بهذا البلد أشجار الفواكه التي تثمر على طول السنة؛ و ثمن الفواكه في مالطة أرخص مقارنة مع يوجد في مصر: "ويوجد في مالطة أكثر أصناف الأشجار المثمرة؛ و البقول المأكولة و فاكهتهم طيّبة في الجملة إلاّ اللّيمون الحلو و قصب السّكر و الخيار؛ فأمّا الصبّار فأكثره نوى؛ و كذا الرّمان وأكثر الفاكهة يباع فجّا و قلّما يدعونها تنضج خوفا من اللصوص أن تسرقها؛ و جميع أصنافها أرخص منها بمصر؛ والتّين على أصناف متنوعة؛ والعنب لايدوم أكثر من ثلاثة أشهر؛ أمّا البردقان فإنّه يدوم نحو سبعة أشهر ويرسل منه الى بلاد الإنكليز و غيرها كالطرفة؛ فأمّا ما

[1]- الواسطة في معرفة أحوال مالطة وكشف المخبا عن فنون أوربا؛ أحمد فارس الشدياق، ص13

يأتيها من الثمر من صقلية فإنّما هو سداد من عوز؛ وعندهم من الفاكهة أصناف لا توجد في بلادنا منها صنف يقال له الفراولي ...."[1]

توفّر الفواكه المتنوّعة على طول السّنة بمالطة يعكس ثراء اقتصادها ما جعلها تصدّرأصناف الفاكهة إلى بلاد الإنكليز .

عادات المالطين و احوالهم و أخلاقهم :

في هذه الفصل يبدأ الشدياق حديثه عن لباس المالطيين الذي يشبه إلى حدّ كبير لباس الإفرنج: **"عادة أهل مالطة المتشبّعين في اللّباس كعادة الإفرنج إلاّ أنّ نسائهم يلبسن وشاحا من الحرير الأسود؛ وعلى رؤوسهن غطاء منه أيضا من دون برنيطة ؛و أقبح شيء في الصّيف رؤية هذه الثياب السود وقد يحاكي بعضهن نساء الإنكليز في الزيّ ، و لكن متى ذهبن إلى الكنيسة لبسن زيّهن الأصلي توهّم أنّ اللّون الأسود أليق بالكنيسة و أولى بالقنوت [2]."**

لباس نساء مالطة كلباس الإفرنج إلاّ أنّهن ينفردن بارتداء اللّباس الأسود خصوصا عند ذهابهنّ إلى الكنيسة لأنّه مناسب لطقوسهم الدّينية؛ و من الأمور التي شاهدها الشدياق بهذه البلاد و ذمّها تشبّه الرّجال بالنّساء في التزيّن بالذّهب:" **أمّا أهل القرى فمن الرجال من يثقبون أذانهم ويتقرطون بأقراط من ذهب ؛و يرخون سوالف مجعّدة من أفوادهم إلى طلالهم؛ و هاتان صفتان من صفات الأناث ؛و يلبسون طرابيش مختلفة الألوان مسدلة على أكتافهم و يمشون حفاة ويتحزمون بأحزمة ؛و منهم من يتختّم بعدّة خواتم من ذهب و يجعل أزار صدريته منه ؛أو من**

---

[1].الواسطة في معرفة أحوال مالطة وكشف المخبّا عن فنون أوربا ؛ أحمد فارس الشدياق ، ص 15

[2]. المصدر نفسه، ص31-32.,

الفضة ويحمل سترته على كتفه؛ ويمشي حافيا مشية المفراح البطر؛ وإنّ الجرار منهم أو الخمار ونحوهما ليخرج في الأعياد و في أصابعه عشرة خواتم من الذهب[1]."

الطعام شرط أساس استمرار الحياة ؛و هو يرتبط بالبيئة التي يعيش فيها الانسان ؛و عادة المالطيين في تناول الطعام تختلف من بلد لآخر؛ فللأغنياء طعامهم الخاص مقارنة مع الفقراء :" **أمّا عادة المالطين في الأكل فللموسرين الشوربة في الغذاء واللحم والخضر والخبز؛ وفي العشاء السمك و السلطة ؛و أفخر شيء عندهم لحم الخنزير؛ إلاّ أنّهم لا يكثرون منهومن غيره؛كما يكثرون من أكل الخبز بخلاف عادة الانكليز؛ أمّا الفقراء فإنّ أحدهم ليأكل رطلا من الخبز من أرطالهم بخمس حبات من الزيتون ؛أو بقطعة من الجبن أو بصحناة؛ و الرطل المالطي هو نحو رطلين من أرطال مصر و ثمنه نحو قرش ؛ولهذا كان المالطيون جميعا كثيري اللهج بذكر الخبز ."[2]**

الشيء الملفت للنظر من قراءتنا لهذا النص أنّ مائدة المالطي لا تخلو من وجود قارورات الخمر؛ و هذا يدل على ولعهم بشربه ؛إضافة الى تناول لحم الخنزير الذي يعدّ ثمنه باهضا ؛كما أنّ تناول الخبز بكميات كثيرة خصوصا عند طبقة الفقراء يعكس الطبقية المنتشرة في بلادهم.

ومن عادة المالطي أيضا أكل لحم الحيوانات المكروهة عند العرب و السبب في تناولها إزالة الدهشة إذا طرأ عليهم مكروها :"**وجميع الإفرنج يأكلون السلاحف البحرية؛وحيوانات أخرى ممّا نتقزّز نحن منه ؛وقد بلغني أنّ من المالطيين من إذا فجع بشيء فجأة أكل فأرا؛أو ضفدعة لإزالة الدهشة"[3]**

---

[1]. الواسطة في معرفة أحوال مالطة وكشف المخبّا عن فنون أوربا ؛ أحمد فارس الشدياق ،ص 32.

[2]. المصدر نفسه ، ص 34.

[3]- المصدر نفسه؛ ص35

مازال سكان مالطة يعيشون في جهل و تخلف ؛و هذا ما ترجمته أخلاقهم المنحلّة بتناول أقذر الحيوانات ؛إيمانا منهم بأنّها تعالج الأمراض النفسية المتمثلة في الفزع و الدهشة .

عادات المالطيين في الزواج:

الاقامة الطويلة التي قضاها الشدياق في مالطة جعلته يراقب حياتهم عن كثب ؛ و ما يتخللها من عادات و تقاليد و رآها منافية لما خبره في بلاده؛ فلاحظ أنّ طريقة اختيار الزوجة لها مقاييسها وظوابطها ؛فإذا عزم الرجل على الزواج عليه:" **أن يعاشر المرأة قبل أن يتزوّجها مدة طويلة ؛ وربما أقام معها ذلك ثلاث سنين فأكثر؛ و عندي أنّ الزواج من دون مشاهدة البنت و معرفة أحوالها من أضرّ ما يكون ؛ولا سيّما عند النّصارى لعدم إباحة الطّلاق عندهم."**[1]

نرى أنّ الشدياق ينتقد هذه العادة المتفشية عند المالطين؛ وفي نفس الوقت يصرّح بضرورة رؤية الفتاة و متابعة أخبارها ؛و أحوالها حتى لا يصطدم الزوج بواقع لم يكن يتوقّعه ؛ ثم يفصّل الرحالة في حديثة عن عادات الزواج بمالطة خصوصا فيما يتعلّق بالمهر؛ فالمرأة في هذه البلاد هي التي تدفع مبلغا من المال لزوجها ؛و تؤثّث البيت إذا كانت من عائلة ثرية : **" ولا يخفى أنّ النساء في بلاد الإفرنج هن اللواتي يمهرن الرجال، فالاغنياء من المالطيين يعطون الزوج نحو مائتي ليرة، و الذين هم من الوسط يؤثّثون له منزله من فرش وكراسي وموائد، وآلات الطّبخ و ينقدونه شيئا من الدّراهم، والفلاحون يعطونه دجاجا وبيضا ونحو ذلك.**[2]

طريقة تقديم المهر للرجل في مالطة تختلف باختلاف طبقات المجتمع؛ فالثرية تدفع عائلتها للعريس مبلغا محترما من المال؛ و من كانت ظروفها ميسورة تؤثث البيت من لوازمه المختلفة ؛بينما الفلاحون يهدون لزوج ابنتهم دجاجا و بيضا حسب الأشياء الموجودة عندهم؛ و هذا يدخل في

---

[1]- الواسطة في معرفة أحوال مالطة وكشف المخبّا عن فنون أوربا ؛ أحمد فارس الشدياق؛ص37

[2]. المصدر نفسه، ص37.

عرفهم الاجتماعي الذي أباح لهم هذه العادات التي نراها نحن تختلف مع ما أوجبه ديننا الحنيف ؛ الذي جعل المهر شرطا أساسا للزواج ؛و الذي فرضه على كاهل الزوج دون الزوجة.

كما يرى الشدياق أن نساء مالطة غير متخلقات؛ يغلب على طبعهن الخيانة الزوجية دون مراعاة المودّة و الألفة الموجودة بين الأزواج؛ كذلك الرجال لا يختلفون عن النساء في اتّباع بنات الهوى:"**إنّ المتعة أو التسرّي أمر مستفيض عند جميع أهل مالطا ؛ وقد تترك المرأة المتزوجة بعلها و تهوي في أثر من تهوى، و كذا الرجال، و أعرف كثيرا من العيال قد فارق منهم الزوج زوجته، وأقام مع أخرى و قامت هي مع آخر**".[1]

ظاهرة الاختلاط و المجون مباحة عند سكان مالطة ؛سواء أكانوا رجالا أو نساء؛ و أصبحت هذه الصّفة الذميمة منتشرة في هذه البلاد؛ ما يدل على أنّ المجتمع المالطي كان منحلاّ أخلاقيا.

عادات المالطيين في الجنائز:

عاداة المالطيين في طريقة دفن الميت عندهم تختلف عن عادة العرب المسلمين الذين يكرمون موتاهم بغسلهم و دفنهم، فالمالطيون يشتركون مع الإفرنج في: " **أنّهم لا يقيمون المآتم على الميّت؛ فلا تعرف أنّ أحدا من الأهلين مات إلّا من صحف الأخبار و هي عادة حميدة؛ فإنّ العويل و النحيب فضلا عن كونهما لا يحييان مائتا و لا يردّان فائتا، إنّما يلبسون الحداد على الميّت مدة طويلة؛ و يدفنونه بعد أربع و عشرين ساعة، و ربّما أرسلت الجيران إلى أهل الميّت و ضيمة كما في برّ الشّام، أمّا عليّة الإنكليز هنا فلا يدفنون الميّت إلاّ بعد أسبوع في الأقل كما في بلادهم ؛و إذا مات لأحد المالطيين طفل صغير اقبلت عليه الأصحاب تهنئة قائلين نفرح لك بالجنّة؛ و متى و لد لهم و ضعوا تحته التبن ليكون سقوطه عليه تشبيها بالمسيح، و إذا مات أحد من ضبّاط العساكر شيّعت جنازته و آت الموسيقى معزوف بها**

[1]. الواسطة في معرفة أحوال مالطة وكشف المخبّا عن فنون أوربا ؛ أحمد فارس الشدياق ، ص39.

وراءها ؛و الجنود مصاحبة لها ؛فإذا فرغوا من دفن الميّت أطلقوا البنادق دفعة واحدة إشارة إلى أنّه مات بعزّ دولته وسلطانه".[1]

من عادة المالطين إذا توفي أحدهم عدم إقامة مأتم له؛ ويكتفون بالحداد عليه مدّة طويلة، ويتم دفنه بعد أربع و عشرين ساعة؛ و إذا مات واحد من كبار ضبّاط العساكر تشيّع له جنازة خاصّة تكون مرفوقة بعزف الموسيقى ومرافقة الجنود له،وإذا فرغوا من دفن الميّت أطلقوا الرّصاص دفعة واحدة امتنانا؛ واحتراما لعزّة ميّتهم الذي أمضى عمره في خدمة دولته.

من الصّفات و الأخلاق التي استقبحها الشدياق في سكان مالطة تفاخرهم بالألقاب و تعقيبهم على أخطاء النّاس، و مازاد الأمر تعقيدا تفشّي الغيبة عندهم: " أمّا مفاخرتهم بالألقاب فأكسى لهم من اللباس ؛فقلّ أن ترى أحدا منهم ممّن يقرأ و يكتب إلاّ و له لقب طبيب ؛أو فقيه أو بارون أو ماركيز أو دكطور، على أنّهم لايملكون بهم مسكة من العيش،ومن طبعهم التعقّب للزلّات والتعنّت والاغتياب ؛فيتعقّبون النّاس في مشيتهم ولبستهم ؛ولهجتهم وسحنتهم فلا يكاد يعجبهم شيء؛ وما من خصلة حميدة إلاّ ويجعلونها قبيحة ؛فإذا كان الإنسان كريما قالوا إنّه مبذّر؛ و إن كان مقتصدا قالوا إنّه شحيح".[2]

نلاحظ أنّ الشدياق بدا معارضا لأخلاق المالطيين التي غلب عليها الترفّع و التفاخر بالألقاب ؛في حين أنّ أخلاقهم لا تمتّ بصلة بأخلاق الدّين الإسلامي.

ومن الأشياء التي عابها الشدياق على أخلاق المالطيين كرههم للغرباء خصوصا إذا كانوا عربا؛ و معاملتهم لهم معاملة قاسية يغلب عليها الظلم والكره:" ومن ذلك كراهيتهم للغرباء و لا سّيما العرب؛ ولن يقدر أحد أن يستخلص منهم عشيرا؛ وما يكون له بين ظهرانيهم صديق إلاّ إذا

[1]. الواسطة في أحوال مالطة وكشف المخبا عن فنون أوربا؛أحمد فارس الشدياق، ص 40.

[2]-المصدر نفسه؛ص42.

كان يربّي جرو كلب؛ و لعمري لو أنّ مالطيا افترى على غريب و خاصمه لتألّبوا على الغريب من كل أوب من دون أن يعلموا السبب، وهم مائلون بالطّبع إلى البطش و الفتك، وأنّ كثيرا منهم لا يمشون إلاّ و معهم سكاكين يخفونها في ثيابهم". [1]

المدّة التي قضاها الشدياق في مالطة كشفت عن واقع المجتمع الغربي في تكوينه الحضاري والثقافي ؛إلاّ أنّ الجانب الأخلاقي منعدم في هذه البلاد؛ و ذلك بمعاملتهم للآخر(الذي دخل ديارهم) معاملة السّيد لعبده دون مراعاة جانب الرأفة و الشفقة؛ فهم ينظرون إلى الغريب نظرة سخرية و تهكّم لأنّه جاء من بلاد تدين بالدّين الإسلامي، لها عادات و أعراف و أخلاق منافية تماما لعادات المدنية الحديثة.

سكان مالطة يدينون للدّيانة النصرانية، و يقومون بطقوس دينية داخل الكنائس بمعيّة القسّيسين، ومن جملة الأشياء التي أثارت انتباه الشدياق أنّ سكان مالطة يشربون الخمر و يقومون بالفواحش في سائر أعياد السنة، إضافة إلى تعميد أجراس الكنيسة و تعميد المولود من أول يوم ولادته بالماء المقدّس:**"أمّا تحمّسهم في الديانة ففوق تحمّس أهل أرلاند؛وقد مرّ بك عدد الكنائس والقسّيسين وثروتهم وملابسهم الكنائسية وكما أنّ أهل أرلاند يسكرون ويفحشون في عيد صان باطرك؛كذلك المالطيّون يسكرون ويفحشون في عيد صان باولو؛بل في سائرالأعياد؛وإذا استأجر مالطي دارا كان قد سكنها يهودي فلا يدخلها إلّا إذا رشّ عليها القسّيس الماء المبارك؛وكذلك لو انتقل مثلا مركب ونحوه من ملك مسلم أوإنكليزي إلى ملك أحدهم فلا بدّ وأن يعمّده؛وهم يعمّدون أيضا أجراس الكنيسة جميعها؛ وكذا الأجراس الصغيرة التي ينق سبها أمام القربان؛ويقيمون لها كفلاء من الرجال والنساء ممّا عرف بالأشابين؛وقد عمّدوا مرّة جرسا في كنيسة صان باولو؛وكان كفيله الحاطم وزوجته لكونه كاثوليكيّا؛ويقولون إنّ دعوة الجرس مستجابة؛فأوّل ما يحدث رعد أو برق يبادرون إلى الضّرب به ويعمّدون المولود**

1. الواسطة في معرفة احوال مالطة و كشف المخبا عن فنون اروبا ؛احمد فارس الشدياق، ص43..

من أوّل يوم ولادته؛ ولو كانت في شدّة الزّمهرير؛ولا بدّ أن يكون ذلك في الكنيسة لا في البيوت؛ ومن يقف ينظر إلى القربان وهم طائفون من دون أن يسجد له؛ فقد عرّض نفسه للخطر."[1]

هذه الطقوس الدينية التي يقيمها سكان مالطة في كنائسهم من تعميد أجراس الكنيسة؛ وتعميد المولود من أول يوم خروجه إلى الحياة ؛و ذلك بغطس هذا المولود في ماء مقدّس بعد أن يقرأ الكاهن على هذا الماء طقوس معينة، فالماء في عرف النصارى رمز للطهارة الروحية و الإنتماء إلى المسيحية.

ثم ينتقل الشدياق إلى الحديث عن حكومة الإنجليز بمالطة ؛و التي يرى أنّ أهل السلطة

بهذه البلاد متساهلون في إصدار الأوامر و القرارات؛ ومن عجيب ما رأى بها أنّ الحوانيت تغلق يوم الأحد باستثناء بعض الحانات: " **و من سنن الإنكليز في بلادهم أن تغلق جميع الحوانيت في يوم الأحد إلاّ دكاكين العقاقرية ؛و الحانات التي تباع فيها الجعة و الشّراب، إلاّ أنّ هذه تغلق أيضا عند إقامة الصّلاة"**[2].

يرى الشدياق أيضا أنّ حكومة الإنجليز بما فيها شرائعها لا تقبل التّبديل و لا التّحريف، وكل عادة عندهم تصير جبلة و سنة يجب الالتزام بها وعدم تركها، كما لاحظ الشدياق فساد الأحكام بحكومة الإنجليز؛ وأنّ العدالة تحيد عن الحق لأن القضاة :" **تقبل شهادة أيّ شاهد سواء أكان سكّيرا أو شرّيرا، وكذا شهادة النّساء والأولاد مقبولة ؛فمتى قبّل الشاهد الصليب مضت**

[1] - الواسطة في معرفة أحوال مالطة وكشف المخبا عن فنون أوربا؛أحمد فارس الشدياق ص44

[2] - المصدر نفسه ص46

شهادته؛ والإنكليز يحلفون على الإنجيل، ومتى أقيمت دعوى حشد النّاس لا ستماعها؛ وإن تكن من الأمور التي كتمها أولى من إذاعتها".[1]

العدالة في حكومة الإليز لا تخضع لقوان صارمة، فالإدلاء بالشّهادة يصدر من أيّ شخص سواء أكان رجلا سكيرا، أو امرأة فحتّى الأطفال القصر تقبل شهادتهم بشرط تقبيل الصليب، حتى ولو كان الشاهد شاهد زور، فأين لهذه البلاد التي تتكلم باسم اضارة و التمدّن؟ فالحضارة عندهم تجرّدت من لباس العدل، وقول اق بالقابل د من مقومات اضارة العربية الاسلامية القرآن و السنة الشريفة اللذان دعا إلى الالتزام بأوامر الشريعة الإسلامية في الحكم والقصاص، و تطبيق مبدأ العدالة في إنصاف اظلوم.

بعد أن أنهى الشدياق حديثه عن الإليز و حكومتهم ا فيها شرائعهم، وأخلاقهم، وعاداتهم ينتقل للكلام عن موسيقى االطي و غنائهم: **" أمّا أهل مالطة فإنّهم في الغناء مذبذبون كما في غيره أيضا؛ فلاهم كالإفرانج، ولا كالعرب ؛فأهل القرى منهم ليس لهم إلاّ أغاني قليلة؛ و إذا غنّوا مطّوا أصواتهم مطّا فاحشا تنفر المسامع منه؛ فمضاهاتهم للإفرنج هي في اقتصارهم على الر صد".[2]**

يرى الشدياق أنّ موسيقى االطي، و غنائهم لا تناسب أذواق النّاس ؛فاوسيقى هي فن من الفنون، و الغناء له مقاييسه فكلّما استهوته النّفس، و طربت له الآذان صار له ذوق خاص.

وغناء سكان مالطة خال من الذوق الفني، فهو مجرّد أصوات مزعجة ينفرها السّامع، ثم يوازن الشدياق ب موسيقى الإفرنج و موسيقى العرب؛ التي يراها تمثّل قمّة الفن العربي الأصيل قائلا: **" أمّا الغناء العربي فكله تشويق و غرامي، و أجدر به أن يكون جامعا لمعنيي الطرب؛ و هو خفّة**

---

[1]. الواسطة في معرفة أحوال مالطة وكشف المخبا عن فنون أوربا؛أحمد فارس الشدياق، ص49.

[2]. اصدر نفسه، ص 56.

تصيب الإنسان من فرح أو حزن، فإذا سمع أحد منّا صوتا أو آلة شغف قلبه الغرام، فبدت صبابته و حنت نفسه كما يحن الإلف إلى إلفه، حتىّ يصبر عنده آخر الفرح ترحا، ولاغرو إن صعد منه الزفرات و أذرف العبرات، فإنّ السّرور إذا تفاقم أمره و تكامل بدره دبّ فيه محاق الشجن، واختلط به الحزن حتّى يستغرق صاحبه في بحر من الوجد، و يشتعل بنار من الهيام؛ وعلى ذلك ورد قولهم: طربه و شجاه من الأضداد".[1]

عرف العرب الموسيقى قديما، وقد تطوّر هذا الفن في ركب الحضارة العربية الاسلامية حتى بلغ ذروة مجده، وهذا راجع لضخامة الإبداع الذي أظهره العربي في هذا المجال من إتقان للسلم الموسيقى، و الآلات الموسيقية ؛و الغناء العربي كما يراه الشدياق هو كلام خاص ينعش الرّوح و يغذي الفكر والوجدان.

يختم الشدياق جزأه الأول من الكتاب بالحديث عن لغة المالطيين ؛و التي يرى أنّها فرع من علوم العربية، كما أنّ سكان مالطة يجيدون اللغة الطليانية و الإنجليزية لحاجتهم الماسة اليها في مجالات حياتهم المتعدّدة حيث أنّ **" اللغة المالطية فرع من دوحة العربية ؛وشيصة من تمرها، وهي يتكلم بها في جزيرتي مالطة و غودش؛ و سواء في ذلك العامة و الخاصة، وغير أنّ هؤلاء يتعلّمون أيضا الطليانية و الإنكليزية لاحتياجهم إلى الأولى في المعاملات، و التجارات و كتب الشّرع و غيرها، و لتنافسهم في الثانية لكونها لغة أرباب الحكم ؛و ذلك لأنّ اللغة المالطية لم تدوّن فيها علوم، ولم يشهر فيها كتب ؛ فهي عبارة عن ألفاظ يتداولونها فيما هو من مقتضيات الأحوال الساقة ؛دون أن تفي بحاجاتهم فيما يقصدونه من وصف أو نسيب أو وعظ".**[2]

---

[1]. الواسطة في معرفة أحوال مالطة وكشف المخبّا عن فنون أوربا ؛ أحمد فارس الشدياق ؛ص53.

[2]. المصدر نفسه، ص57.

كانت هذه جولة الشدياق في ربوع مالطة و ضواحيها؛ كشف من خلالها واقع المجتمع المالطي؛ الذي كانت له حياة و تقاليد و أعراف خاصّة ؛انفرد بها عن باقي المجتمعات الغربية ، فلاحظ الشدياق أنّ جزيرة مالطة صغيرة بحيث لا تسعف واصفها في أن يطيل في تصويرها؛ فرأى أنّ رحلته لهذا البلد لم ترو ضمأه كرحالة أراد أن يجوب البلاد الغربية ليرى حضارتها، وقوّة تمدّنها ؛فراح ليقوم برحلة أخرى إلى أروبا ؛ليكشف عن أسباب نهضة أروبا فسمّى كتابه"كشف المخبّا عن فنون أوربا" وقد علّل سبب تأليفه لهذا الكتاب قائلا :" **فألّفت فيها كتابا سمّيته الواسطة في معرفة أحوال مالطة؛ ثمّ لمّا رأيت أنّ هذا الشّرح لا يروي غليلا، ولا يشفي عليلا؛ لكونه مقصورا على وصف الجزيرة، وهي من الصّغر بحيث لا تمكّن الواصف في أن يطيل فيها من القول مأثوره، أو يضيف إليه فوائد تاريخية خطيرة ظلّ خاطري حاكما على مورد التأليف؛ و قلبي هائما بسفر طريق ؛إلى أن مكّنتني التقادير الممكنة، بعد لبثي على تلك الصخرة الدرنة نحو أربع عشرة سنة من السفر إلى بلاد الإنجليز المتمدّنة، فاغتنمت هذه الفرصة عجلا، وظننت أنّي أدركت أملا ؛و عوّلت على أن أشفع تأليف الواسطة برحلة يعظم وقعها؛ و يعمّ نفعها**".[1]

يضم الجزء الثاني من رحلة الشدياق بلاد أوربا، وقد خصّ حديثه عن إنجلترة وباريس، وبعض المدن التي مرّ بها في طريقه إليهما. يبدأ الشدياق كلامه بلمحة تاريخية عن إنجلترة:.." **إنّ الرومانيين كانوا يسمّونها بريتانيا، وفي اللاّتيني المتعارف تسمى إنكليار؛ و في لغة أهلها انكلاند، ومعنى لاند: أرض، و حين يذكرون بريتانيا فإنّما يعنون بذلك إنكلترة، ووالس و إرلند؛ وهي منقسمة إلى إثنين وخمسين كونيا ؛أي ولاية منها إثنتاعشرة ولاية وهي الأصول، وأشهر مدنها دوفر ونرويش، وهل، و نيوكاستل و ليفربول... وهي كثيرة معادن الحديد و الفحم و القصدير؛ والرّصاص و النحاس و حيواناتها ضليعة حسنة الصورة، و بها مراع واسعة و مروج نضيرة، وفيها نحو خمسين نهرا تصلح للسّفر أشهرها التامس؛ وجبالها قليلة لا يبلغ أعلاها أكثر من**

[1]. الواسطة في معرفة أحوال مالطة وكشف المخبّا عن فنون أوربا؛أحمد فارس الشدياق، ص 4،5.

مائة ذراع؛وطول الجزيرة كلّها لا يزيد على ثمانمائة ميل؛ و عرضها في بعض الجهات ثلاثمائة وفي بعضها أقل."[1]

لقد أفاض الشدياق في التّعريف بإنجلترة تاريخيا؛ مثلما فعل في رحلته الأولى إلى مالطة، وهذا هو المنهج الذي سار عليه في بداية رحلته، فالتّعريف بالبلدان التي زارها الرحالة خاصية انفرد بها عن باقي الرحالة، فليس كل من سافر ورحل دّون ماشاهده ولاحظه، قد نجد بعض الرحالة يمرّ على المدن التي زارها مرور الكرام؛ فلا يعّرف بها و لا يولّيها جلّ اهتمامه؛ قد يذكر سوى اسم البلد الذي زاره، دون الإحاطة بمعالمه التّاريخية ؛و هذا ما يطرح تساؤلات عدّة لدى القارئ تكمن في معرفة الأسباب التي جعلت الرحالة يصرف نظره عن التعريف بالبلدان التي رحل إليها.

وصف فقراء الإنجليز:

من يزور بلاد الإنجليز و يرى تلك الثروات الضخمة، والحوانيت المتنوعة يظنّ من الوهلة الأولى أنّ جميع سكانها يعيشون في ترف و غنى، إلاّ أنّ الواقع عكس ذلك ؛فهم يعانون من شظف العيش وضيقه؛ و إقامة الشدياق بهذا البلد كشفت النقاب عن حالته الاجتماعية: **" ومن قدم إلى لندرة ورأى فيها تلك الحوانيت العظيمة و الأشغال الجمّة، و الغنى و الثروة حكم على جميع الإنجليز بأنّهم أغنياء سعداء، و لكن هيهات فإنّ أهل القرى هنا كأهل القرى في الشّام، بل هم أشدّ قشفا؛ و كثيرا ما تقرأ حكايات تدل على بؤسهم وقشف معيشتهم ممّا لا يقع في بلاد أخرى".[2]**

[1]. الواسطة في معرفة أحوال مالطة وكشف المخبّا عن فنون أوربا ؛ أحمد فارس الشدياق ، ص74.

[2]. المصدر نفسه، ص76.

الدكاكين المتنوّعة و الثروات الكثيرة ليست مقياسا للحكم على بلد ما بالغنى و الرفاهية، وسكان قرى الإنجليز يعانون الفقر المدقع ؛و هذا راجع لعدم توزيع أموال و ثروات هذا البلد بطريقة متساوية على الجميع.

ثم ينتقل الشدياق للحديث عن اقتصاد الإنجليز، وفلاحة الأرض من أهم مصادر الثروة لهذا البلد ؛و التي تتنوّع بين زراعة القمح و الشعير؛ و بعض أنواع الخضر التي تجلب بذورها من أمريكا وهولاند : " و أكثر ما يزرع الإنجليز في حقولهم إنّما هو القمح و الشعير و اللّفت والبطاطس، و أصل جلب هذه إليهم من أمريكا في سنة 1586، فأمّا البقول فيزرعونها في عرصات الدّيار لمؤنتهم فقط و هذه قليلة جدا، و لمّا كان جلّ علف البقر من اللّفت كان لحمها و لبنها لا يخلوان من طمعه، وإذا زرعوا البقول فلا بدّ وأن يضعوا معها شيئا من الملح و الجير؛ و يكثرون من تدميلها، فلهذا لا تكون زكيّة إلاّ أنّها تنمو نموّا فاحشا؛ فإنّ الفول قد يعلو مقدار قامة الربعة، وكذا اللوبياء و القمح و الشعير، و الرشاد يبلغ أطول من ذراع ونحو ذلك الخسّ والنّعناع والكرفس ؛وقد تبلغ الكرنبة قدر الجرّة الكبيرة؛ و تكون التفاحة أو الإجاصة نحو البطيخة الصغيرة وقس على ذلك البصل و الكراث، حتىّ إنّ الحيوانات البرية والبحرية تكبر عندهم غاية الكبر، فإنّ السرطان يكون في قدر رأس الآدمي؛ وقد وزن مرّة ديك حبشي فبلغ أربعين رطلا..."[1]

ما يلاحظ في بلدان الإنجليز تنوّع المحاصيل الزراعية و الخضر و الفواكه؛ وما شدّ انتباهنا الاستعمال المفرط لمادة الجير، التي تضاف الى البذور عند زراعتها ما جعل حجم الخضر و الفواكه يفوق حجمها الطبيعي فتبدو في صورة كبيرة، و حتّى الحيوانات تنمو و تكبر بسرعة، وهذا ما لا نجده في بلاد المسلمين.

[1]. الواسطة في معرفة أحوال مالطة وكشف المخبّا عن فنون أوربا ؛ أحمد فارس الشدياق ، ص79،80.

مساكن الإنجليز:

منازل سكان الإنجليز ليس بنفس التّصميم و البناء، فمعظم الأبنية تعتمد على الآجر الأحمر و الأبيض، ثم يصبغونه خارج الدّيار أو يكلّسونه ؛ثمّ يرسمون عليه خطوطا تبديه كأنّه حجارة مربعة متساوية لا يدركها إلاّ من دنا منها، وسكان هذا البلد لهم مهارة في تجديد الأبنية و إعادة تصميمها من جديد، فبيوت الفلاحين حسنة الهندسة ؛أمّا سطوحها فهي على ثلاثة أنواع، منها ما يكون من ألواح المكاتب التي يتعلّمون عليها الخط، وهي للدّيار الكبيرة و ثانيها يكون من الخزف وهو للبيوت الوسط، وثالثها من التبن و يرون أنّ هذا النّوع من السطوح هو الأفضل، لأنّ التّبغ يمنع البرد في الشتاء ؛و يحدّ من حرارة الصّيف، أمّا بيوت الأغنياء و المترفهين فهي أعظم بناء وإحكاما ، وحسن ترتيبها ؛فحيطانها من الدّاخل مغشّاة بالورق الفاخر المنقّش، و طيقانها محكمة الوضع، كبيرة قطع الزجاج وهو يقارب البلور في الصفاء و البريق، ودرجها و أرضيتها من الخشب الثمين ؛وهم يسرفون في تأثيث بيوتهم، فترى أسرّتهم و موائدهم و أصونتهم و كراسيهم، وخزائن كتبهم كلّها من الخشب المسمّى بالماهيكون و تكلفته غالية، ومن عاداتهم أن يغطّوا الدّرج بالجوخ المنقوش أو الزرابي الفاخرة، و فوقها الكتّان النّفيس يدوسون عليه."[1]

من مفاخر سكان الإنجليز أنهم أعظم النّاس ترتيبا للأشياء؛ ووضعها في مكانها المناسب فكأنهم ورثوا هذه الخلّة أبا عن جد؛ قالوا:

" وعلى هذا الأصل بنيت بيوتنا ؛بحيث إذا تبوّأها أحد لا يحبّ أن يخرج منها ؛ولا سيّما وضع موائدهم فإنّها تسع من الفحم ما شئت و بذالك يحصل لهم الدفئ في الشّتاء، و هو

[1]. ينظر الواسطة في معرفة احوال مالطة و كشف المخبا عن فنون اروبا احمد فارس الشدياق، ص84.

من ألزم ما يكون ؛وعندهم نحو ثمانمائة ألف دار مفردة، يقال لها كوتاج لايمكن لغيرهم من النّاس أن يعيش في مثلها حالة كونها مفردة".[1]

مايزيد من جامل البيوت في بلاد الإنجليز هو التنظيم المحكم في وضع الأشياء في مكانها المناسب، مع مرعاة أهمية تأثيث البيت من لوازمه المختلفة ؛حتّى يبدو في صورة جميلة.

معادن الإنجليز:

تزخر بلاد الإنجليز بمعادن نفيسة، أهّلتها أن تكون بلدا صناعيا متقدّما ؛وفي هذا الشأن يقول: **" أمّا معادن انكلترة فأشهرها القصدير و الصفر و الحديد و الفحم، و هذان الأخيران أقنى وأنفع لهم من سائر المعادن النفسية، إذ لولاهما لم يتأّت لهم إنشاء ألوف من البواخر، ومن سكك الحديد ومن الغاز و غير ذلك."[2]**

زيادة على معادن الحديد و القصدير الموجودة ببلاد الإنجليز فالذّهب و الفضة أخذا نصيبا وافرا بهذا البلد لوجودهما بكثرة ؛و الشدياق اعتمد على المصادر التّاريخية قائلا: " **أمّا معادن انكلترة فكثيرة و غنية؛ فقد عدّ طاخيطوس من جملتها الفضة و الذهب، و في عهد الملك جامس الأول كشف معدن رصاص استخرج منه كثير من الفضّة؛ و يوجد في كورنول أكثر من خمسين معدنا للنّحاس، ونقلت من بعض الاحصائيات الصحيحة، أنّ جملة ما خرج من معدن الذهب من بلاد الإنكليز من سنة 1816 إلى سنة 46 بلغ خمسة و تسعين مليون".[3]**

[1]. الواسطة في معرفة أحوال مالطة وكشف المخبا عن فنون أوربا ؛أحمد فارس الشدياق، ص 87.

[2]. المصدر نفسه، ص93.

[3]. المصدر نفسه، ص 95.

قدّم لنا الشّدياق بطاقة تعريفية لمعادن الإنجليز؛ تمثّلت في أوّل من اكتشف معدن الفضة، كما أشار إلى بعض الإحصائيات التي حدّدت قيمة الذهب و الفضة خلال السنوات التي شهدت إرتفاعا لهذين المعدنين ؛مقارنة مع السنوات الماضية.

وصف سكان الانجليز:

بعدما قدم الشدياق صورةعن سكان الإنجليز، شملت الناحية التاريخية و العمرانية والإقتصادية؛ نراه في موقف آخر يعنى بوصف سكان الإنجليز خلقيا قائلا: " أمّا خلق الإنكليز فالغالب على الرجال الشقرة و توسّط القامة، مع الضلاعة و القوّة وشدة العصب وزرقة العيون، وصغر الأنوف؛ و الظّاهر أن الشقرة لا تتوقف على البرد وحده ؛وإنّما أخصّ أسبابها الدّم، فإنّ أهل جبل لبنان ليس لهم صفاء هذا اللون الذي يرى في هذا الجيل، و الغالب في عليّتهم امتداد القامة و الرشاقة ؛ثمّ إنّ الحسن هنا في الرجال منقسم إلى ثلاثة أقسام ؛الأول في العسكر فإنّهم ينتخبون ممّن حسن وجها، و اعتدل قدّا و يلحق بهم الشرطة، الثاني في خدّام الكبراء و الأمراء، فإنّ السيّدات يتنافسن في الغساني و لا يتناولن شيئا إلاّ من يد مليح، وإن يكن الشيء المتناول قبيحا، الثالث في الكتّاب الذين تستخدمهم التّجار المثرون و أصحاب المحترفات، و المثابات الحالفة حيث يكثر تردّد الخواتين للشّراء و غيره، فإنّ ذلك أدعى إلى حملهن على الإسراف". [1] لقد أسهب الشدياق في وصف سكان الإنجليز من الناحية الفيزيولوجية ؛فهم ينتمون الى الجنس الأبيض الذي تغلب عليه الشقرة وزرقة العيون مع اعتدال في القامة، وهذه الصفات المتوارثة بينهم ترجع إلى رابطة الدّم، إلاّ أنّنا نرى الرحالة في نصّه هذا لم يذكر شيئا عن أخلاق سكان الإنجليز و طباعهمو مزاجهم ؛ فنصّه خال من القيّم الخلقية، فلجأ إلى وصف سكان هذا البلد ماديّا لا روحيّا.

[1]. الواسطة في معرفة احوال مالطة و كشف المخبا عن فنون اروبا احمد فارس الشدياق، ص105.

الشدياق مولع بالمفاضلة و المقارنة النظائر بعضها ببعض فعقد مقارنة بين نساء الانجليز و نساء الفرنسيس قائلا: " و الذي أتحقّقه أنّ عيش المتزوّجين من الإنكليز في كلا الموضعين، و إن لم يكونوا يحتفون بأزواجهم و يكرمونهم أمام النّاس كما تفعل الفرنسيس إلاّ أنّهم أكثر إحصانا لفروجهم ؛ وأوفر مودّة ووفاء لهن في الحضرة و الغيبة".[1]

يندفع الشدياق في تعظيمه لنساء الفرنسيس مادحا: " نعم إنّ نساء الفرنسيس أكثر تكيّسا وتظرّفا في الظّاهر من نساء الإنكليز؛ إلاّ أنّ هؤلاء جديرات بالإكرام من عدّة وجوه ؛و فضلا عن ذلك فقد يقال: إنّ زيادة تكيّس أولئك أصلها من زيادة الإكرام لهن؛ و إنّما هو جفاء غريزي في طبع الرجال، حتىّ إنّ النساء اعتدن عليه و لا يرين فيه نكرا ؛إلاّ إذا عاشرن الأجانب، وهذا ما تعنيه الإنكليز بقولهم: نحن خير من غيرنا بعولة، و غيرنا خير منّا عشّاقا".[2]

أظهر الشدياق إعجابه بنساء الفرنسيس، من ناحية إكرامهن لأزواجهم أمام الناس، لذا فهن جديرات بالإحترام و المدح من و جوه كثيرة، كما أنّ المتزوجين من الإنكليز يتحلّون بصفة المودّة والوفاء لأزواجهم ، و هذه الصفات قد لانجدها عند عامة الناس.

الجريمة في بلاد الانجليز:

المدّة الطويلة التي قضاها الشدياق ببلاد الإنجليز، كانت كافية ليندمج وسط المجتمع؛ فلاحظ ظاهرة الإجرام تكثر عندهم مع تعدّد أسبابها، هذه الظاهرة قد تقل في المجتمع العربي المسلم مقارنة مع ماشهده وخبره بنفسه: " فأمّا ما يحدث في بلاد الإنكليز من تسميم الأزواج بعولتهن، والوالدين أولادهم و قتلهم و بالعكس، ومن الانتحار أعني قتل الإنسان نفسه فأمر يهول وشرحه يطول، نعم إنّ الانتحار يحدث أيضا في غيرها، و أعظم أسبابه العشق و الحرمان، إلاّ

[1]. الواسطة في معرفة أحوال مالطة وكشف المخبّا عن فنون أوربا ؛ أحمد فارس الشدياق ، ص 111.
[2]. المصدر نفسه، ص 112.

أنّه بالنسبة إلى هذه البلاد لا يذكر؛ و لنورد لك نبذة من ذلك لتقيس عليها، حكى صاحب أخبار العالم أنّ رجلا ذبح ثلاثة أطفال له بالموسى في وقت واحد، كان أصغرهم رضيعا ثمّ ذبح نفسه، فلمّا سئلت زوجته عن ذلك قالت: "إنّي غادرته مع الأولاد سليما معافى، فلمّا رجعت وجدتهم ثلاثتهن جثثا مطرحة وزوجي إلى جانبهم، و لا أعلم سبب ذلك". وزعم بعض معارفه أنّه قتلهم خوف الإملاق".[1]

أهمّ ما في علم الإجرام هو تفسير الظاهرة الإجرامية، أي معرفة الأسباب المؤدية إليها، و التي تجمع بين العوامل الداخلية و العوامل الخارجية ؛و ظاهرة الإنتحار أو قتل النفس كما وصفها الشدياق أمر يصعب معرفة أسبابه إلاّ أنّ بعضهم يرجعه الى الفقر و الحرمان.

عادات سكان الإنجليز في الزواج :

تختلف عادات الزواج في المجتمع الأوروبي؛ فكلّ منطقة من هذا البلد تنفرد بأعراف و تقاليد خاصة عن باقي المناطق الأخرى؛ و اختيار الزوجة يخضع لمقاييس معيّنة :" و من عاداتهم في الزواج أنّ البنت لا تتزوج إلاّ من كان مساويا لها في السن ؛أو كان أكبر منها بسنتين أو ثلاث و في ذلك شطط ؛ إذ لا يخفى أنّ المرأة متى بلغت الأربعين سنة لم يبق فيها من القوّة ؛ والنشاط ما يبقى في الرجل ؛ولا سيما إذا كانت منتاقا ، نعم إنّ النّساء هنا لا يعجّل فيهن الهرم ؛ فإنّ من يكون سنّها ثلاثين سنة تبدو كمن منها عشرون في بلادنا ؛غير أنّ هذه الصفة تراعى أيضا في جهة الرجال ،وفي بلادنا لا تثريب على من بلغ الخمسين أن يتزوج بنت العشرين ؛ و هذا يندر هنا جدّا إلاّ لسبب عظيم؛ وذلك كأن يكون الرجل أشرف من المرأة وأغنى؛ فترغب فيه لتشاركه في شرفه و غناه ، إذ كانت هاتان الصفتان عند الإنكليز أفضل من جميع المناقب ؛ولاسيّما إذا روعي في ذلك مصلحة تربية الأولاد؛ و في هذه الحالة فلا مانع أيضا من أن يكون الزوج شيخا قحلا؛ لعلمها أنّ حرارتها لا تلبث أن تذهب ببرودته ؛

[1]. الواسطة في معرفة أحوال مالطة وكشف المخبّا عن فنون أوربا ؛ أحمد فارس الشدياق ، ص136.

فتستولي على الميراث ؛و إذا خطب أحدا امرأة ثم بدا له أن يعدل من الزواج لغير موجب شرعي ؛غرم لها مبلغا عظيما ؛ ولا حرج على اليهود أن يتزوّجوا من النّصارى؛ و للأب أن يجبر بنته على الزواج بمن شاء إذا لم تبلغ حدّ الرشد ؛ و هو عنده 21 سنه ؛ و بعده ليس له عليها إمرة إلّا بالمعروف و النصيحة."[1]

التقارب في السن شرط أساس للزواج في بلاد الإنجليز؛ و إذا أجبرت الفتاة على الزواج برجل يفوقها سنّا ،فيجب عليها أن تراعي فيه صفة الغنى و الحسب ،وهذا أنسب لها و لعائلتها ؛ و إذا بلغت الفتاة سنّ الرشد عندهم جاز لها أن تمارس حياتها الطبيعية و تختار من تشاء عريسا لها دون تدخّل العائلة .

عادات سكان الإنجليز في الجنائز:

الفرح و الحزن صفتان متلازمتان في الحياة ، فكما للزّفاف تقاليده و تحضيراته؛ كذلك للجنائز في بلاد الإنجليز طقوس خاصّة بها فمن **:" عاداتهم في الجنازة أن يبقوا الميّت أسبوعا في البيت قبل دفنه؛ و عند إخراج جنازته يشيّعها رجال يلبسون على رؤوسهم مناديل سوداء معقودة فوق برانيطهم ؛ و لكل ميّت حداد معلوم ،ولكل دفنة سعر؛ و لكن لا يخمشون عليه وجها ،ولا يشعثون شعرا ؛ و إذا أبقيت الجنازة في محلّ عند المقبرة ليلة واحدة ؛أدّي عليها خمسة شلينات زيادة على الرسم المعتاد؛ فقلت لمن طلب منّي ذلك : إنّ الحيّ يرقد على فراش وثير ليلة؛ و يوسّخه ولا يؤدي أكثر من شليت واحد؛ فكيف تطلب على طفل في تابوته خمسة ؟ فقال :إنّ بين الحيّ و الميّت فرقا ؛ أمّا الكبراء فإنّهم يبقون جنازتهم أكثر من أسبوعين إشارة إلى أنّه غير جدير بأن يفارق هذه الدنيا؛ و من الغريب أنّه إذا مات أحد منهم غريبا ؛ فلا بدّ من أن يعيدوه الى وطنه ليدفن فيه؛ فيا ليت شعري ما نفع الميّت لبلاده أو ما نفع بلاده له؟**

[1]. الواسطة في معرفة احوال مالطة و كشف المخبا عن فنون اروبا احمد فارس صاحب الجوائب، ص 173.

ولا يدفن ميّت إلاّ بشهادة الطبيب الذي عالجه أو أجهز عليه؛ و ذلك لكثرة ما يقع عندهم من القتل بالسّم."[1]

تختلف عادات الأوربي عن العرب المسلمين في طريقة دفن موتاهم ؛ فسكان الإ ليز يبقون الّيت في بيته مدّة من الزمن ؛بعدها تشّيع جنازته و فق طقوس معّينة ، تختلف باختلاف مكانته ؛ فهم يعارضون ما أتى به الشّرع الإسلامي الذي وحّد لباس الّيت و الصّلاة عليه؛ كما يل الشدياق إلى تعظيم الفرنسيين ؛ و الذين يراهم أكثر النّاس احتراما للجنازات من الإ ليز قائلا :" و الواقع أنّ الفرنسيين أكثر احتراما للجنازات من الإنجليز ، فإنّهم يمشون وراءها أيّا كانت ؛ وهم خاشعون حاسروا الرّؤوس؛ وحين تكون في البيت يوقدون حولها الشّموع ليلا ؛ و يجعلون لها حارسا."[2]

هذه المقارنة التي عقدها الشدياق بين الفرنسيين و الإنجليز؛ في طريقة تشييع الجنازات ،تدل على أنّ الرحالة بنى أحكامه على الشاهدة و العاينة الباشرة؛ لما لا حظه بهذه البلاد من أمور شدت انتباهه فراح يكشف عن أسبابها ؛و يبحث في خباياها ؛ ليصل بنتيجة مفادها أنّ البلاد الأوروبية لازالت تعيش التأخّر الضاري ؛و الانحلال الخلقي؛ مقارنة مع ما وصل إليه السلمون من تقدم حضاري شمل جميع مناحي الحياة.

بعدها ينتقل الشدياق للحديث عن ديانة الإ ليز و هي النصرانية؛ فهم يقومون بالصّلاة داخل الكنيسة عيّة القسّيس : "من رسوم الكنيسة المتأصلة أن تقام الصّلاة فيها يوم الأحد ساعتين في الصباح ؛و ساعة و نصف في المساء ؛و إن لم يحضر فيها غير ثلاثة نفر؛ فتسمع في خلال ذلك من تكرير الأدعية ؛ و الابتهالات ما يذهب بالصّبر؛ و بعذ ذلك يقوم القسّيس ويخطب فيهم، وأكثر الفلاّحين يذهبون إلى الكنيسة حياء من جيرتهم أو خوفا من القسّيس ، لأنّ قسيسي هذه الكنيسة لهم سطوة نافذة على الرّعية ؛ و متى قامت الصّلاة نعسوا أو

---

[1]. الواسطة في معرفة احوال مالطة و كشف المخبا عن فنون أوربا ؛ أحمد فارس الشدياق، ص 176.

[2]. الصدر نفسه، ص 176.

تناعسوا؛ و قد بلغي أنّ أحد هؤلاء الخطباء لمّا شرع مرّة في الوعظ ؛التفت فرأى النّاس نائمين ؛ فغضب لذلك و قال :بئس السّامعون أنتم لكلمة الله ؛ إنّكم إن لم تسمعوها فستحسّون بها ؛ثمّ رفع التوارة من أمامه و ضرب بها بعض النّائمين حتى انتبهوا."[1]

الكنيسة النصرانية تقام فيها الصّلاة يوم الأحد صباحا و مساء؛ و تتبعها الأدعية و الابتهالات المتعارف عليها عند النّصارى؛ و بعضهم يذهب الى الكنيسة للصّلاة فيها ليس تقرّبا إلى الله ؛ و إنّما خوفا من القّسيس الذي يملك السلطة الكاملة في معاقبة كل من خرج عن طاعته.

بعد الإقامة الطويلة التي قضاها الشدياق بإنجلترا؛ و بعض مدنها فوصف مشاهداته هناك ؛ إلاّ أنّ الناحية الاجتماعية استغرقت اهتمام الشدياق أكثر من المجالات الأخرى؛فظهر بصورة النّاقد والمعجب في نفس الوقت؛ ما أهّله أن يكون بحق مصلحا اجتماعيا.

أمّا باريس فكانت المحطة الثانية في برنامج الشدياق الرحلي فأعطاها حقها من الوصف قائلا:" **كانت مدينة باريس في سنة 380 تسمّى باريسي؛ و كانت عرضه لنهب ؛و في سنة 1420 استولى عليها الإنكليز؛ وبقيت تحت يدهم خمس عشرة سنة؛ و في سنة 1438 رزئت بالطّاعون و المجاعة؛ فمات بهما أكثر من خمسين ألفا ؛ فكانت الذئاب تدخل أسواقها وتغتال من تغتال؛ وفي سنة 1840 حصنت بسور طويل يحيط بشاطئ النّهر؛ و بقلاع متفرقة؛ و ذلك مسافة خمسة عشر فرسخا و ربع فرسخ ،بدئ به في كانون الأول سنة 1840 وأنجز في شهرا آذار سنة 1846.[2]**

قدّم الشدياق لمحة تاريخية عن مدينة باريس ؛و قد اعتمد على المصادر التاريخية في جميع مادته العلمية ؛فهو وصف باريس في عصورها القديمة ؛و لم يصف باريس التي أضحت قبلة الرحالة؛ والدارسين منذ عهد الطهطاوي بالوصف المشفع بالإعجاب ؛و الاستحسان و التّفضيل على العواصم الأوروبية الأخرى.

---

[1]. الواسطة في معرفة أحوال مالطة وكشف المخبا عن فنون أوربا؛أحمد فارس الشدياق، ص 185.

[2]. المصدر نفسه، ص 226.

مدارس باريس :

انصب اهتمام الشدياق عند زيارته على وصف الحياة الثقافية هناك ؛و التي ترجمتها كثرة المدارس؛ بسبب حرص الأولياء على تعليم أبنائهم ؛ وتثقيفهم مقابل مبلغ من المال يدفع كل شهر إلى إدارة المدارس :" **قلت إنّ كثيرا من هذه المدارس و المكاتب يديره القسّيسون ؛ فلايأخذون من المتعلّم إلّا نصف المصروف عليه ؛ فيمكن للوالد أن يضع ولده في أحدها بمصروف ثلاثين فرنكا في الشهر ، فمن أجل ذلك ترى جميع الأولاد هنا مترشّحون للعلوم و الصنائع ؛و للأخوات اللائي هنّ من جنس الرّاهبات فضل عظيم مشهور في تربية البنات؛وتمريض الرجال والنساء في بيوتهن أو بيوت المرضى ؛ حتىّ إنّ بعضهن يداوي و بعضهن قوابل؛ و قد يسافرن إلى البلاد الشاسعة في فعل الخيرات ؛و لهنّ لباس مخصوص يعرفن به على تنوّعه؛ فهذه الطريقة أنفع من طريقة الرّاهبات في الشّرق؛ إذ يحتجن عن النّاس في الدّير؛ فلا ينفعن أحدا من النّاس ؛ و هاتان الميزتان أي التعليم على الوجه الذي ذكرناه؛ و الاعتناء بالمرضى لا توجدان في لندرة."**[1]

نلاحظ تنوّع المشارب الثقافية عند سكان باريس ؛ما فتح الباب أمام جميع طبقات المجتمع لمزاولة الدراسة و تعلّم الصنائع؛ فحتىّ البنات الراهبات لهنّ دور كبير في نشر العلم و توعية البنات ؛ فالحرية و التمدّن أمران متلازمان في نظرة الشدياق للحياة؛ فالتمدّن و الحرية يصنعان دولة العقل والعلم؛ فبهما تسمو الشعوب و تزدهر ؛و العقل البشري يرتقي في ظل الحرية التي تمنح للإنسان استمرارية الحياة و ديناميتها.

كنائس باريس العظيمة :

مدينة باريس عاصمة فرنسا و كبرى مدنها؛ تحتضن مزيجا من الأعراف و الثقافات و الدّيانات؛ و تعتبر كنائس باريس إحدى أهمّ المعالم الأثرية بها:" **و من الكنائس العظيمة كنيسة نوطردام**

[1] الواسطة في معرفة أحوال مالطة وكشف المخبّا عن فنون أوربا ؛ أحمد فارس الشدياق ، ص 229.

طولها 390 قدما و عرضها 144؛ و ارتفاعها 102؛ وعلوّ صومعتها 204 فيها أرغن إرتفاعه 45 قدما؛ وعرضه 36 ؛ يشتمل على 3,484 قصبة ؛ و هي أمّ كنائس باريس ؛ وفيها تتوج الملوك؛ وأوّل حجر جعل في أساسها و ضعه البابا إسكندر الثالث في 1136؛ ولم يتم إنشاؤها إلاّ بعد ثلاثة قرون.[1]

كنيسة نوتردام noterdame بالعربية كنيسة مريم العذراء؛ حيث تعدّ من أشهر كنائس باريس و إحدى أهمّ الأماكن السياحية بها؛ و الشدياق قدّم صورة تفصيلية عن هذه الكنيسة شملت الطول و العرض و المساحة ؛ و هذا يدل على أنّ الرحالة كان حريصا على نقل المعلومات بدقة وهذه إحدى السمات التي إعتمد عليها في منهجه .

أعياد سكان باريس :

إذا كانت باريس نقطة التقاء السائحين في فرنسا لتعدد مرافقها و جمال عمرانها ؛و كثرة معالمها؛ و شموخها الحضاري ؛ و الذي زاد من عظمتها احتفالها بموسم عيد السنة الميلادية؛ و الذي يتم ضمن تحضيرات مسبوقة :" **و من ذلك عيد رأس السنة و هو ثلاثة أيّام ؛ترى فيها جانبي البلفار مشمولا بالخيام لبيع التحف؛ و الطرف التي يتهادى بها ؛و ترى أيضا غيضة شانزلزي مشحونة بظلل وقبب و أخبية؛ فيها جميع أنواع الطرب و الشعوذة و الرقص على الحبال ، ثمّ ترى من بدائع المصنوعات و المخلوقات مالا تراه في المملكة كلّها ؛ و قد رأيت مرّة إمرأة جميلة ذات لحية و شوارب و على قفاها و ذراعيها من الشّعر ما لم يكن على رجل؛ و كأنّها هي التي ذكرها صاحب المعجم حيث قال: أرسلت إمرأة إلى باريس لها لحية كثيفة و جميع بدنها مغشي بالشّعر؛ قال : و قد علم أنّ نساء كثيرة لهنّ شوارب و لحى ؛و شعر مسترسل على أكتافهن و سواعدهن ؛من جملتهن إمرأة أتي بها إلى حضرة بطرس الأكبر؛ و كانت لحيتها نحو ذراع و نصف . و في الخامس عشر من أغوسطوس تصنع الدولة عيدا حافلا**

---

[1]. الواسطة في معرفة احوال مالطة و كشف المخبا عن فنون اروبا احمد فارس الشدياق، ص 247.

يحشد إليه مئات ألوف لرؤية الأنوار وشهب البارود؛ وفي الجملة فإنّ أيّام باريس كلّها مواسم و أعياد ؛و أنّ ليلها أبهج من نهارها."[1]

لا يخلو بيت في فرنسا من الاحتفال بليلة رأس السنة ؛و الإعداد لتلك المناسبة العظيمة فيخرج معظم الناس إلى الشوارع؛ ويقومون باستعراض جماعي في الرقص و الغناء؛ كما أنّ النساء تتزيّن باللّحى و الشوارب لتقليد الرجال؛ و إدخال الفرح و السرور إلى قلوب الأطفال ؛و في تلك الليلة تزيّن الشّوارع بالأنوار والشهب؛ فتبدو المدينة أجمل في الليل تسحر و تجذب نحوها كل زائر؛ ممّا أضفى عليها مسحة جمالية.

قصور باريس :

القصر في الثقافة العربية رمز لسكن السلاطين و الأمراء؛ لأنهم يمثلون عليّة القوم وسادتهم ، أمّا معنى القصر في الثقافة الأوروبية فهو يحمل دلالة تاريخية يخلق منه فسحة سياحية تخليدا لفترة مارس فيها خدمة مجتمعه؛ لذلك وجب الإهتمام به باعتباره معلما أثريا كما هو الحال بالنسبة لقصر: " فرصاي الذي كان مقرا للويس الرابع عشر؛ وهو يشتمل على تصاوير بديعة لا نظير لها؛ ومن جملتها صور جميع ملوك الإفرنج من مات منهم و من هو حيّ؛ و صور وقائع نابليون ؛ وصور سائر الملوك و السلاطين؛ و في الشقة التي كان يسكنها الملك تحف غريبة كان يستعملها هو و آله ؛ و سرير فراشه و هو نحو صفة ؛ و فيه ملهى كان إذا أمر الملك بإجراء التمثيل فيه ينوّر بعشرة آلاف شمعة ؛ و يصرف عليه في تلك اللّيلة مائة ألف فرنك؛ و في القصر ديوان فسيح ؛ كان يجتمع فيه رجال دولته ."[2]

إنّ وصف جمال مشهد القصر يوحي بالبنية العمرانية الجميلة التي شيّدته ، فجمال العمارة يسرّ النّظر في فسحته و شساعته؛ وكل زاوية من هذا القصر تروي قصّتها مع الملوك و السلاطين الذين تركوا بصماتهم؛ فبقيت صورهم آثارا لأعمالهم الخالدة عبر التاريخ ؛كما أنّ وظيفة القصر لا تقتصر

[1]. الواسطة في معرفة احوال مالطة و كشف المخبا عن فنون اروبا احمد فارس الشدياق، ص 250، 251.

[2]. المصدر نفسه ، ص 251.

على السكن فقط؛ بل حمل على عاتقه دلالة ثقافية؛ كونه محل التقاء ذوي المواهب في فنّ التمثيل ؛ إنّ قصر فرساي عبارة عن تحفة فنّية لا يستطيع الرحالة كبت اندهاشه ؛ و إعجابه من قداسة هذا الإرث الحضاري؛ الذي ظلّ يمثّل مرجعية تاريخية و نزعة ثقافية على مرّ العصور.

النساء الفرنسيات:

أضحى موضوع المرأة من بين المواضيع الهامة ؛ التي أسالت حبر الأقلام على صفحات التاريخ ؛فالمرأة هي الركن الأساسي في بناء الأسرة و المجتمع ؛و المرأة الغربية على وجه الخصوص لها دور اجتماعي فعّال؛ تشارك الرجل في الأعمال خارج البيت في شتّى المؤسسات الحيوية ؛ و نساء فرنسا اتّصفن بالنظافة و الاهتمام بأمور البيت؛ ما جعل الشدياق يثني عليهن قائلا :" **و لنساء الفرنسيس نظافة زائدة على الملبوس و المفروش؛ فكلّ ما كان لونه البياض يبقى كذلك إلى أن يبلى؛ ولهنّ أيضا عناية بليغة بتنضيد أثاث البيت و بهن تليق جميع الأعمال؛ و في الواقع فإنّهن أركن و ألقى من سائر نساء الإفرنج ؛ و ما من إمراة في باريس إلاّ و تعرف شيئا من المداواة ؛ و من طبعهن التبكير في القيام و تنظيف مراقدهن بخلاف نساء لندرة ؛ فإنّ الغالب عليهن الكسل و التواني و الإضحاء في النوم؛ و لهنّ أيضا حرص على تربية أولا دهن و تنظيفهن ؛ فلا تكاد ترى في أسواق المدينة أطفال يمشون و حدهم ؛ أو يطوفون في اللّيل و يعرضّون أنفسهم لخطر العجلات و سائر المراكب كما ترى في لندرة ؛ و هنّ اللائي يتولّين الدخل والخرج ،فلا يمكن لأحد أن يشتري شيئا من المأكول و المشروب – ما عدا الخمر– إلّا من أيديهن ؛ و إن تكن بعولتهن حاضرة.**"[1]

لقد عالج الشدياق قضية المرأة بوعي؛ من خلال عرض صورة المرأة الفرنسية المتحرّرة في فكرها؛ وفي أسلوب حياتها ؛ ممّا يعطي بواسطتها دفعا للحياة ، و مواكبة عجلة التقدّم مقارنة مع ما تعانيه المرأة الشرقية من جهل؛ وتهميش بسبب الأعراف و التقاليد.

[1]. الواسطة في معرفة احوال مالطة و كشف المخبا عن فنون اروبا احمد فارس الشدياق، ص 252، 253.

حرية الصحافة بين إنجلترة و باريس :

ينتقل الشدياق للحديث عن حرية الصحافة ؛ و التي هي صورة من صور حرية الرأي؛ إذ أنّها تلعب دورا حيويا في تكوين و توحيد الرأي العام؛ كما تؤدي دورا اجتماعيا هاما من خلال إعلام الجمهور بالأمور التي تهمّه ؛سواء أكانت داخلية أو خارجية ؛ فضلا عن توعية الشعب و تثقيفه؛ وتختلف حرية الصحافة بين باريس و إنجلترة باختلاف الأحكام و القوانين إذ:" **في لندرة أكثر من 320 جرنالا للأخبار الطارئة والأدبيات؛ والعلوم ووزن مل يطبع منها في كل يوم وكل أسبوع؛ يبلغ في الأسبوع من 250 طنا الى 370؛ وفي باريس 350 صحيفة للأخبار؛ إلاّ أنّ كتابها مقيّدون عن الجري في مضمار الكلام ؛ فليس لهم الحرية كما لكتّاب الإنكليز؛ فإنّ هؤلاء يشهرون في أخبارهم كلّ ما استحسنوه واستقبحوه؛ وليست هذه الرخصة لأصحاب جرنالات فرنسا؛ وكذلك يشهرون كلّ ما حدث في مجلس المشورة من المذكرات والمفاوضات ؛ بأن يبعث كل رئيس جرنال كاتبه إلى مجلس ؛ و يكتب ما يقال فيه حرفا حرفا؛ و لهم في ذلك طريقه غريبة يسمّونها اليد القصيرة ؛ فإنّ الكلام يكتب مختصرا بنوع من الإشارة .**"[1]

كتّاب الإنكليز يتمتّعون بالحرية المطلقة في إشهار الأخبار ؛دون التكتّم على أسرار الرعّية؛ فحتىّ الأمور التي تعقد في مجالس الدولة يفشى أمرها في الصحيفة المكتوبة؛ إذ تلعب الصحافة دورا مهمّا في تنوير و تبصير الرأي العام ؛ إذ أنّها تكشف له نقائص المجتمع ؛ وتعمل على دفع الجهات المسؤولة إلى إصلاح ؛ و تكملة هذا النقص ليعمّ الأمن و السلام داخل المجتمع.

و يتبيّن لنا مما سبق أن الشدياق في رحلته هذه ؛ قد أعطى القارئ العربي صورة عن الحضارة الأوروبية من خلال معايشته لها ؛و تعامله معها معجبا أو منكرا؛ ذلك أنّه أعجب بل انبهر بأشياء؛ و عّدها من مزاياها؛ التي أوحى إلى أبناء العروبة بالإقتداء بها؛ كما أنّه أنكر منها أشياء ؛ فحذرهم من الوقوع في فخاخها.

---

1. الواسطة في معرفة احوال مالطة و كشف المخبا عن فنون اوروبا احمد فارس الشدياق، ص 353.

إنّ صورة هذا الغرب الذي ظل منذ حقبة الطهطاوي مزارا؛ و مقصدا للدارسين المسلمين والأدباء ؛و الرحالة الطوافين على حدّ سواء ؛ قد شهدت تباينا في وجهات النظر ،فهناك من انبهر بمنجزات الغرب انبهارا شديدا ؛ إلى حدّ الدّعوة إلى (التجديد) ؛ أي الأخذ بمظاهر المجتمع الغربي ونقل أفكاره ؛ووسائله العلمية ؛ إذا أراد المسلمون إصلاح تخلّفهم و اللّحاق بركب الحضارة الحديثة؛ إلاّ أنّه في مقابل هذه الدعوة إلى التجديد ؛ و الأخذ بالحديث ؛ كان هناك أنصار التراث الذين يرفضون كل فكر دخيل ؛ و يتّخذون من عراقة الماضي درعا يحميهم من كلّ إغراءات العصرنة ؛ وهكذا كانت رحلة الشدياق عبارة عن دروس في الحضارة بعامة ؛و التمدّن الأوروبي بخاصّة ؛ بهدف الانفتاح على العالم الغربي للتعرّف على مظاهر تقدّمه و رقّيه.

الشيخ محمد عياد الطنطاوي:

هو الشيخ محمد بن سعد المقلب بعياد الطنطاوي الشافعي[1] ؛ و لد في قرية نجريد من أعمال مركز طنطا سنة 1225/ 1810م ؛حيث عمل والده سعد ببيع القماش و الصابون و البنّ[2] ؛ وفي بلدته تلقّى محمد عيّاد علومه الأولية ؛ حيث حفظ القرآن و من ثمّ قصد طنطا لإكمال دراسته ؛ وكانت هذه المدينة تعجّ بالعلماء و الفقهاء و القراء ؛يأتونها من كلّ حدب و صوب، بعدها انتقل إلى جامع الأزهر أين التقى بالشّيخ حسن العطار؛ و ن من عمله، تلقّى الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي العلم على يد شيوخ أجلاّء نذكر منهم:

الشيخ محمد الكرومي الذي أخذ عنه شرح ابن قاسم في الفقه. وأخذ عن الشيخ حسن العطار تفسير البيضاوي، و الشيخ ابراهيم بن محمد البيجوري ؛ الذي لازمه الطنطاوي سن عديدة ؛ قرأ عليه أصول الكتب في النحو و الفقه، و البلاغة و المنطق ؛وكان تأثير البيجوري على تلميذه محمد عيّاد كبيرا ؛فصار يختار لقته موضوعا أدبيا مثل مقامات اريري ؛و اعلّقات[3]؛ بعدها اتّجه الطنطاوي نحو الدراسات الأدبية؛ يشرح اقامات و يفسّر غريبها، فبزع نجمه في سماء النثر و الشعر.

اتّهم الطنطاوي بترويج البدع ؛و تمنى بعض أعدائه موته ؛حيث أصيب بالطاعون سنة 1836 الذي عاناه مدة عشرة أيام بلا نوم ؛ و غاب عنه الإحساس و الإدراك، حتى سلّمه الله و انفتحت البثور و تعافى بعد أسبوعين، و في ذلك يقول أبياتا شعرية حين انتشر خبر موته قائلا:

تمنّى أناس أن أموت و إن متّ   فتلك طريق لست فيها بأوحد

و إن أظهروا موتي فليس بمنكر   إذا أظهر الشيطان موت محمد[4]

[1]. اعلام الفكر الاسلامي في العصر الحديث، احمد تيمورباشا. دار الافاق العربية القاهرة، ط2، ص46.

[2]. رحلة الشيخ الطنطاوي الى بلاد الروسية، قدم لها و حررها محمد عيسى صالحية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص10.

[3]- ينظر اصدر نفسه ص11

[4]- اصدر نفسه ص12

هذا دليل على أنّ الطنطاوي كان يحتل مكانة مرموقة في المجتمع؛ ما فتح المجال نافسيه وأعدائه بإطلاق الإشاعات و الأخبار السيئة لتلويث صمعته.

كانت تجمع بالشيخ الطنطاوي علاقات صداقة طيبة مع بعض الزملاء الذين تتلمذوا معه في جامع الأزهر، كما كان قريبا جدا من رفاعة الطهطاوي، و حصلت له بعض المراسلات مع ستشرق الوافدين على مصر، ما هيّأت له و لاختياره أحد درس للذهاب إلى بتربورغ الروسية لتدريس اللغة العربية بكلية الألسن حيث: " **طلب الكونت ميدن من والي مصر محمد علي باشا أن يرسل الشيخ محمد عياد الطنطاوي إلى كلية الألسن، فلاقى محمد علي طلب الكونت بالتّرحاب والقبول، كما طالب محمد علي الطنطاوي بتعلّم اللسان الروسي ليعرف مدى التقدم العلمي؛ والإجتماعي الذي وصلت إليه بلاد الروس**"[1].

تعدّ رحلة محمد عيّاد الطنطاوي الثانية بعد رحلة رفاعة الطهطاوي ؛فحملت الرحلتان هدفا واحدا تمثل في تعلّم لغات الغرب ؛و ذلك بتنوير العقل العربي بالاطّلاع على ما وصلت إليه دنية الغربية ديثة من رقي ؛و إزدهار في المجالات العلمية.

رحل الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي من مصر إلى روسيا سنة 1840 م ؛فانظمّ إلى المدرسة الشرقية؛ حيث ألقى أول محاضرة بعد سبعة و ثلاثين يوما من حضوره، مكث بروسيا أربع سنوات من 1840 إلى 1844؛ و في صيف تلك السنة سافر في إجازة إلى مصر ليتفقد أحوال أسرته ؛و في خريف ذلك العام عاد إلى بتربورغ و صحب معه زوجته علوية و إبنه أحمد، فعمل مدرسا في الكلية الشرقية إبتداء من 1850 الى 1854؛ حيث درّس القواعد والأدب وط ؛ والتاريخ والعروض ووضع العديد من ؤلفات التعليمية لتلاميذة [2]؛ ظلّ الشيخ الطنطاوي محافظا على زيّه الازهري وسمته

[1]- رحلة الشيخ الطنطاوي الى بلاد الروسية، ص13

[2]. صدر نفسه، ص 12

الشرقي؛ قال عنه أحد معاصريه من الروس: " **إنّه رجل وسيم يرتدي حلّة شرقية، وعمامة بيضاء، وله لحية فاحمة سوداء ؛و عينان برّاقتان ؛ووجه متوقّد الذكاء...**"[1]

ظلّ الشيخ الطنطاوي محافظا على قيّمه و مبادئه ؛ حيث لم تؤثر إقامته الطويلة في روسيا في شيئ من دينه أو عقيدته.

كان خلال إجازته يتنقل بين البلدان الروسية يطوف بين المتنزهات؛ و الغابات و يحضر الاحتفالات الرسمية و الشعبية ؛و هذه المدة التي قضاها ببلاد روسيا فتحت أمامه المجال للانفتاح على العالم الغربي بمعرفة عادات؛ و تقاليد شعوب الروس وعوائدهم، ومذاهبهم و علومهم المختلفة.

نظرا لجهوداته العلمية منح الشيخ الطنطاوي عدة ألقاب و أوسمة؛ من بينها الشكر القيصري عام 1850 على جهوده في تعليم القوقازيين بجامعة بطرسبرج، وفي عام 1852 حاز ميدالية من ملك فيرتمبرج، و في نفس العام أهدى إليه و ليّ عهد القيصر خاتما مرصّعا بالجواهر مكأفاة على جهوده الخاصة في زخرفة الغرفة التركية في مصر " تشارسكي سيلو [2] توفي محمد عياد الطنطاوي سنة 1862 عن عمر يناهر الخمسين سنة ؛و دفن في مقبرة فولكوفو الإسلامية بعد ان تخرّج على يديه عدد كبير من المستشرقين.[3]

مؤلفات الشيخ محمد عياد الطنطاوي:

لا زالت العديد من مؤلفات الشيخ الطنطاوي حبيسة مكتبة الدراسات الشرقية بجامعة لينتغراد ؛ و معظم هذه المصنقات لغوية و دينية كان يستعين بها على تدريس اللغة العربية بكلية الألسن بيتربورغ ؛ منها كتاب" أحسن النخب في معرفة لسان العرب" يحوي ألفاظ و جمل و أمثال؛ وحكايات باللغة العربية يقابلها ترجمة بالفرنسية.

---

[1]. النهضة الاسلامية في سير اعلامها المعاصرين، رجب البيومي، دار القلم دمشق، ط1، 1995، ج2، 480، 481.
[2]. ينظر بعض مايمكن قوله اوراق ليست شخصية، محمود الورداني، هيئة العامة لقصور الثقافة، ط2، ، ص 140.
[3]. اعلام الفكر الاسلامي في العصر الحديث، احمد تيمور باشا، ص 47.

كتاب بغية المريد على رسالة التوحيد.[1]

ترجمة مختصر روسيا، تأليف استريالوف.[2]

كتاب حاشية أعجب العجب في شرح لامية العرب للزمخشري[3] و أهم كتاب وضعه" رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية المسماة" تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا".

مضمون رحلة محمد عياد الطنطاوي:

بدأ الطنطاوي نص رحلته بمقدمة شرح فيها أسباب القيام بالسفر إلى روسيا ؛ بعد اختياره مدرّسا لتعليم اللغة العربية بإحدى كلّياتها قائلا: " **وقد أتاح الله لي السفر إلى بلاد لروسيا الواسعة؛ و أقطارها البعيدة الشاسعة ؛بسبب طلب دولتها لي أن أعلّم اللغة العربية في مدرسة الألسن الشرقية، فوافق ذلك ماعندي من الميل الحسن ؛و سرت لا ألوي على أهل و لا وطن، و العاقل أينما سار مع سكنه ؛و الجاهل غريب في و طنه، و ما عاقل في بلدة بغريب، هذا مع شغف النفس بالأوطان ؛و تأسّفها على فراق الأهل و الخلّان".**[4]

إنّ الرغبة في الترحال و أداء المهمة التي أوكلت إلى الطنطاوي فاقت كل الاعتبارات التي يحسب لها سابقا، وقد حرص الشيخ محمد الطنطاوي بعده ذكره لبواعث السفر أن يضع مصنّفا يضم كل مشاهداته في بلاد الروس: " **وعند إبرام العزم على الضعن إلى هذا القطر الحسن ؛سألني جمع من الأصداقاء و المعارف، وجمّ من أهل المعارف أن أسطّر في سفري هذا كتابا أودع فيه ما يعذب مذاقا، و يطيب شرابا من بدائع البلاد؛ و غرائب العباد مع شذرة علمية، ونكات أدبية**

---

[1]. رحلة الشيخ الطنطاوي الى بلاد الروس، ص 17.

[2]. المصدر نفسه، ص 18.

[3]. المصدر نفسه، ص 18.

[4]. المصدر نفسه، ص 50.

و طرق استحسانية و ملح اختراعية، فأجبت السؤال و بادرت الأمتثال ؛و شرعت في هذا التّعليق البديع الأنيق؛ وسميته تحفة الأذكياء بأخبار ممكلة الروسيا.[1]

حدّث الشيخ الطنطاوي في الفصل الأول من الرحلة عن منشأة الروس؛ حيث يرى أنّ الساكنون الأول لبلاد الروس هم سكيفي وصرماطي ؛يعني الصقالبة يقطنون بأراضي يحيط بها غابات ملتفة، وغيطان متّسعة تسمّى الصحاري؛ و يدينون للدّين الوثني، لا يعرفون القراءة و لا الكتابة ويلبسون جلود الوحوش، في فصل الشياء ينحون في الأرض مسكنا مشابها لما يفعله الآن القلموق، ويسمّونه يورطة أي دويرة المنتجع ؛و فرقة منهم تتقوّت بصيد الأسماك ؛و تقوم بحراثة الأرض؛ وتعيش على لحم مواشيها ولبنها؛ ولا يقيمون بمكان واحد لذلك يسمّون المنتجع، و سكان سكيفي وصرماطي محترفون في صناعة الأسلحة ؛فيأخدون العظام و الأخشاب و يجعلون منها سلاحا لمحاربة عدوهم ؛ فهم مولعون بخوض المعارك ؛ خصوصا ضد جيرانهم يقتلونهم ؛ ويأخذونهم قربانا لأصنامهم".[2]

أخلاق الروس:

من جملة ماشهده الشيخ الطنطاوي أثناء اقامته الطويلة ببلاد الروس أنّ سكان هذا البد يتصفون بمجموعة من الأخلاق الحسنة:

" إعلم أنّ عادة الروس وأخلاقهم الكرم؛ والإنفاق وحسن معاشرة الناس خصوصا من مدّة ما تقدّموا في التمدّن ؛و العلوم وصدقت فيهم فراسة بطرس الكبير، و يميلون الى الفخر والكبر قال العلاء في أخلاق طائفة الروس" موصوفة بحسن الشكل و بياض اللون و قابلية الصنائع و لطافة الخدمة، و إطاعة السيّد و قلة العبادة ؛و قلّة الصلاح و كثرة الآفاق" و في

1-رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية ؛ص51

[2]. ينظر المصدر نفسه، ص 99.

القديم كانوا مشهورين بالجبن حتى استعبدتهم التاتار حينا، لكن الآن انعكست القضية ؛ وصار التاتار مذعنين لهم و من رعاياهم".[1]

أخلاق الروس لا تختلف عن أخلاق العرب في الكرم و حب الناس ؛و ربّما صفة السخاء أخذها الروس عن العرب من اندماجهم معهم، و هذا دليل على أنّ الغرب تأثّروا بالحضارة العربية الإسلامية من وجوه كثير. و يضيف الرحالة أنّ سكان الروس ليسوا في مرتبة واحدة.؛ فكل واحد منهم ينتمي إلى مرتبة من المراتب الآتية:

أولها رتبة الأعيان : و هذه المرتبة متوارثة بينهم و يجوزلهم شراء الأراضي و العبيد، و إذا تزوج أحدهم بامرأة دون مقامه رفع رتبتها و تسمّى باسمه، تأتي بعدها رتبة الأعيان الذين لا تتوارث رتبهم ؛و هم الغرباء المستخدمون و نحوهم، و يجوز لهم شراء الأرض و العبيد الروسية إلاّ في اختلاف الدّين فيمنع دخول الروس في ملك المسلم، كما يمنع شرعا دخول العبد المسلم في ملك النصراني؛ وتأتي المرتبة الثالثة للتّجار فهم لايعدّون من الأعيان حتى لو ملكوا الملايين ، و إذا تزّوج امرأة من الأعيان حطّ رتبتها؛ و تنسب إلى التجار؛ و بنت الأعيان لا تتزّوج التاجر إلاّ إذا كان ثريا.

و يأتي أولاد البلد في المرتبة الرابعة، و إذا ترقّوا إلى رتبة التّجار صار لهم نظامهم و حكمهم، وطبقة الفلاحون تحتل المرتبة الخامسة ؛و يطبق عليهم نفس حكم أصحاب المرتبة الرابعة، و المرتبة السادسة ينسب إليها العسكر، و العسكري يرتقي إلى رتبة الأعيان بشرط أن تكون خدمته في القطاع خمسة عشرة سنة، و المرتبة السابعة و الأخيرة تكون لطبقة الرقيق، ومن أراد أن يشتري واحدا منهم يجب أن يكون من أعيان الروس ؛و يجوز له عتقة إن أراد ذالك.[2]

---

[1]. رحلة الشيخ الطنطاوي الى البلاد الروسية،ص 185.

[2]. ينظر المصدر نفسه، ص 185، 186، 187.

ملابس الروس:

اللباس يمثل الانتماء، و كل بلد له خصوصية في طريقة اختيار اللباس ؛و الشيخ الطنطاوي وصف ملابس الروس القديمة بأنها:" **مشتملة على قميص إفرنجي؛ و الغالب أنّه من الشيت، لأنّ العوام يحبّون الألوان ؛ثم لباس من البفت أو الجوخ، ثم جبة طويلة، و لقسسهم جبب طويلة عريضة الأكمام مثل فرجيات علماء مصر؛ أو بنشات السفطات".**[1]

و يواصل حديثه بأنّ لباس الروس تغيّر منذ أن تولّى بطرس الكبير حكم روسيا:" **و لكن منذ مدّن بطرس كبير روسيا؛ صارت ملابسهم كملابس غيرهم من الأوربيين ، فيلبسون البيض، ويضعون على الصدرفوق جيب القميص قطعة بفت عريضة بطيّات مكوية، و تارة يفصّلون القميص و يجعلون على صدره طيّات..."**[2]

ولباس الروس يختلف في المناسبات و مراسم التكلّف: " **فالضّباط و من فوقهم يضعون على أكتافهم قرصا من القصب الأبيض ؛أو يلبسون السيوف ؛و أمّا أرباب القلم فلا يلبسون السيوف إلاّ في مراسم التكلف؛ و كذلك يلبسون فيها بدلة بطوق قصب بحسب رتبهم، وبالجملة فلكل رتبة نوع مخصوص لا يتعدّاه يلبسه صاحبه في الأعياد... أمّا النساء فالكبراء كلبس الفرنساويات يعني الأقمصة و الألبسة ، ثم الإزارات المربوطة على الوسط ؛و هي كثيرة ثم الفسطان، و يجوز لهنّ كلّ الألوان و التنوّع على حسب النسيم؛ و يعملون للفساطين وشاحا يسمّى الكرسيت..."**[3]

كانت هذه ملابس الروس نقلها لنا الطنطاوي بالصورة التي شاهدها ؛فملابس عامة الناس تختلف عن الوجهاء و أصحاب المراتب العليا ؛كل واحد يحترم المقام الذي وضع فيه فيلبس الزيّ

---

[1]. رحلة الشيخ الطنطاوي الى بلاد الروسية ، ص 189.

[2]. المصدر نفسه، ص 189.

[3]. المصدر نفسه، ص 189، 190، 191.

المناسب له. و ملابس النساء تشبه إلى حدّ بعيد ملابس الفرنساويات في الأناقة ؛و اختيار الألوان الزاهية؛ ما يجعل المرأة الروسية متميزة عن باقي النساء.

من مظاهر الإعجاب التي أبداها الطنطاوي أنّ الناس لا يلتزمون ملبسا واحدا ؛بل كل إنسان يلبس باختياره ما تأذن له العادة بلبسه:

" و أمّا نساء العوام فمختلفات الملابس بعضهن بالسرفات؛ و بعضهن بالفسطان ؛ وبعظهن يلبسن فوق الفسطان مثل الصديري؛ و بعظهن يتعصّبن بالمناديل، و هذا باق حتىّ نساء التجار إلى الآن..."[1]

إنّ التنوع في ارتداء الملابس خصوصا عند نساء الروس يرجع إلى تنوع في الذوق؛ فلكل شخص ثقافته الخاصة في إبداء المظهر الذي يليق به؛ وممّا أثار انتباه الطنطاوي أنّ الرجال يقصرون شعر الرأس ؛و النساء يجمع غرائز الشعر بمشط وسط الرأس؛ وحتىّ العجائز يفعلن ذالك ؛أمّا الفلاحات فيرسلن الشعر على ظهورهن، و تارة يضعن شريطا أو دبابيس مذهّبة للتزين، و المتزوّجات يضعن على رؤسهن طاقية رفيعة بغاية الإتقان."[2]

إنّ وصف الشيخ الطنطاوي للباس الروس يختلف تماما عمّا عرضه إبن فضلان في رسالته ؛فهذا الأخير صرّح بأنّ سكان الروس أقذر خلق الله، لا يعرفون للنظافة طريقا، فهم لا يسترون أجسامهم والمرأة تبدي عورتها في مجالس الرجال دون رادع أخلاقي ؛وهذا يرجع إلى التخلف الذي عاشه المجتمع الروسي آنداك، ومع الاحتكاك بالحضارة العربية الإسلامية تغير المجتمع الغربي؛ فورث بعض الصفات و الأخلاق الحسنة عن المسلمين ؛و هذا ما كشفته لنا رحلة الطنطاوي إلى ورسيا.

---

[1]. رحلة الشيخ الطنطاوي ال البلاد الروسية، ص 191.

[2]. ينظر المصدر نفسه، ص 193.

ديانة الروس:

كان سكان الروس في القديم عبدة أوثان و أصنام ؛يسمّون كل وثن باسم يختارونه ؛و يقدّمون القربان لهاته الآلهة حتىّ لا تسلّط غظبها عليهم؛ و استمّروا على هذه الحال حتّى زمن فلادمير أين غيرّوا وجهة دينهم فتنصّرو اعلى طريقة الرّوم:" **و طريقة الروم التي تدين بها الروس تخالف طريقة اللاطينيين بفرق ضعيف... ؛إنّما الفرق بينهما في العقيدة من جهة التثليث ، فاللاطينيون يقولون: إنّ روح القدس ينبعث من أب و ابن؛ و الروم يقولون إنّه من أب بواسطة ابن..."**[1]

سكان الروس ينتمون للديانة النصرانية و يتبعون الروم في العقيدة؛ فمن جهة التثليث فيرون أنّ روح القدس يأتي من أب بواسطة ابن ؛وهذا من معتقدهم الديني النصراني.

و الشيئ الذي لفت انتباه الشيخ الطنطاوي هو تزيين الكنائس بالأواني و الصور و التماثيل:" **والأواني في الغالب ثمينة مذهبة و مرصّعة بالجوهر؛ و الصور و التماثيل من اللوازم عند الروس في الكنائس و في البيوت، و تارة يوجد حتىّ في الأسواق ؛و في كل بيت ؛ في أوضة مخصوصة صورة العذراء ؛و المسيح مطلية بالذهب أو الفضة ؛أو مرصّعة بالجواهر على حسب الغني و الفقير، و الداخل يتوجّه إلى الركن الذي فيه الصورة ، و يسلّم عليها أوّلا بخفض الرأس و التّصليب مرارا".**[2]

هذه الطقوس الدينية في تزيين الكنائس بصورة العذراء و السيّد المسيح ؛ و إلقاء التحية ماهي إلاّ مظهر من مظاهر الحضارة الغربية في بلاد الروس.

و يزيد الطنطاوي في حديثه عن طقوس الرّوس في الاحتفال بالأعياد:

---

1. رحلة الشيخ الطنطاوي الى بلاد الروسية، ص 194.
2. المصدر نفسه، ص 195.

"وفي وقت التّكريز كلّ الناس تقف ؛و الرجال تقلع البرانيط، وكثيرا ما يصلبون؛ بل ويقفون ساجدين على الأرض، و يكثر الرواح إلى الكنائس في الأحد والأعياد ؛و يوم اسم الشخص أو ولادته ؛ و في أيّام الصّيام خصوصا الكبير الذي قبل الفصح، و فيه يستغفرون من الذنوب؛ بأن يقرّ المذنب بذنبه لقسيس فيأمره بالسّجود في بيته بقدر الذنب صغرا و كبرا ؛ ثمّ يسقيه خمرا أحمر كأنّه دم المسيح و خبزا، و في أيام الصوم الكبير و الجمعة الأولى ؛ والسابعة يمتنعون حتىّ من السمك والبيض و السمن، بل الزيت الحارّ و نحوه، و بعضهم لا يلتزم ؛ لكن أكثر العامة و الفلاحين يراعونه فلا يأكلون لحما البتة".[1]

الإنسان المؤمن بالإيمان يتعامل مباشرة و بشكل حرّ مع الله؛ بدون وساطة الكهنة أو القديسين؛ و في عرف النصارى يتناول المذنب قليلا من الخبز و الخمر تذكارا لموت المسيح، فيشير الخبز إلى جسد المسيح ؛بينما يرمز الخمر إلى دمه ، وهذه الطقوس الدينية متأصّلة في نفوس الروس ورثوها عن الروم.

عادات الروس في الزواج:

الزواج هو ذلك الوثاق الغليظ الذي يجمع بين قلبين؛ وروحين بالمودة و المعاملة الحسنة، و نحن في شرعنا الإسلامي يتمّ الزوج بشروط سنّها القرآن الكريم ؛و أثبتتها السنة النبوية المطهرة.

أمّا الزواج من منظور الغرب فله مقاييسه و ضوابطه؛ و سكان الروس و الأوربيون عامة يشتركون في بعض عادات الزواج: " إعلم أنّ الروس من زمان بطرس الكبير إلى الآن كسائر الأوروبين لا يحجبون نساءهم عن حضور المجالس مكشوفات الوجوه، فحينئذ يسهل على من يريد التزوج اختيار من يشاء ؛و تارةا بواسطة الخاطبة خصوصا عند العوام ؛و من حيث أنّه لا طلاق؛ لا يقنع الإنسان بمجرد النظر ؛ بل لا بدّ من معرفة الطّبع فيصطحبان بغاية الأدب ؛

[1]. رحلة الشيخ الطنطاوي الى البلاد الروسية، ص 195، 196.

وينظران بعضا في المجالس، و هذا يختلف باختلاف الناس، فإذا حصلت المحبة من الطرفين الذي يسمّونها العشق ؛ أو كان هناك غرض آخر سألها التزوّج بها، فإذا قبلت سأل بعد ذلك أهلها؛ ثم يشرطون الشرط في البيت ؛و حينئذ يضع لها خاتم ذهب ؛و لنفسه كذلك؛ وتسمى حين ذلك خطيبة؛ ثم يعيّن وقت للعرس؛ و حينئذ يذهبون للكنيسة فيسألها القسيس أوّلا هل رضيت بهذا؟ فتقول: نعم..."[1]

مراسيم القران تقام في الكنيسة ، و القسيس هو الذي يتولّ مهمّة عقد الزواج وفق شروط اّتفقت عليها عائلة العروسين في بداية الأمر؛ مع التركيزعلى أهم شرط في النكاح وهو موافقة الطرف بالطلب و القبول.

من ثوابت الأمة العربية الإسلامية التشبّث بتعاليم الدين الإسلامي؛ و العمل بما جاء في القرآن و الهدي النبوي، فالإسلام نص على أن المهر يدفعه الرجل لزوجته حتى ولو كان يسيرا، لكن في عرف المجتمع الروسي غير ذلك " **أمّا المهر فتعطيه الزوجة؛ و كثير من الأزواج صاروا أغنياء بسبب زوجاتهم ؛ فالحسن ليس جالبا للعشق أقوى من المال ؛ فالقباح الغنيّات يعشقن ويتزوجن مثل الحسان الفقيرات:**

كتنفّس الحسناء في المرآة إذ برعت محاسنها بغير زواج[2]

فالمال ليس مقياسا للزواج في بلد الروس، بل من تملك المال الكثير يتهافت العرسان لطرق بابها حتى ولو كانت بشعة المنظر..

---

[1]. رحلة الشيخ الطنطاوي الى البلاد الروسية، ص 196.

[2]. المصدر نفسه، ص 197.

عادات الروس في الولادة و التعميد:

الشيخ الطنطاوي في رحلته وصف معيشة الروس ؛و عقيدتهم و أحوالهم ؛فذكر ما شاهده وعاينه بنفسه من أمور و حوادث وقعت أمامه ؛و الشيء الذي لفت انتباهه طريقة الاحتفال بازدياد مولود؛ و القّسيس هو الذي يعمّد ذلك الرضيع وفق الطقوس التي تعوّد عليها بابوات الكنيسة : "**إذا ولد لشخص مولود أحضر القسيس و أعطى للمولود اسما كما يريد أهله، و أخذ المولود وبارك عليه، وبعد ذالك بمدة يعمّد في البيت أو الكنيسة ؛ثم يحضر طشت فيه ماء فيقدّسه ثم يضع المولود في الماء ؛و يأخذه منه الشبينة (يعني أمّ التعميد) و تلفّه في قميص جديد وطاقية ؛و تعطي للقسيس منديل يمسح به يده و يأخذه ؛و يحضر أيضا أبو التّعميد، و يعطي الأجرة للقّسيس؛ و يشتري للمولود صليبا يلبسه ؛و كل الناس في أعناقهم الصلبان إلى ذلك الوقت خصوصا النساء، ثمّ بعد ذلك تدور شبينة بالمولود ثلاثة مرات وفي يدها شمعة ؛ وكذلك أبو التّعميد ؛و يغنّي أثناء ذلك القّسيس ؛و يدهنه بالزّيت المقدّس؛ ثم يحيون الليلة بالّرقص و الشّراب، و يحدث بين أبو التعميد و أمّه لحمة كلحمة النّسب بحيث يمتنع التزوج، و كذلك بينها و بين الأب و الأم و الغليونة، و لهذا تدوا معمديها بأبويها، و يسمّون المولود بأسماء القدّسين مثل بطرس و مريم؛ و يعمل لهذا الاسم يوما يحيا كل عام؛ وهو اسم مولد ذلك القدّيس مثلا...**"[1]

يعتبر الماء رمزا للحياة، إذ ورد ذكره في القرآن الكريم لقوله تعالى " **و جعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون**" [2] فزيادة على كون الماء عنصرا حيويا لاستمرار حياة الإنسان و المخلوقات الأخرى على وجه الأرض ؛أصبح يستخدم في بعض الطقوس الدينية ؛ بحيث يستخدم معتنقو الدين المسيحي الماء في طقوس التعميد التي تقام على المولود الجديد في الكنيسة ؛و التي يقوم بها الكاهن ؛

---

[1]. رحلة الشيخ الطنطاوي الى البلاد الروسية، محمد عيسى صالحية، ص 199.

[2]. سورة الانبياء، الاية 30.

أو القّسيس فيغطسه في الماء الذي أصبح مقدّسا بعد إن يباركه بطقوس معينة، فالماء في معتقد النصارى يرمز إلى التّطهير الروحي و الولادة الجديدة.

مراسيم الدفن عند الروس:

المرجعية الدينية للرحالة باعتباره ينتمي إلى حضارة الإسلام التي كرمت الإنسان؛ ورفعت من شأنه ؛فإذا انقضى عمره و جاء أجله وجب غسله؛ و تكفينه حتى لا تتعفّن جثّته إكراما لروح هذا الميّت، هذا من منطلق الشرع الإسلامي؛ أمّا في منطلق الغرب ليس كذلك ؛ فالروس لهم طقوسهم ومراسيمهم الخاصة في دفن موتاهم: " **إذا مات إنسان أتى القسيس وقرأ عليه، و يأتي أيضا قبل خروج الروح ليلقّنه ؛ثم يغسل و يكفّن؛ و كفنه ثياب الحياة بعينها ؛فيلبسونه مثل ماهو حي حتىّ الجزمة ؛و يوضع وجهه مكشوف في تابوت خشب، و يوقدون حوله ثلاثة شمعات إسكندراني، وعنده في طول هذه المدّة قسيس يقرأ عليه ؛و كل يوم يجيء القسّيس الكبير؛ ويصلّي عليه و لايدفن قبل ثلاثة أيام لاحتمال الحياة؛ و في اليوم الثالث ؛ أو الرابع المعتمد للدّفن تهيّأ الكنيسة؛ و تغطّى دككها التي تجلس الناس عليها بالجوخ الأسود؛ و يصحبون جنائزهم بالنار؛ فيمسك القسّيس شعلة من نار؛ و يختلف ذلك باختلاف الموتى، فالكبراء يزاد لهم ، و تغطّى العربة بقبّة جميلة ؛ ثم يحمل التابوت من البيت إلى الكنيسة مصحوبا بالمشيّعين ؛ و يوضع بكهف الكنيسة إلى يوم الدّفن، و تطبع أوراق الدعوة في أوراق مجدول طرفها بالأسود، فيحضر الناس و يغني القسّيس و الشموع موقودة؛ ثمّ بعد فراغ الغناء يحمل الرجال التابوت من الكنيسة إلى العربة المنتظرة لحمله على الباب؛ و يضعونه فيها ؛و بعضهم يمشي إلى الجبانة ؛و هناك يدفن فيأتي قسّيس و يرش عليه عند إلقائه بتابوت التراب؛ والعادة**

أن تعمل وليمة عند القبر للمشيّعين فيأكلون ؛و يشربون الخمر على روحه ؛و يطبخون الأرز بالزبيب..."[1]

إنّ طريقة دفن الميّت عند الروس تتم وفق مراسيم معينة ؛منها غسل الميت و تكفينه بارتداء أجمل وافخر الثياب ووضعه في تابوت مكشوف الوجه ؛و توقد حوله ثلاث شمعات، ثم تقدّم الدعوات في أوراق خاصة لأصحابها لحضور ذلك المشهد العظيم ؛و بعد دفن الميّت تقام وليمة كبيرة للمشيّعين فيأكلون ؛و يشربون الخمر عند القبر امتنانا لروح الميت.

أعياد الروس:

ترتبط أعياد الميلاد و رأس السنة عند الروس بعادات خاصة و أول هذه الأعياد نذكر: " **عيد أول السنة، يبتدئ أول كانون الثاني فيه يذهبون لزيارة الرؤساء ؛و الكبراء و المعارف، و كانت الروس في الزمن القديم تعد تاريخها من خلق الدنيا، و السنة الجديدة من أول آذار في وقت الاعتدال إلى الربيعي..."** [2] ويواصل الطنطاوي حديثه أنّ أسلاف الروس قديما كانوا يحتفلون برأس السنة وفق طقوس دينية: " **في كل سنة يشهرون فراغ الصيف و دخول أول السنة الجديدة، ويبتدئ التّعميد من طلوع الشمس في موسقو بعد صلاة الصبح في لكنيسة التصليب الكبيرة؛ فيخرج المطران إلى الميدان مصحوبا بالقسس و الصلبان، وحينئذ تضرب جميع النواقيس ؛ ويتمّ رسم الماء المقدس والصلاة ويقول: بارك اللّهم في العام الجديد بافاضة الإحساس والصلح، و يصلّي القيصر و سكان موسقو بالخشوع، و يسجدون عند غنائه..."**[3]

الاحتفال برأس السنة الميلادية في ثقافة الغرب؛ و خصوصا الروس تخالف ثقافة المسلمين الدينية في الاحتفال بالسنة الهجرية الجديدة وذلك بالصلاة في المساجد، وزيارة الأقرباء و المساكين والإكثار

---

[1]. رحلة الشيخ الطنطاوي الى البلاد الروسية، ص 199.

[2]. المصدر نفسه، ص201.

[3]. المصدر نفسه، ص 201.

من قراءة القرآن ؛و الصيام تقرّبا إلى الله عز وجل بالأعمال الصالحة ؛ فالاحتفال بالأعياد الدينية في عرف المسلمين يكون روحيا أخلاقيا أكثر منه ماديا؛ مثل ما يفعله المنتمون للديانة النصرانية.

و يأتي بعد عيد أول السنة عيد الرفاع، و يتم الاحتفال به عن طريق طقوس معيّنة و فيه: **"ينصبون في الميدان أمام قصر الشتاء أنواع الملاهي و المراجيح ؛و يبنون بيوتا يلعب فيها الملاعيب ؛و في بعضها يرون الحيوانات؛ و الوحوش المجلوبة كالسّبع و النمر و الذئب؛ وفي هذا العيد قبل صومهم الكبير بأسبوع لا يأكلون فيه اللحم؛ بل أنواع الفطير و السمك؛ ويأكل الناس عند بعضهم رقاقا يسمّونه بلني طول هذا الأسبوع، و فيه يلعب التياتر في الظهر؛ والليل كل يوم مرتين".**[1]

و ثالث أعياد الروس هو عيد الفصح و هو : **" فسخ الصيام ، و يحيون ليلته و لا ينامون فيها بل ينتظرون نصف الليل ، و يذهبون للكنيسة في نصف الليل للصّلاة ؛و هذه الصلاة طويلة نحو ساعتين ؛و كم فيها من زحام رجال و نساء. و تكثر اللصوص في هذه و نحوها، فيسرقون ما وجدوا من ساعات أو نقد، ثم بعد فراغ الصّلام يأكلون ؛و يأخذون فطرا معه إلى الكنيسة يبارك عليه القسيس؛ ثم يأكلونه بلبن متعقّد. و في هذا اليوم تكثر الزيارات للتّعبيد كما أوّل السنة ، فهما اليومان اللذان يلزم أنّ أهل الخدم تذهب إلى رأسائهم ؛و الأحباب إلى أحبابهم؛ و المعارف إلى معارفهم، هما العيدان العموميان ؛و يكثر في الفصح إهداء البيض المنقوش ونحوه؛ و هذه الأشياء تباع في السوق الكبير في الجمعة السادسة جمعة الشعانين، فيفرشون بهذ الأشياء و نحوها كالأزهار المصنوعة واللعب؛ والصور للأطفال وعربات وطيور؛**

[1]. رحلة الشيخ الطنطاوي الى بلاد الروسية ، ص 202.

وعصافير وبعض البيض منقوش مكتوب عليه عقيدتهم "عيسى نشر" وفي هذا العيد يتباوسون ثلاثة مرات..."[1]

طريقة الاحتفال بعيد الفصح مخالفة تماما للأعياد الأخرى؛ ففي هذا العيد يمتنعون عن الصّيام ويحيون الليل بالصلاة في الكنيسة؛ وبعد الانتهاء من الصلاة يأكلون فطرا بعدما يبارك عليه القسيس؛ ويبادلون الزيارات، وكل شخص يذهب إلى أهله، فالخدم يزورون رؤساؤهم و الأحباب يزورون أصدقاءهم ؛ و يكثر في هذا العيد إهداء البيض المنقوش و نحوه ؛ الذي يكتب عليه سكان الروس عقيدتهم المألوفة؛ و هذه الطقوس تحمل رمزية الانتماء للدّيانة المسيحية ؛ و يبدو ا أنّ سكان الروس تخطّوا ما وصل إليه أجدادهم و تحرّروا من التقاليد القديمة؛ و جدّدوا في كيفية الاحتفال بأعيادهم الموسمية بأعياد وتقاليد عصرية تواكب حضارتهم الحديثة.

المسرح في بلاد الروس:

تنّبه الطنطاوي إلى أهمية المسرح ؛و ما يقدم في خشبته من العروض التمثيلية الجادة و الهازلة، لكنّ المسرح في بداياته الأولى عرف باسم التياتر: **" حيث إبتدأ بتربورغ بهمة شاه زادة نتاليا أخت بطرس الكبير؛ وبنى أوّل تياتر من الخشب؛ وكان اللاعبون عشرة و المسيقيون ستة عشر كلّهم من الروس، وأوّل دور لعب في ذلك التياتر تراجيديا يعني رثاء..."[2]**

وقد عرف التياتر في الروس تطورا كبيرا نتيجة تطوّر الأدب؛ حيث انتهج الممثلون بعض خطى الفرنسيون في التراجيديا: **"فصنّف أوّلا سوماروكوف تراجيديا روسية على كيفية التياتر الفرنساوي؛ وسحر أقرانه والقيصرة إليزابيت اعتنت جدّا أيّام تياتر، وقلّما تغيب عن الحضور إذا لعب"[3]**

---

[1]. رحلة الشيخ الطنطاوي الى البلاد الروسية، ص 203.

[2]. المصدر نفسه ، ص 205.

[3]. رحلة الشيخ الطنطاوي الى بلاد الروسية، ص 205، 206.

كان عمل المسرح الروسي في بداياته المبكرة يعتمد على عرض مشاهد التراجيديا التي تعكس تاريخ و حكايات الروس، و كانت تقام العروض بوسائل بسيطة ؛لكن الجمهور تذوّق هذا الفن وتجاوب معه بتزايد عدد المشجّعين.

يعدّ المسرح أحد الفنون الأدبية الأدائية الذي يعتمد أساسا على ترسيخ الأفكار في ذهن الجمهور؛ فهو ليس و سيلة للترّفيه و المتعة وإثارة المشاعر الحزينة ؛بل يعدّ مؤسسة و مدرسة تربوية تهمّ جميع الطبقات الاجتماعية ؛ يتعلم فيها الفرد أصول المعاملات و يصقل شخصيته ؛و ينمّي فكره بتحسين و توطيد علاقاته مع أفراد المجتمع ، فالمسرح يعكس واقع المجتمع المعيش؛ و هو مرآة نرى من خلالها شخصيتنا وتطلّعاتنا ، فهو مظهر من مظاهر تقدّم الأمم و رقيها.

علوم و فنون الروس:

يبدو أنّ الطنطاوي في رحلته حاول أن لايترك شاردة و لا واردة في روسيا دون أن يضمّنها صفحاته القليلة، فجاء الكتاب طافحا بأحوال البلد و بعادات أهله؛ و مظاهر حياتهم، فيرجع أسباب تقدّم الروس في العلوم و الصنائع إلى التنافس مع الدول الأروبية الأخرى: **" لم تنزل الروس يوما فيوما تنافس غيرها من الأوربيين في العلوم والصنائع، حيث تقدمت في ذلك ولهم كما قدّمنا أكديميات للعلوم؛ والتصوير والطب وغير ذلك؛ ولهم المدارس العظيمة مثل المدرسة القيصرية الكبرة المسمّات "الأونيفرستيت" وفيها تتعلّم التلاميذ فرغوا من التعليم اللازم في المدارس الأخرى؛ فيمتحنون للدخول في المدرسة الكبرى، فإن أجابوا دخلوا، وهناك يبقون أربع سنين يتعلّمون الفقه والدين؛ والرياضيات والأدبيات والمنطق وعلم المعادن؛ والطبيعة والجغرافيا؛ والتواريخ والألسن، حتىّ الألسن الشرقية العربي والتركي؛ والتاتاري والفارسي..."**[1]

[1]. رحلة الشيخ الطنطاوي الى بلاد الروسية، ص 216.

لقد برع الروس في علوم كثيرة نتيجة تعدّد المدارس التي هيّأت الجّو المناسب لتلقّي العلوم الحديثة، ويجتاز التلامذة امتحانا ثانيا للدخول في المدرسة الكبرى؛ فيتكوّنون لمدة أربع سنوات يدرسون الفقه والدين، و الرياضيات،و الطبيعة...الخ إضافة إلى تعلّم اللّسان العربي و التركي و الفارسي ونحوه، وهذا يدل على رغبة و إرادة سكان الروس في اكتساب المعارف و الفنون ؛ما أهّل بلدهم أن يكون مركزا حضاريا متقدما.

ويتعجّب الطنطاوي من حال الصمّ و البكم الذين يجيدون الرقص و التّصوير: " و للصّم والبكم الذين يعقلون مدرسة فيها يتعلمون العلوم؛ و التصوير و الرقص و الألسن، لكن لا يتكلمون إلاّ بالإشارة ؛و لكنّهم يكتبون كغيرهم و يرقصون كغيرهم، و من عجيب ما رأيت أنّي حضرت ليلة رقص عند رجل من الصّم البكم، فكان كثير من الراقصين و الراقصات منهم ؛ وكان اللاّعب على القانون أعمى، فصاروا يتعجّبون من كيف يعرف اللعب و لاينظر، وصار يتعجب منهم كيف يرقصون على الموسيقى و هم لا يسمعونها.[1]

لغة الإشارة هي وسيلة التواصل المباشر التي يستخدمها ذوو الاحتياجات الخاصة سمعيا (الصمّ) أو صوتيا (البكم) ؛و الطنطاوي أدهشه الرجل الاعمى الذي يعزف على القانون و لايراه، وهؤلاء الذين يرقصون على الموسيقى وهم لا يسمعونها ؛فالصمّ البكم تجاوبوا مع فنّ الرقص والموسيقى ؛ وتذّوقوا من مرآة الحياة التي عاشوها ؛فانفجرت تلك الطاقات التي تدلّ على قدرة هاته الشريحة الخاصة على اكتشاف عالمهم المّيز؛ و التواصل مع غيرهم عن طريق الخطاب الايمائي و الإشاري.

بيوت الروس ومساكنهم:

يعدّ الترّاث المعماري رمز الحضارة ومقوّم من مقوّماتها الأساسية ، و لكل بلد عمارته الخاصّة بما تحمله من مظاهر جمالية و فنية ؛ظلّت على مّر الزمن تعبرّ عن اسم بلدها و صانعه؛ و بيوت سكان

---

1. رحلة الشيخ الطنطاوي الى بلاد الروسية، ص 217.

الروس ليست متطوّرة إلى حدّ ما فهي: " مبنية غالبا بالحجر و تارة بالخشب لكن مع الاحكام بحيش تقي من البرد و هو أدوار ثلاثة أو أربعة أو خمسة، وفي كل الأدوار حتى في الأول الشبابيك و البيوت التي في الحارات المعتبرة في دورها الاسفل الدكاكين، و الثاني مسكزن بالناس وكل مسكن مستقل وحده، فمثلا قد يسكن في البيت الواحدة عدة عائلات مختلفات كل في مسكنه..."[1]

ويواصل الرحالة حديثه عن بيوت الروس بأنها مجهزة: " و أثاثهم الكراسي من الخشب الأحمر أو خشب الجوز، و ربما بطنوها بالكوخ و نحوه ؛و تارة يعملونها من الحرير ويحشونها بشعر الخيل؛ ثم السفر ؛ و بعضها مستطيل مثل سفرة الكتابة، و السفر الموضوعة أمام المرآة ؛و بعضها مستدير مثل سفر الطعام، ثم المرآة، و في كل أوضة مدخنة محكمة تدفىء كل يوم في أيّام الشتاء، و بسبب ذلك الروس متعوّدون على الدفىء في البيوت.."[2]

وينتقل الطنطاوي إلى وصف البيوت التي تقع في ضواحي بتربورغ ؛وهي ليست كبيوت المدينة، إلاّ انها تخضع لمقاييس خاصة في طريقة تأثيت البيوت: " ومن تحسين البيوت أنّهم لا يلصقون على الجدران أوراقا طويلة عريضة منقشة كلّ على حسب ذوقه، فبعضهم يكتفي بالتبييض بأي لون يعجبه ؛و يعملون للشبابيك زيادة على الستارات البيض ستائر طوال من الحرير؛ أو الجوخ أو الشيت يمسكونها بأيد من التنباك و نحوه؛ وربّما علّقوا على الجدران صورا جميلة، و على سفرهم أشياء لطيفة مثل الشمعدانات و القناديل الفضية أو التنباك ؛و الدمى الظريفة و التحف النفيسة و اللّعب البديعة؛ و ربّما زيّنوا الشبابيك بالأزهار..."[3]

---

1. رحلة الشيخ الطنطاوي الى البلاد الروسية، ص 219.
2. المصدر نفسه،ص219.
3. المصدر نفسه، ص 220.

بيوت سكان الروس مبنية بوسائل بسيطة لكنها في غاية الإتقان و الإحكام ؛و طريقة تأثيت البيت تختلف من مدينة لأخرى؛ فلكل واحد ذوقه الخاص في اختيار ألوان طلاء الجدران التي يحبّها، مع التفنّن في تزيين الشبابيك بالستائر الجميلة و الأزهار، ووضع القناديل أو الدمى فوق السفرة، رغم التطّور العلمي الذي وصلت إليه بلاد الروس في مختلف العلوم و الفنون؛ إلاّ أنّ فنّ العمارة لم يرق الى مستوى الدول الأروبية الكبيرة، فوصف الطنطاوي لبيوت الروس كشف عن واقع العمارة آنذاك؛ الذي مازال متأخّرا حضاريا مقارنة مع ما وصلت العمارة الإسلامية من تنّوع و تطور شمل التصميم الهندسي ؛وفن الزخرفة اللذان يوحيان بالقّيم الجمالية الموجودة في الفن الإسلامي العريق الذي اصطبغ بصبغة دينية.

معيشة الروس:

لم يشر الرحالة إلى الوضع الاقتصادي لبلاد الروس؛ فيما يخص معاشهم و دخلهم اليومي ؛إلاّ أنّه يمضي في ذكر بعض عاداتهم في تناول الطعام الذي تحضّره الخادمة: " **و أكلهم الشوربة ؛ ويحب الروس معيشة الكرنب؛ وقبل الشوربة يشربون العرق قليلا، و ربما أكلوا فسيخا أو جبنا لجلب الاشتهاء؛ ثم بعد الشورية الخضار و نحوه، ثم الكباب ثم الحلو الفطير و نحوه ؛ وفي مدة الطعام يشربون الرّاح كالماء القراح ؛و أكلهم بالسكانين و الشوك و المعالق، وكل يأكل في صحنه، ويأكل بسكينه وشوكته ؛ و يشرب من كبايته و قديحه، فإذا فرغوا من أكل كل شيء غّيرت الصحون و هكذا إلى آخر الطعام، وفي الأعياد يشربون خمر الشامباني على صحة صاحب العيد في أقداح طوال، ثم بعد الغداء يشربون القهوة في أقداح كبار لا في فناجين كفناجيننا بالسكر و الحليب؛ وفي المساء يشربون الحليب أو الليمون أو هكذا ؛ والشاي لازم جدّا في هذه البلاد خصوصا في السّفر، فهو يقوّي البدن و ينعش الجسم...**"[1]

[1]. رحلة الشيخ الطنطاوي الى بلاد الروسية، ص 220، 221.

معيشة الروس لا تختلف عن معيشة الفرنسيين؛ فطريقة تحضير المائدة تخضع لترتيبات معينة، منها تناول الشوربة أولا بعدها تتبع بأكل اللحوم؛ و تختتم بشرب الماء و المشروبات، نلاحظ أنّ الروس يعيشون عيشة رغيدة وهذا يدل على انتعاش إقتصادهم الذي يلبيّ حاجيات السكان، فهذا الوصف لمعيشة الروس ينمّ عن الحياة الاجتماعية الراقية لهذا البلد، فالطعام و طريقة و آداب تقدمه له رموز و دلالات ثقافية أكثر منها مادية؛ كونه وسيلة لتغدية الجسم بغية استمرار الحياة.

لسان الروس:

لم يغفل الطنطاوي لغة الروس، فمن إقامته الطويلة بهذا البلد و احتكاكه بأفراد المجتمع لاحظ أنّ الروس في كلامهم لا يختلفون مع العرب في بعض قواعد اللغة العربية قائلا: **" و لسان الروس غني جدا كالألسنة القديمة و فيه الإعراب كما في لسان العربي، فالمبتدا و الخبر لا تغيير فيها، بل على أصل الكلمة، كذلك الفاعل و المضاف إليه مفتوح تارة والمجرور مخفوض، والمفعول تارة منصوب و تارة كالمبتدأ والمعطى له مضموم... إلى غير ذلك مما فصّل فى نحوهم؛ وفعل الكون لا يستعمل في الحال؛ بل يحذف كما في العربي، فنقول: أنا راض يعني أنا راضي؛ وعندهم علامة المؤنّث في الاسم و الوصف تارة كالعربي مثلا: الكساندره يعني: اسكندره راضه يعني: راضية و تسهل الترجمة من ألسنتنا الشرقية إليه؛ و بالعكس الموافقة في الكثير من المعاني و التصورات ؛و أمثلتهم موافقة لأمثلتنا كثيرا، وفي حروفهم الخاء و عندهم أصوات الحروف الغليظة كالصاد و الطاء، فلهذا يسهل عليهم التلفظ بالعربي أحسن من غيرهم من الأوربيين، وممّا يوافق فيه العربي قولهم للشّخص في الإخبار عن موت الأشخاص" امر لك بالمعيشة زمانا طويلا" وهذا بالكلّية مثل قولنا في هذا المعنى: تعيش، فيه كلمات كثيرة**

أخذت من لسان التاتار و النيمساوي و الفرنساوي ؛و تركيبه سهل فيجوز تقديم الخبر على المبتدأ أو المفعول على الفعل و الفاعل إلى غير ذلك".[1]

اللغة التي يتكلمها سكان الروس هي اللغة الروسية ؛و أنها تشتقّ من اللسان التاتاري والنمساوي؛ و وهذا ما يجعل تعلّم هذه اللغة و ترجمتها أمر سهل لايحتاج إلى تكلّف، وهذه اللغة مقعّدة بحيث يجوز تقديم و تأخير عناصر الجملة دون أن يختل المعنى؛ كما هو جار في لغة العرب.

وصفوة القول إنّ رحلة محمد عياد الطنطاوي إلى روسيا من أجل تعليم اللغة العربية بكلية الألسن بجامعة بتربورغ الروسية أيقظت الفكر العربي ؛و ذلك بالاطّلاع على علوم و فنون الغرب ؛فكانت نصوص الرحلة ثرية بوصف حياة الروس، وعاداتهم و تقاليدهم، ومذهبهم و معتقداتهم.

وركّز الرحالة في رحلته على الحياة العلمية لهذا البلد؛ وما وصلت إليه من رقيّ و تطوّر؛ شمل علوما شتى، كما كان لفن المسرح والموسيقى والرقص نصيب في الرحلة؛ كما شاهدها و عاينها الرحالة بحكم إقامته الطويلة هناك، فرحلة الطنطاوي لا تختلف عن رحلة الطهطاوي إلى باريس في الإنبهار بالحضارة الغربية و مقوّمات تطوّرها.

فالطنطاوي سافر إلى روسيا لتلقين اللغة العربية هناك؛ و الطهطاوي سافر إلى باريس ليؤم البعثة المتوجهة هناك و يتعلّم علوم باريس؛ فالرحلتان تشتركان في ميزة واحدة هي تنوير العقل العربي بتعلّم علوم الغرب. إلاّ أنّ رحلة الطنطاوي حملت قيمة علمية تربوية و أخلاقية، فبحكم ثقافة الرحالة الدينية لم يتأثر ببعض عادات الروس ؛و بقي متمسّكا بمبادئه و مثله العليا؛ ورحلته كانت حلقة وصل وجسرا للتلاقح بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية.

---

[1]. رحلة الشيخ الطنطاوي الى بلاد الروسية، ص 223.

الفصل الرّابع:

المظاهر الحضارية في رحلة العبدري

-المظهر التاريخي

-المظهر الاقتصادي

-المظهر الاجتماعي

-المظهر الثقافي

-المظهر العمراني

-المظهر الفني

رحلة العبدري جاءت ثرية لما تحويه من معلومات جغرافية تاريخية، اجتماعية، ثقافية، عمرانية، وهذا ما سنراه بالتّفصيل عند عرضنا للمظاهر الحضارية التي رصدها العبدري في رحلته، فاعتمد على مشاهداته المباشرة وملاحظاته الدقيقة في نقل هذه الأوصاف على صورها الحقيقية والتّعريف بسيّر الرجال والعلماء، ومن هذه الزاوية غدت رحلته مصدرا مهما لعدد من التراجم المغربية ترجم لها بإسهاب وفق معايير تاريخية وعلمية.

بدأ العبدري رحلته بحمد الله والثناء عليه على جزيل نعمه وكريم فضائله "**أحمد الله تعالى حَمْدَ مُعْتَرِف بالتّقصير، عائذٍ بوجهه الأكرم، وجلاله الأعظم من سوء المصير، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، شهادة تتكفّل لي بالسلامة من كل مَلاَمة وتُضِيء في ظلمتي القبر والقيامة، وتُنير، وأصلّي وأسّلم على سيّدنا محمد نبيّه وخيرته وصفوته....**"[1]

وقد نهج العبدري نفس الطريقة التي تعّود عليها الإنسان المسلم عندما يقدم على سفر أو فعل أي شيء يتردّد في القيام به فيلجأ إلى استخارة الله سبحانه وتعالى حتى يتبيّن له إن كان خيرا أقبل عليه، وإن كان شرّا أحجم عن فعله "**فإني قاصدٌ بعد استخارة الله سبحانه إلى تقييد ما أمكن تقييده، ورسم ما تيسّر رَسْمُهُ وتسويدهُ ممَا سما إليه الناظر المطرق، في خبر الرحلة إلى بلاد المشرق من ذكر بعض أوصاف البلدان، وأحوال من بها القطّان حَسْبَما أدركه الحسّ والعيان، وقام عليه بالمشاهدة شاهد البرهان من غير تورية ولا تلويح، ولا تقبيح حسن، ولا تحسين قبيح بلفظِ قاصدٍ لا يُحْجِم مفردا...**"[2]

بدأ العبدري في تقييد نص رحلته عندما كان في تلمسان ولم يظهرها للناس لأنها كانت غير منتظمة في بعض الأشياء فرأى أنه من الأحسن أن يطلّع عليها الشيوخ الذين لقيهم بمصر حتى

[1]- رحلة العبدري؛ أبي عبد الله محمد العبدري، ص27.

[2]- المصدر نفسه ؛ ص28.

يصوّب ما بها من خطأ أو تحريف **"وهذه الرحلة بدأت بتقييدها في تلمسان، ولم يمكنّي إظهارها هنالك، وأظهرتها بعد خروجنا منها ووقف عليها شيوخنا بمصر وغيرها، وكان شيخنا زين الدّين بن المنيّر حفظه الله يستحسن ما يقف عليه منها، وقد أكمَلْتُها والحمد لله منتظمة على نسقها، ومستنّةً في سننها جارياً معها حسبما جرتْ، مستمليا لها فيما قدّمت وأخّرت حتى أُستُوْفي الغرض المطلوب..."**[1]

المظهر التاريخي:

يقتضي الحديث عن تاريخ بلد ما ؛هو أن يستوفي الوصف تأسيسه من حيث الظروف المحيطة بهذا الأخير؛ باحثين في ذلك عن من كانت له يد أو مساهمة في تخليد أساس هذا البلد كإنشاء عمرانه ؛وإعطائه اسما له سند عريق، والعبدري لمّا خرج من بلده حاجا بنية أداء مناسك الحج، مرّ بعدة بلدان وقرى فوصفها عمرانيا وثقافيا، لكنّه أهمل تاريخ تلك البلدان إلاّ مدينة برقة توقّف عندها وأعطاها لمحة تاريخية:**"وبرقة مدينة قديمة من بناء الرّوم، وكان اسمها عندهم انطابلس قال البكري:"ومعناها بلغة الروم الإغريقية خمس مدن ومعنى أطرابلس ثلاث مدن" وليس هناك مدينة تسّمى برقة ولا مدينة مذكورة إلاّ طلميثة وهي قديمة، ولست أدري أهي برقة فغيّر اسمها ثانيا إلى طلميثة كما غيّر أوّلا إلى برقة أم هي غيرها؟".**[2]

العبدري يصرّح بأنّ مدينة برقة بناها الروم قديما، ويتساءل عن اسمها الحقيقي، ونرى أنه يضمّن في نّصه أقوال البكري ليتأكد من صحة المعلومات التي حصل عليها بشأن هذه المدينة.

---

[1]- رحلة العبدري، ص39.

[2]- المصدر نفسه، ص 205، 206.

أهرمات مصر وبرابيها:

شاعت حول أهرامات مصر ومعابدها أقاويل وافتراضات كثيرة اعتنقها الرحالة والمؤرخون القدماء، وبعضهم آمن بهذه الأساطير حيث تركوا لنا سيلا من الافتراضات، تتناقض فيما بينها خصوصا عندما تتعلّق الأسئلة بمن بنى هذه الأهرامات؟ ولماذا بنيت؟ وكيف بنيت؟ هذه الإشكاليات فتحت الباب على مصراعيه أمام علماء التاريخ والآثار وحتى الرحالة أنفسهم أضناهم البحث المستمرّ في هذه المضمار، فكثرت الأقاويل والخرافات واثبتوا دهشتهم الشديدة وانبهارهم بتلك الأوصاف التي قد تعتبر الشيء الوحيد المعقول من بين أقوالهم الأخرى، والعبدري هو الآخر يقدّم لنا جانبا تاريخيّا عن بناء هذه الأهرامات قائلا: **أمّا أهرامها وبرابيها فمبان عجيبة في غاية الغرابة مضمّنة من الحكمة وغرائب العلوم ما صار أعجوبة على وجه الدّهر، وبين النّاس تنازع في أوّل من بناها، وفي أي شيء قصد بها، ولهم فيه خوض كثير؛ وقد ذكر القاضي صاحب الطبقات:" أنّ جماعة من العلماء زعموا أنّ جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان إنّما صارت عن هرمس الأوّل الساكن بصعيد مصر الأعلى، وهو الذي يسمّيه العبرانيون خنوخ وهو إدريس النبّي عليه الصلاة والسلام، وأنّه أوّل من تكلّم في الجواهر العلوية، والحركات النجومية، وأوّل من بنى الهياكل، ومجّد الله تعالى فيها، وقالوا: إنّه أوّل من أنذر بالطّوفان، ورأى أنّ آفة سماوية تلحق الأرض من الماء أو النار فخاف ذهاب العلم ودروس الصنائع فبنى الأهرام والبرابي التي في الصعيد"**[1] ويواصل العبدري حديثه عن هذه الأهرامات وعن سبب بنائها معتمدا على أقوال البكري في ذلك قائلا:" **وذكر البكري أنّ شونيد بن سهلوق ملك مصر قبل الطوفان رأى رؤيا هالته، وحملته على بناء الأهرام بالصّخور، وأعمدة الحديد والرّصاص، بأمر المنجّمين لتكون حفظا**

[1]- رحلة العبدري؛ ص315.

لجثّته، وجثث أهله، ومستودعًا للعلوم من آفة الطّوفان، واختير لها موضع بقرب النّيل في الجانب الغربي".[1]

لقد اختلفت الآراء بخصوص أوّل بن بنى هذه الأهرامات والبرابي (المعابد) حسب اعتقادات البكري ؛ونرى أنّ المؤرخون يرجعون سبب بناء الأهرامات إلى معتقد ديني تمثل في رؤيا رآها ملك مصر، فنتج عنها بناء الأهرامات خوفا من الطوفان الذي أصبح في فكر المصريين رمز للدّمار والضياع، وبالتالي ارتبطت قصّة الأهرام بمرجعية دينية، كما كانت الأهرامات تشغل فكر المصريين، فقد اكتنزوا فيها علومهم النافعة ؛وفنونهم وأموالهم ؛وادّخروها لمن يأتي بعدهم، وينجح في حلّ طلاسمها وقراءة رموزها فالأهرامات هي رمز للحضارة المصرية القديمة.

المظهر الاقتصادي:

تقديم البلاد اقتصاديا يقتصر على بعض الأمور منها الزراعة والصناعة والتجارة، والثروة الحيوانية، والعبدري في رحلته هذه التي قطع فيها أشواطا كبيرة، ومرّ على مدن ومناطق كثيرة فوصفها عمرانيا وركّز على الجانب الثقافي فيها ؛إلاّ أن الجانب الاقتصادي كان حاضرا بقلة في نصوص الرحلة التي تناولت دراسة المناطق التي زارها ربّما لأسباب نجهل حقيقتها، فلّما نمعن النظر إلى مناطق الحجاز فنجد بعض أراضيها فقرة لا ينبت فيها الزرع، باستثناء مدينة ينبع التي تميّزت ببعض الغلاّت الزراعية كالتمر: " **وللرّكب في ينبع سوق كبير، والتمّر فيه كثير، ومنه يتجهّز من نقصه شيء من زاده إلى مكة".**[2]

يعتبر التمر مصدر عيش سكان ينبع فهو الثمرة الوحيدة التي تنبت في هذه المدينة لوجود الماء بكثرة وطبيعة المناخ المناسب لزراعة التمر، لذلك يتم بيعه بكميات كبيرة في سوق كبير يلتقي فيه

---

[1]- رحلة العبدري؛ ص317.

[2]- المصدر نفسه ؛ ص 345.

التّجار من مناطق مختلفة لاقتنائه، كما يجلب التمر إلى مكة باعتباره زاد الحاج فهو غذاء كامل لاحتوائه سعرات حرارية تساعد الإنسان في الحفاظ على طاقته.

وينتقل العبدري للحديث عن سوق بدر التي تبعد عن ينبع بمسافة يومين، ويباع في هذه السوق التمر وعلف المواشي:" **ويقوم في بدر سوق كبير أيضا، لأنّ اهلها ومن جاورهم إلى المدينة يتحيّنون وصول الرّكب فيستعدّون لذلك ويحضرون ما يبايعونهم به من تمر وعلفٍ وجمال وغير ذلك**"[1]

سوق بدر لا تختلف عن سوق ينبع في بيع التمور التي تكثر زراعتها بهاتين المنطقتين، والتجّار في سوق بدر ينتظرون وصول ركب الحّجاج لعرض سلعهم وبيعها من تمر وعلف وجمال.

وغير بعيد عن سوق بدر، هناك سوق يبعد عنه بمسيرة ثلاثة أيّام وهو يوجد بمنطقة البزواء[2] وهي منطقة مهجورة يصعب فيها العيش لقلّة الزرع والماء، إلاّ أن التجّار يلتقون في هذه المنطقة ويعرضون سلعهم من تمر وغنم:" **وفي تلك الجهة عربان كثيرة تقيم مع الرّكب سوقا عظيمة، ويجلبون إليها التمر والغنم فيتّسع العيش ويرخص**".[3]

بالرّغم من وجود البزواء في مكان مقفر، إلاّ أنّها مثّلت موقعا تجاريا هاما لالتقاء التجّار بها، ما يسّهل عملية البيع والشراء.

[1]- رحلة العبدري؛ ص345، 346.

[2]-البزواء: طريق في طريق مكة قريب من الجحفة، انظر ياقوت الحموي في معجم البلدان، 1/ 411.

[3]- رحلة العبدري؛ ص 349.

وينتقل العبدري للحديث عن سوق كبيرة توجد في نواحي المسجد الحرام، وتعد من أكبر الأسواق الموجودة في مكة:" **وفي داخل المسجد الحرام عند باب بني شيبة سوق كبيرة بأنواع المبيعات، من أكثر الأسواق زحاما ولغطا**"[1]

من خلال هذا النّص للرحالة نفهم أنّ بلاد الحجاز في تلك الحقبة كانت مزدهرة اقتصاديا وهذا ما فسّرته كثرة الأسواق التي تعرض مختلف المنتوجات ما جعل سكان مكة يتزاحمون إلى هذه السوق لقضاء حاجياتهم.

وغير بعيد عن المسجد الحرام نجد عرفة التي اشتهرت هي الأخرى بتنوع منتوجاتها التي تجلب من الأماكن المجاورة يقول العبدري في ذلك:" **ويكون بعرفة سوق كبيرة يجلب إليها كلّ شيء ويكثر بها الطّعام، يأتي به قوم من ناحية اليمن يقال لهم: السّرو**"[2]

تنّوع المنتوجات الاقتصادية بعرفة والذي تترجمه السوق الموجودة هناك يوحي بحركة اقتصادية نشيطة وأنّ عرفة تحتلّ مركزا تجاريّا كبيرا في ضواحي شبه الجزيرة العربية.

ومارس بعض الرحالة التجارة وعملية التصدير فقد أشار العبدري إلى أنّه كان يحمل القمح لبيعه في مكة المكرمة:"**وكان الواحد من التونسيّين الذين سكنوا الدّار التي اكتريتها قد تخلّف بمكّة، فلمّا أذن لهم في الخروج باع أكثر القمح الذي تركته بمكة، وجاءني بثمنه والدّابة التي ركبتها.**"[3]

---

[1]- رحلة العبدري؛ ص 372.

[2]-المصدر نفسه، ص389.

[3]- المصدر نفسه، ص393.

المظهر الاجتماعي:

لم يكتف العبدري في رحلته بوصف الآثار العمرانية، والحياة العلمية للبلدان التي زارها، بل انصبّ اهتمامه كذلك على وصف حياة الناس وما يتخلّلها عن عادات وتقاليد تختلف من منطقة لأخرى. ومن زيارته لمدينة برقة يظهر نفوره من هذا البلد، وعادات أهله القبيحة قوله:" **ومن العجب عندهم أنّ كل امرأة لا بد لها من خِرقة تسدلها على وجهها ويسّمونها البرقع، وهي تتخلّل الناس مكشوفة الرأس والأطراف، حافية القدمين لا تهتم بستر ما سِوى وجهها كأنّ ليس لها عورة سواه، فلا تزال تلك الخِرقة عرضة للاتّساخ ومرصدًا لعارض الأوساخ لا تُصان فَتُماط**".[1]

إنّ هذه العادات منافية تماما لتعاليم الدّين الإسلامي، الذي أبَاح للمرأة كشف الوجه واليد، وما دون ذلك هو عورة يجب سترها؛ والعبدري ظهر بصورة الرجل الفقيه المتدّين الذي يرفض ما يشين لحضارة الإسلام ويطعن في قدسية القرآن.

وفي موضع آخر نجد الرحالة يقرّ بالأخلاق الحميدة التي اتّصف بها سكان برقة:"**إنّهم يقرّون النزيل ويوالون المنفضّ بالجميل ولا معترض للحاج عندهم، وإن كان فهو قليل**".[2]

هذه شهادة حق في سكان برقة الذين تعّودوا على إكرام الضيف ومعاملة المسيء بالحسنة، وعدم التعرّض للحجّاج، وإن صدر هذا الفعل فيأتي من فئة قليلة.

فصاحة عرب برقة:

اللغة هي ظاهرة اجتماعية ووسيلة للتواصل مع الآخرين ورحالتنا كان حريصا على تتبّع حياة الناس الذين خالطهم ومن زيارته لمدينة برقة انبهر لفصاحة سكانها:" **وعرب برقة اليوم من أفصح**

[1] – رحلة العبدري؛ ص204.

[2] –المصدر نفسه، ص203.

عرب رأيناه، وعرب الحجاز أيضا فصحاء ولكنّ عرب برقة لم يكثر ورود النّاس عليهم، فلم يختلط كلامهم بغيره وهم إلى الآن على عربيّتهم لم يفسُد من كرمهم إلاّ القليل ولا يُخلّون من الإعراب إلاّ بما لا قَدَرَ له بالإضافة إلى ما يعربون".[1]

ومن أمثلة فصاحتهم ما ذكره قائلا:" **ورأيت أعرابّيا منهم قد ألحّت عليه إمرأة تسأله من طعام معه فقال لها:والله ما تذوقِيْنَهْ، فأتى بضمير المخاطبة على وجهه، وأثبت النّون وسكّن الهاء".**[2]

الرحالة لم يقصّر في حق أهالي هذه المنطقة فسجّل إعجابه بفصاحتهم التي حافظوا عليها بعدم خلط كلامهم مع لهجات أخرى كما ذكر تمكّنهم من قواعد اللغة العربية خصوصا الإعراب.

أخلاق سكان الاسكندرية:

نظرا لسوءًا أخلاق سكان الإسكندرية، وما امتلأت به نفوسهم من حقد وضغينة لدرجة أنهم عاملوا الغريب معاملة سيئة:" **حسبك ببلد أربي في الحُسن على البلاد، وله من الفضيلة كلّ طارف وتلاد وليس به من أهل الفضل إلاّ آحاد قلّوا عددًا"**[3]

رغم جمال الإسكندرية وحصانتها إلاّ أنّ سكانها تجرّدوا من لباس الفضيلة وهذا راجع إلى مرض نفوسهم التي طبعت بطابع الحقد إلاّ أنّنا نجد فئة قليلة تعدّ على الأصابع تتحلّى بالأخلاق الحميدة ويكنّيهم بأهل الفضيلة.

ومن الأمور التي يستغربها أيضا في سلوكهم ويعتبرها من الشناعة والقبح ما يتعرّض له الحجّاج على أيديهم من أذى وتفتيش رجالا ونساء بحثا عمّا بأيديهم فيلزمونهم بأنواع من المغارم ويذيقونهم

[1]- رحلة العبدري؛ ص206.

[2]-المصدر نفسه، ص 207.

[3]-المصدر نفسه، ص215.

ألوانًا من الهوان، ممّا جعل العبدري ينفي وجود أناسٍ في أيّ بلدٍ من البلدان بهذه الضعة وقسوة القلوب قائلا:"**وما رأيت هذه العادة الذّميمة، والشيمة اللّئيمة، في بلد من البلاد، ولا رأيت في النّاس أقسى قلوبا، ولا أقلّ مروءة وحياءً ولا أكثر إعراضًا عن الله سبحانه، وجفاءً لأهل دينه من أهل هذا البلد، نعُوذ بالله من الخذلان**".[1]

ويتعجّب من الأخلاق الوضيعة التي يتصّف بها بعض سكان الاسكندرية من مهاجمتهم لحجاج بيت الله كإهانتهم ونهب أموالهم وهذه الصفة الذميمة لم يرها العبدري في أيّ بلد حلّ به إلاّ في الاسكندرية ما جعله يتحامل على سكانها ويصفهم بحقارة واستهتار، ويورد في هذا المجال بقصيدة طويلة كان ابن جبير قد نَصَح بها صلاح الدين الأيوبي ودعاه إلى رفع هذه المغارم عن الحجّاج وممّا جاء في هذه القصيدة:

وقد بقيت حسبة في الظلوم وتلك الذّخيرة للذاخـــر
يُعنّف حجّاجَ بيت الإلـــهِ ويسطو بهم سطوة الجائرِ
ويكشف عمَا بأيديهـــــم وناهيك من موقف صاغرِ
وقد اوقِفُوا بعدما كُشِفــوا كأنّهم في يد الآســـــر
ويلزمهم حلفًا باطـــــلا وعقبَى اليمينِ على الفاجرِ[2]

ومع كلّ هذا فإنّه يعلق بأنّه رأى بالاسكندرية:"**أفرادًا من أهل الفضل علما ودينا، وددت لو منحت في ذكر فضلهم قلبا حافظا ولسانا مبينا، فمنهم من استكتمَني اسمه وعاهدني على ألاّ اذكر رسمه، عملا على منهج زهده، ومحجّة تقواه وصونا للآخرة أن يشوبها حظّ لغير الله**".[3]

[1]-رحلة العبدري، ص216.

[2]- المصدر نفسه، ص220.

[3]-المصدر نفسه، ص 228.

هذا يدل على أنّ العبدري كانت له صلة وثيقة بشيوخ وعلماء الاسكندرية في أخذ المرويات والأسانيد عنهم مما حذا به إلى اعتبارهم أفضل الناس علما ودينا.

هجاء سكان القاهرة:

يبدو أنّ سكان القاهرة لا يختلفون عن سكان الاسكندرية في اتَصافهم بالأخلاق الوضيعة، إذ عدّد كل ما يتّصفون به من أسوأ الصفات وأقبحها كالشقاق والحسد والغش ، وهكذا ينفي عن أهلها كل فضيلة قائلا:"**وما رأيت بالمغرب الأقصى والأندلس على شكاسة أخلاقهم، ولا بإفريقية وأرض برقة والحجاز والشام فريقا من النّاس أرذل أخلاقا وأكثر لوْمًا وحسدًا ومهانة نفوس، وأضعف قلوبا، وأوسخ أعراضا وأشدَّ دمامة وخيانة، وسرقة وقساوة وأجفى للغريب من أهل هذه المدينة المؤسّسة على غير التقوى**".[1]

إذا فرغم أنّه شاهد أراذل النّاس في البلدان التي دخلها، لكنّه لم يَرَ مثل القاهريين بما هم عليه من خبث الطوية وحقارة النفس ودناءتها:"**فمن أظهر منهم نسكا فأحبولة نصبها للصيد ومن تعلّم علما فحيلة أرادها للكيد**".[2]

ومن الصفات التي استقبحها العبدري في سكان القاهرة عدم اهتمامهم بالمساجد وعدم مواظبتهم وحرصهم على نظافتها:"**ومن الغرائب عندهم تضييع المساجد والجوامع وإهمالها، وقلّة التحفّظ حتى تصير مثل المزابل. وتسودّ حصرها وحيطانها من الأوساخ وقد صليت الجمعة في بعض جوامعها، فرأيت فيه أكواما من أنواع الكنّاسات**".[3]

[1] - رحلة العبدري؛ ص279.

[2] -المصدر نفسه، ص277.

[3] - المصدر نفسه، ص280.

ما رآه العبدري في سكان القاهرة من أخلاق وضيعة حتى وصل بهم الحدّ إلى عدم العناية بالمساجد باعتبارها مكانا للعبادة للتقرّب إلى الله عزّ وجل، وهذا يدل على ضعف الروابط الروحية عند سكان هذا البلد، فما سبب تحامله على أهل القاهرة بهذا الشكل القاسي؟ هل السبب يكمن فيما ذكره نفسه عن أخلاقهم من بغضهم للغريب وعدم اهتمامهم به؟ ربّما كان هذا ما أثار حفيظة العبدري، ووقوفه منهم هذا الموقف المتشدّد خاصّة وأنّه قد عاين ذلك وعاناه، فلقد حضر مع سكان القاهرة صلاة عيد الفطر، فلم يسمع منهم كلمة تأنيس بل نبذوه وتركوه وحيدا، فاستشعر الغربة والبعد عن الأهل لأول مرّة ممّا جعله يقول أبياتا شعرية:

ذكرت بيوم الفطر في مصر إذ أَتَى وقوس النوى ترمي الحشى أسهم الكرب

فراخا نأى أنسى بنأي محلّهـــم وصحبا كرامًا ضمّهم أفق الغـــــرب[1]

الاحتفال بعيد الفطر:

أمّا صلاة العيد فيصف الاحتفال بها في مدينة القاهرة:"**وكان وصولنا إلى هذه المدينة في أخريات رمضان فأتممنا الشهر بها، وصلّينا معهم صلاة العيد، وهم يصلّونها في المساجد وبعضهم في ساحة تحت القلعة وسط البلد، ولا يبرزون لها كما وردت به السّنة**"[2] ولم يفصّل لنا مظاهر احتفال المصريين بعيد الفطر مثلما يفعل عامة الناس في تجهيز ملابسهم الجديدة وتحضير بعض أنواع الحلوى، بينما يسهر الاتقياء منهم في الاستماع إلى القرآن الكريم مع المواظبة على الأذكار وفي الصباح يذهبون إلى المساجد لأداء صلاة العيد بعدها يتوجّهون إلى زيارة الأقارب ومساعدة الأيتام والمساكين وهذه الصفات النبيلة جُبل عليها المسلمون اقتداء بسنة الحبيب المصطفى صلوات الله عليه.

[1]- رحلة العبدري؛ ص280، 280.

[2]- المصدر نفسه، ص280.

ومن عادات المجتمع المصري والتي انتقدها الرحالة أكل الناس في القاهرة في الأسواق:"**ومن المألوف عندهم الأكل في الأسواق والطرقات والمحافل**"[1] وفي موضع آخر يقول:"**وكنت نزلت بالمدرسة الكاملّية، منها في علّو مشرف على السوق فكنت فلّما أرقد إلاّ منغصّا لصياح الباعة، وهم يبيعون طول اللّيل، وقلّما يكون طعام الشريف منهم والوضيع إلاّ من السوق والضغط على ذلك**".[2]

وهذه العادة ليست غريبة على المجتمع المصري، فقد اعتاد النّاس في مصر في تلك العصور على عدم طهي الطعام في منازلهم، وإنّما يشترون ما يلزمهم من طعام الباعة، ويرجع سبب الأكل في الأسواق وشراء الطعام من هناك لقلة الوقت، كما أنّ النساء المصريات يعملن لاكتساب أرزاقهن لذلك يلجأ الرجال إلى شراء الطعام جاهزا من السوق.

فإذا كان العبدري قد استنكر هذه العادة لدى المصريين ربّما يكون ذلك بسبب عدم وجود هذه العادة لدى المغاربة في بلادهم، وربما بسبب أصوات الباعة التي منعته من النوم ما جعلته يهجم على سكان مصر ويسقط عليهم وابل من الانتقادات.

ثمّ ينتقل للحديث عن أناس لقيهم إثر خروجه من مصر في البريّة وهي بين الحجاز ومصر ووصف قومها بالخشونة وشدّة الغضب قائلا:"**وفيها قوم من العرب، صعاليك ينتقلون فيها من موضع إلى موضع ما لهم قوت إلاّ ما يمتارونه من بعيد فهم الدّهر كلّه في جهد وفرط شظف، وقلّما يظهرون للرّكب لخبث أفعالهم، وعدم ما يعاملون به، وإنّما يتطرّفون الرّكب، ويطالعونه من كلّ مرقب، فإذا رأوا متخلّفا عنه لغفلة، أو نوم، أو انقطاع عجز انقضّوا عليه فمزّقوا أشلاءه، ولو لم يجدوا عليه إلاّ خرقة واحدة لم يتركوها له ، ولولا صاحب مصر وما ألهمه الله**

[1]-رحلة العبدري؛ ص282.

[2]-المصدر نفسه، ص281.

من الاعتناء بالرّكب وإخراج الحصّة معه بأمير على أكمل ما يكون من الاستعداد والتّأهَب ما سلك أحد تلك البرية لطولها وخلائها إلاّ من القطّاع".[1]

هذا المصطلح الذي أطلقه العبدري (الصعاليك) على قطاع الطرق الذين لقيّهم يذكرنا بالحياة الجاهلية التي عاشها العرب في ظل مجتمع مهمّش يغلب عليه الطابع القبلي إضافة إلى الوضع الاجتماعي والاقتصادي المتمثل في الفقر وضعف العلاقات الاجتماعية ما ولّد طبقة من الناس يمتهنون مهنة السلب والنهب، والتعدّي على حرمات الغير حاملين اسم الصعاليك يتمركزون في الفيافي، يرسمون خططا لتحقيق أهدافهم معتمدين على مبدأ القوة، والعبدري اندهش لوجود هذه العيّنة من النّاس في ظّل مجتمع مسلم يدعو إلى التكافل والتراحم وعدم أخذ حق الآخرين، فهؤلاء الصعاليك جبلوا على الإغارة وأخذ الغنيمة حتى ولو كان الهدف المقصود حجّاج بيت الله، ونفهم من نصّه أنّ السفر في زمانه كان صعبا ومتعبا خصوصا وأنّ الطرق التي كان يسلكها الحجّاج لم تكن مؤمنّة ومعبّدة فكم من رجل تاه في الفيافي، وكم من شخص لقي حتفه على يد قطّاع الطرق.

ومن العادات التي نبذها إثر تواجده ببدر أنّ الحجّاج يتمسّحون بحجر موجود بهضبة ويتزاحمون في الوصول إليه ويقولون أشياء ويصنعون أخرى اعتقادا منهم أن في هذا الحجر بركة، وقضاء الحاجات جاء في قول العبدري:**"وفي غربي المقبرة المذكورة هضبة وبها نُصْبٌ، والحجّاج يتمسّحون به، ويتطارحون عليه، ويكثر زحامهم عنده ويتكلّفون الصّعود منه إلى أعلى الهضبة، فيقاسمون فيه شدّة لضيقه، وقلّما يتخلّص منه الصّاعد فيه حتّى يأخذ بيده شخص آخر على الهضبة، ويذكرون في ذلك أشياء ما لها أصل، وكذلك يصنعون في موضع آخر قريب من بدر، على يمين الطّريق في هضبة بحرف الوادي، وهنالك شبه غار، ويذكرون تخرصّا أنّه الغار الذي دخله رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر رضي الله عنه، حين هاجرا من مكة، وذلك**

[1]-رحلة العبدري، ص330، 331.

باطل فإنّ الغار المذكور بجبل ثور، قريبا من مكّة وفي ناحية الجنوب منها وهو أشهر وأعرف من أن يُعرّف به".[1]

إنّ المتتبّع لمحطّات العبدري في إنتاجه لهذا النّص يلحظ نبذه لبعض التصّرفات التي تصدر عن بعض الحجيج، والتي يراها حسب رأيه طقوس لا تمّت إلى الإسلام بصلة، ونلمس حكمه على هذه التصرّفات من خلال تسميته لهذه الأشياء بالنصب، لأن لفظة نصب نجدها في قاموس الدّيانات الأخرى غير الإسلام، وربما قام الحجيج بلمس هذا الحجر اعتقادا منهم أنّه يحمل أسماء شهداء بدر، أو أنّه قامت غزوة بدر في هذا المكان الذي يحمل الحجر لهذا قاموا بهذه الطقوس تبرّكا لأنّهم ورثوا هذه الصفات وتوارثوها جيلا بعد جيل.

ومن جملة الغرائب التي أثارت اندهاش العبدري إثر تواجده بمكة خصوصا أمام الحجر الأسود، تزاحم الناس حول هذا الركن لدخول الكعبة، ما أدّى بهم إلى استخدام القوة من ضرب وعنف، وقد عبّر عن ذلك بقوله:"**قلت : ولم ير عبرة من لم ير قتالهم على الرّكن الأسود، وعلى دخول الكعبة، ترى الرّجال يتساقطون على النّساء، والنساء يتساقطن على الرّجال، ويلتفّ البعض بالبعض، ويتأهبّون للقتال، ويستعدون للدّفاع والملاكمة، وقلّما يتمكّن أحدهم من الركن فيفارقه حتّى يثخن ضربا، ويكونون في الطواف فإذا جاؤوا إلى الرّكن تركوه إلى البدعة وما لا يعني، فبعضهم في التزام الحجر وقطع الوقت به لثما ولحسا، وبعضهم في صبّ العفونات عليه، ومحاولة تنحيته وباقيهم يتقاتلون على الدّنّو منه، ويشاهد هنالك من المناكر مالا تحصره عبارة".**[2]

---

[1]-رحلة العبدري، ص347.

[2]- المصدر نفسه، ص370، 371.

ويواصل حديثه عن بعض البدع التي أحدثها الحجّاج أمام باب الكعبة من ازدحام وشجار قائلا:"**وأمّا قتالهم على باب الكعبة، وتطارحهم وتعلّق بعضهم ببعض فعجب، وذلك أن الباب مرتفع أزيد من القامة، وفيه قوم وقوف تنثال عليهم الدنانير والدّراهم بلا حساب حلوانا على دخول البيت، فإذا أدلوا شخصا من الأرض تعلّق به آخرون فتراهم سلسلة أوّلها في الكعبة وآخرها في الأرض ورأيت رجلا ينزو ليجد ما يتعلّق به، فصادف ساق امرأة فقبض عليه من أعلاه، وتعلّق مباشرة من غير حائل**".[1]

العبدري لا يفوته انتقاد أمثلة كثيرة لما أحدثه الحجّاج من مضايقات تبعها الازدحام والمضايقة لشرب ماء زمزم وهذا ما يترجمه النص الآتي:" **وتراهم في قبّة زمزم يتقاتلون على الماء، ويأخذ أحدهم الدّلو فيصبّه على نفسه بثيابه، حتى لوّثوا الموضع، ويتقوّلون في ذلك أشياء ما لها وجود مثل زيادة الماء في ليلة الجمعة، وهو أمر مشهور عندهم، وقد ذكر ابن جبير في رحلته أنّه قاسه في ليلة الجمعة– وهم يتقاتلون عليه وقت زيادته بزعمهم– فوجده على حاله**"[2]

لعل منشأ هذه البدع التي اختلقها بعض الحجيج بالحرم المكّي ترجع إلى جهلهم، وعدم اطّلاعهم على مناسك الحج كما شرّعها الإسلام وشرحتها السنة النبوية الشريفة، وفي كّل مرة يرجع إلى الاستناد بأقوال المؤرخين والرحالة الذين سبقوه إلى زيارة هذه البقاع المقدسة، ومن ذلك ما أكدّه ابن جبير أنّ ماء زمزم لا تزيد كميته ليلة الجمعة كما زعم بعض الحجيج، ويرى العبدري أنّ هذا الزعم باطل لا أساس له من الصّحة.

بالرغم من المتعة النفسية التي كان يحّس بها العبدري وشعوره بالغبطة والسرور وهو يدخل البلد الأمين (مكة) فإنّه مع ذلك لم يتخَلَ عن حاسته النقدية في وصف أهل مكة الذين وجدهم يرمون

[1]- رحلة العبدري؛ ص371.

[2]-المصدر نفسه، ص371.

القمامات والأشياء النتنة في المساجد دون رادع أخلاقي:"**وبُودّي لو أتاح الله لهم محتسبًا يذيقهم النّكال، فإن حرّم الله أولى المواضع بالهيبة، ولزوم السّكينة وقد أسقطوا بجهلهم وجفائهم حرمته، حتى أنّ منهم من لم يُبالِ بِالبُصاقِ وقتل القمل فيه، وإلقاء الوسخ في داخله، وقد دخلت مسجد دار النّدوة، فوجدته ملآن من الأوساخ والقمامات**".[1]

وراح يكشف عن موضع آخر دنّسته أيادي أهل مكة برمي القذارة والنفايات بإحدى مساجد منى:"**ورأيت بمسجد الخيف– طهّره الله– بمنى من قلّة تحفّظهم ؛وكثرة تهاونهم ؛ما يتغيّر له قلب كلّ مؤمن ورأيت في داخله العذرة وأنواعا من الكناسات والأقذار، ورؤوسا مطروحة، وجزارة أنتن بها المسجد، وهم يوقدون فيه النّار حتى اسودّت حيطانه وصار كالمطبخة**".[2]

يقف العبدري وهو يصف لنا طبيعة الحياة التي يعيشها بعض سكان مكة وهم يلطّخون المساجد بأنواع القمامات موقف الرجل المتدّين، الواعظ، الرافض لكل ما يسيء ويشين إلى مقدّسات المسلمين، فحاول أن يغيّر من طباع هؤلاء الناس ؛ويظهر بصورة النّاصح لكن محاولته باءت بالفشل، وهذا ما عبّر عنه بقوله:"**فكلّمتهم فقابلوني بالجفاء وانصرفت**".[3]

بعض سكان مكة يتّصفون بالغلظة والجفاء، وطبعهم صعب ليس من السّهل التعامل والتفاهم معهم، حتى وصل بهم الأمر إلى انتهاك حرمة المساجد.

ومن الأشياء التي عايها وهو بمكة عندما صعد جبل ثور فشاهد الحجّاج يقومون بطقوس دينية ليست من عرف ولا من شريعة المسلمين:"...**وذلك انّه غار له بابان في حجر صلد وأحدهما ضّيق أقلّ من شبرين فيتكلّفون النفوذ فيه، وشاع من جهلهم أنّ من لم ينفذ فيه فهو ولد زِني،**

---

[1]- رحلة العبدري؛ ص371، 372.

[2]-المصدر نفسه، ص372.

[3]-المصدر نفسه، ص372.

وتقرّر في معتقدهم الفاسد، فلا تزال الفضيحة تعلّق بهم من ذلك، والعقلاء منهم يتجنّبونه، لأنّ من غصّ فيه ولم ينفذ منه، يحكمون عليه بما تقدّم".[1]

من خلال هذا النّص نفهم أن العبدري كان شاهد عيان لِمَا رآه من تصرّفات الحجّاج التي أثارت غضبه من اعتناق هذه الطقوس التي لم ترد في القرآن ولا في السنة النبوية، فغار ثور هو مكان مقدّس لجأ إليه الرسول عليه الصلاة والسلام وصاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه عندما طاردهم كفّار قريش فكيف لهؤلاء الحجّج الذين يحاولون اختراق ودخول الغار من بابه الضّيق وهذا أمر صعب بحجّة أنّ من لم يدخل الغار يعتبر ولد زِنى وهذا يعكس ظلالهم وجهلهم وعدم وقوفهم على دراسة مناسك الحّج على وجهها الصحيح، فربما ورثوا هذه العادة أبًا عن جدّ، والناجون من الحجّاج يمتنعون ويتجنّبون هذه الطقوس لحِلمهم وحنكتهم. وغار ثور هو إحدى المعالم التاريخية المقدّسة التي ترمز إلى سيرة النبي عليه الصلاة والسلام في بناء دولة إسلامية عظيمة.

المظهر الثقافي:

من خصائص فّن الرحلة الاهتمام بالناحية الثقافية كغاية مقصودة يهدف إليها الرحالة وهو يقوم برحلته كي ينمّي معلوماته وينهض بمستواه العلمي عن طريق الاتصّال بكبار العلماء والفقهاء والشيوخ وأساطين المعرفة.

بدا العبدري بارعا في عرض صورة واضحة المعالم للبيئة العلمية في المدن التي كانت ضمن خط سير رحلته، فقد حرص على تتبّع الحياة الثقافية في كل بلد وطأته قدماه، ووصف اللقاءات والمجالس العلمية التي كانت تعقد بينه وبين كبار الشيوخ والعلماء كما ذكر المدن التي تردّى فيها العلم وتراجع الاهتمام به وقلّ وجود العلماء، وأُهمل الإقبال عليهم، ومن ذلك تنديده بضعف العلم في بلاد القِبْلة المجاورة لمنطقة أنسا قائلا:**"وهي بلاد مات فيها العلم وذكره حتّى صارت العادة في أكثرها أنّهم**

[1]- رحلة العبدري؛ ص391.

لا يتّخذون لأولادهم مؤدّبا، ولا تسمع في مساجدهم تلاوة وإذا طرأ عليهم من يحفظ من القرآن آجروه على الإمامة، و يواظبون على الصلاة في الجماعة، إذ لا يحفظ منهم أحد ما يصلّي به إلاّ النادرَ..."[1]

نرى العبدري يشعر بالألم والخيبة بسبب سوء الحالة العلمية بهذا البلد، فمن المؤسف ألاّ يحفظ أحدهم من القرآن ما يستطيع أن يقيم به صلاته.

الحياة الثقافية في تلمسان:

كان العبدري إذا دخل مدينة فلم يعثر فيها على عالم سَخَطَ وأبدى من أجل ذلك أسى كبيرا وأسفا عميقا، واعتبر ذلك المكان كأنّه معدوم بالمرّة، مثل تلمسان التي يعتبرها خالية من العلم والعلماء كما جاء في قوله:" **وأمّا العلم فقد درس رسمه في أكثر البلاد وغاضت أنهاره فازدحم على الثماد، فما ظنّك بها وهي رسم عفا طلله، ومنهل جفّ وشله"**[2]

نلاحظ أنّ العبدري يّوجه نقدا لاذعا لعلماء تلمسان ويرى أنّ هذه المدينة تفتقر إلى العلم والعلماء، إلاّ اننّا نجد غيره من الرحالة زار تلمسان ونوّه بمكانتها العلمية ؛ومن هؤلاء الذين أنصفوا علماء تلمسان، الرحالة القلصادي الذي عظّم من دورهم المعرفي قائلا:" **ثم توّجهنا إلى المقصودة بالذّات، المخصوصة بأكمل الصفات: تلمسان، يا لها من شان ذات المحاسن الفائقة، والأنهار الرائقة، والأشجار الباسقة ؛والأثمار المحدقة، والنّاس الفضلاء الأكياس...وأدركت فيها كثيرا من العلماء، والصلحاء والعبّاد، والزهّاد، وسوق العلم حينئذ نافقة وتجارة المتعلمين**

---

[1]- رحلة العبدري؛ ص43.

[2]-المصدر نفسه، ص: 49.

والمعلمين رابحة، فأخذت فيها بالاجتهاد بالعلم على أكثر الأعيان، المشهود لهم بالفصاحة والبيان"[1]

لقد أبهرت تلمسان منذ أن تأسّست كحاضرة من حواضر المغرب العربي كلّ من زارها من الرحالة، وطلاّب العلم، والموفدين إليها من السفراء مشرقا ومغربا، ولم يتردّد هؤلاء في الثناء على جمال منشآتها العمرانية، وازدهار الحياة الثقافية فيها، فكانت تمثّل إشعاعا علميّا ومركزا للتواصل الحضاري، والتلاقح الثقافي بين بلدان المغرب العربي.

رغم الصورة السيئة التي رسمها العبدري للناحية الثقافية لمدينة تلمسان، إلاّ أنّنا نراه يعظّم من مكانة ابن خميس العلمية قائلا:" **وما رأيت بمدينة تلمسان من ينتمي إلى العلم، ولا من يتعلّق منه بسبب سوى صاحبنا أبي عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن خميس وهو فتّي السنّ مولده، عام خمسين، وله عناية بالعلم مع قلّة الرّاغب فيه والمعين عليه، وحظّ وافر من الأدب، وطبع فاضل في قرض الشعر، فكنت آنس بابن خميس وأكثر مجالسته و مفاوضته، وأعجبني ذهنه وحاله".**[2]

العبدري ينبفي وجود العلماء بمدينة تلمسان باستثناء ابن خميس الذي أدركه وهو صغير السن، فرأى أنه من أهل العلم يقرض الشعر قرضا؛ زيادة على اتصّافه بمكارم الأخلاق التي زادت من احترام العبدري لابن خميس.

الحياة الثقافية في الجزائر:

بعدما وصف العبدري مدينة الجزائر، وأعجب بمناظرها الخلاّبة نراه يتتبّع الحياة العلمية فيها، ويتأسّف على ضياع العلم وتدهوره بهذه المدينة قائلا:" **ولكنّها قد أقفرت من المعنى المطلوب كما**

---

[1]- رحلة القلصادي، أبي الحسن القلصادي، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسة للتوزيع، د ط، ص95.

[2]- رحلة العبدري، ص53.

أقفر من أهله ملحوب، فلم يبق بها من هو من أهل العلم محسوب ؛ولا شخص إلى فنّ من فنون المعارف منسوب، وقد دخلتها سائلا عن عالم يكشف كربة، أو أديب يؤنس غربة، فكأنّي أسأل عن الأبلق العقوق أو أحاول تحصيل بيض الأنوق".[1]

الرحالة كان جريئا في نقده للمجال الثقافي في الجزائر ففي اعتقاده أنّ هذا البلد يكاد ينعدم فيه العلم والعلماء فقد شبّهه بالمكان المقفر الذي يستحيل وجود النبات والحيوان فيه، فحسب رأيه أن بحثه عن العلماء كلّفه مجهودا كبيرا ما جعله يضرب مثلا في استحالة وجود الهدف المرغوب فيه (العلماء).

لقد ترجم العبدري لعدد من الشيوخ الذين لقّيهم، ودّون ما أخذ عن كل واحد منهم من فقه وحديث وأدب....إلخ، فها هو يصف ذلك اللقاء المعرفي الذي جمعه بالشّيخ الفقيه الشاطبي إِثْر تواجده ببجاية:" **ولم أَرَ بها من أهل الشيمة الفضلى، والطريقة المُثْلَى أمثل من الشيخ، الفقيه، الخطيب، الصَالح، المسند، الراوية أبي عبد الله محمد بن صالح أحمد الكناني الشاطبي، حفظه الله وهو شيخ على سُنَن أهلِ الدّين، سالك سبيل المهتدين، مُقبل على ما يعنيه مشتغل بعمر في طاعة الله يفنيه، دأبُه الاقتصار على تجويد الكتاب، والتردّد ما بين بيته والمحراب، وقد لقي من الشيّوخ أعلامًا، صيّره لقاؤهم والأخذ عنهم إماما، وله مع علّو الرّواية حظ وافر من الدّراية، إلى خلقٍ لو شابَ ماء البحر صارَ فراتًا ؛ودين ألزمه خُشوعًا وإخباتًا، وقد شاهدتُ له من غزارة العَبْرة ما هو من أعظم العِبْرَة."**[2]

إنّ هذا التنويه بالصفات الحميدة التي تحلّى بها الشيخ الشاطبي ما هو إلاّ إحساس نابع من نفسية العبدري الذي كان يصّب جلّ اهتمامه للعلماء، فيرفع من قدرهم ويعظّم من شأنهم ؛وينزل

---

[1]- رحلة العبدري؛ ص82.

[2]-المصدر نفسه، ص84.

كل واحد في المنزلة التي يستحقها آملا من ذلك أن يجد الحياة العلمية بلغت شأوا كبيرا في مجالات العلم والمعرفة.

وفي موضع آخر نجده يتحدث عن لقائه بالشيخ حسن بن بلقاسم بن باديس عند ما زار قسنطينة: **ولم أرَ بها من ينتمي إلى طلب ولا من له في فنّ من فنون العلم أرب، سوى الشيخ أبي علّي حسن بن بلقاسم بن باديس، وهكذا قيّد لي اسم أبيه بخطّه مخلوطا وقال لي: إنّه اسم وكنية، وهو شيخ من أهل العلم يذكر فِقها ومسائل، ذو سمت وهيئة ووقار، وليس في البلد من يذكر بعلم سواه البتّة..."**[1]

الشيخ حسن بن بلقاسم بن باديس يّعد من خيرة علماء وفقهاء قسنطينة، ومن العلماء المسلمين الجزائريين؛ لذلك نوّه العبدري بمجهوداته العلمية ؛إضافة إلى تحلّيه بالتواضع والوقار؛ الذي جعل منه شخصية مثالية سُجل اسمها بحروف من ذهب في سجل التاريخ.

ثم سأل العبدري الإمام الفقيه أبي الحسن اللخمي عن الأديب و الشاعر القسنطيني المعروف بابن الفكّون وعن قصيدته المشهورة، لكنّه لاحظ أن الشاعر لا يزال مجهولا في بلده ولا أحد يعرف عن حياته ولو الشيء اليسير: "...**وسألته عن الأديب أبي علّي حسن بن علّي بن عمر القسنطيني المعروف بابن الفكّون، فذكر لي أنه أدركه وهو طفل صغير، ولم يحفظ له مولدا ولا وفاة، ورمت أن أجِدَ من أروي عنه قصيدته المشهورة في رحلته من قسنطينة إلى مرّاكش فلم أجده..."**[2]

---

[1]- رحلة العبدري؛ ص95.وينظر ترجمته في معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر ؛عادل نويهض ؛ ص27. ونيل الإبتهاج بتطريز الديباج التنبكتي ؛ص155.

[2]-رحلة العبدري ، ص 96. وينظر ترجمته في معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر مرجع سابق ؛ص 253.

ابن فكّون القسنطيني علم من أعلام قسنطينة وشاعر مقوال كتب قصيدته المشهورة إثر رحلته التي قام بها من قسنطينة إلى مرّاكش، فذاع صيته وعُرف بين محبّيه ومعاصريه؛ والعبدري لمّا زار قسنطينة سأل عنه ليذّكر به عند سكان بلده؛ ولعّل القصد من وراء ذلك رفع همّة سكان قسنطينة للبحث عن علمائهم وشعرائهم الذين تغنّوا بجمال المدينة وجعلوا اسمها رمزا للعلم والمعرفة في مدن المغرب العربي.

الحياة الثقافية في مدينة باجة:

رغم انتقاد العبدري لسكان باجة ووصفهم بالجبن والجهل إلاّ أنّنا نجده يثني على أحد علمائها الأجلاّء:**"وما رأيت بها من له إلى العلم انتماء، أو لهمّته نحو المعارف ارتماء سوى الأديب النحوي أبي علّي حسين بن محمد الطبلي، وهو رجل له مقول منقاد وذهن مشتعل وقّاد، حسن الخلق، مقبول الصورة ولكنّ همتّه فيما رأيت على علم العربية مقصورة، وقد جمع أكثر مؤلفاتها واحتفل في تحصيل مصنّفاتها، فاجتمع له من ذلك ما دلّ على نبله، وأعانه على تسديد نبله".**[1]

الأديب النحوي أبي علّي الطبلي أجاد علوم اللغة العربية ونهل من معينها الّذي لا ينضب، فتنّوعت معارفه، وكثرت مصنّفاته إضافة إلى تحلّيه بالأخلاق الفاضلة التي صقلت شخصيته و موهبته العلمية.

لقد أشرنا سابقا أنّ من بواعث الرحلة عند العبدري لقاء العلماء والمشايخ وأخذ عنهم جميع صنوف العلم والمعرفة، ونراه عندما زار تونس، وتجوّل في مدنها شرع يبحث عن علمائها وفقهائها فوجدهم كثيرون، ولم يسعفه الحظ لملاقاتهم جميعا لأسباب ذكرها: **"وبها من أهل الرواية والدّراية**

[1]- رحلة العبدري؛ ص105.

عدد وافر ولكنّه لم يُقّض لي حين ورودها أن أقضي الوطر من لقاء جميع مذكورها ومعدودها، بسبب وظائف السفر ولوازمه واقتصار معربه على أعمال جوازمه"[1]

مّا لا شكّ فيه أنّ تونس هو البلد الوحيد الذي سلم من نقد العبدري لعلمائه، الذين وجد فيهم من يفرح قلبه ويشبع غريزته العلمية التي افتقدها في بعض المدن التي أثارت سخطه وغضبه لذا بحث عن بعض الفقهاء والعلماء ولقّبهم بألقاب عديدة مثل المحّدث والرواية، والفقيه، الفاضل...وهذا إن دّل على شيء إنّما يدل على أنّ العبدري أنزل النّاس منازلهم، فوجدهم نوابغة العلم من مصنّفاتهم الأدبية والفقهية، التي اطّلع عليها فكانت تعكس حياتهم العلمية .

العبدري كان يلقى عناية خاصّة من الشيوخ حيث حلّ فيحتفون به، ويستأنسون بمجالسته، فبدا لهم رجلا متمّسكا بدينه مطّلعا على كتب الفقه والحديث، ولعل هذه النضرة التربوية له جعلته يحترم الإنسان ما دام ملتزما بالفضيلة، فإذا حاد عنها ولم يجعلها شيمته الصالحة فإنّه يستحّق كل ذمّ وتحقير لذا كان يهجو الإنسان الظالم والجاهل، ويستصغر كلّ مكان خلا من أهل العلم والعدل، ونراه يعرض في رحلته بعض المشاركات الفقهية مع أحد الشيوخ:**"وقد رأيت أن أقيّد هنا شيئا ممّا وقع كلامي فيه بمدينة تونس كلأها الله تعالى مستعينا بالله ومستهديا له، فمن ذلك أنّ بعض أصحابنا من طلبتها حفظهم الله، حكى لي عن الفقيه الزاهد المتصوف أبي محمد المرجاني أنّه سُئِل في مجلسه عن سبب فرار الشيطان من الآذان دون الصلاة، وشأنها أعظم، ثمّ أجابَ عن هذا بأجوبة منها أنّه يفرّ من الآذان لئلا يشهد به للمؤذن إذ لا يسمعه شيء إلاّ شهد له يوم القيامة، فقلت: كأنّه من فرط حسده يروغ عن الشهادة له، وإن عَلِمَ أنّه مستغن عنها، كما ترى**

[1]- رحلة العبدري؛ ص 114.

الحسود يتلكأ في الشهادة لمن حسده بفضيلة أو حقٍّ ؛وإن كان في غِنى عن شهادته لقيام غيره بها"[1]

إنّ هذا التفسير الذي قدّمه العبدري لسبب فرار الشيطان عند سماع الآذان ما هي إلاّ اجتهادات فقهية قام بها الرحّالة من جرّاء اطلاّعه الواسع على مصادر علمية متنوعة، فكان حريصا على نهل المعرفة من منابعها المختلفة، متتّبعا مجالس العلماء لا يقتصر علمه على الأخذ منهم، بل كان يأخذ ويعطي ويتعّلم ويعّلم.

لقاء العبدري بالعالم الدّباغ:

نحن نعلم أنّ كل بلد إسلامي يستوطنه أهل العلم والدّين، والرحّالة العبدري كان شغوفا بالبحث عن العلماء في أيّ بلدٍ نزل به ومن ذلك قوله:" **وقد بذلت وسعي إذ دخلت القيروان في البحث عمّن بها من أهل العلم فلم أجدّ بها من يعتبر وجوده ولا يسع جهله سوى الشيخ الفقيه المحدّث الرّاوية، المتفنّن أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن علّي بن عبد الله الأنصاري الأسيدي من ولد أسيْد بن حضير رضي الله عنه، ويعرف بالدّباغ لقيته يوم وردْنا القيروان، فرأيت شيخا ذكيّا حصيفا ذا سمتٍ وهيبة وسكون ظاهر محبّا لأهل العلم، حسن الرّجا، برّ اللّقاء....من أهل التهمّم والعناية بالعلم....لقيت من برّه وحسن خلقه ورقّة شمائِله ما لو أخَلْ مثله باقيا، وما وجوده بالقيروان في هذا الأوان إلاّ من جملة بركات سلف أهله....ومن عجيب أخلاقه أنّي قلمّا طلبت جزءا لأنقل منه إلاّ وهبه لي، وقد أعطاني أكثر من عشرة أجزاء من فوائده وفوائد شيوخه، وفهارسهم وقال لي: أنت أولى بها منّي فإنّي شيخ على الوداع، وأنت في عنفوان عمرك ومن حين رأيتك انغرز حبّك في قلبي".** [2]

---

[1]- رحلة العبدري؛ ص151.

[2]-مصدر نفسه ؛ ص163، 164.

في هذا النّص ينوّه العبدري بمآثر الشيخ الدّباغ العلمية، فوجده من أهل الخير والصلاح محبّا للعلم، متفقّها في الدّين، والذي زاد من إعجاب العبدري وحّبه له، أنّ الشيخ جعل علمه في سبيل الله لا يبخل به إذا قصده أحد السائل بغية التزوّد منه، وهذا ما تنطبق عليه الحكمة القائلة: خير العلم ما نفع.

الحياة الثقافية في مدينة قابس:

العبدري كان دائم البحث والسؤال عن المستوى العلمي والأخلاقي للبلدان التي حلّ بها، فإذا لم ذلك لم يجد ذلك المستوى الرفيع في العلم و الأخلاق جهر لسانه بالنقد والشتم أحيانا، ومن أرائه النقدية فيما يخص الحياة الثقافية بمدينة قابس قوله:"**وأمّا العلم عندهم فقد ركدت ريحه، والجهل لديهم لا يُؤسى جريحه ؛عام لا يتطرق إليه الخصوص، وظاهر جاء على وفق النصوص، وهذا حكم استنفدته من العيان، ونتيجة الاختبار لهم والامتحان نعم بها آحاد الفضلاء الصلحاء كالشعرة البيضاء في اللّمة السوداء يستمطر بهم المزن، إذا لم يُسبِل سَبَله والنادر لا حكم له**".[1]

العبدري كان قوي الملاحظة فسجل ما رآه عندما دخل مدينة قابس وبحث عن العلماء والفقهاء، فلم يجد غايته، فقام بإصدار أحكام وانتقادات كانت وليدة تربيته العلمية وخبرته الشخصية لأنّه انتهج منهجا معّينا لازمه طيلة رحلته ؛في هذا النّص يحكم بالسّلب على أهل قابس، فوجد الجهل عّيم عليهم وهذا الحكم لم يأت من سراب، وإنّما بنيّ على الاختيار لهؤلاء الناس، إلاّ أنه يستثني وجود فئة قليلة من العلماء الفضلاء وهم يعّدون على الأصابع وشّبهم بالغيث الذي ينزل على الأرض القاحلة فيسقيها فينبت الزرع ويعّم الخير على البلاد.

---

[1]-رحلة العبدري، ص182.

لقاء العبدري بقاضي طرابلس:

رغم أنّ العبدري لم يجد في طرابلس ما يسّر قلبه فأفاض في ذم أهلها ونعتهم بالجهل وضيق الأفق، وغياب العقول، إلاّ أنه يركز في رحلته على وصف عالمها:**"وقد حضرت بها تدريس الشيخ المسّن القاضي الخطيب أبي محمد عبد الله بن عبد السيّد وهو بيت قصيدتهم وكبش كتيبتهم، وواسطة قلادتهم...ذو سمتٍ ووقار، كثير المواظبة للمسجد والذكر، خيّر في دينه"**[1]

وبعده ينتقد أخلاق الشيخ حين قال:**"وما كنت آتيه بعدما رأيته إلاّ بقصد الدّعاء، لأنّه ضّيق الخلق، ليّن النظر، وفي لسانه حبسة لا يكاد يفهم معها...وأظنّه لا رواية له، فإنّي سألته عن ذلك فأبهم جوابه وتنمّر..."**[2]

أشاد العبدري بأخلاق هذا الشيخ، الذي كانت تبدو على ملامحه بشائر الخير والصلاح إلاّ أنّ الرحالة يرى فيه عدم الإلمام بعلم الرواية وتفسيرها بعد أسئلته المتكرّرة دون وجود أيّ جواب لها.

ويضيف العبدري:**" ولمّا حضرت تدريسه، مرّ لهم في دولة التفسير قوله تعالى:" وإن يكذّبوك فقد كذّب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبيّنات، وبالزّبر وبالكتاب المنير" فسألته: ما الكتاب المنير الذي أراد هنا؟ فأجاب: بأنه جنس وهو بمعنى الزبر قبله بإجماع من المفسّرين، فقلت له: لم كرّر؟ فقال التأكيد وجمد على ذلك، ولا يفهم هنا للتأكيد معنى، ولو قال: كرّر لما تضمّنه من المدح، كما تعطف النعوت بعضها على بعض لكان أشبه ولكن تكرار الباء يشعر بالفصل، لأنّ فائدة تكرار العامل بعد حرف العطف إشعار بقوّة الفصل بين الأول والثاني، وعدم التجوّز في عطفِ الشيء على نفسه والله أعلم"**[3]

---

[1]- رحلة العبدري؛ ص183.

[2]-المصدر نفسه، ص186.

[3]- المصدر نفسه، ص188

إنّ ما أثاره الرحالة مع الشيخ قاضي طرابلس أثناء حضوره دروس التفسير والحديث بمدرسة طرابلس يدل على وجود حركة علمية قائمة في البلاد وإن كانت لا ترقى إلى مستوى الحواضر العلمية الأخرى، كما أنّ اختلاف الرأي بينهما في بعض المسائل الفقهية لا يدل على انعدام العلم وفقر البلاد من العلماء، وهذا شيء عادي يحدث بين العلماء، فكل واحد منهما قال سنده وهذه الأسانيد لم تنطلق من فراغ، لكن الغالب على ثقافة العبدري هو النقد الأدبي للنصوص ومراعاة الأساليب البلاغية لذلك يظهر وجهة نظره الخاصة من هذا المنظور فقد لا يكون الفقيه العادي على إلمام بها لذلك أظهر العبدري تفوّقه على هذا الشيخ.

بعد نقد العبدري لعالم طرابلس في بعض المسائل الفقهية التي لم نذكرها كلّها فأخذنا منها فقط نصّا واحدا الذي أثبت فيه الرحالة جدارته في علم التفسير فظهر متعاليا على الحاضرين في الجلسة ثم بدا متواضعا:**"وهذا ما أشبهه وإنّما أثبته تنبيها على ضعف العلم في هذا الأوان، وقلّة الرّاغب فيه لا أنّي معجب فيه بنفسي، ويعلم الله أنّ معتقدي أن أدّل بدليل على فناء العلم وامحّاء رسومه، هو كلامي وكلام أمثالي فيه..."**[1]

إنّ التواضع من صفة العلماء فحبذا لو ظهر العبدري بصورة العالم الناقد لكن بصورة العالم الناقد الناجح الذي يتجرد من ذاتيته، ويبني أحكامه النقدية على أسس صحيحة.

ومن الأشياء التي لاحظها العبدري إثر إقامته بالقاهرة ضعف الحياة الثقافية بهذا البلد ودليله على ذلك لقائه بعالمين فقط هما شرف الدّين الدمياطي وابن دقيق العيد، فقال في العالم الأول:**"ولم أرَ بهذه المدينة– على كثرة الخلق بها– أمثل وأقرب إلى الإنسانية وأجمل معاملة من الشيخ الفقيه، المحدّث، الرّاوية المسند المفتي، الثقة، الضابط، شرف الدّين ذي الكنيتين أبي محمد وأبي أحمد عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن الدمياطي المحدّث بالمدرسة الظاهرية"**[2]

---

[1]-رحلة العبدري ؛ ص194.

[2]- المصدر نفسه، ص289.

وقال في الشيخ الثاني:"**وممّن لقيت بها الشيخ الفقيه، المحدّث، الأصولي، المتفنّن، عالم الدّيار المصرية تقيّ الدّين أبو الفتح محمد بن علّي بن وهب بن مطيع بن أبي الطّاعة القشيري ويعرف بابن دقيق العيد، صاحب المدرسة الكاملية لقيت منه حبرًا [كاملا عالما] يحّق له اللّقاء وبحرا من علم لا تكدّره الدّلاء**".[1]

يتضّح في نص الرحلة أنّ العبدري كان على دراية واسعة بالفقه وأصوله ومدارسه، لذلك كان كثير البحث عن العلماء والمشايخ في كلّ بلد حلّ به ؛إلاّ أن لقائه بعالمين فقط في مدينة القاهرة لم يرو ظمأه ولعل هذا بعض أسباب ثورته على هذا البلد وتذّمره من أهله.

الحياة الثقافية في مكّة المكرّمة:

رغم شعور العبدري بالفرح وهو يدخل مكّة، فيلتفت إلى وصف معالمها التاريخية، ونظرا لانشغاله بتأدية مناسك الحجّ، و اهتمامه بالوقوف على المعالم الحضارية للبلد الأمين ونيّته في إطالة المقام به، فإنّه لم يتأتَ له لقاء الشيوخ والعلماء الذين يؤخذ عنهم ؛إلاَ أنّه يعرب عن رأيه في المستوى العلمي بهذا البلد قائلا:" **وبالجملة فقط ضعف العلم بتلك البلاد لضعف العيش بها**"[2]

نلاحظ الصورة القاتمة التي رسمها العبدري للحياة الثقافية بمكة فنصّه يكشف اللثام عن إهمال العلم وندرة العلماء بهذا البلد؛ فراح يربط الجانب الثقافي بالجانب الاقتصادي فحسب رأيه أنّ ضعف العلم بمكة يرجعه إلى صعوبة العيش بها.

الحياة الثقافية بالمدينة المنورة:

العبدري أضناه البحث كعادته عن العلماء، فلم يجد بالمدينة إلاّشيخا جاهلا بأبسط مبادئ العلوم، ومن المفارقات العجيبة أنّ ذلك الشيخ الجاهل هو إمام الحرم الشريف وخطيب منبره:" وقد

---

[1]- رحلة العبدري؛ ص299.

[2]-المصدر نفسه، ص417.

لقيت إمام حرمها الشّريف، وخطيب المنبر العالي المُنيف فوجدت سماء شرفه من شياطين الجهل لم تُحرس، وتربة قلبه لم تزرع بحبّة من المعارف ولم تغرس".[1]

إلاّ أنّ الشيخ الجاهل أرشد العبدري إلى شيخ عراقي جاور بالمدينة هو عفيف الدّين عبد السلام البصري:" **بيد أنّه ذكر لي شيخا من أهل العراق، مجاورا بالمدينة، معنيّا بالعلم وحملته، قديم الرحلة إلى الحجاز طويل المقام بها، وهو عفيف الدّين أبو محّمد عبد السلام بن محمد بن مزروع البصري التّمار، فسألت عنه حتّى وجدته في حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم تجاه الروضة المقدّسة– زادها الله جلالة– فألفيته شيخا ركينا، ذا سمت وهيئة، ولقاء جميل رحل في البلاد ولقي النّاس، وسمع من الشّيوخ، واستقّر به القرار آخرا بالمدينة مجاورا، فاستجزته فأجازني لفظا في كلّ ما يحمل".**[2]

العبدري دفعته حاسته النقدية إلى تصوير الجانب المظلم من البيئة العلمية في المدينة المنورة، فرآها بلدا خلا من العلم والعلماء وما زاد من سخطه وغضبه ما وجده في إمام حرم المدينة الذي وصفه بالجاهل، إلاّ أنّ لقاء العبدري بشيخ عراقي جاور المدينة جعله يعيد النظر في الحكم بالسلب على هذا البلد فالشيخ العراقي كان كثير الترحال، يلقى الشيوخ فيأخذ عنهم حتى استقّر به المقام بالمدينة، فوجده من أهل العلم والصلاح، فأجازه هذا الشيخ، واستفاد منه، وأخذ عنه أحاديث نبوية كثيرة.

الحياة الثقافية بالقدس:

رغم أنّ العبدري لم يقم طويلا بالقدس إلاّ أنّه بحث خلالها عن أحوال العلم والعلماء، فلم يجد من هو بها أهل للأخذ عنه إلاّ شيخا هو قاضي البلد محمد بن ابراهيم بن جماعة:" **ولَمْ أرَ في هذا البلد، مع شرفه واشتهاره من هو أهل لأخذ العلم عنه، ولا معنيّا به، إلاّ شيخا هو قاضي**

---

[1]- رحلة العبدري؛ ص428.

[2]- المصدر نفسه، ص429.

البلد، يلّقب بدر الدّين وهو محمد بن ابراهيم بن سعد بن جماعة، له مجلس علم يدّرس فيه أوّل النهار في المسجد، عند المحراب، ومجلس سماع يروي فيه بعد صلاة الجمعة في قبّة الصّخرة، وقد حضرت كلا المجلسين فلم أحْلُ منهما بطائل، وكلّمته في أشياء تخبّط فيها وتعسّف فلم أجد من نفسي إذعانا للأخذ عنه على قلّة همّته في الرواية إذ وجدته يروي عن نظائره من أهل مصر، ومن لا يزيد عليه في السّنّ إلاّ يسيرا". [1]

رغم مجالس العلم التي كان يعقدها ابن جماعة في المسجد، فحضر له العبدري مجلسين إلاّ أنّه لم يخرج منهما بطائل، مما جعله يأخذ عنه رغم قلّة علمه في الرواية.

ثم ينتقل إلى مدينة غزة ولا يمل من البحث عن العلماء ويجدها هي الأخرى فقيرة من العلم والعلماء قائلا:" **ولكنّها قد عريت عن عالم ومتعلّم، وأقفرت من فقيه ومتكلّم"** [2]

العبدري لم يخرج عن المنهج الذي اختطّه لنفسه من بداية الرحلة في البحث المستمّر عن العلماء في كل بلد دخله فحتىّ غزة لم تسلم من نقده لأوضاعها الثقافية التي وجدها مقفرة من العلماء، فلم يجد بها عالما، أو راويا للحديث يأخذ عنه ولو اليسير ما أثار غضبه وجعله يسقط كلمات تدل على ضعف العلم بهذا المكان (غزة). ولعّل اهتمامه بالجانب العلمي من زواياه المتعددة مرتبط بشخصيته المميّزة باكتمال علوم الشريعة، وعلوم اللغة العربية، ومتعلّق برغبته في بيان الأوضاع الثقافية وتقصّي أخبار العلماء، وإظهار ثقافته ومعارفه المتنوعة، فكانت مناقشاته ومناظراته للعلماء موضع التقدير والإجلال لعلّو كعبه في العلم والأدب وهكذا كان محترما أين حلّ وارتحل.

[1]- رحلة العبدري؛ ص473.

[2]-المصدر نفسه، ص477.

المظهر العمراني:

نشأت العمارة الإسلامية في بلاد مختلفة، وكان للفتوح الإسلامية دور كبير في توسيع نطاق العمارة، فظهرت المراكز العمرانية لتكون مراكز إشعاع حضاري، فالبناء من مستلزمات المدينة والتحَضّر يقول ابن خلدون:"**والحضارة تتفاوت بتفاوت العمران، فَمَتى كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل**"[1] ابن خلدون يربط الحضارة بالعمران، فكلّما كثر العمران كانت الحضارة، وحسب رأي ابن خلدون أن الحضارة تكون في المدينة لتنوّع النشاط العمراني بها كالمساجد، المدارس، المارستانات، الحمّامات، الفنادق.....إلخ.

وقد أولى الرحّالة لفن العمارة اهتماما كبيرا، حيث اعتبروا العمارة هي الصورة التي تعكس حضارة بلد ما أو تخلّفه والعبدري واحد من أولئك الذين شغفوا بوصف المدن؛ ولمّا خرج من بلده حاجا قاصدا مكّة المكرمة، وفي طريقه زار مدينة "أنسا" وراح يصفها بكلّ عفوية قائلا:" **وأمّا بلد أنسا جبره الله، فهو بلد منفسح منشرح، في بسيط مليح، طيّب التربة يغلّ كثيرا، وبه ماء جار كثير، ونخل وبساتين، وهو آخر بلاد السّوس، من أعلاه متّصل بالجبل مشرق على أرض السّوس، وكان فيما مضى مدينة كبيرة، فتوالت عليها الخطوب المجتاحة ونزول الأقدار المتاحة، حتّى صارت رؤيتها قذى في المقلتين وعادت بعادة الزمان أثرًا بعد عين، فليس بها إلاّ رسوم حائلة وطلول ماثلة، خلت من كلّ قارئ ومقروء عليه**".[2]

مدينة أنسا كانت في القديم بلدا جميلا، له خصوصية تمثّلت في شساعته و صفاء هوائه وطهر تربته، إلاّ أن غوائل الدّهر مرّت عليه فمحت رسمه، وأماتت ذكره وصار مجرّد أطلال ورسوم بالية.

---

[1]-مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، ج1/ 465.

[2]-رحلة العبدري، ص42.

وصف مدينة تلمسان:

لمّا زار العبدري مدينة تلمسان وأقام به مدّة من الزمن، حيث شرع في تدوين أخبار رحلته بهذا البلد، إلاّ أنّ حسّه الفنّي جعله يعطي لهذه المدينة لوحة فنيّة عبّر عنها بالوصف قائلا:" **وتلمسان مدينة كبيرة سهلية جبلية، جميلة المنظر مقسومة باثنتين بينهما سور، ولها جامع عجيب مليح متّسع، وبها أسواق قائمة وأهلها ذوو ليانة، ولا بأس بأخلاقهم ؛وبظاهرها في سند الجبل موضع بالعبّاد، وهو مدفن الصالحين، وأهل الخير وبه مزارات كثيرة، ومن أعظمها وأشهرها قبر الشيخ الصالح القدوة فرد زمانه أبي مدين، رضي الله عنه ورزقنا بركته**".[1]

تلمسان ملهمة الشعراء وحاضرة العلم والأدب، فأي رحالة زار هذه المدينة إلاّ وأعطاها حقّها من الوصف والإعجاب، والرحالة العبدري وصف سهولها وجبالها، وعرّج على أخلاق ساكنيها بأنّهم من أهل الخير و الصلاح، والشيء الذي زاد من عظمة الوصف هو قبور الصالحين وأشهرها ضريح أبي مدين شعيب، فتلمسان لا تختلف في تخطيطها العمراني عن المدن الإسلامية في المغرب والمشرق، فهي تحمل نفس المواصفات العمرانية التي تتميّز بها باقي المدن، فهي لم تخرج عن هذا النمط، فوجدت بها تلك المعالم الإسلامية كالمساجد التي تعتبر النواة الأولى للعمران، فهي مكان للعبادة، ومقرّ اجتماع سكان المدينة لتداول أمورهم الاجتماعية والاقتصادية و تعليم أبنائهم مختلف العلوم العقلية والنقلية.

وصف مدينة مليانة:

بعد الإقامة الطويلة بتلمسان، خرج العبدري لمواصلة سفره رفقة ركب الحجيج ومرّ بمليانة فتوقّف بها وراح يثني عن جمال عمرانها قائلا:"...**ثمّ وصلنا وقد ألقى جمل الإعيان جرانه، وغنّى بلبل العناء ألوانه، إلى البلدة الخصيبة مليانة وهي مدينة مجموعة مختصرة، وليست مع ذلك عن**

[1]- رحلة العبدري؛ ص48، 49.

أمّهات المدن مقصرة، أشرفت من كثب على وادي شلف واستشرفت نسيم طرفها من شرف، في روضة جمّة الأزهار والطّرف فرعت في سفح جبل حمى حماها أن يُرام، وشرعت في أصل نهر يشفي الهيّم من الهيام، شاق منظرا، وراق مخبرا، وشفى الظمّاء موردًا ومصدرا، يشتهي الناظر إليه..."[1]

العبدري بهره جمال مدينة مليانة، فأسهب في تصويرها، وأسقط عليها صفاتا تليق بمقامها العمراني والطبيعي، فنسيمها العليل وعظمة نهرها الجليل، زادت من حّدة الوصف الذي يبدو للعيان كأنّه صورة فوتوغرافية تحرّكها مشاعر وأحاسيس الرحالة الذي يرمي من وراء وصفه، إلى التعريف بهذه المدينة وبآثارها العمرانية.

وصف مدينة بجاية:

بجاية اسم خالد في تاريخ المغرب العربي بشكل عام، والجزائر بشكل خاص فقد تمّتعت هذه المدينة في ظلّ الحماديين بشهرة واسعة استمدّتها من معاهدها الثقافية المتعدّدة، والعبدري أعجب بمدينة بجاية، فرَاح يعدّد من مواصفاتها التي تنوّعت بين أصالة العمارة وحصانتها:**"ثمّ وصلنا إلى مدينة بجاية مبدأ الاتّفاق والنهاية، وهي مدينة كبيرة حصينة شهيرة، بريّة بحرية، سنيّة سرّية، وثيقة البنيات، عجيبة الاتقان، رفيعة المباني، غريبة المعاني، موضوعة في سفح جبل وعر، مقطوعة بنهر وبحر، مشرفة عليهما إشراف الطليعة متحصّنة بهما منيعة، فلا مطمع فيها لمحارب، ولا متّسع فيها لطاعن وضارب".**[2]

العبدري يبدي إعجابه ببجاية وقد أفاض في وصف عمارتها التي اتصفت بالإبداع والإتقان، لذا جاء كلامه مسجوعا يتغنّى بعظمتها وعراقتها وأصالتها عبر التاريخ.

---

[1]-رحلة العبدري، ص78.

[2]- المصدر نفسه، ص82، 83.

ثم يواصل حديثه عن أحد الآثار التاريخية لبجاية وهو مسجدها الجامع الذي يرى أنه غريب في حسنه عن باقي المساجد إبداعا وإتقانا، يشرف على البرّ والبحر، وأهل بجاية يواظبون على الصلاة في هذا المسجد إضافة إلى رعايتهم واهتمامهم بشؤونه[1]

إن طابع التدّين غلب على أسلوب العبدري في اهتمامه بآثار المسلمين الخالدة، فكان المسجد يمثل مركز اتصّال بين أفراد الأمة الإسلامية يتجمّعون فيه لتدارس كتاب الله وسنة بنيّة الأعظم.

وصف مدينة قسنطينة:

قسنطينة مدينة الجسور المعلّقة وهي إحدى المدن الجزائرية التي حظيت بوصف مشفع عند الرحالة الذين زاروها، فالعبدري قد سلك منهجا في رحلته سار عليه من بداية الرحلة إلى نهايتها فكل بلد دخله إلاّ وأعطاه حقّه من التعريف، كما فعل في وصف قسنطينة: **"ثم وصلنا إلى البلد الذي نشّفت الخُطوب مُعينه وأبتِ الأقدار أن تكون له مُعينة، بلدُ الوضّع العجيب والمواضيع الخصيب، مدينة قسنطينة....وهي مدينة عجيبة حصينة....وبها للأوائل آثارٌ عجيبة، ومبانٍ متقنة الوَضع غريبة وأكثرها من حجرٍ منحوتٍ، يعجزُ الوصف إتقانهُ ويَفُوتُ وقد دارَ بها وادٍ شديد الوعرِ، بعيدُ القَعْرِ، أحاط بها كما يحيطُ السّوار بالمعصم ومنعها، كما يمنع النيّق الأعصم..."**[2]

فهو يصفها بعد أن ينعتها بالمدينة العجيبة الحصينة ذات الأراضي الزراعية الخصبة، فقد نشفّت المِحن المتوالية عليها كل معين للخير، وأبت الأقدار أن تقدّم لها يد العون، فهو وصف يغلب عليه نوع من التشاؤم، وعن العمران بالمدينة يذكر العبدري أن الأمم التي توالت على قسنطينة خلّفت آثاراً عجيبة ومباني متقنة غريبة. فهذا الوصف يدل على أنّ المدينة شهدت في مراحل حياتها نوعا من

---

[1] - ينظر رحلة العبدري، ص83.

[2] - المصدر نفسه، ص93، 94.

الاستقرار السياسي والهدوء الاجتماعي وهي دون شك عوامل أساسية لازدهار الشعوب ورخائها، وينتقل العبدري إلى الحديث عن وادي الرمال حلية قسنطينة عبر الأجيال فوصفه بأنه أصبح سوارا يحيط بمعصم اليد. وهو الصورة الجميلة التي سترافق قسنطينة إلى يومنا هذا.

بعد خروج العبدري من قسنطينة يتّجه ناحية مدينة بونة فيطلق العِنانَ لقلمه قائلا:"**ثم وصلنا إلى مدينة بونة فوجدناها بلدة بطوارق الغير مغبونة مبسوطة البسيط، ولكنّها بزحف النوائب مطوية مخبونة. تلاحظ من كثب فحوصًا ممتدّة وتراعي من البحر جزره ومدّه، تُغَار لها العيون من جُور النوائب وتأسَى لها النفوس من الأسهم الصوائب وقد أزعَجَ السفَر عن حولها فلم أقفى وطرًا من دخولها**"[1]

تقع مدينة بونة على سَاحل البحر المتوسط وهي حسب ما وصفها العبدري قد أكل عليها الدّهر وشرب ممّا لاقته من ظلم وإساءة الزمان لها.

وصف مدينة باجة:

يصف العبدري مدينة باجة التي تستهوي قلبهُ فراحَ ينعتها:" **هي مدينة جرّعها الدّهر أجاجَه قد هتكتها الأيدي العادية وفتكت فيها الخطوب المتمادية حتّى صارت وهي حاضرة بادية فخشوعها لائح وضراعتها بادية، وقد حُدِّثتُ بها أنّ أهلها لا يفارقون السور خوفا من العربان، وأنّهم يستعدّون لدفنِ الجنائز كما يُستَعَدُّ ليوم الضرّاب والطعّان، ولم نقمْ بها إلاّ ظَل نهار فلم اختبر لذلك حالها حقيقة الاختبار**".[2]

---

[1]-رحلة العبدري، ص104.

[2]-المصدر نفسه، ص105.

إنّ وصف العبدري لمدينة باجة لا يختلف عن وصفه لمدينة بونة فالمدينتان تشتركان فيما ألحقهما الزمان من جورٍ واستبدادٍ ما جعلَ وجه المدينة المتألقة يختفي وتظهر عليها علامات البداوة فتبلى كما يبلى الثوب الجديد.

وصف مدينة تونس:

بعد المسافة الطويلة التي قضاها العبدري من تنقلّه بمدن جزائرية واصفا إيّاها الواحدة تلو الأخرى، يواصل سفره ليحطّ الرّحال بمدينة تونس فينطلق لسانه بالثناء، ويحسّ بالغبطة والحبور، فتونس في نظره فاقت بحسن معانيها وإتقان معانيها غيرها من المدن قائلا:"**ثمّ وصلنا إلى مدينة تونس مطمحُ الآمال ومصابُ كلّ برق، ومحطّ الرّحال من الغرب و الشّرق، ملتقى الرّكاب والفلك، وناظمة فضائل البّرين في سلك**"[1] ثم يواصل حديثه عن هذه المدينة مركّزا على مبانيها:"**وهذه المدينة من المدن العجيبة الغريبة، وهي في غاية الاتّساع ونهاية الإتقان، والرّخام بها كثير، وأكثر أبواب ديارها معمول به عضائد وعتبا، وجلّ مبانيها في حجر منحوت محكم العمل، ولها أبواب عديدة، وعند كلّ منها ربض متّسع على قدر البلد المستقلّ**"[2] العبدري معجب بتونس وبجمال عمرانها الذي ترجمه استخدام الرّخام في عملية البناء إضافة إلى تعدّد مراكز التجمّع البشري، ما أضفى على المدينة لمسة جمالية ما أدّى بالعبدري إلى نضم قصيدة شعرية يتغنّى فيها بجمال مدينة تونس وقداسة تراثها.

تونس مدينة كبيرة حوت على آثار عمرانية كثيرة زادت من جمالها ومن جملة هذه الآثار الساقية الموجودة بقصر السلطان أبو حفص عمر بن أبي زكريا الحفصي:"**وأمّا الساقية المجلوبة من ناحية زغفوان فقد استأثر بها قصر السلطان، وجنانُه الأرشحَا يَسيرًا سُرِّب إلى ساقية جامع الزيتونة**

[1] -رحلة العبدري، ص108.

[2] -المصدر نفسه، ص110.

يتسرّب منها من أَنَابيب من رَصاصٍ، ويَستقي منها الغرباء، ومن ليس في داره ماء يكثر عليها الازدحام".[1]

ويواصل حديثه عن الساقية ويصفها بالتفصيل الدقيق:"**...فهي من جملة غرائب الدّنيا وهي قديمة من عمل الروم، مجلوبة من جبال بجنوبي تونس على مسيرة يومين أو نحوها في أوعارٍ وأودية منقطعة وجبال وآكامٍ، فإذا انتهوا بها إلى جبل أو تلّ خرقوه وسّرّبُوا الماء فيه، وإذا انتهوا إلى وَادٍ أو وهدٍ بنوهُ قناطرَ بعضها فوق بعضٍ حتى يستوي مع مجرى الساقية بصخرٍ منحوتٍ أتقن ما يكون من البناء وأغربه وأوثقه... وهي من أعجب مدن الأرض وأغربها لمَا يُحكَى عنها في فرطِ الاعتناءِ وغرابة الصنعة ...وأهل تونس يخرجون إليها تفرّجا وتعبّدا، والقناطر من تونس إليها معطلّة، وهذه القنطرة تُعرف بالحنايَا وهو ممّا يقصُر عنها الوصف لفرط إتقانها وغرابتها ويُذكر أنّ الروم أقاموا في تدبيرها، والنظر في وضعها أربع مئة سنة وهذا بعيدًا.**"[2]

يبدو أنّ العبدري استوقفته هذه الساقية فراح يطيل الحديث عنها ويُفرط في وصفها بأنّها من أعجب مدن الأرض اتفاقًا وزخرفة حتى صارت متنزّهًا للناس ومكانًا للتسلية للتمتّع بمناظرها الجميلة.

وصف جامع الزيتونة:

اهتّم العبدري في رحلته بآثار المسلمين وهي المساجد التي مثلّت حضارة المسلمين الخالدة على مرّ العصور، وجامع الزيتونة يعتبر منارة العلم في تونس:"**وهذا الجامع من أحْسنِ الجوامع وأتقَنها واكثرها إشراقا، ودائره مسقف ووسطه فضاء قَدْ نُصبَتْ فيه أعمدة من خشب على قَدْرِ ارتفاع الجُدُر، وشدّت إليه حبال متينة في حلقٍ من حديد مثبّتة فيها ؛وفي السّقوف شدّا محكما فإذا**

[1]- رحلة العبدري؛ ص110.

[2]-المصدر نفسه، ص111، 112.

كان يوم الجمعة نشرت عليها شقق الكتّان المطبقة الموصولة حتى تظلّل جميع الفضَاءِ ذلك دأبهم فيها حتّى ينصرم فصل الصيف."[1]

لقد حَظي جامع الزيتونة بعناية خاصّة من طرف الرّحّالة الذين زار تونس فوقفوا أمام هذا الجامع متأملين واصفين إيّاه بكل محتوياته، والعبدري واحد من هؤلاء الوَصّافين أعطانا صورة مفصّلة عن هذا الجامع إضافة إلى كونه يحمل رمزية دينية روحية.

إنّ المدة التي قضاها العبدري بتونس كفيلة بأن يعطي انطباعاته الشخصية على هذا البلد وساكنيه، وعلمائه، ومن عرضنا لبعض النماذج في وصف تونس ومساجدها، لاحظنا أنّ هذا البلد هو الوحيد الذي سَلمَ من نقد العبدري اللاّذع، ورأى أنّ العلم ذهب ريحُه ونفذ أثره، إلاّ تونس كانت ملجئه ومنبته الأصيل؛ ثم يواصل رحلته ليتّجه إلى مدينة القيروان وهي مدينة تونسية فيطنب في وصفها، ووصف طباع أهلها بأسلوب جارح قائلا:" **ثمّ وصلنا إلى مدينة القيروان فدخلتها مجدّا في البحث غير وانٍ، فلم أرَ إلاّ رسوما محتها يد الزمان وآثارا يقال عنها كان وكان، والأحياء من أهلها جفاة الطباع ما لهم في رقّة الحضارة باع، ولا في معنى من المعاني الإنسانية انطباع خفت نفسُ العلم بينهم، فلم يَبْقَ به رمق، وكسدت سوق المعارف بينهم، فيا سُخنة عين من رمق"[2]**

لقد وصف العبدري مدينة القيروان بأنّ الزمان كانت له اليد الكبرى في محوِ رسومها وآثارها، وأهلها يتّصفون بالجفاء والغلظة ترى طباعهم معقّدة، لا يعرفون للحضارة طريقا ولا للعلم رفيقا.

ويواصل مهاجمته لمدينة القيروان واصفا برّها وبحرها قائلا:" **والمدينة نفسها ليس لها برّ ولا بحر ولا سحر ولا نحر وضعت في سبخة قرعا لا ماء بها ولا مرعى، ولا تنبت أصلا، ولا تقلّ فرعا،**

---

[1]- رحلة العبدري؛ ص111.

[2]-المصدر نفسه، ص158.

وما كان حالها في القديم إلاّ آية من آيات هذا الدّين القويم، إذ أسسّها المخلصون من أهله المتمسّكون بحبله السالكون لحزنه وسهله أهل الصرائم النافذة الماضية والصوارم القاضبة القاضية، والهمم الغالبة العالية...."[1]

مدينة القيروان مثل البيداء المقفزة لا يوجد فيها ماء ولا شجر، بل هي مرعى للأسود الأوابد، ويصرّح بأنها كانت في قديم الزمان آية من آيات الدّين الجديد أسسّها أهل الهمم العالية المتمسكون بحبل الله المتين، والسالكين نهجه القويم فرفعوا من شأنها ونقشوا اسمها، إلاّ أنّ الزمان جار عليها ففقدت المدينة نضارتها، وبقيت مجرّد رسومٍ وآثار تذكر في صفحات التاريخ.

وصف جامع القيروان:

إنّ وصف الأماكن المقدسة سجيّة جُبل عليها العبدري من زيارته لهذه الآثار الخالدة، فنراه يفصل في الحديث عن هذا الجامع:" **أما جامعها فهو من الجوامع الكبار المتقنة الرائقة المشرقة الأنيسة، ووسطه فضاء متّسع، وكان المؤسس له والمقيم لقبلته الرّجل الصالح عقبة بن نافع الفهري، المعروف بالمستحاب مع جماعة من الصحابة والتابعين، وهم المؤسسّون لمدينة القيروان، ويحكى أنه لمّا أمرهم ببنائها قالوا له: إنّك أمرتنا أن نبني في شعب وغياض، ونحن نخاف من السّباع و الهوام فمضى معهم حتّى وقف عليها وقال: أيتّها السّباع والهوام إنّا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أردنا أن ننزل ههنا فارحلنّ عنّا ؛فرأى الناس عجبا رأوا الأسود تحمل أشبالها والذئاب تحمل أجراءها. والحّيات تحمل أولادها حتى ارتحلن جميعا ويقال: أنّه قد مرّ عليها أربعون سنة لم يُرَ فيها حيّة لدعوته رضي الله عنه، فلّما بنوها طاف حولها عقبة وأصحابه ودعوا الله لها وأسسّوا مسجدها، وأقام عقبة قبلتها برؤية رآها...."[2]**

---

[1]- رحلة العبدري؛ ص158.

[2]-المصدر نفسه، ص160.

جامع القيروان من الجوامع الكبيرة المعروفة، يمتاز ببنائه المتقن وفضاءه الشاسع، أسسّه عقبة بن نافع الذي يعّد من عظماء التاريخ الذين صنعوا مجد الحضارة، وتركنوا بصماتهم على مقدّسات الدولة الإسلامية.

وصف مقبرة القيروان:

أضحت قبور الصالحين مزارَ الرحّالة والناس على وجه العموم من أجل التبّرك بهم ورحالتنا لم يضيع فرصة الوقوف عند مقبرة القيروان قائلا:"**وأما مقبرتها فهي من المزارات العظيمة الشريفة وفيها من الأفاضل وأخيار الأمة ما يقصُر عنه الوصف، وبها قبر الشيخ الفقيه العالم أبي الحسن علي بن محمد القابسي رحمه الله**..."[1]

من سنّة المسلمين زيارة المقابر للتّذكير و الموعظة، ومقبرة القيروان حظيت بزيارة الرحالة الذين شُغفوا بالبحث عن أولياء الله الصالحين قصد نيل بركتهم والسير على منهاجهم.

وصف مدينة قابس:

ما زال قلم العبدري لم يفتَرّ بعد. فتراه يظهر سخطه وغضبه على مدينة قابس وساكنيها:" **ثم وصلنا إلى مدينة قابس، ذات المخبر الخبيث والمحيّا العابس هواء وخيم، ولؤم طبع وخيم، وتضبيع المصلّيات والمساجد، وقلّة اعتناء بكل راكع وساجد مغانيهم إلى النجوم عالية ومعانيهم أسفل التخوم هاوية، على عفونات تخبو لقربها المصابيح وتنحو بالنحول كل وجه صبيح، تفسدُ الأذهان والألوان، وتضرم للمزاج المعتدل نار الحرب العوان**...."[2]

---

[1]- رحلة العبدري، ص162.

[2]- المصدر نفسه، ص180، 180.

نلمس في النّص عاطفة سخط وغضب على هذه المدينة وأهلها فبدا العبدري هاجيا موظّفا لغة الهجاء القاسية فنعت مدينة قابس بالمخبر الخبيث، وجهها عابس وهواءها معّكر وأهلها لا يحرصون على الصلاة في المساجد، وهذا ما قلّل من شأنهم في نظهر الرّحّالة.

يخرج العبدري من مدينة قابس ويمّر على قريتي زوارة وزواغة واصفا إيّاهما: **"ومنها إلى قريتي زوارة وزواغة، ذوي الأنفس الخبيثة والقلوب الزّواغة معتقدات شنيعة وأعمال "كسراب بقيعة" ومذاهب سوءٍ رديّة، وضمائر شرّ عمر منهم كل طوية، إن استنام إليهم حاج لم يوقظة إلاّ برد التّقديس، ودوي أصوات النواقيس"**[1]

يواصل العبدري مهاجمته لسكان هاتين المنطقتين معربًا عن نفوره منهم فيرى أهلها أسوأ خلق الله، ونجده يقتبس من القرآن الكريم لقوله تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ** ﴾[2]
فقد شبّه العبدري سكان هاتين المنطقتين بالكفار الذين كفروا بالله وجحدوا نعمه وظنّوا أنّ أعمالهم ستنجيهم يوم القيامة وهي في حقيقتها أعمال شرّ مبنية على الشرك فمثّل سبحانه وتعالى أعمالهم بالسّراب الذي يظنّه العطشان ماء فلّما انتهى إليه لم يجده شيئا ؛وسكان زوّارة وزوّاغة غلب الشرّ على نفوسهم لذا استقبح أخلاقهم وجعلهم في الحضيض، فلم يذكر العبدري الموقع الجغرافي للمنطقتين مثلما فعل مع باقي المدن التي زارها وهذا يدل على استنكاره الشديد لهما.

[1]- رحلة العبدري، ص183، 184

[2]-سورة النور، الآية 39.

ويمرّ على قرية أخرى مجاورة للقريتين المذكورتين آنفا فيدلي بشهادته قائلا:"**ثمّ خطرنا على قرية زنزور ولم أخبرها فلا أحدّث عنها بزور، إلاّ أنّ مظهرها معجب مونقٌ وشجرها مخصب مورق، ولا أدري هل مخبرها موافق أو هي ذات وجهين كالمنافق**".[1]

يصرّح العبدري بأنّه لم يطلْ مقامه بهذه القرية حتى يصفها على صورتها الحقيقية، إلاّ أنّه يبدي إعجابه بمنظرها الخارجي ويتساءل إذا كان وجه القرية الخارجي مطابقا **لأخلاق ساكنيها وطباعهم** وعلمهم أم هي كصورة المنافق ظاهره خير وباطنه شرّ.

وصف طرابلس:

لا زال العبدري يسير على نفس المنهج الذي رسمه لرحلته وهو إعطاء وصف شامل ودقيق للبلدان والأماكن التي يحلّ بها مثل حديثه عن طرابلس:"**ثم وصلنا إلى مدينة أطرابلس وهي للجهل مأتم وما للعلم بها عرس، أقفرت ظاهرا وباطنا، وذمّها الخبير بها سائرا وقاطنا، تلمع لقاصدها لمعان البرق الخلّب وتريه ظاهرا مشرقا والباطن قد قطّب، اكتنفها البحر والقفر، واستولى عليها من عربان البّر ونصارى البحر والنفاق والكفر، وتفرّقت عنها الفضائل تفرّق الحجيج يوم النّفر، لا ترى بها شجرا ولا ثمرًا ولا تخوض في أرجائها حوضا ولا نهرا، ولا تجتلي روضا يحوي نورا ولا زهرا بل هي أقفر من جوف حماره، وأهلها سواسية كأسنان الحمار....ترى أجساما حاضرة، والعقول في عقل غيابات الغيبة...**"[2]

في هذا النّص نستشّق أسلوب السخرية والاستهزاء من مدينة طرابلس فالعبدري لم تعجبه المدينة ولا ساكنيها، فيراها بلدا خاليا لا **يحوي الشجر والنهر، ظاهرها مليح وباطنها قبيح، انعدم فيها**

[1]- رحلة العبدري، ص184.

[2]- المصدر نفسه، ص185.

بصيص العلم وحلّ محله الجهل الذي خيّم على العقول والنفوس وشبّه سكانها بالدّواب التي كانت تملك أجساما ضخمة وعقولا جامدة لا تعي ولا تدرك من حولها.

رغم الصورة السلبية التي رسمها العبدري لمدينة طرابلس إلاّ اننا نجده يشيدُ ببعض معالمها:" **ولم أرَ بها ما يروق العيون و سَمَا عَنْ أن يقوم بالدّون سوَى جامعها ومدرستها، فإنّ لهما من حسن الصورة نصيبًا، ومن إتقان الصّنعة سهما مُصيبًا ؛وما رأيت في الغرب مثل مدرستها المذكورة، لولا أنّ مَحَاسِنها مقصورة على الصورة".**[1]

العبدري يُعرب عن إعجابه بجامع طرابلس لكنّه لم يذكر لنا اسم الجامع وتخطيطه الهندسي، فاكتفى بحسن صورته الخارجية وحتى المدرسة الموجودة في طرابلس لم يفصّل ويدّقق في وصفها وفي هذه المدرسة حضر دروسا في تفسير القرآن الكريم والحديث الشريف مع قاضي طرابلس ابن عبد السّيد.

وصف باب قبّة البحر بطرابلس:

ينطلق العبدري في وصفه لهذا الأثر التاريخي من منطلق الشاهد المتبّصر قائلا:" **ولما أرَ بأطرابلس أثر عناية إلاّ قبّة بباب البحر من بناء الأوائل، في غاية الإتقان ونهاية الأحكام مبنيّة من صخور منحوتة في نهاية العظم، منقوشة بأحسن النقشِ مرصوفة بأعجب الرّصف، متماثلة المقدار علّويّها وسفليّها ولا ملاط بين الصّخور ووصفها في الأساس فضلا عن رفعها إلى السّقف ورصفها هناك مع إفراط عظمها، وفي مقعد القبة صخرة مستديرة منقوشة يُحار النّاظر في حسن وضعها...."**[2]

[1]-رحلة العبدري، ص186.

[2]-المصدر نفسه، ص ص 194.

إنّ هذا الوصف الدقيق يدل على إعجاب العبدري بهذا الأثر الذي لا يزال في مدينة طرابلس، ومنه ينطلق في ذكر بعض الآثار التي رآها في تونس كقصر الجّم وقصر المنارة الذي يقع غربي القيروان:" **والذي في بلاد افريقية من عجائب البناء وآثار الاعتناء أمرٌ يضيق عنه الوصف، منها قصر الجّم ومنها قصر يعرف بالمنارة غربي القيروان، على مرحلة منه، مبني من صخور منحوتة موضوع على الاستدارة كأنّه مخروط من عود، وفي أعلاه طوق ناتئ من تلك الصخور على هيئة طنفٍ. قد نُحِت ورققّت أطرافه حتى تجّردَت، وعرّض من الأصل فأتت لذلك جميلة المنظر**"[1]

وأعقب ذلك بقوله:" **وقد دلّت آثار تلك البلدان على ضخامة مملكتها في غابر الأزمان، على ضدّ ما هي عليه الآن، فإنها شديدة الإهمال غير سديدة الأحوال**......"[2]

هذه الآثار كانت في قديم الزمان تدل على حضارة تلك البلدان التي بلغت أوجها في فنون العمارة لكنّها الآن عكس ما كانت عليه سابقا، لم تحض بالعناية والاهتمام وبقيت تحتفظ بالاسم فقط دون الهيكل العمراني.

وصف الإسكندرية:

وحينما وصل إلى الإسكندرية وقف بها منبهرا، فوصفها بما يدل على إعجابه بها فهي:"**مدينة الحصانة والوثاقة، وبلد الإشراق اللاّمع والطلاقة، وطلاوة المنظر وحلاوة المذاقة، كَلَّ عنها ظفر الزمان ونابه ومَلّ منها جيش الحدثان وأخرابه**".[3]

---

1 -رحلة العبدري: ص195.

2 -المصدر نفسه، ص196.

3 -المصدر نفسه، ص110، 111.

وهكذا يقف بها متأمّلا جمالها وروعتها، ذاكرا ما بها من آثار وغرائب وعجائب على حدّ تعبيره كعمود السواري:"**ومن أغرب ما رأيت بها عمود من رخام بظاهرها يعرف بعمود السواري وهو حجر واحد مستدير عال جدّا على قدر الصومعة المرتفعة، وهو يبدو من بعيد بارزا في غابة من النخيل مرتفعا عنها، وقد أقيم على حجارة منحرفة مربعة**"[1]

رغم إعجابه بالإسكندرية وإجادته في وصفها إلاّ انّنا نراه ينعتها رغم جمال عمرانها فهي في نظره "**جسم حسن لا روح فيه**"[2] وهذا راجع لسوء أخلاق سكانها.

وصف القاهرة:

يدخل العبدري القاهرة فيراها مدينة كبيرة المساحة كثيرة السكان إلاّ أنه لم يطل في وصفها:" **ثم وصلنا إلى قاعدة الدّيار المصرية ومدينة المملكة بالبلاد المشرقية. فوجدناها معيديّة المعنى ببعض ما رأينا بها وسمعنا، وهي مدينة كبيرة القطر وساكنها يحاكي عدد الرّمل والقطر، وهي مع ذلك تصغر عن أن يسطّر ذكرها في سطر.**"[3]

يعرب العبدري عن عدم إعجابه لمدينة القاهرة، فهي لم ترقه لذلك ذمّها واستصغرها من أن يدّون وصفها في السطور وتحفظ صورتها في الصدور.

ويفرد فصلا في رحلته للحديث عن عجائب مصر:"**وأمّا أرض مصر ونيلها. وعجائبها واتسّاعها. فأكثر من أن يحصرها كتاب أو يحيط بها حساب، وقد سطّر المؤرخون من ذلك ما أغنى عن ترداده، وشغل القلم بإيراده**".[4]

---

[1]- رحلة العبدري؛ ص112.

[2]- المصدر نفسه، ص214.

[3]-المصدر نفسه، ص274.

[4]-المصدر نفسه، 311.

فهو يرى أنّ أرض مصر لها من عجائب الدّنيا ما لا يعد ولا يحصى لهذا تعجّ مصنّفات المؤرخون بالحديث عنها، ومن جملة ما رآه العبدري بمصر نهر النيل فقد وصف لنا مدى اتسّاع هذا النهر وعظيم فائدته في حياة المصريين، وأورد لنا حديث رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم في حادثه الإسراء والمعراج أربعة أنهار في الجنة اثنان ظاهران وهما نهر النيل والفرات، واثنان باطنان: **"ونيلها من عجائب الدّنيا عذوبة، واتسّاعا وغلّة وانتفاعا وقد وُضعت عليه المدائن والقرى، فصار كسلك انتظم دورا، وقد روينا في الصحيح أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة الإسراء وصل إلى سدرة المنتهى، فإذا في أصلها أربعة أنهار، نهران ظاهران، ونهران باطنان، فسأل عنه جبريل عليه السلام فقال له: أمّا الباطنان ففي الجنة، وأمّا الظاهران فالنّيل والفرات".**[1]

واعتمد العبدري على كتاب البكري في وصف نهر النيل وأثر زيادته ونقصانه على حياة المصريين: **" قال البكري: وليس في الأرض نهر يسمّى بحرا ويمّا غيره قال الله تعالى:"فألقيه في اليّم" واليَّم: البحر، فسمّاه بحرا وحق له ذلك، قال: وليس في الدّنيا نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل ولا نهر يجبى منه إلاّ جزء ممّا يجبى من النيل، وابتداؤه بالتّنفس في حزيران، وهو شهر يونيه، فإذا انتهت الزيادة ستة عشر ذراعا تمّ خراج السلطان وخصب الناس الكافي، وكان المرعى ناقصا فأضر بالبهائم، فإذا بلغ سبعة عشر فذلك الخصب العام والصلاح التّام، فإذا بلغ ثمانية عشر أضّر بالضياع وأعقب الوباء بمصر، وقد بلغ في خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه تسعة عشر ذراعا، قال ابن حبيب: وإن نقص إلى خمسة عشر ذراعا نقص من خراج السلطان ولا يستسقى لذلك، وإن حطّ إلى أربعة عشر ذراعا استسقوا وكان الضرّر الشّديد".**[2]

---

[1]-رحلة العبدري، ص312، 313.

[2]-المصدر نفسه، ص313.

نلاحظ أنّ العبدري يعتمد على المصادر التاريخية للتأكّد من صحّة المعلومات التي يذكرها في رحلته ومن ذلك صحة الروايات في مدى زيادة ماء النيل ونقصانه، ومدى تأثير هذا الاختلاف في كمية مياه هذا النهر على حياة المصريين بالمنفعة أو بالضرر.

ثمّ يصف لنا العبدري مدى اتسّاع نهر النيل:" **قلت: والنيل نهر متّسع جدّا أخذ من الجنوب إلى الشمال، ويفترق بعد مسافة من فسطاط مصر على ثلاثة أنهار، ولا يدخل واحد منها إلاّ في القوارب شتاء وصيفا. وقد دخلته من مجمع نهرين فقرأت حزبا من القرآن قبل أن يقطع القارب إلى الجيزة الأخرى، وصورة السقي به أنّ أهل كلّ بلد لهم خلج تخرج منه، فإذا مدّ أنزعها ففاضت على المزارع وسقتها كما تسقي سائر الأنهار، وقد علموا أين ينتهي سقي كل مقياس، ومن غرائب صنع الله، أنّ مدّه يبتدئ في معمعان الحرّ وشدّته في الوقت الذي تفيض فيه الأنهار، وينتهي في الوقت الذي تمدّ فيه الأنهار، ويفيض فيحسر الماء عن الأرض في مبدأ زمان الحرث"[1]**

ثم ذكر العبدري نقلا عن البكري عن تأثير نهر النيل على باقي الأنهار في حالة نقصانه أو زيادته" **وقد حكى البكري عن ابن حبيب أنّ الله تعالى جعل النيل معادلا لأنهار الدّنيا فحين يبتدئ بالزيادة تنقص كلّها، وذلك لخمس بقين من شهر يونيه، وحين يبتدئ بالنقصان تزيد كلّها"[2]**

كان لنهر النيل تأثير عظيم على حياة المصريين منذ القديم فلقد ارتبط اسمه بالمعتقدات الدّينية، وسمّي هذا النهر بنهر الحياة، أو شريان الحياة.

---

[1] -رحلة العبدري ، ص314.

[2] -المصدر نفسه، ص314.وينظر المسالك والممالك لأبي عبيد البكري، الدار العربية للكتاب، ج1، ص501.

وصف أهرامات مصر:

تعتبر الحضارة المصرية من أعرق الحضارات التي تركت آثارا لا مثيل لها في العالم، فقد وصل المصريون القدماء إلى مراحل متقدمة من التطوّر العلمي والهندسي، وذلك يظهر بشكل واضح وجلّي في الأبنية التي تركوها مثل الأهرامات العظيمة والتي جاء ذكرها في نص للعبدري قائلا:"**أمّا أهرامها وبرابيها فمبانٍ عجيبة في غاية الغرابة مضمنّة من الحكمة وغرائب العلوم ما صار أعجوبة على وجه الدّهر. وبين الناس تنازع في أوّل من بناها وفي أي شيء قصد بها، ولهم فيه خوض كثير لا حاجة بنا إليه، وقد ذكر القاضي صاعد صاحب الطبقات أنّ جماعة من العلماء زعموا أنّ جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان إنّما صارت عن هرمس الأوّل الساكن بصعيد مصر الأعلى، وهو الذي يسميه العبرانيون خنوخ وهو إدريس (النبي) عليه الصلاة والسلام، وأنّه أول من تكلّم في الجواهر العلوية، والحركات النجومية، وأوّل من بنى الهياكل ومجّد الله تعالى فيها، وقالوا: إنّه أوّل من أنذر بالطوفان ورأى أنّ آفة سماوية تلحق الأرض من الماء أو النّار فخاف ذهاب العلم ودروس الصنائع فبنى الأهرام والبرابي التي في الصعيد وصوّر فيها جميع الصناعات والآلات، ورسم فيها العلوم حرصا منه على تخليدها**"[1] ثمّ يصف العبدري شكل الأهرامات وكيف بنيت:"**والأهرام مبان من حجارة، صارت لإحكامها كالحجر الواحد في غاية العلّو، متّسعة الأسفل، مستديرة الشكل فكلّما طلعت انخرطت حتّى صار أعلاها حادّا على شكل المخروط. وليس لها باب ولا مدخل ولا يعلم كيف بنيت**"[2]

ويواصل الرحالة العبدري حديثه عن هذه الأهرام ويبحث عن سبب بنائها ويستند إلى أقوال البكري في ذلك:"**وقد ذكر البكري في المسالك، وذكره المسعودي، ومن كتابه نقله البكري أنّ أحمد بن طولون صاحب مصر، استحضر من أرض الصعيد شيخا له مئة وثلاثون سنة، موصوفا**

[1]-رحلة العبدري، ص315.

[2]- المصدر نفسه، ص316.

بالعلم والحكمة، فسأله عنها، فقال:" إنّها بنيت لحفظ جثث الملوك، فقال له: كيف بنيت بتلك الحجارة العظيمة؟ فقال: إنّهم كانوا يبنونها على مراق أبرزوها من البنيان، فإذا فرغوا نحتوها". [1]

لقد أسهب العبدري في وصف أهرامات مصر وكان بين الحين والآخر يرجع إلى المصادر التاريخية في كل أحكامه وتعليقاته ليبني فكرته على أساس صحيح.

المشاهد والمزارات الدّينية في مصر:

من بين المعالم الحضارية الموجودة بمصر قبور الأنبياء والصالحين والتي كانت محط اهتمام الرحالين **على مرّ العصور فالعبدري** شغف بزيارة هذه المشاهد ووصفها:" **وفي مصر من المزارات الشريف عدّة وافرة ومن أعظمها تربة رأس الحسين رضي الله عنه، عليها رباط في غاية الإبداع والتّنويه، والأبواب عليها حلق الفضة وصفائحها"**[2]

لم يفصّل العبدري في وصفه لقبر الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما مثلما فعل ابن جبير وابن بطوطة اللّذان أبدعا في تصوير هذا المشهد العظيم.**فاكتفى بوصف الأبواب المزيّنة بصفائح الفضة.**

ثم ينتقل العبدري للحديث عن قبر السيّدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما[3] وهي من المزارات الشريفة التي تعوّد المصريون على زيارتها تبرّكا بتربتها الصالحة فجاء وصف العبدري لها كالآتي: "**ومن المزارات بربضها الغربي روضة السيّدة الشريفة الطاهرة، ذات**

---

[1]- رحلة العبدري؛ ص316، 317.

[2]-المصدر نفسه، 319.

[3]-هي نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علّي بن أبي طالب، عالمة بالتفسير والحديث، ولدته بمكة سنة 145هـ ونشأت بالمدينة وانتقلت إلى القاهرة فتوفيت بها سنة 208هـ، ترجمتها في وفيات الأعيان 5/ 423 غربال الزمان ص198، أعلام النساء 5/ 187.

الفضائل الظّاهرة والكرامات المتظاهرة: نفيسة بنت عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما، وتربتها هنالك مشهورة، وهي على أوفى ما يكون بناء مُونقا وضياء مشرقا، وعناية كاملة، وحفاية حافلة، ومن رآها لم يشك في فضل ملوكهم، وأنّهم جعلوا تعظيم أهل البيت مبدأ سلوكهم، اتّخذوه في عقود عمود الدّين واسطة سلوكهم عليها رباط مقصود، ومعلم مشهود، ومحلّ محفود، تصوب بها ديم العناية الرَبانية وتجود"[1]

يعد ضريح السيّدة نفيسة رضي الله عنها رمزا روحيّا ومشهدا مقدّسا، لأنّها أفنت حياتها في طلب العلم، فكانت تقوم اللّيل وتصوم النهار عرفت بزهدها وورعها فجاء وصف العبدري لهذا المشهد العظيم وصفا روحيًا أكثر منه ماديّا حمل دلالات دينية وقيم أخلاقية، فقد اكتسب هذا المكان من الاحترام والتقديس عبر الزمان فكان مزارا للرحالة والسائحين الذين وجدوا في زيارة هذا الضريح راحة النفس ونيل الأجر والبركات.

ويواصل العبدري حديثه عن مشاهد العلماء والصالحين ويصف في هذا النّص قبر الإمام الشافعي رحمه الله قائلا:**"ومن المزارات بقرافة مصر: تربة الإمام الشافعي– رحمه الله– وهي أشهر من أن تخفى وأظهر من أن تغفل أو تنسى، عليها رباط كبير ومحّل أثير وفيها جراية تزيدها اشتهارا، وعناية تلحفها مبّرة وإيثارا وعليها قبّة عجيبة مشهورة، معدودة في المباني المتقنة مذكورة مفرطة الارتفاع والاتسّاع، غريبة في الإحكام والإبداع، ذرعتها من داخلها فوجدت سعتها أزيد من ثلاثين ذراعا، وفيها من العدد والأسباب والآلات يعجز عنه الوصف".[2]**

الإمام الشافعي هو ثالث الأئمة الأربعة عند أهل السنة والجماعة وصاحب المذهب الشافعي في الفقه الإسلامي، ومؤسس علم أصول الفقه، وله اجتهادات في علم التفسير وعلم الحديث عرف

[1]-رحلة العبدري، ص328.

[2]-المصدر نفسه، ص327.

بزهده وورعه فكان عالما وشاعرا، ورحالا مسافرا قضى سنواته الأخيرة بمصر وحين توفي دفن بها ويعد ضريحه من أكبر الأضرحة بمصر، ومن أشهر مزاراتها فجاء وصف العبدري لهذا الضريح مطابقا لوصف ابن جبير من حيث المساحة والاتسّاع، والإتقان والإبداع وهذا يدل على أنّ هذه المشاهد المقدسة أثارت اهتمام الرحالة الذين تعوّدوا على زيارتها والتبرّك بها امتنانا لهؤلاء الصالحين والزهّاد الذين تركوا آثارا خالدة ظلّت تحمل اسمهم وتشهد على خلقهم وعلمهم.

يخرج العبدري من القاهرة بصحبة الرّكب المتوّجه إلى مكة فيقطع مراحل كثيرة، ويمرّ على مناطق، وإنْ لم يخصّها بالوصف الدقيق كما فعل بالبلدان الأخرى التي زارها، فنلاحظ أن وصفه جاء موجزا يكتفي فيه بذكر المسافات التي تفصل بين تلك المراحل، وذلك عن طريق ذكر الزمان الذي يقضيه المسافر بينها:**"وأمّا مناهل هذه البريّة فمن البركة إلى السّويس ثلاثة أيّام"**[1] ثمّ يضيف قائلا:" **ومن مغبوق إلى بئر النخل ثلاثة أيّام"**[2] لقد اكتفى العبدري بذكر أسماء المناطق التي مرّ بها مع تحديد المسافات الفاصلة بينها ما جعل ملكة الوصف تخمد عنده، ولقد أشار المستشرق الروسي كراتشوفسكي إلى هذا التحوّل في منهج العبدري في الوصف فقال بأنّه:" **ابتداء من القاهرة يبدأ الوصف يفقد حيويته وتفصيله"**.[3]

ثمّ يرجع العبدري إلى التفصيل ويتوّسع في الوصف حين يشارف الحجاز بحلوله **ينبع، إذ يصف البلد ويستحضر ما قيل فيه:" وينبع من بلاد الحجاز المعروفة وهي بليدة في أصل جبل ضعيفة البناء قلية السكان، والخراب بها كثير وغربيّها بسيط متّسع، وهو محطّ الرّكب، ولكنّه سبخة لا تنبت، وفيه نخيل وماء معين طيّب"**.[4]

---

[1]- رحلة العبدري؛ ص335.

[2]-المصدر نفسه، ص336.

[3]-تاريخ الأدب الجغرافي، كراتشوفسكي، نقله إلى اللغة العربية صلاح الدين عثمان هاشم، القسم الأول، ص367.

[4]-رحلة العبدري؛ أبي عبد الله محمد العبدري، ص345.

يرى العبدري أنّ ينبع منطقة صغيرة، قليلة السكان، ضعيفة البناء بها مسجد صغير:"**وبخارج ينبع من ناحية الجبل مسجد محكم مليح، يقولون: إنّه مسجد علّي بن أبي طالب رضيّ الله عنه ولعلّه كان بنى هنالك مسجدا حين تنحّى إلى ينبع في أيّام عثمان رضي الله عنهما**".[1]

لم يعطنا وصفا كاملا لهذا المسجد مثلما فعل مع وصفه للمساجد التي عاينها بنفسه فقط اكتفى بالتعريف بالمسجد الذي يرجع بنائه إلى علّي بن طالب رضي الله عنه في زمن خلافة عثمان بن عفّان.

وصف مكة:

ويصل العبدري أخيرا إلى مكة، البلد الذي ظّل يلهج بذكره وشدّ الرّحال من أجل الوصول إليه فعبّر عن وصفه لمكة قائلا:"**وهي شرّفها الله بلدة كبيرة متصّلة البنيان في بطن واد بين جبال محيطة بها، لا يراها القاصد إليها حتّى يشرف عليها ؛والجبال المحيطة بها ليست شامخة، وبنيانها آخذ في الاستطالة مع الوادي، ولا سور لها، إلاّ أنّها حيزت من أعلى الوادي وأسفله بحائطين من صخور لا ملاط لها، قطعا الوادي عرضا حتّى وصلا بين الجبلين، وهما على فسحة من البلد، وأعلى الوادي ناحية المشرق وأسفله ناحية المغرب، ولكنّ دخول الحجّاج من أعلاه، ولها ثلاثة أبواب: باب المعلاة من أعلاها، وباب الشبيكة من أسفلها والثالث باب اليمن من جهة الجنوب**".[2]

فمكة بلدة كبيرة متّصلة البنيان تقع في واد تحيط به جبال لذلك لا تظهر لناظرها حتى يقترب منها ولم تكن مكة محاطة بسور أو حائط يفصل بينها وبين الحدود المجاورة لها.

---

[1]- رحلة العبدري؛ ص346.

[2]-المصدر نفسه، ص364، 365.

ويلتفت العبدري وهو بمكة إلى معالمها الأثرية فيصف المسجد الحرام قائلا:"**وأمّا المسجد الحرام– زاده الله تشريفا– فهو وسط البلد، كبير متّسع، يكون طوله أزيد من أربع مئة ذراع كما ذكر الأزرقي– رحمه الله–وطوله من الشرق إلى الغرب وهو قريب من التربيع، يخيّل للنّاظر إليه أنّه مربع، مفروش برمل أبيض جميل المنظر جدّا، محكم العمل، عجيب الصفة، كثير الإشراف، مرتفع الحيطان نحو عشرين ذراعا، ودوره كلّه مسقّف على أعمدة عالية، ثلاثة صفوف بأتقن ما يكون من العمل، وفي كلّ جهة أبواب جملتها تسعة وثلاثون، وباب بني شيبة في ركن الحائط الشرقي من جهة الشمال أمام باب الكعبة متياسرا، وفي جهة الشمال باب دار النّدوة، ودار النّدوة قد جعلت مسجدا شارعا في الحرم مضافا إليه، وهي مقابلة للحجر والميزاب، وفي جهة الغرب باب العمرة، وهو من أجمل أبوابه، وهنالك مدرسة مليحة لها علوّ وسفل**".[1]

جاء الوصف مفصّلا عن المسجد الحرام شمل المساحة والطول مستندا بقول الأزرقي كما أشار إلى ذلك فهو دقيق في تحديد المسافات والأبعاد لأنّه عاين هذا اكان بنفسه لذلك جاءت أوصافه للمسجد ارام مطابقة لوصف ابن جبير وابن بطوطة.

وصف قبة بئر زمزم:

بئر زمزم إحدى المعالم التاريخية المقدّسة الموجودة في حدود مكة المكرمة، فلقد شاهد العبدري هذا البئر بنفسه قائلا:"**وفي شرقيّ الكعبة بإزاء الباب قبّة زمزم على البئر، كبيرة متّسعة مربّعة، وفي دورتها حياض متقنة العمل دائرة مع القبّة، تملأ بالماء للوضوء، وعلى البئر تنّور من رخام وعمق البئر من أعلاه إلى سطح الماء كما ذكروا نحو من ثلاثين ذراعا ؛ومن سطح الماء إلى**

[1]-رحلة العبدري، ص367.

قعر البئر نحو من أربعين ذراعا، ويقال: إنّ عمقه من أعلاه إلى أسفله اثنان وسبعون ذراعا، وسعته قريب من أربعة أذرع".[1]

بئر زمزم تحيط به قبّة كبيرة بنيت للحفاظ على طهارة الماء؛ والعبدري في وصفه لهذه القبة يرجع إلى المصادر التاريخية لتحديد المسافة بين عمق البئر والماء الموجود فيه، ويقارن ما عاينه بنفسه وما ورد في كتب التاريخ وهذه السمة الغالبة على أسلوبه في التأكّد من صحّة المعلومات ثمّ عرضها على المتلّقي في صورتها الحقيقية دون زيادة أو نقصان.

مقام ابراهيم:

يخصّص العبدري كسابقيه حيّزا مهمّا للحديث عن المقام، مقام ابراهيم عليه السلام، إنّه كما قال السابقون:**"حجر فيه أثر قدمي ابراهيم وقف عليه وهو يبني الكعبة فساخت فيه قدماه، وقيل: كان كلّما ارتفع البناء، ارتفع به المقام في الهواء حتّى تمّ البيت"**[2] ثم يواصل حديثه عن مقام ابراهيم بالاستناد إلى أقوال الأزرقي:" **قال الأزرقي هو مربّع طوله ذراع، وعرضه احدٌ وعشرون إصبعا، والقدمان داخلتان فيه سبعة أصابع، وبين القدمين إصبعان، ووسطه قد استدقّ من التّمسّح به. وهو في حوض من ساج مربّع حوله رصاص، والحوض ملبّس بالرّصاص وعليه صندوق ساج مسقّف يقفل عليه، قال: وهو حجر رخو مضبّب بالذّهب من أعلاه وأسفله ضببه المهدي بألف دينار، وزاد عليه المتوكّل ذهبا آخر"**[3]

---

[1]- رحلة العبدري؛ أبي عبد الله محمد العبدري، ص369.

[2]- المصدر نفسه، ص373.

[3]- المصدر نفسه، ص374.

ويشهد العبدري بأنّ على الحجر شباكا مقفلا عليه، ومن ورائه موضع قد حيز، وجعل مصلّى لركعتي الطواف وغيرهما[1].

وصف الكعبة:

منذ أعوام سحيقة، ومنذ أن عرف الإنسان الله، وأدرك الطريق إلى هداه وتطهّر قلبه بنور ربّاني مشرق، سعى من تيسّر له من بني جنسه إلى زيارة بيت الله الحرام، من أجل أن يغتسل من الذنوب والأوزار، وكانت الكعبة المشّرفة إحدى المزارات المقدّسة في مكّة؛ ورحالتنا كعادته يطيل في وصفه لهذا الصرح المقدّس قائلا:" **وأمّا الكعبة– شرّفها الله– فهي في وسط المسجد وفي موضعها يسير نتوء يبيّن للمتأمّل، وبناؤها عجيب متقن من حجر منحوت محكم الإلصاق ولونه إلى الحمرة مع دكنة يسيرة وارتفاعها في السّماء– كما ذكروا– ثلاثون ذراعا، بعلمين مثبتين في البناء وهما أسطوانتان خضروان، والمطاف لاصق بالمسجد؛ والمسجد على يسار الذّاهب من الصفّا والمروة، ناتئ مثل الصفّا أو دونه قليلا، ولها درج لا أقف الآن على حقيقته ؛وذكر الأزرقي أنّه خمس عشرة درجة وأن أرى غير ذلك، ولست من هذا على ثقة وعليها قوس مبني، ووراءهُ موضع أبيض مضيء مستو**".[2]

تقع الكعبة في وسط المسجد الحرام، وسميت بالكعبة لعلوّها وبروزها ؛وهي مبنية من حجر منحوت محكم الإلصاق يميل إلى الحمرة تقريبا، والعبدري دائما يرجع إلى أقوال المؤرخين ويعتمد على رواية الأزرقي ليتحقّق من بعض المعلومات لكنّه في نصّه هذا ينفي بعض الحقائق التي وردت عن الأزرقي بالنسبة للدرج الموجود بالكعبة، فرغم الاختلاف الموجود بين وصفه ووصف غيره ممّن زاروا الكعبة تبقى أول بيت بني للنّاس، فهي رمز لوحدانية الله التي اقتضت حكمته أن يشيّد فوق الأرض بناء يكون شعارا لتوحيد الله وعبادته وحده، ويظلّ مع الدّهر تعبيرا للعالم عن المعنى الصحيح للدّين

[1] -ينظر رحلة العبدري؛ ص374.

[2] -المصدر نفسه، ص375.

والعبادة، وعن بطلان الشرك وعبادة الأصنام فهذا البيت (الكعبة) هو الشعار الذي يجسّد وحدة المسلمين في أقطار الأرض شرقها وغربها.

وصف المدينة المنورة:

خصّ الله سبحانه وتعالى بعض الأمكنة بخصائص متميّزة دون سواها، فعلى سبيل المثال المدينة المنورة فإنّها تحتلّ مكانة جليلة بين مدن العالم الإسلامي، ولها قدسيتها وخصوصيتها في قلوب المسلمين، فهي دار الهجرة ومهبط الوحي، ومثوى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيها مسجده الشريف، فهي سيّدة البلدان وعاصمة الإسلام، والعبدري وصف المدينة المنورة وهو مقيم بها لإكمال مناسك الحج، فجاء وصفه قائلا:" **وهي– زادها الله تشريفا– مدينة مليحة، ظاهرة الشّراقة والرّونق، موضوعة في مستو من الأرض على واد به غابة عظيمة من النّخل، وأرضها سبخة وبظاهرها حَرَّة سَوْداء ووعر وسورها قد أثر فيه القدم، وتربته حمراء، ولها جملة أبواب، لا أحصي عدّتها، والبقيع شرقيّها، وجبل أحد شماليّها، وهو جبل عال إلى الحمرة وليس بمفرط العلّو، وقباء منها في جهة الشّرق تلوح مبانيه وصومعته من المدينة وبينهما نحو من ثلاثة أميال**".[1]

تعتبر المدينة المنورة واحة زراعية تمتّد على فسيح من الأرض الخصبة، تكتنفها جرار ذات حجارة سوداء، وتتميّز بخصوبة أرضها ووفرة مائها، وهي محاطة بمحميات تضاريسية مثل الجبال، يوجد بشمالها جبل أحد، وبشرقها البقيع وقباء، وهي مدينة جميلة المنظر والإشراقة.

ويوجد في المدينة المنورة العديد من المعالم الدّينية المرتبطة بالدّين الإسلامي بشكل كبير نذكر منها ما يلي:

---

[1]-رحلة العبدري، ص422.

مسجد رسول الله صلّى الله عليه وسلم:

المسجد النبوي أو مسجد رسول الله هو ثاني مكان مقدّس بعد المسجد الحرام بمكة، أسسّه النبيّ الكريم رفقة أصحابه المسلمين فكان مركز للدعوة الإسلامية، والمنارة التي انطلق منها نور الإسلام، يصفه العبدري قائلا:**"أمّا مسجد النبي صلّى الله عليه وسلم فعلى صورة المسجد الحرام، إلاّ أنّه في المساحة دونه بكثير، وعرضه على النصف من طوله، وطوله من الجنوب إلى الشمال، وعرضه من الشّرق إلى الغرب، وهو عالي السمك مبيّض مدّور بالسقائق، عجيب المنظر، ووسطه فضاء مفروش برمل أحمر وأساطينه مبيّضة بالفضّة، عالية متسّع ما بينها، وأوسع سقائقه ناحية الجنوب، وفيها المحراب، وهي خمسة صفوف"**[1].

ثم يذكر العبدري الترميمات التي طرأت على المسجد بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام:**"وقد وسّع المسجد مرارا بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلم، وكان المسجد من موضع المنبر إلى الرّوضة المقدّسة شرقا وغربا، ومن موضعه إلى علم هناك جنوبا وشمالا، وكان المنبر إلى الجدار الغربّي، ثمّ وسع المسجد غربا وجنوبا وشمالا، وبقي المنبر بموضعه، والزّيادة على المسجد من ناحية الغرب قدر مساحته، ومن الجنوب صف واحد وفيه المحراب ومن الشمال قدر مساحته ثلاث مرّات، وأمّا الشّرق فلم ير فيها إلّا مقدار ممّر إنسان من وراء الرّوضة المقدّسة؛ وكانت مساحة المسجد حين بناه رسول الله صلّى الله عليه وسلم مئة ذراع طولا وعرضا ؛وقيل سبعين طولا وستّين عرضا وقيل غير ذلك ؛وللمسجد أربعة أبواب ؛باب السلام وباب الرّحمة من ناحية الغرب ؛ وباب جبريل وباب النّساء من ناحية الشّرق "**[2]

[1]- رحلة العبدري، ص423، 424.

[2]-المصدر نفسه، ص 424.

المسجد النبوي لا يختلف عن المسجد الحرام من حيث العمارة والتّصميم؛إلّا أنّه يصغره مساحة ؛والرحالة فصّل في الحديث عن وصفه لهذا المسجد بتتبّع الحقب التّاريخية التي مرّت عليه خصوصا التغيّرات التي طرأت من حيث توسيع المساحة.

وصف الروضة الشريفة:

ارتسم المشهد الدّيني في رحلة العبدري بالحديث عن أبرز الشواهد والآثار المقدّسة في وصف قبور الصحابة والأولياء قائلا:**"وأمّا الرّوضة المقدّسة –زادها الله شرفا وجلالة–فهي في داخل المسجد عند الجدار الشّرقي؛قريبا من الركن الذي على يسار المحراب؛وبينها وبين الرّكن الصّف الأول؛وبينها وبين الجدار الشّرقي ممّر ضيّق حسبما تقدّم؛وهي–شرّفها الله–معمولة بالرّخام الأبيض من الأساس إلى سقف المسجد بأتقن ما يكون من الصّنعة وأعجبه؛ وهي موضوعة على شكل التّربيع؛ولكن ربعها الشّمالي ينحو نحو الاستدارة؛وفيه أركان وبعض انخراط إلى الجهة الشّرقية؛وفي ركنها الواصل بين الجدار الغربي والجنوبي صندوق مليح من خشب مبني في الحائط بإزاء النبيّ صلّى الله عليه وسلم؛وعلى يمينك وأنت مستقبل له علم بإزاء رأس أبي بكر رضي الله عنه؛ ثمّ آخر بإزاء رأس عمر رضي الله عنه؛ويعطي ذلك أنّها على هذه الصورة.....وقد قيل فيها صفة أخرى غير هذه والله أعلم"**[1]

المتأمّل لهذه الفقرة يجد أنّ ألفاظها تفيض بالمعاني الإيمانية و الرّوحية، فالعبدري أعطانا صورة حيّة تتحرّك من خلال وصفه لأطهر مكان يوجد به جسد النبي صلى الله عليه وسلم وبجانبه قبر أبو بكر الصّديق وعمر بن الخطّاب الذين كانوا من خيرة أصحابه في الدّنيا، فشاءت قدرة الله أن يجاوروه في دار الخلود فياله من مشهد عظيم ووصف جليل فاق حدود المشاهد الدّينية التي ذكرت في متن الرّحلة.

---

[1]- رحلة العبدري؛ ص425.

ثمّ يشدّ العبدري الرحال إلى القدس الشريف باعتباره أولى القبلتين وثالث الحرمين، فيصف بيت المقدس قائلا:"**والبلد مدينة كبيرة، منيعة، محكمة، كلّها من صخر منحوت، على نشز غليظ مقطوع بجهات الأودية، وسورها مهدوم، هدّمه الملك الظّاهر خوفا من استيلاء الرّوم عليه، وامتناعهم بها، والخراب فيها فاش، وليس بها نهر ولا بستان، وحواليها تلال مشرفة عليها، وبها كنيسة معظّمة عند النصارى يحجّونها في كلّ عام، وهي التي يزعمون أنّ فيها قبر عيسى عليه السلام**".[1]

حظيت بيت المقدس وما جاورها لدى الرحالة بنصيب وافر من الوصف والدراسة والتحليل، نظرا لما لها من أهمية تاريخية ودينية لدى الجميع من مسلمين ومسيحيين، والواقع أنّ ما يدفع الرحالة للقيام بزيارة هذه البلاد المقدسة، ليس فقط لأنّها مسرى النبي صلّى الله عليه وسلم ومركز الأديان، ومهد المسيح، بل لأنّها مكان قدّسه الله سبحانه وتعالى وباركه للعالمين منذ بدأ الخليقة، والعبدري كغيره من الرحالة وقف عند هذا المعلم التاريخي ورأى أن بيت المقدس مدينة كبيرة، محكمة البناء، لا يوجد بها لا نهر ولا شجر فهي بلد خراب، وتوجد بها كنيسة عظيمة ادّعوا أنّه يوجد بها قبر عيسى وهذا في عرف النصاري، إلاّ أن العبدري لم يعطنا أيّ وصف لهذه الكنيسة سواء كان وصف داخلي أو خارجي مثلما فعل ناصر خسرو عندما زار بيت المقدس وأقام فيها سَبعَ سنوات ليدرس معالمها وآثارها التاريخية والعمرانية والدّينية في كتابه سفر نامة" أي زاد المسافر فقال في الكنيسة:" **هذه الكنيسة فسيحة تسع ثمانية آلاف رجل، وهي عظيمة الزخرف، من الرّخام الملّون والنقوش والصور، وهي مزدانة من الداخل بالدّيباج الرّومي والصور، وزيّنب بطلاء من الذهب، وفي أماكن كثيرة منها صورة عيسى عليه السلام، وهذه الصور مطلية بزيت السندوس**"[2].

---

[1]-رحلة العبدري ؛ ص469، 470.

[2]-سفرنامة ، ناصر خسرو علوي، ترجمة الدكتور يحي الخشّاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط د، ص91.

مهما عظم وصف الكنيسة، ومهما زيّنت بالزخارف وطُليت بماء الذهب إلاّ أنّها لا تضاهي مساجد المسلمين في قدُسّيتها ونفحاتها الإيمانية.

وصف المسجد الأقصى:

احتّل المسجد الأقصى مكانة مرموقة عند الرحالة الذين زاروا هذا المكان المقدس باعتباره ثالث الأماكن التي يشدّ الرحال إليها من كل حدب وصوب، والعبدري يتحدّث عنه واصفا:"**وأمّا المسجد المقدّس فهو من المساجد الرائقة، العجيبة المنشرحة، الفسيحة، وهو متسّع جدّا طولا وعرضا، وذكر أبو عُبيد البكري أنّ طوله:" سبع مئة واثنان وخمسون ذراعا بالمالكيّ وهو ثلاثة أشبار، وطوله من الجنوب إلى الشّمال، وعرضه أربع مئة وخمس وثلاثون"، وهو من الشّرق إلى الغرب، وله أبواب كثيرة من الشّرق والغرب والشّمال، والمسجد كلّه فضاء غير مسقّف ؛إلاّ النّاحية الغربية فهنالك مسجد مسقّف في نهاية الإحكام، وإتقان العمل، وفيه تزويق كثير وتذهيب مليح".**[1]

المسجد الأقصى في غاية الإتقان والإبداع فسيح في أرجائه، واسع في طوله وعرضه، ونلاحظ أنّ العبدري دائما يرجع إلى المصادر التاريخية للاستناد بها في نقل وتوثيق المعلومات على وجهها الصّحيح.

إنّ عمارة المساجد وحي من الله سبحانه وتعالى أوحى بها إلى نبيّه، الذي بنى أول مسجد جامع للمسلمين يرمز إلى أصالة وعراقة الحضارة العربية الإسلامية التي مازالت شامخة وخالدة بارتكازها على الدّين الإسلامي الذي ترجمته كثرة المساجد وعمارتها التي تعتمد على الزخرفة الإسلامية، وترفض التجسيم والتصوير.

1-رحلة العبدري، ص 469، 470.

وصف قبة الصخرة:

معظم الرحالة الذين زاروا بيت المقدس، شاهدوا الصخرة الكبيرة التي عرج عليها النبيّ صلى الله عليه وسلم من السماء الدّنيا إلى السماء العليا، فقدّم هؤلاء الرحالة وصفا مشفعا لهذه الصخرة، والعبدري لم تفته فرصة معاينة هذا المشهد المرئي الجميل قائلا:"**في وسط فضاء المسجد قبّة الصّخرة، وهي من أعجب المباني الموضوعة في الأرض واتقنها، وأغربها، قد نالت من كلّ حسن بديع أوفر حصّة وتلت من الإتقان ظاهره ونصّه، وتجلّت في جمالها الرّائع كعروس حسناء جُليت على منصّة، قامت مشرفة متبرّجة على يفاع، تُصرَّح وتلوّح بالإعراب والإبداع، وتفصح بما يشرح عن فضيلة الصنّاع**"[1]

لقد نجح العبدري في تصوير قبّة الصخرة، فلقد شبّهها بالعروس التي جليت وزيّنت بأجمل أنواع الزينة، تتبختر في مشيتها لتبدي جمالها وحسنها لعامة النّاس، فالوصف عنده فاق حدود الوصف التي ألفناها مع رحالة آخرين، فهو أنطق قبّة الصّخرة وجسّمها وشخصّها، وبثّ فيها الروح والحياة وكأنها كائن حيّ يتحرك، وهذا يدّل على براعة وسعة خيال العبدري في الوصف. تبقى قبّة الصخرة إحدى المعالم الإسلامية الخالدة التي تعكس شخصية الفنّان المسلم، فهذا الصّرح المقدّس هو من إبداع المسلمين الذين كانت لهم إسهامات كبيرة في بناء الحضارة العربية الإسلامية من بينها إنشاء المساجد ودور العلم لتكون شاهدا حيّا على تراث العالم العربي الإسلامي.

1-رحلة العبدري، ص470.

المظهر الفني:

الملكة الأدبية حاضرة بقوة في رحلة العبدري، حيث نجد الرحلة يأخذ منها الشعر حصّة الأسد، إن دلّ على شيء إنما يدلّ على حبّ صاحبها للقريض وتفنّنه في التّعبير عن نظرته الفنيّة للأشياء والمظاهر والمواقف، فنجده مرّة يجود بقريحته يعبّر عن أحاسيسه وخلجات نفسه وفلسفته نحو ما رآه في هذه الرحلة، وتارة أخرى يبدي شغفه وإعجابه بشاعر من شعراء المدن التي مرّ بها في رحلته، حيث ذكر أبياتا لابن خميس التلمساني حين دخل مدينة تلمسان، وهذا مقتطف منها.

وَمِنْ العجَيبَةِ أَنْ أُقِيمَ بِبَلْدَةٍ — يَوْمًا وَ أَسْلَمُ مِنْ أَذَى جُهَّالِهَا

شُغِلُوا بِدُنْيَاهُمْ أَمْ شَغَلَتْهُمْ — عَنِّي، فَكَمْ ضَيَّعْتُ مِنْ أَشْغَالِهَا

حُجبُوا بِجَهْلِهِمْ فَإِنَّ لاَحَتْ لَهُمْ — شَمْسُ الهُدَى عَبَثوا بِضَوءِ ذُبَالِهَا[1]

ومن قوله أيضا:

أنبت ولَكِنْ بَعْدَ طُولِ عِتَابٍ — وطُولِ لجاج ضَاعَ فِيه شَبَابِي

وَمَازِلْتُ – والعَلْيَا تُعَنِّي غَرِيمَهَا- — أُعَلّلُ نَفْسِي دَائِمًا بِمَتَاب

وَهَيْهَاتَ بِهَذَا الشَّبَابِ وَشَرْخِهِ — يَلَذُّ طَعَامِي أو يَسُوغُ شَرَابِي

خُدِعْتُ بِهَذَا العَيْشِ قَبلَ بَلاَئِهِ — كَمَا يُخدعُ الصّادِي بِلَمْعِ سَرَاب

تَقُولُ : هُوَ الشَّهْدُ المَشُورُ جَهَالَةً — وَلَكِنّهُ السُمُّ المَشُوبُ بِصَابِ.[2]

هذه الأبيات تصوّر اللّوعة والأسى تتدفق من نفس الشاعر فيعبّر بها عن إحساسه إزاء الحياة، وما يعتريها من نوائب ثم تتبّع هذه الأبيات لذكر شواهد من الماضي تثبت حقيقة هذه الدنيا وتظهر ما يتخلّلها من تقلبات، فقال:

وَلَكِنّها الدُّنْيا تَكُرُّ عَلَى الفَتَى — وإنْ كَانَ مِنْها فِي أَعزِّ نِصَابِ

وَعَادْتُهَا ألاَّ تَوَسُّطَ عِنْدَهَا — فَإمَّا سَمَاءٌ أَوْ تُخُومُ تُرَابَ

---

[1] - رحلة العبدري، ص 54، 55.

[2] - المصدر نفسه، ص 55.

فَلاَ تَرْجُ مِنَ دُنْيَاكَ وِدا وَإِنْ يَكُنْ فَمَا هُوَ إلاَّ مِثْلَ ظِلِّ سَحَابِ
وَمَا الحَزْمُ كلُّ الحَزْمِ إلاَّ اجْتنابُهَا وَأشْقَى الوَرَى مَنْ تَصْطَفِي وَتُحَابِي
أَبَيْت لَهَا مَادَامَ شَخْصِي أنْ تُرَى تَمُرُّ بِبَابِي أوْ تَطُور جنَابِي
فَكَمْ عَطّلت مِنْ أربُعِ وَمَلاَعِبِ وَكَم فَرَّقْتَ مِنْ أُسْرَةٍ وَصِحَابِ
وَكَمْ عَفَّرْتَ مِنْ حَاسِرٍ وَمُدَجَّجَ وَكَم أَثْكَلتْ مِنْ مُعْصِرٍ وَكَعَابِ[1]

الّدنيا في نظر الشاعر فانية فيوم تُسّر الإنسان ويوم تحزنه ؛فمهما بلغ المرء شأنا كبيرا وعظم قدره، ومهما كثرت أحلامه وكبرت سنّه سيغادرها يوم ما، ويفقده أهله وأصحابه فالدنيا سحابة عابرة، والموت حتمية كل إنسان لذا فالشاعر يحذّر الإنسان الذي تغرّه الدنيا بشهواتها وينغمس فيها وينسى الآخرة ويوم الحساب والعمل لها ثم يواصل الشاعر قائلا:

وَلاَ تَحْسَبُوا أَنِّي عَلىَ الدَّهْرِ عَاتِبٌ فَأعْظَمُ مَا بِي مِنْهُ أَيْسَرُ مَا بِي
وَمَا أَسَفِي إلاَّ شَبَابٌ خَلَعْتُهُ وَشَيْبٌ أَبَى إلاَّ نُصُول خِضَاب
وَعُمْرٌ مَضى لَمْ أَحْلُ مِنْه بِطَائِلٍ سِوَى مَا خَلاَ مِنْ لَوْعَةٍ وتَصَابِ
لَيالِي شَيْطَانِي عَلى الغَيّ قادرٌ وَأَعْذَبُ شيء مِحْنَتِي وَعَذَابِي
عَكسنَا قَضَايَانَا عَلى حُكْمِ عَادنَا وَمَا عَكْسُهَا عِنْدِ النُّهَى بِصَوَابِ
عَلَى أَحْمَد المُخْتَارِ أَزْكَى تَحِيَّتِي فَتِلْكَ التِي أعْتَدُّ يَوْمَ حِسَابِي[2]

إنّ هذه الأبيات تنبعث من روح صادقة، تصوّر نزعة الأسى والحزن التي يحسّ بها الإنسان حين يغادر أيّام شبابه وهو غير راض عن أعماله في هذا العمر الذي قضاه، ولم ينعم بالعيش الهنيء فكانت ليالي هذا الدّهر مليئة بالآلام والمحن؛ فرغم جمال عبارات القصيدة وتناسقها، وانسجامها وتوافق موسيقاها، فقد أحسّ العبدري بأن مقطعها الأخير لا ينسجم مع ما قبله ولهذا قال بعد ذكرها:

"هذه القصيدة مهذّبة الألفاظ والمعاني، وألذّ من نغمات المثالث والمعاني ، إلا أن مقطعها

[1] - رحلة العبدري ؛ ص 57.

[2] - المصدر نفسه، ص 58.

قلق ناب، لا يليق ولو مضغ بضرس وناب، ليس يلتئم بها قبله ولا يمتزج، ولا يزال السّمع يقلق وينزعج، وقد زاولته أن يلتحم فأبَى وحاولته كي يلتئم فنبا"[1].

وهكذا نرى أن تدخله هنا تدخل ذوقي ذاتي متّصل بالربط بين معاني القصيدة، وهو بهذه الملاحظة يعتبر من أهمّ النقاد الذين يرون أن نسج القصيدة على منوال معين يحقّق الانسجام المعنوي بين فقرات القصيدة، في حين نرى العبدري أحيانا يتدخل تدخلا لغويّا أو عروضًا مبنيّا على قواعد مسطّرة من ذلك أنّ ابن خميس حينما قال:

ولكنّها الدّنيا تكرّ على الفتى وإن كان منها في أعزّ نصاب

وعادتها أن لا توسّط عندها فإمّا سماء أو تخوم تراب[2]

قال العبدري بعد ذلك: "....**فإمّا سماء أو تخوم تراب الوجه فيه: وإمّا تخوم تراب بتكرير إمّا بعد حرف العطف وقد يؤتى بها غير مكرّرة إلاّ نادرا[3]، كقول الشاعر :** [4]

إمَّا فَتًى نال العلاَ فاشتفى أوْ بَطَلٌ ذَاقَ الرّدى فَاسْتَرَاحَ

ومن الشعر الذي ذكره العبدري في رحلته قول ابن خميس:

ويابرقا أضاء على أوال يمانيّا متى جئت الشآما

أثغر أمامة أنت ابتساما أم الدرّ الأواليّ انتظاما

خفقت ببطن واديها لواء وسلت على ثنيّتها حساما

أمشبه قلبي المضنى احتداما علا ما ذدت عن جفني المناما[5]

وقد عقّب العبدري على بعض هذه الأبيات، وخرج بملاحظات من ذلك أنّه قال أن الشاعر في البيت الأول أثبت حرف المدّ في كلمة "الشآما"، ويرى أنّ بعضهم يهمل هذا الحرف:

---

[1] - رحلة العبدري ؛ ص 58.

[2] - المصدر نفسه، ص 57.

[3] - المصدر نفسه، ص 59.

[4] - الشاعر الشريف الرضيّ، أحد شعراء العصر العباسي ، ولد ببغداد سنة 359 هـ/ 970م، يجمع ي شعره بين سلاسة اللفظ ومتانته (موسوعة شعراء العصر العباسي، عبد عون الرضوان، ج2،/ 170. البيت من قصيدة في ديوانه، ص 320.

[5]- رحلة العبدري؛ ص59

"قلت: أنكر غيرُ واحد أن يقال الشآم بالمدّ في غير النّسب وليس إنكاره بشيء:"[1].

ويرى أيضا أنّ الشاعر لم يحذف ألف ما الاستفهامية من قوله: **على ما ذُدْتُ عَنْ جَفْنِي المَنَامَا،** مع أنّ القاعدة تقتضي الحذف خصوصا إذا دخل على الميم حرف جرّ، من ذلك قول العبدري: **"قوله: على ما ذدت الوجه فيه حذف الألف، لأنّ ما الاستفهامية إذا دخل عليها حرف جرّ حذف منها الألف، لكثرة الاستعمال وفرقا بينهما وبين الخبرية، قال تعالى: فِيمَ أنت من ذكراها"**[2]

ثم قال: **"ولو حذفت الألف منها لصحّ الوزن، وكان الجزء معقولا ولكنّه زحاف قبيح، ولو قال : صَدَدْتَ أو طَرَدْتَ، أو تذودُ أو نحو ذلك لسلم من الوجهين معا، وتَخَلّصَ من الضرورتين جميعا وبالله التوفيق"**[3]

فبهذه الملاحظة أظهر العبدري أنّ الخبرة بعلم العروض ليست مقصورة على حفظ المصطلحات فقط، ولكنّها مرتبطة أيضا لمدى استعمال قواعد اللغة العربية، وقد قدّم لنا شواهد من القرآن الكريم الذي يكثر فيه الحذف لأسباب بلاغية ونحوية، وأنّ الشاعر بإمكانه أن يحتفظ بجمال الإيقاع الموسيقي مع المحافظة على القواعد العامة ؛وهذا يدل على أنّ العبدري كان يملك ناصية اللغة العربية عارفا بقواعدها وبلاغتها.

إنّ ما سجّله العبدري من ملاحظات وآراء حول شعر ابن خميس كان من أهمّ ما يفتخر به من حاولوا الترجمة له أو لأدبه خصوصا بالنسبة إلى أيّام فتوّته الأولى؛ وفي هذا يقول العبدري عن ابن خميس: **"له عناية بالعلم مع قلّة الرّاغب فيه، وحظّ وافر من الأدب، وطبع فاضل في قرض الشعر"**[4]

هي أوصاف صادقة دقيقة تدلّ على أن الحكم لم يرد من العبدري اعتباط وإنّما كان مبنّيا على تصوّر صادق ودراسة عميقة لأدب هذا الرجل.

---

[1]- رحلة العبدري ؛ ص60

[2]- المصدر نفسه، ص71

[3]- المصدر نفسه؛ ص 71

[4] - المصدر نفسه؛ ص 53.

العبدري زيادة على كونه رحّالة، ومؤرخا وفقيها فهو يجيد نظم الشعر، فكتب قصيدة شعرية إثر إقامته بتلمسان يصف فيها حال الغريب الذي سرقته الآمال والمطالب عن الأهل والوطن:

تَغَرَّبْتُ عن أهلي إليك ومالي وأعرضت عن قيْلٍ عدَاك وقال

تَماثَلَ فِي دُنْيايَ – إذْ أَنْتَ مَطْلَبِي- مُحبٌّ لَهُ شَوْقٌ إِلَيَّ وَقَالَ

سَمَوْتُ عَلَى قَصْدِ إِلَيْكَ بِهِمَّةٍ تَرَى عَيْشَ كِسْرَى مِثْلَ عَيْش دَلالِ

وَلاَحَتْ لِي الدُّنْيَا فَأَبْصَرْتُ عُمْرَهَا وَلَوْ زِيدَ أَضْعَافًا كَحَلِّ عِقَالَ

وَما عَيْشُهَا إلاَّ كَظِلِّ غَمَامَةٍ وَمَا مِلْكُهَا إلاَّ كَطَيْفِ خَيَالِ

وَهَلَ بَعْدَ أَنْ أَسْدَى إِلَيَّ طَائِفًا يُقَصِّرُ عَنْ تِبْيَانِهِنَّ مَقَالِي

وَبَاشَرَ قَلْبِي بالْيَقِينِ مُبَرِّدًا حَرَارَةَ إِشْكَالٍ أَحَلَّ بِحَالِي

أُهِيمُ بِدُنْيَا ما تساوي قُلا وَأَخْضَعُ مُرْتَادًا لِنَيْلِ نَوَالِ.

أَبَى ذَاكَ لِي قَصْدٌ إِلَى اللّه صاعِدٌ وعِلْمَ سما بي فِيه نَحْوَ كَمالِ[1]

القارئ لهذه الأبيات يستشعر الذوق الفنّي الذي تميزت به قصيدة العبدري، الذي يشكو الوحدة والفراغ العاطفي بمغادرة الوطن والأهل والخلاّن، فجاءت عواطفه صادقة تأجّجت فيها نار الشّوق بلقاء الأهل وبين الرغبة في تحقيق المراد؛ فصوّر نفسه بذلك الرجل الذي يهيم في دنيا لا يعرف مصيره، وهو الذي رسم هدفه المنشود وباشر في تحقيقه متحمّلا أعباء السفر وأهوال الطريق. فجاءت لغة القصيدة بسيطة لا غموض فيها، كما أحسن الشاعر انتقاء الألفاظ والعبارات التي تخدم غرض القصيدة وهو وصف حال الرجل الغريب الذي يتحسّر على فراق الوطن والأهل من أجل القيام بفريضة الحجّ، وزيارة المعالم الدينية ولقاء العلماء والمشايخ وأخذ الإجازات عنهم، والنهل من علومهم ومعارفهم.

ومن أمثلة الشعر أيضا تعليق العبدري على قصيدة لابن فكّون. فقد ذكر أنه لمّا وصل إلى قسنطينة استأنس بالشّيخ أبي علي حسن ابن القاسم بن باديس واستفاد منه وسأله عن الأديب محمد

[1] - رحلة العبدري، ص 76، 77.

القسنطيني المعروف بابن فكّون فذكر له ابن باديس أنّه أدركه وهو طفل صغير، فقال العبدري **"ورمت أن أجد من أروي عنه قصيدته المشهورة من قسنطينة إلى مرّاكش فلم أجده فقيّدتها هنالك غير مرورية وكان القسنطيني كتب بها إلى أبي البدر بن مردنيش وهو بقسنطينة"**[1]

وهذه أبيات من القصيدة:

ألا قل للسّريّ ابن السّريّ — أبي البدر الجواد الأريحي

أيا معنى السّيادة والمعالي — ويا بحر النّدى بحر النّديّ

أما و بحقك المبدي جلالا — وما قد حزت من حسب علّي

و ما بيني و بينك من ذمام — وما أوتيت من خلق رضي

لقد رمت العيون سهام غُنجٍ — وليس سوى فؤادي من رميّ

فحسبُك نار قلبي من سعير — وحسبك دمع عيني من أتيّ

وكنت أظن أن الناس طُرًا — سوى زيْد و عمرو غير شيّ

فلمّا جئت ميلة خير دار — أمالتني بكلّ رشا أبيَّ

و كم أوْرتْ ظباء بني ورارٍ — أوار الشّوقِ بالريق الشهيَّ

و جئْتُ بجايةً فجلت بدورًا — يضيقُ بوْصفها حرفُ الرويَّ

و في أرضِ الجزائرِ هام قلبي — بمعسُول المراشفِ كوثريَّ

و في ملْيانة قد ذُبْت شوقًا — بليْن العطف و القلب القسيَّ

و في تنسٍ نسيتُ جميل صبْري — وهمتُ بكُلّ ذي وجْه رضيَّ

و في مازُونة مازلتُ صبًّا — بوسنانِ المحاجرِ لوذعيَّ

و في وَهْران قد أمسيتُ رهنًا — لِظامي الخصْر ذي ردف رويًّ

و أبدتْ لي تلمسانُ بدورًا — جلبنَ الشّوقَ للقلْب الخليَّ

و لمّا جئتُ وجْدة همتُ وجدًا — بمُنخنث المعاطفِ معْنويَّ

و أطْلع لي قُطرُ فاسٍ لي شموسًا — مغارِبُهنَّ في قلْب الشجيَّ

[1] - رحلة العبدري، ص 96.

بُدورٌ بلْ شموسٌ بل صباحٌ بَهِيٌّ في بَهِيَّ في بَهِيَّ

أتَحْن مصَارِعَ العُشَّاقِ لمَّا سَعَيْنَ بهِ فَكَمْ ميتٍ وَحَيٍّ [1]

يصف الشاعر أبو علي حسن ابن فكّون القسنطيني بعض مدن الجزائر وذلك عند ارتحاله من قسنطينة إلى مرّاكش[2] فذكر أسماء المدن الجزائرية التي مرّ بها (ميلة، بجاية، الجزائر، مليانة، تنس، مازونة، وهران، تلمسان) وبعض المدن المغربية كانت حاضرة في قصيدة ابن فكّون (وجدة، فاس) وهذا يدل على أن المدينة كانت كيانا داخل الشاعر، فهو يمدحها ويتشّوق إليها، ويحنّ إلى رؤياها فهو متأثر بهذه الأماكن لما لها من جمال في طبيعتها الخلاّبة التي سلبت عقله وقلبه وسحرت عينيه، فالقصيدة من بدايتها إلى نهايتها تصوّر انبهار الواصف (الشاعر) بالموصوف (المدينة) الذي جعل منها صورة حيّة حرّكتها مشاعره وذوقه الفنّي بإسقاط شيّم وصفات على ممدوحه كالبدر و الشوق، الشمس، الندى ...

ونجد العبدري يبدي بعض الملاحظات الدقيقة على هذه الأبيات، ومن هذه التعقيبات أن أهل اللغة يقولون عن القبح الدّل وحسن الشكل، بينما الشاعر ابن الفكون خرج عن القاعدة: **"قلت: قال أهل اللغة، الغُنْجُ والغُنُجُ الدّلُ وحسن الشكل، فقوله: لَقَدْ رَمَتْ العُيُونُ سِهَامَ غُنْجٍ غير ملائم ، وقائله لا يسلم من لائمٍ ولا يحسن في الأدب خطاب ذوي الرّتب بمثل قوله:**

فَحَسْبُكَ نَارُ قَلْبِي مِنْ سَعِيْرٍ[3]

ومن ذلك أيضا ما رآه العبدري في انعدام التلاؤم في الترتيب الذي جاء في قول ابن الفكّون:

بدُورٌ بل شُموسٌ بل صباحٌ بَهِي في بَهِيَّ في بَهِيَّ

فقد علّق العبدري على هذا البيت قائلاً:" **نزول مفرط، وعكس للرتبة فإن الشمس أشهر من الصّباح وانورَ، والانتقال عن التشبيه بالأعلى إلى الأدنى أشبه بالذّم منه بالمدح، ولاسيما**

---

[1] - رحلة العبدري، ص 97-98-99.

[2] - الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ج3، ص138، وينظر نفح الطيب ج2، ص483.

[3] - المصدر نفسه، ص 99، 100.

مع الإضراب وقوله: بهيٌّ في بهيٍّ في بهيّ غير منطبق على صدر البيت، ولا ملائم له، ولو قال:

بُدُورٌ في خدُورٍ في صُدُورٍ لجاء عليه عجز البيت أليق من العقد بجيد الحسناء، وأوفق من الجَودِ للرّوضة الغنّاءِ"[1]

ثم ينتقل لعرض قصيدة شعرية ليحي بن علي الشقراطسي ففي مدح الرسول صلى الله عليه وسلّم:

الحَمْد لِلَّه مِنَّا بَاعِث الرُّسُلِ	هُدَى بِأَحْمَدَ مِنَّا أَحْمَدَ السُّبُلِ
خَيْرِ البَرِيَّةِ مِنْ بَدْوٍ وَمِنْ حَضَرٍ	وَأَكْرم الخَلْقِ مِنْ حافٍ وَمُنْتَعِلِ
تَوْرَاةُ مُوسَى أَتَتْ عَنْهُ فَصَدَّقَهَا	إنْجِيلُ عِيسَى بحَقّ غَيْرَ مُفْتَعلِ
أَخْبَارَ أَحْبَارَ أَهْلِ الكُتُبِ قَدْ وَرَدتْ	عَمَّا رَأَوْا ورِوُوا فِي الأَعْصُرِ الأُوَلِ
ضَاءَتْ بِمَوْلِده الآفَاقُ واتّصَلَتْ	بُشْرَى الهَوَاتِفِ بالإشْرَاقِ والطّفَلِ
وَصَرْحُ كِسْرَى تَدَاعَى مِنْ قَوَاعِدِهِ	وانْقَضَّ مُنْكَسِرَ الأَرْجَاءِ ذَا مَيلِ
خَرّتْ لِمَبْعَثِه الأَوْثَانُ وانْبَعَثَتْ	ثَوَاقِبُ الشُّهْبِ تَرْمِي الجِنَّ بالشُّعَلِ
وآيهُ الغَارِ إِذْ وُقِيّتْ فِي حُجُبٍ	مِنْ كُلِّ رِجْسٍ لِرِجْسٍ الكُفْرِ مُنْتَحِلِ
وَقَالَ صَاحِبُك الصديق :كيفَ بِنَا	وَنَحْنُ مِنْهُمْ بِمَرْأَى النَّاظِرِ العَجَلِ
فقُلْتُ: لاَ تَحْزَن إنَّ اللَّهَ ثَالِثُنَا	وَكُنْت فِي حُجُبٍ سِتْرٍ مِنْهُ مُنْسَدلِ[2]

هي قصيدة لامية من بحر البسيط في مدح الرسول صلى الله عليه وسلّم[3]، نلاحظ أن شعر المديح النبوي خرج عن الإطار التقليدي المألوف للشعراء الذين كان شعرهم يبدأ بالبكاء على

[1] - رحلة العبدري، ص 103.

[2] - المصدر نفسه، ص 119-120-121.

[3] - معجم أعلام الشعراء ؛ص210-211 وينظر تاريخ الادب العربي عمر فروخ ؛الجزء 4 ص 611 ؛ وينظر نهاية الأرب للنويري ؛الجزء 18 ص228.

الأطلال ووصف الراحلة حتى يصلون إلى وصف الممدوح، فالشاعر هنا خالفهم واستهلّ قصيدته بمَدْح خير البرية الذي جاءت رسالته رحمة للعالمين، فأخرج النّاس من غياهب الشرك والغواية إلى حياة النور والهداية، فآمن بتوراة موسى وإنجيل عيسى وهذه القصيدة طويلة تروي سيرة النبيّ الأعظم صلوات الله عليه، فاختصرنا فقط منها هذه الأبيات تنويها وتعظيما وثناء لكاتبها الشاعر الشقراطسي، الذي أبدع في تصوير أخلاق الرسول بأسلوب شعري جميل، والعبدري أثبت أبيات هذه القصيدة في رحلته ليبيّن اهتمامه وحفظه لشعر المديح النبوي، الذي يحمل رمزية دينية روحية. وقد نظم العبدري قصيدة شعرية أثناء إقامته بالقيروان إلى ولده محمّد وكانت هذه القصيدة تحمل في ثناياها مجموعة من النصائح والمواعظ فقال:

أصْغِ سَمعًا أَوْصِك يَا بُنَيَّ ... وَصيّةَ وَالدٍ بَرَّ حَفيَّ

جَرَى القَدَرُ المُتَاحُ لَنَا بِبَيْنٍ ... قَضَاءٌ جَاءَ مِنْ مَلِكٍ عَلِيَّ

وَقَدْ فتَّت نَوَاكم فِي فُؤَادِي ... وَأَشْجَتْ بِالأَسَى قَلْبَ الخَلِيَّ

وَأُبدِلْتُ المَآقِي عنْ كَرَاهَا ... دُمُوعًا فَيْضُهَا مِثْلُ الأَتِيَّ[1]

إنّ هذه الأبيات الشعرية تنمّ عن عاطفة الأبوة الصادقة فالعبدري تأجّجت في قلبه نار الشّوق إلى رؤية ولده، فراح يعبّر عن مشاعره والفراق المحتوم الذي أبعده عن فلذة كبده.

ثم يواصل وصيّته لابنه بالابتعاد عن الملذات الدنيوية:

وَقَدْ شَاهَدْتُ فِي الدُّنْيَا أُمُورًا ... مُحَرَّضَةً عَلَى نَهْجِ التّقِيَّ

أَمَالَكَ فِي تَقَلُّبِهَا اعْتِبَارٌ ... يُبيّنُ قُبْحَهَا مِنْ غَيْرِ عَيَّ

أَلَمْ تَرَ مَا حَبَتْكَ وَأَنْتَ طِفْلٌ ... فُنُونَ أَذًى هَمَى مِثْل الحَبِيَّ

وَذِي جد أَحَلّكَ مَنْ حَشَاهُ ... مَحلَّ بِشَارَةٍ بَعْدَ النَعِيَّ

وَتَركَ مَنَازِلَ وَثِقَافِ عَم ... بِكُمْ بَرَّ وَنَائِي أَبٍ حَفِيَّ

وَذَاكَ وَإِنْ أَذَابَكَ غَيْرُ بدع ... فَهَذَا دأْبُهَا مَعَ كل حَيّ

فَكُنْ بِاللّهِ مِنْهَا مُسْتعْيضًا ... كَفَى عِوَضًا بِهِ مِنْ كُلِّ شَيَّ

[1] - رحلة العبدري ؛ ص 176.

وَكُنْ مُتَعَفِّفًا عَنْهًا عيُوفًا وَإِنْ أَعْطَتْكَ قَصْدَكَ دُونَ لَيِّ[1]

الدّنيا تعرض على الإنسان بحلوها ومرّها، والتقي من يلجم نفسه ويقيّد حركتها ويمنع جموحها نحو الشهوات.

ويواصل العبدري نصائحه لابنه قائلا:

وَلا تَأْسَف لِفُرْقَتِهَا فَفِيهَا وِصالُ تَوَاصُلِ العَيْشِ الهَنِيِّ
هِيَ الطَّلَلُ المُحِيل وَمَا بَكَاهَا سِوَى غَاوٍ يَهِيمُ بِوصْلِ غَيِّ
يَبْكِي فِي مَنَازِلَ مُقْفِرَاتٍ طِلاَلٌ سَنَّهُ غَيْلاَنُ مَيِّ
سَرَابٌ إِنْ نَظَرت تَقُلْ شَرَابٌ وَلَمْ يَظْفَرْ فَتًى مِنْهُ بِرِيِّ
فلاَ تكُ يا بُنَيَّ بِهَا وَلُوعًا وَإِنْ أَبْدَتْ مُطَاوَعَةَ الأَبِيِّ
هِيَ العِصْيانُ شِيمَتُهَا وَلَكِنْ تَغُرُّ الغِرّ نَادِرَةَ العَصِيِّ
وَكُنْ بِاللَّهِ ذَا ثِقَةٍ تَقِيًّا وَلا تَغْبَطْ بَنِيَّ سِوَى تَقِيِّ
ونَلْ بِالزُّهْدِ مَرْتَبَةَ المَعَالِي فَلَمْ يَزْهَدْ سِوَى عَالٍ سَرِيِّ[2]

يوصي العبدري ابنه بعدم الحزن على فراق الدّنيا لأنّها فانية وعليه أن يزهد فيها لأنّ الزهد من شيمة أصحاب التقوى والورع.

وبعد ذلك يأمر العبدري ولده بالابتعاد عن المعاصي ويحثّه على الاتّصاف بالحياء، وعلى الحرص على طلب العلم قائلا:

بُنَيَّ تَسُوؤنِي مِنْكَ المَعَاصِي فَلاَ عَمَرَتْ حِلاَلُكَ يا بُنَيَّ
قَبِيحٌ أَنْ أَكُونَ عَصَيْتُ رَبِّي وَتَقْفُو إِثْرَ وَالِدِكَ العَصِيَّ
يَمُرُّ المُشْتَهَى كَالبَرْقِ خَاطِفًا وَيَتْرُكُ حَسْرَةَ الأَمَدِ القَصِيَّ
تَزَيَّنْ بِالحَيَاءِ فَلَيْسَ وَصْفٌ يُزَانُ بِهِ الفَتَى مِثْلَ الحَيِيِّ

[1] - رحلة العبدري ؛ ص 177.

[2] - المصدر نفسه، ص 177-178.

وَجَانِب مَا يَقُودُ إِلَيْهِ طَبْعٌ يرَى طَبْعًا على الثَّوبَ النّقيَّ
وَكُنْ بِالعِلْمِ ذَا لَهَجَ فَإِنِّي أَجَزْتُكَ واسْتَجَزْتُ بِكُلِّ حَيَّ[1]

الواقع أن هذه النصائح لم تصدر من العبدري مجرّد ألفاظٍ تلفظها وإنّما هي صورة من نفسه. ونفحة من أخلاقه وسلوكه فلم يكن هيّن النّفس، ولا سريع الانقياد إلى الدّنيا وشهواتها فقام بكتابة هذه الأبيات الشعرية لابنه لتكون له حصنا منيعا ومنهاجا يسير عليه في حياته.

قصيدة ابن جبير ففي مدح صلاح الدّين الأيّوبي:

كان للشعر السياسي التحرّري دور فعّال في التعريف بالمدن المحتلّة، وكان كثيرٌ من الشعراء مدركين لدورهم الرئيسي في معركة تحرير القدس، فاغتنموا كلّ ما يمكن اغتنامه ليذكروا القدس ويُذّكروا بها، ويتحدّثوا عنها ويحثوا على استرجاعها في قصائدهم التي وصفوا فيها المعارك الجهادية ضدّ العدوّ أو التي رثوا فيها الأبطال الذين استشهدوا في ساحة الجهاد، أو تهنئة القادة الذين قادوا الجيوش في سبيل تحرير المدن العربية الإسلامية.

والعبدري يعرض هذه الأبيات الشعرية لابن جبير مادحا إيّاه ومبديا إعجابه بشجاعته في تحرير القدس فهنّئه بالنّجاح الذي حقّقه قائلا:

أطلّت على أفقك الزّاهر سعود من الفلك الدّائر
فأبشر فإنّ رقاب العدا تمدّ إلى سيفك الباتر
وعمّا قليل يحلّ الرّدى بكندهم النّاكث الغادر
وخصب الورى يوم تسقي الثرى سحائب من دمها الهامر
فكم لك من فتكة فيهم حكت فتكة الأسد الخادر
كسرت صليبهم عنوة فللّه درُّك من كاسر[2]

---

[1] - رحلة العبدري، ص 179.

[2]- المصدر نفسه؛ 218

ويواصل ابن جبير حديثه عن فتح بين المقدس قائلا:

فتحت المقدّس من أرضه   فعادت إلى وصفها الطّاهر

وجئت إلى قدسه المرتضى   فخلّصته من يد الكافر

وأعليت فيه منار الهُدى   وأحْييت من رسْمه الدّاثرِ

لكم ذخر الله هذه الفتوح   من الزّمن الأوّل الغابر[1]

ثم ينتقل ابن جبير لعرض حال الحجّاج الذين عنّفوا وتعرّضوا للتّفتيش، فهتكت حرمة البلد الأمين فقال:

وقد بقيت حسبة في الظّلوم   وتلك الذّخيرة للذّاخر

يُعنّف حجّاج بيت الإله   ويسطُو بهم سطوة الجائر

ويكشف عمّا بأيديهم   ناهيك من موقفٍ صاغرِ

وقد أوقفوا بعدما كوشفوا   كأنّهم في يد الآسر

ويُلْزمهم حلفًا باطلاً   وعُقبى اليَمينِ على الفاجرِ

وإن عرضت بينهم حرمةٌ   فليْس لها عنْهُ من سائرِ

أليْس يَخَافُ غدًا عرْضُه   على الملك القادر القاهر[2]

هذه الأبيات الشعرية لابن جبير ما هي إلاّ امتنان وتعظيم لهذا البطل الثائر (صلاح الدين الأيّوبي) الذي استطاع بعون الله قيادة جيش باسل فكسر شوكة الأعداء وحطّم سطوتهم وكان سيفه الباتر الحدّ الفاصل في هذه المعركة التي انتهت بفكّ الحصار واسترجاع بيت المقدس.

أمّا السبب الذي جعل العبدري يستشهد بهذه الأبيات الشعرية لابن جبير، عندما تعرّض العبدري للتفتيش رفقة ركب الحجيج وهم بالإسكندرية، فتذكّر ساعتها ابن جبير الذي حصل معه

---

[1] - رحلة العبدري؛ ص219

[2] - المصدر نفسه، ص 220.

هذا الأمر كذلك، ما جعله يرسل في نظم هذه الأبيات ناصحا بها صلاح الدّين الأيوبي برفع المغارم المفروضة على حجّاج بيت الله.

نلاحظ أن العبدري قد نوّع في الأغراض الشعرية التي جاء بها لشعراء آخرين، فمن شعر المديح لابن جبير في مدح وتعظيم صلاح الدّين الأيّوبي إلى غرض الوصف الذي ظهر في شوق ابن جبير لرؤية مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا:

أقُول وآنستُ باللّيل نارا ... لعلّ سِراج الهُدى قدْ أنارَا

وإلاّ فما بال أُفُق الدُّجا ... كأنّ سنَا البرْقِ فيه اسْتَطارا

ونحْنُ من اللّيْلِ في حِنْدسٍ ... فما بالهُ قدْ تَجلّى نَهارَا

وهذَا النسّيمُ شذَا المسْك قدْ ... أعيرَ أم المسك منه استعارا

وكانت رواحلنا تشتكي ... وجّا فلقد سابقتنا ابتدارا

وكُنّا شكوْنا عناءَ السُّرى ... فَعُدْنَا نُبَاري سِرَاعَ المهارى[1]

ابن جبير يصف أهوال الطريق التي تعرّض لها رفقة ركب الحجيج وهم يسيرون ليلا، فحتّى رواحلهم كانت تشتكي من طول المسافة وتسارعهم للوصول إلى المدينة.

ثم ينتقل ابن جبير إلى وصف حاله وهو بمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا:

وقفْنا بروضته للسّلامِ ... نُعيدُ السَّلامَ عَلَيْهِ مرارا

ولوْلا مَهَابتُهُ في النّفُوسِ ... لَثمْنا الثَّرى ولَزِمْنا الجِدارَا

قَضَيْنَا بِعُمْرتِنا حجّنا ... وَبالعُمْرَتَيْنِ خَتَمْنَا اعتِمارَا

إِلَيْك إليك نبيّ الهدى ... رَكِبْنا البِحَارَ وَجُبْنَا القِفَارَا

وَ فَارَقْتُ أَهْلِي وَلاَ مِنّة ... ورُبّ كَلاَمٍ يَجُرُّ اعتِذَارَا

وَكَيْفَ يَمُنُّ عَلَى مَن بِه ... نُؤَمِّلُ للسَيّئَاتِ اغْتِفَارَا

دَعَانِي إِلَيْك هَوى كامِنٌ ... أَثَارَ مَنَ الشَّوْقَ ما قد أثارا

[1] - رحلة العبدري، ص 222.

فَنَادَيْتُ لَبّيْكَ دَاعِي الهُدَى وَهَلْ كُنْتُ عَنْكَ أَطِيقُ اصطِبَارًا[1]

هذه الأبيات الشعرية تحمل معاني روحية سامية تمثّلت في وصف ابن جبير لحالته النفسية وهو بالرّوضة الشريفة فأدّى مناسك الحجّ والعمرة، وهو يطمح في عفو المولى عزّ وجلّ ويتمنّى لو حصل الرجاء الإقامة بهذا المقام العظيم .

قصيدة العبدري في ذكر مكة المكرّمة :

من أروع الصور التي نقلها لنا العبدري، ذلك المشهد الرّباني المؤثر عند وصول الرّكب إلى مكّة، فبمجرّد ما لاحت له معالم مكّة تحرّكت شجيّة رحالتنا وجادت قريحته شعرا في مدح الرسول الأعظم عليه الصلاة والسّلام، وأرض مكّة التي ذكر أنّها فخر بقاع الأرض على مرّ السنين فأنشد قائلاً:

بَلَدٌ نَحْوَهُ يَحِنُّ الرَّسُولُ وَبِهِ عُلّقَت قَدِيمًا عُقُولُ

بَلَدٌ إِنْ رَآهُ يَوْمًا مَشُوقٌ قَالَ: لُمْنِي، أَوْ لاَ تَلُمْ يا عذول

أَسَفِي أَنْ حُرِمْتُ سُكْنَى حِمَاهُ وَعَدَانِي عَنْهُ الزّمَانُ المَطُولُ

كُنْتُ أَرجُو بِهِ شِفَاءَ غَلِيلِي فَإِذَا فِيهِ لِي جَوَى وَغَلِيلُ

أَسْعِدَانِي بِذِكْرِهِ يَا خَلِيلَيْ يَ فَقَدْ يُسْعِدُ الخَلِيلَ الخَلِيلُ.

وَعِدَانِي ومَنِّيَانِي وُصُولاً فَقُصَارَى مُنَى الفُؤادِ الوُصُولُ

يا لَرَبْعٍ غَدَا بِهِ رَبْعُ صَبْرِي وَهْوَ مُسْتَعْجِمُ الرُّسُومِ مُحِيلُ

مُنْذُ فَارَقْتُهُ، فَدَمْعِي سَيْلٌ وَالأَسَى غَيْمُهُ وَخَدّي مَسِيلُ

وَرَمَى بُعْدَهُ بِعَيّ لِسَانِي لَسْتُ أَدْرِي مِنْ بَعْدُ مَا أَقُولُ[2]

لقد تقاسم العبدري هذا الشعور والتأثّر بلحظة الوصول إلى مكّة المباركة رفقة ركب الحجيج، فيرى أنّ زيارة هذا البيت يشفي العليل من الأسقام، ومن يخرج منه يشعر بحرارة الشّوق على معاودة

---

[1] - رحلة العبدري ؛ ص 224.

[2] - المصدر نفسه، ص 358-359

زيارته، فمعاينة البيت الحرام هول يشعر النّفوس من الذهول، ويطيش الأفئدة والعقول فلا تبصر إلا لحظات خاشعة وعبرات هامعة.

ويعبّر العبدري عن أمنيته التي يرجوها باستمرار تحقيقها وهي العودة إلى هذه البقاع من جديد، فجاء في قصيدته قوله:

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِي هَل يُسَاعِدُنِي الوَقْتَ   وتدني لي الأيّام ما نحوه تقت

وهل لي إلى تلك المعاهد عودة   بسكنى مغان؛قربها كلّ ما اشتقت

مغان حداني الشّوق والوجد نحوها   مقيما فأعطيت القيادة وانسقت[1]

وينهي العبدري قصيدته بما يكشف عن تجربته النفسية فهو يعاني من البعد، ويكابد الشوق، ويلازمه الإحساس بالألم ولكن بمجرّد أن دخل مكّة أحسّ وكأنّه قد خُلق خلقا جديدًا وسرى فيه ماء الحياة فانتعش واستبشر، فلقد أحدث دخوله البلد تحوّلا نفسيا مهمّا، نقله من يأسٍ إلى أملٍ ومن موت إلى حياة، مثلما جاء في قوله:

وَكُنْتُ كَغُصْنٍ قَدْ ذَوَى مِنْ صَدَى بِهِ   فَلَمَّا حَلَلْنَاها رُوِيَت وَأَورَقْتُ[2]

ومن هنا فوصفه للبلد الأمين يشفي غليل المتشوّق إلى زيارته ؛فقد أحسّ العبدري بالفرح والسّرور وهو يجد نفسه وقد تحقّقت أمنيته بدخول مكة بعدما كانت زيارتها حلما يسري في بدنه.

أسماء مكّة:

لمّا كانت مكّة المكرّمة قد احتضنت الشّعائر الدّينية للمسلمين كانت محط أنظارهم، ومهوى أفئدتهم، فما من بقعة من بقاعها إلاّ ولهم فيها رابط ديني أو تاريخي، يتعلق بجانب من جوانب حياتهم الدّينية، لذا كان لابدّ على العبدري أن يفرد فصلا في ذكر أسماء مكّة عبر التّاريخ قائلاً: **"قال الله جلّ ذكره: "إنّ أوّل بيت وُضع للنّاسِ الّذي بِبَكّةَ مُبارَكًا " وقال أيضًا: "وَهُوَ الذي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وأَيْدِيكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكّةَ" فاختلف في هذين الاسمين فقيل، هما واحد، والباء تبدّل من الميم**

1- رحلة العبدري، ص 360.

2 - المصدر نفسه، ص 361.

كما يقال: لاَزَمَ ولاَزَبَ وقيل : بكّة بالباء بطن مكّة ؛ وقيل موضع المسجد والبيت، وهذا كُلُهُ متقارب"[1]

نلاحظ أن كلمة مكة وردت في السورتين باختلاف في الحرف الأوّل، ففي الأولى أثبتت الباء وفي الثانية جاءت عوض الباء ميما ؛ ويرى العبدري أنّ الباء والميم كلاهما واحد يؤديان نفس المعنى الذي يتمثّل في البيت والمسجد ويقصد بهما مكة.

ويواصل العبدري حديثه عن مكة التي احتضنت أكثر من اسم قائلا: **"ولها أسماء مكّة وبكّة، وصلاح معدول، والعرش والقادس، والمقدّسة، والنسّاسة، والنّاسّة بنون وسين مهملة ؛ والباسّة بالباء والبيت العتيق، وقيل: هي الكعبة، وأمّ رُحم بضمّ الرّاء، وأمّ القرى، والحاطمة، والرّأس، مثل رأس الإنسان والبلدة وقيل هي منى، والقرية القديمة، والبلدة الحرام"**[2]

لقد عني العبدري بالتّعليق على الأسماء المتنوّعة لمكّة المكرّمة وهذا يعكس سعة اطلّاعه وثقافته ومعارفه المتنوعة.

لمّا وصل العبدري مع الرّكب إلى المدينة فوجد أنها أشرقت أنوار بحلول زوّار بيت الله الحرام، فبلد الهجرة كان له في نفس العبدري منزلة خاصّة. فنظم قصيدة ميمنة استهلها بحديثه عن مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام جاء فيها:

مَقَامٌ لِلْعلاءِ بِهِ مَقَامُ	وَفِيهِ انْجَابَ عَنْ ضَوْءٍ ظَلاَمُ.
بِهِ مَثْوَى السِّيَادَةِ غَيْرَ شَكٍّ	بِهِ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا انْتِظَامُ
بِهِ قَمَرُ السُعُودِ ثَوَى مُقِيمًا	فَسَارَ بِنُورِ غُرَّتِهِ الأَنَامُ
بِهِ الإِشْرَاكُ فِي شَرْكٍ تَهَاوَى	وَكَانَ بِهِ لِمُدَّتِهِ انْصِرَامُ
بِهِ الإِيْمَانُ أَمَّنَ مَنْ نَحَاهُ	فَأَضْحَى لاَ يُذَامُ وَلاَ يُضَامُ
بِهِ أَهْلُ المَعَانِي وَالمَعَالِي	إِمَامٌ فِي الشَّرِيْعَةِ أَوْ هُمَامُ

[1] رحلة العبدري ؛ ص 376.

[2] - المصدر نفسه، ص 377.

بِهِ الآمَالُ دَانِيَةُ فَمَا إنْ	يَشُطُّ بِهِ عَلَى البَاغِي مَرَامُ
بِهِ سحَّتْ سَحَائِبُ كُلُّ عِلْمٍ	كَمَا بِالوَبْلِ قَدْ هطَلَ الغَمَامُ[1]

من يطّلع على قصيدة العبدري في ذكر مدينة رسول الله عليه الصلاة وسلّم يرى أنها تصوير حيّ لإحساسه الذاتي إزاء هذا البلد الأمين الذي آوى إليه النبيّ بعد مهاجمة الكفّار له واحتضن جسمه الشريف، فالمدينة المنوّرة بلد العلم والأمن والآمال، ومن يزورها تتهاطل عليه البركات كما يتهاطل الغيث بعد الغمام.

قصيدة العبدري في مدح الرّسول صلى الله عليه وسلّم:

نظم العبدري قصيدة شعرية طويلة وهو بالمدينة المنوّرة في مدح الرسول الأعظم صوّر فيها مشاعره تجاه البيت الشّريف والمتاعب والمصاعب التي لاقاها وتحمّل أهوال الطريق بغية الوصول إلى الحبيب فقال:

فَوِّقْ إلَى غَرَضِ الفلاَةِ وسَدِّدْ	سَهْمَ السُّرَى تَقْصِدْ وَتَحْظَ بِمَقْصَدِ
أَوْترْ قِسيا مِنْ مَطِيّ إنْ رَمَتْ	رَنَّتْ كَمَا رَنَّتْ قِسِيُّ المَقْصَدِ
شِمْ سَيْفَ عَزْمٍ لاَ يَقَلُّ ذُبَابَهُ	قَرَعُ الزَّمَانِ، وَلاَ قِرَاع الفَدْ فَدِ
هِمْ بِالعَلاَءِ بِهِمَّة تَعْلُو عَلَى	سَمَكِ السَّمَاكِ وسَامِ سَامِي الفرْقَدِ
أَجِبْ النِّدَاءَ وجُبْ تَنُوفَةٍ	قَفْرًا تَنَكَّرُ للدّلِيلِ المُرْشِدِ
رَافِقْ رَفِيقَ العَزْمِ واتْرُكْ مَنْ وَنَى	خِلْفَ البَطَالَةِ نَائِمًا فِي مَرْقَدِ
شَمِّرْ ثِيَابَكَ للثَّوابِ فَقَدْ بَدَا	أَمَمًا لَهُ أَمَّ البَصِيرَ المُهْتَدِي
بَادِرِ بُدُورَ العُمْرِ قَبْلَ أُفُولِهَا	وَارْكُضْ بِجدّكَ فِي الفَضَاءِ الجَدْجَدِ.
حَتَى تَحِلَّ بِذرْوَةِ المَجْدِ التِي	فَاتَتْ مَرامَ الحَائِرِ المُتَرَدّدِ
حَتَّى تَحِلَّ بِمَنْزِلٍ مَا حَلَّهُ	إلاَّ نَزِيلُ طُلُوعِ سَعْدِ الأَسْعَدِ
حَتَّى تُوَاصِلَ فِي وِصَالِكَ رُتْبَةً	لأَعْيَتْ عَلَى عَزَمَاتِ كُلِّ مُعَرَّدِ

[1] - رحلة العبدري ؛ ص 421.

حَتَّى تَنَالَ مَنَالَ كُلِّ مُمَجَّدِ حَتَّى تَنَالَ مَنَالَ كُلِّ مُسَوَّدِ
حَتَّى تُحَصِّلَ مَا نَوَيْتَ مُبَرَّءًا مِنْ نَقْصٍ حَيْنٍ حَالَ دُونَ المَقْصَدِ[1]

أي لا تبال بأخطار الطريق، ولا تخش حرّ الهجير، ولا هجوم قطّاع الطرق، ويجب عليك أن تستعدّ لحمل سلاحك وتوجّهه بمهارة نحو العدوّ، فإن فعلت ذلك ستصل إلى غايتك وتحظ بمقصدك، فالأبيات بدأت بأفعال الأمر التي توحي بالحثّ على استسهال كلّ صعب، وعلى الصّبر على مواجهة كلّ المغامرات والمخاطرات من أجل الوصول إلى تلك الأراضي الطيّبة الطاهرة ؛ثم ينطلق العبدري في تعداد الفضائل التي ينالها من يصل إلى مكة والمدينة، ولكنه بمجرّد ما يعلم بأنّه سيغادرها بعد انتهاء زيارته فوجد نفسه حائرا وعاجزا عن اتخاذ قرارٍ حاسم. هل ينساق مع رغبته وأمنيته فيبقى بالمدينة؟ أم يرحل إلى صبيته الذين هم في أمسّ الحاجة إلى أب يحميهم ويرعى شؤونهم وكان سيفضل الإقامة والجوار بهذا المكان، لكنّ قضاء الله أقوى.

لَكِنَّ قَضَاءُ اللَّهِ عَاقَ إِقَامَتِي وَأَقَامَنِي نَحْوَ التَّرَحُّلِ مُقْعِدِي
لَوْلاَ مَوَانِعُ مَا قَضَاهُ وَصِبْيَةٌ تَبْكِي لِكُلِّ مُسَجَّعٍ وَمُغَرِّدِ
خَلَّفْتُهُمْ فِي غُرْبَةٍ تَبْكِي لَهُمْ وُرْقُ الحَمَامِ بِكُلِّ غُصْنٍ أَمْلَدِ
فِي مُنْتَهَى الغَرْبِ الذِي مَا دُونَهُ إِلاَّ تَلاَطُمُ مَوْجِ بَحْرٍ مُزْبِدِ
لَكِنَّنِي إِنْ يُقْضَ لِي بِلِقَائِهِمْ أَفْنِ الزَّمَانَ بِعَيْشِ صَبٍّ مُبْعَدِ
شَوْقًا إِلَيْكِ مُكَرَّرًا ذِكْرَاكَ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ وَجُنْحِ لَيْلٍ أَرْبَدِ[2]

ثم ينتقل العبدري إلى ذكر صفات وأخلاق النبيّ عليه الصلاة والسّلام مقتبسة من سيرته العظيمة فيخاطبه بهذه الأبيات قائلا:

يَا خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الثَّرَى قَدَمٌ لَهُ يَا خَيْرَ نَاطِقِ حِكْمَةٍ فِي مَشْهَدِ
يَا خَيْرَ أَهْلِ الأَرْضِ يَا أَرْضَاهُمْ يَا خَيْرَ سامٍ فِي السَّمَاءِ مُمَجَّدِ

[1] - رحلة العبدري، ص 432.
[2] - المصدر نفسه، ص 436.

يَا خَيْرَ مَوْلُودٍ تَقَدَّمَ كَوْنَهُ يَا خَيْرَ مَنْ هُوَ بَعْدُ لَمَّا يُولَدِ
يَا خَيْرَ مَنْ نَيطَ الرَّجَاءُ بِجَاهِهِ يَا خَيْرَ مَأْمُولٍ لِخَطْبٍ مُكْمِدِ
يَا خَيْرَ مَنْ قَرَأَ الكِتَابَ مُرْتَادٌ يَا خَيْرَ مَنْ هَجَرَ الكَرَى لِتَهَجُّدِ
إِنِّي أَتَيْتُكَ قَاصِدًا وَمُسْلِمًا مُسْتَسْلِمًا لِتَغَرُّبِي وَتَوَحُّدِي
أَفْرِي الْمَهَامِهِ لَمْ يَلتَنِ عَائِقٌ عَجْلاَنَ ذَا زَادٍ وَغَيْرَ مُزَوَّدِ
هَاجَرْتُ عَنْ أَهْلِي إِلَيْكَ وَمَعْشَرِي لِتُجِيْرَنِي مِنْ شَرِّ مَا اجْتَرَحَتْ يَدِي
وَأَتَيْتُ بَابَكَ كَيْ تُؤَمِّنَ رَوْعَتِي وَقَصَدْتُ جَاهَكَ فِي بُلُوغِ المَقْصَدِ
وَجَمَعْتُ فِي قَصْدِي إِلَيْكَ مَآرِبِي فِعلَ الفَقِيرِ أَتَى الكَرِيمَ لِمَوْعِدِ[1]

هذه الأبيات الشعرية تفصح عن مدى تأثّر العبدري وهو بالرّوضة الشّريفة يخاطب خير خلق الله فلقد أبدع في تصوير مشاعره وإحساسه الداخلي، فكان صادقا في إظهار ما به من لوعة وشوق وحنين، فلقد ترك الوطن والولد وهاجر من بلده وهو قاصد بيت الله يأمل ويطمع في شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام له، ورضى المولى عزّ وجلّ.

القارئ لقصيدة العبدري في مدح النبي عليه الصلاة والسّلام يلاحظ غلبة أسلوب التكرار والكلمات بعينها، وهذا التكرار ما يدعو إلى التأمل ويجلب الانتباه كما جاء في قوله حين دخل المدينة المنورة:

يَا رَبْعُ قَدْ أَخْلَيْتَ رَبْعَ تَصَبُّرِي يَا رَبْعُ قَدْ أَبْلَيْتَ حَبْلَ تَجَلُّدِي
يَا رَبْعُ رَبْعُكَ فِي فُؤَادِي آهِلٌ لَمْ تُعْفِهِ رِيحُ الزَّفِيرِ المُصْعَدِ
يَا رَبْعُ إِن سَاوَاكَ عِنْدِي مَنْزِلٌ طُولُ المَدَى فَأَنَا المُسِيءُ المُعْتَدِي
يَا رَبْعُ أَنْسَانِي هَوَاكَ مَنَازِلِي حَتَّى سَلَوْتُ – وَلَمْ أَخُنْ- عَنْ مَوْلِدِي
يَا رَبْعُ قَدْ وَالاَكَ الزَّمَانُ بِلِينِهِ بَدَّدْتُ دَمْعِي فِيكَ كُلَّ مُبَدَّدِ
وَيَقِلُّ أَنْ أَبْكِي دَمًا لأَحِبَّةٍ كَانُوا نُجُومًا فِي حِمَاكَ لِمُهْتَدِ

[1] - رحلة العبدري ؛ ص 438-439

يَا رَبْعُ قَادَتْنِي إِلَيْكَ مَحَبَّةً مَلأَتْ ضُلُوعِي بالسّعيرِ المُوقَدِ

وَنَوَيْتُ أَنِّي إِن عَدِمْتُ مُسَاعِدًا صَابَرْتُ فِيكَ تَوَحُّدِي وتَفَرُّدِي

وَحَلَفْتُ لاَ طَاوَعْتُ فِيكَ مُفَنِّدًا تَبًا لِمُصْغٍ فِيكَ نَحْوَ مُفَنّدِ[1]

العبدري لا يفتر لسانه عن ذكر المدينة المنورة التي وَجدها أغْلى وأعظم مكان وطأته قدماه، فحبّ المدينة أنساه منزله وأهله فتمنّى أن يجاور الحبيب بها، لكن الظروف والأقدار لم تسمح بتحقيق المأمول، فاكتفى بالتغنّي عن قدسية المدينة المنوّرة، والإفصاح عن تعلّقه بهذا البلد الأمين ؛ومن روائع شعر العبدري قصيدته التي صاغ فيها رحلته نظما، وختم بها رحلته التي انتهت بلقاء الأهل والأصحاب بعد عودته إلى مرّاكش ومنها:

مَسَحْتُ الأَرْضَ غربًا ثم شَرْقًا أُسَائِلُ عَنْ عَوَاقِب كُلِ حَيَّ

فَقَالَتْ : مَا سُؤَالُك بَعْدَ عِلْمٍ أَلَمْ تَرهُم جَمِيعًا تَحْتَ طَيِّ

مَرَرْتُ بِحَاجَة فسَأَلْتُ عَمَّنْ أَنَاخَ بِآخِرِ الغَرْبِ القَصِيَّ

وَجِئتُ السُّوسَ أَسْأَلُ وهُوَ أقْصَى فَقَالَ: إِلَيْكَ عَنْ كَمَدٍ شَجِيَّ

وَطُفتُ بِلادَهُ أَرضًا فَأَرْضًا تُخَبِّرُنِي بِمَوْتِهِمْ الوَحِيَّ

وَوَافِينَا تِلِمْسَانًا فَبدَتْ عَلَى أَهْلٍ مَضُوا شَجْوَ النّعِيِّ

ولَمَّا جِئتُ تُونُسَ وَهْيَ خَوْدٌ زَهَتْ بِجمَالِهَا وَبِحُسْنِ زَيِّ

سَأَلْتُ عَنِ الأُلَى هَامُوا إِلَيْهَا فَكَمْ بَرَّ بِهَا مِنْهُمْ حَفِيَّ

وَكَمْ نُشِرَتُ عَلِيَّ بُنُودُ رَكْبِ عَلَيْهِم غَابَةٌ مِنْ سَمْهَرِيَّ

رَأَيْتُ الدَّهْرَ يُسْحِتُ كُلَّ حَيٍّ يَكَرُّ عَلَى الجَبَانِ مَعَ الكَمِيَّ[2]

القصيدة طويلة عدّتها مائة وخمس أبيات أخذنا منها فقط هذه الأبيات التي يروي فيها الرّحالة أحداث سفره ؛وما لقيه وعاناه من المتاعب التي تصادف كلّ من يخرج من بلده لحاجة في نفسه أراد

[1] - رحلة العبدري، ص 435-436

[2] - المصدر نفسه، ص 567-568-569.

تحقيقها، كما نجد العبدري يذكر أسماء المدن التي زارها فمنها من استقبحها، كطرابلس ومنها من أسرّت لبّه كتونس، والقصيدة غنّية بالصوّر الشعرية التي تعكس موهبة العبدري وخياله الخصب، ونفسه الشعري القوي.

من خلال عرضنا لبعض النماذج الشعرية سواء أكانت للعبدري أو كانت لغيره من الشعراء، فالرحلة تزخر بالأشعار المتفرّقة والقصائد المطوّلة ، كما أنّ نصوص الرحلة تحمل بين طيّاتها كثيرا من الأمثال والأقوال السائرة التي تشير بوضوح إلى سعة ثقافة العبدري.

الأمثال السائرة:

يعدّ المثل أكثر الأشكال التعبيرية الشعبية انتشارا وشيوعا فلا تخلو منه ثقافة الشعوب، وهو يعكس بصدق عاداتها وأسلوب عيشهم ومعتقداتهم، ومعاييرهم الأخلاقية، ويعرّف أبو هلال العسكري الأمثال قائلا: **"ولمّا عرفت العرب أنّ الأمثال تتصرّف في أكثر وجوه الكلام، وتدخل في جلّ أساليب القول أخرجوها في أقواها من الألفاظ، ليخفّ استعمالها ويسهل تداولها فهي من أجلّ الكلام وأنبله، وأشرفه وأفضله، لقلّة ألفاظها وكثرة معانيها، ويسير مئونتها على المتكلّم، مع كبير عنايتها وجسيم عائدتها"**[1] فالأمثال هي تعريف عن فلسفة في الحياة وعصارة مختلف التجارب التي وسمت العنصر البشري في اتّصاله وتواصله بمختلف مناحي الحياة ومؤثراتها. اتّبع العبدري طريقة لطيفة في إيراد الأمثال مكّنته من إقامة المثل في الموضع المناسب، فهو يأتي بالمثل ضمن سياق أدبي ووصف بليغ، وصور وتشبيهات تنقل القارئ إلى مكان الحدث فيغدو المثل جزءا لا ينفصل عن الكلام المعبّر لأنه الجزء المكّمل للمشهد الذي رسمه العبدري في لوحة فنيّة معبّرة. وبواسطة المثل أراد الرحالة أن يعبّر عن فكرة ما أو رأي ما أو يكمّل وصفا لمكان أو سكان بأسلوب أبلغ، ومن الأمثال التي وردت في الرحلة ما عبّرت على ندرة أهل العلم، وقلّة أصحاب المكارم والفضل، قال:" **وقد تعطّل في هذا العصر موسم الأفاضل، وتبدّد في كلّ قطر نظام الفضائل، وتفرّق**

[1] -جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، ص514.

أهلها أيادي سبا[1] وصاروا حديثا في النّاس مستغربا، فعادوا اسما بلا مسمّى، وحرفا ما دّل على معنى، فالمحدّث عنهم في مشرق أو مغرب، كالمحدّث عن عنقاء مغرب[2] ولو طاب المورد لحصل الريّ"[3].

فالمثل صوّر أحوال الناس آنذاك الذين تفرّقوا وتبدّد شملهم وصار الحديث عنهم بلا فائدة، فهم في نظر العبدري كالشيء المبهم الذي لا وجود له في الواقع، **فغدا المثل** جملة أساسية يكمّل **بها وصف** حال الناس الذين **لقيهم العبدري.**

ومن الأمثال التي وردت على لسان العبدري، وهو يصف الحالة العلمية بالجزائر وندرة العلماء **بها قائلا:" فلم يبق بها من هو من أهل العلم محسوب، ولا شخص إلى فنّ من فنون المعارف منسوب، وقد دخلتها سائلا عن عالم يكشف كربة، أو أديب يؤنس غربة، فكأنّي أسأل عن الأبلق العقوق، أو أحاول تحصيل بيض الأنوق"[4] فالمثل: "أعزّ من الأبلق العقوق[5] واعزّ من بيض الأنوق[6]** يضرب هذا المثل في الرّجل الذي يسأل ما لا يكون، وما لا يقدر عليه دلالة على عدم وجود العلماء بالصورة التي تمنّاها **العبدري.**

وينتقل العبدري لوصف مدينة طرابلس وأرجائها قائلا: "لا ترى بها شجرا ولا ثمرا، ولا تخوض في أرجائها حوضا ولا نهرا، ولا تجتلي روضا يحوي نورا ولا زهرا، بل هي أقفر من جوف حمار، وأهلها سواسية كأسنان الحمار ليس على ناشئ منهم فضل لذي شيبة، و لا لذي

---

[1]- أيادي سبا: أي متفرقين، وفي المثل: تفرّقوا أيدي سبا: أي تفرّقوا تفرّقا لا اجتماع بعده، أنظر: مجمع الأمثال للميداني ج1، ص 270.

[2]- عنقاء مغرب: هو الشيء الذي يسمع به ولا يرى، ويقال: أعزّ من عنقاء مغرب، أنظر ثمار القلوب للثعالبي، ص450.

[3]- رحلة العبدري، ص32.

[4]- المصدر نفسه، ص82.

[5]- أعزّ الأبلق العقوق: يضرب لمن يعزّ وجوده، أنظر مجمع الأمثال للميداني، 2/ 43، وثمار القلوب للثعالبي، ص494.

[6]- أعزّ من بيض الأنوق: الرّخمة وعن بيضها لأنه لا يظفر به لأن أوكارها توجد في رؤوس الجبال، والأماكن الصعبة، أنظر مجمع الأمثال للميداني، 2/ 44، وثمار القلوب للثعالبي، ص494.

الفضل منهم هيبة"[1] فالمثل: "أخلى من جوف حمار"[2] للدلالة على افتقار المدينة للماء والزرع، وخلّوها من أسباب العيش.

والعبدري في هجائه لأهل القاهرة رسم صورة لهم بيّن فيها أحوالهم وأخلاقهم التي وجدها في الحضيض؛ فعبّر بشكل غير مباشر عن تحامله ونفوره منهم قائلا: **"فهي سوق ينصب بها الشيطان رايته، ويجري إليها غايته، ويُري فيها لأتباعه – وهم أهلها– آيته، أطبقوا على سوء الأخلاق، وتوافقوا على رفض الوفاق، وتراضعوا لبان اللّؤم وتحالفوا منّا افتراق، فجوادهم (أبخل من الحباحب)[3] وشجاعهم (أجبن من صافر الجنادب)[4] وعالمهم (أجهل من فراشٍ)[5] وفصيحهم (أعيا من باقل) [6]....يمشي الكرم بينهم مطرقا؛ ومقنّعا وينفق اللّؤم لديهم مفَرّقا ومُجَمَّعًا"[7].**

فهذه الأمثال تعكس الصورة السّيئة التي رآها العبدري في أهل القاهرة بما فيها طباعهم وأوصافهم التي بدت له غير مرضية.

---

[1]-رحلة العبدري ؛ ص184، 185.

[2]-أخلى من جوف حمار: هو رجل من عاد، وجوفه: واد كان يحلّه ذو ماء وشجر، فخرج بنوه يتصيّدون فأصابتهم صاعقة فأهلكتهم فكفر وقال: لا أعبد من فعل هذا ببنيّ، ودعا قومه إلى الكفر، فمن عصاه قتله فأهلكه الله وأخرب واديه، فضربت العرب به المثل في الخراب والخلاء أنظر مجمع الأمثال للميداني، 1/ 257، وثمار القلوب، ص84.

[3]-أبخل من الحباحب: هو رجل من العرب، كان لبخله يوقد نارا ضعيفة فإذا أبصرها مستضيئة أطفأها كيلا يراها أحد، انظر جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري، 1/ 246.

[4]-أجبن من صافر الجنادب: يقال: إنه لأجبن من صافر، الصافر، كلّ ما يصفر من الطير، والصفير لا يكون في سباع الطيّر، وإنّما يكون في خشاشها وما يُصاد منها، أنظر مجمع الأمثال للميداني، 1/ 184.

[5]-أجهل من فراش، أجهل من فراشة: لأنها تطلب النّار فتلقي نفسها فيها أنظر مجمع الأمثال، الميداني، 1/ 188.

[6]-أعيا من باقل، باقل: هو رجل من العرب، اشترى ظبيا بأحد عشر درهما فمرّ بقوم فقالوا: بكم أخذت الظبي؟ **فمدّ يديه،** وأخرج لسانه يريد بأصابعه عشرة دراهم وبلسانه درهما فشرد الظبي حين مدّ يديه وكان الظبي تحت إبطه فجرى المثل بعيّه، وقيل: أشدّ عيا من باقل، أنظر القلوب للثعالبي، ص127.

[7]- مصدر سابق، ص276، 277.

كانت الأمثال من الموروث الثقافي الذي اهتمّ به العبدري وهذا يدّل على علّو كعبه في هذا المجال، فالأمثال هي الذاكرة الحيّة للشعوب والسجّل الحقيقي لثقافتها، والصفحة الواضحة لرؤياها وطريقة عملها وتفكيرها، ومن خلالها يمكننا معرفة تاريخ أمّة من الأمم.

النكتة:

رغم شخصية العبدري القوية والعنيفة في رحلته، فنراه حادّ الطّبع كثير النقد، يمدح أحيانا ويهجو كثيرا إلاّ أنّنا نراه يظهر مازحا إثر سماعه أحد الرجال بالقاهرة وهو يردّد التلبية فينطق الكاف همزة: **"وقلّما ترى من أهلها رجلا صافي اللّون إلاّ إن كان من غيرها. ولا رجلاً طلق اللّسان واللّكنة فيهم فاشية، وجمهورهم يجعل القاف والكاف همزة ؛وقد سمعت شخصا منهم في التّلبية يقول: لبّيك اللّهم لبّيك ويجعل كافاتها كلّها همزات، فلو سمعته سمعت كلاما مضحكا"[1]**

فاندهش لما سمعه من هؤلاء النّاس الذين لا يحسنون النطق ويجدون صعوبة في إخراج الحروف وهذا يدل على عدم إصدار الأصوات بشكل واضح وصحيح خصوصا في التّلبية ما جعل العبدري يضحك ولو طال به المقام هناك لسمع الكثير من هذا الكلام.

الخطب والرسائل:

العبدري لم يترك نمُوذجًا أدبيا إلاّ وطرقه وتكلّم فيه ومن هذه النماذج الأدبية الخطب والرسائل باعتبارها من التراث الثقافي، ومن ذلك خطبة الفقيه القاضي أبي حفص عمر بن عبد الله السلّمي ومنها: **"عِبَادَ اللهِ الدّين النَصِّيحةُ، فَخذُوهَا مَحَضَةً صَرِيحَةً، هَدْيُ اللهِ هُوَ الهُدَى، وَمَنْ اتَّبع رُسُلَ اللهِ اهْتَدَى..."[2].**

---

[1] -رحلة العبدري، ص279.

[2] - المصدر نفسه، ص286.

الخُطبة فن نثري يستخدمه الخطيب لطرح أرائه وأفكاره أو لتحفيز المستمعين على **أمر معيّن**، وقد تكون الخطبة بهدف النصيحة والموعظة والتّذكير بسنن الأنبياء؛ ومن الخصائص الفنية للخطبة ما يلي:

*تبدأ بالبسملة والحمدلة أحيانا.

*استخدام الجمل القصيرة، واستخدام المترادفات والتكرار لترسيخ الفكرة في أذهان السامعين.

*استخدام الألفاظ الفصيحة القوية التي تهزّ النفوس.

*تنويع الأسلوب بين الخبري والإنشائي والاستعانة بالمحسن البديعي كالسّجع والجناس لتشويق السامعين.

*ضرب الأمثلة وذكر الحجج والاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث النبوي لتقوية الكلام.

ومن الرسائل التي ذكرها العبدري في رحلته **أيضا رسالة الفقيه ناصر** الدّين بن المنيّر في مناهل **الحجّ، وهذا نصّها:" ولقد تجد النّفوس إلى تلك القفار أنسا كأنّها أوطان، وكأنّ لأشواقها على القلوب سلطان، وإنّ لتلك الثنيّات صباحةً، وإنّ لمياهها – وإن كانت ملحة– في القلوب ملاحة، وحيّا الله الوجه وإن كانت عليه تلك الواقعة، فما أحسنه إذا لمحه الفكر، وإن كانت عليه السّيوف لامعة، ولله منزلة الحوراء وإن كانت عينها مالحة، فإنّها لأحسن من العين الحوراء، وكذلك العرجاء تسبق إلى القلوب بالشّوق على عرجها، وعلى ضيق مدخلها ومخرجها، ولعمري إنّها تضاهي المسك بأرجها، وتباهي المنابر بدرجها...."**[1]

أدب المراسلات أو الرسائل هي فن من الفنون النثرية الذي عُرف قديما في تراثنا الأدبي، وقد تطوّر فن الرسائل ليخرج عن النطاق السياسي ليدخل في الإطار الإخواني (ما يسمّى بالرسائل الإخوانية) ليتبادل الكتاب والأدباء رسائل عدّت دررا في قلادة الأدب العربي ؛ **والرسائل الدّينية نوع** من أنواع الرسائل النثرية حيث يعمد كاتبها لتبليغ خطاب معيّن إمّا يكون بهدف الموعظة، أو بهدف

[1]-رحلة العبدري، ص 243، 244.

التحفيز على أمرٍ ما مثل الرسالة التي بين أيدينا، كتبها صاحبها بغرض الحثّ والترغيب على زيارة البقاع المقدّسة، والتبّرك بتربتها الطاهرة.

إنّ اهتمام العبدري بتلك النصوص النثرية من خطب ورسائل دليل واضح على نظرته الثاقبة في تقييم الآثار الأدبية التي تركها أصحابها والتي بدورها تعكس مكانتهم العلمية.

من خلال النصوص الشعرية والنثرية التي عرضها العبدري في رحلته دلّت على موهبته العلمية الشخصية، فظهر بصورة الشاعر المتمكّن الجيد، فالتجربة الشعرية كانت حاضرة في رحلته فعبّر عن أحاسيسه ومشاعره ، بين مشاعر الغربة والحنين إلى لقاء الأهل والولد وبين مشاعر الفرحة عند دخول مكة والمدينة، وظهر الرحالة في موضع آخر ناقدا وأديبا نجح في انتقاء الأمثال وفق الحدود التي أحاطت بها.

وخلاصة القول أنّ رحلة العبدري جاءت لتكشف النقاب عن واقع العالم الإسلامي، في تكوينه الثقافي والاجتماعي والحضاري، و قد دوّن رحلته تدوينا مباشرا في وقتها، وليس بعد انتهائها واستمرّت رحلته عامين، وكانت بدافع حجّ بيت الله، فمرّ خلالها بعدة مدن وحواضر علمية، إلاّ أنّه لم يُعْنَ في رحلته بتحديد مدّة بقائه في كلّ مدينة أو حاضرة تحديدا دقيقا منتظما، وحسب ما تكشف عنه الرحلة، فإنّه قد أقام مدّة طويلة في تلمسان، وهذا ما يشير إليه إشارة واضحة عند مغادرتها.

اختطّ العبدري لنفسه في كتابة رحلته منهجا صارما، يروم نقل ما يصادفه من أوصاف البلدان، وأحوال أهلها، وقد بنى ذلك المنهج على الملاحظة قائلا:"...**من ذكر بعض أوصاف البلدان، وأحوال من بها القطّان، حسبما أدركه الحسّ والعيان، وقام عليه بالمشاهدة شاهد البرهان، من غير تورية ولا تلويح، ولا تقبيح حسن، ولا تحسين قبيح**"[1]، ولم يَحِدْ العبدري عن منهجه هذا طوال رحلته، ولم يخبر إلاّ عمّا رآه فعلا وخبره بنفسه. ويفيض بعاطفة دينية منبعها فهمه الصحيح

[1]-رحلة العبدري، ص12.

للدّين، فكان لا يقبل الرواية إلاّ ما كان لها سند من القرآن أو الحديث، كما كان يتحامل على الاعتقادات الفاسدة وأتباعها، مثلما رآه في الحجيج الذين كانوا يقومون بطقوس دينية مخالفة لتعاليم الشرع الإسلامي، ومن أمثلة ذلك ما ذكره أنّ من لم يدخل غار ثور من مدخله الضيّف، يعتبر ولدُ زِنىَ وهذا ما رفضه العبدري بشدّة، ووصفه بالمعتقد الفاسد، فظهر بصورة المصلح الرّافض لكلّ ما يحرّف قواعد الإسلام.

اكتسبت الرحلة من ناحية أخرى صبغة علمية نافدة، إذ كان أوّل ما اهتمّ به العبدري بعد وصفه لأيّ مدينة يمرّ بها تتبّع الحياة العلمية فيها، والحقيقة أنّه لم يرضَ عن الحياة العلمية في كثير من المدن ويتأسّف على ضياع العلم وتدهوره فيها، وكان بين الفينة والأخرى يذكر العلماء والمشايخ الذين لقيهم وأخذ عنهم، ولم ينجُ من نقده الحاد للحياة الثقافية عدا تونس، التي أطال ومدح العلم فيها، وقد كثر نقده في معظم النصوص التي قرأناها ؛ فهو يريد ان يكون المجال العلمي كما يتصوّره هو لا كما يكون في الواقع، وقد حكم على بعض المدن بانعدام العلم بها، لأنّه لم يَجِدْ من العلماء من يروي ظمأه ويشبع غريزته العلمية، لذلك كان يبدي تذمرّه وغضبه من المدن التي دخلها، وأهلها الذين لقيهم ؛إلاّ أنّ الرحالة كان يتمتّع بمعرفة واسعة تجلّت عبر صفحات الرحلة فيما أورده من مناقشات علمية في الفقه والتفسير... ما دلّ على سعة علمه وإطّلاّعه على كثير من الكتب في مجالات مختلفة، وهذا ما صّرح عنه عندما استند إلى بعض المصادر التاريخية لتأكيد صحّة المعلومات التي وردت في الرحلة.

من خلال تصفّحنا لنصوص الرحلة، تبيّن لنا أنّ المجالات الأكثر ظهورا في الرحلة هي المجال العمراني والثقافي، والاجتماعي، و الفنّي، فقد دقّق العبدري في تحديد أوصاف المدن، والآثار الإسلامية التي شاهدها، وقدّم ترجمة وافية عن الشيوخ والعلماء الذين أخذ عنهم، وأخذوا عنه من رواية أحاديث ومناقشات علمية، أمّا الجانب الاجتماعي فحصره في الحديث عن أخلاق وطباع وعادات الناس الذين لقيهم، أمّا الجانب الفنّي فقد طغى على متون الرحلة، فقد مال العبدري إلى تضمين رحلته كثيرا من الأمثال الجارية على الألسن، وأبيات شعرية، سواء أكانت من نظمه أو من

نظم غيره، فهذا التنوّع في المادة المعرفية، يدل على أنّ العبدري كان: **"حافظا للقرآن والحديث، مطلّعا على الأدب العربي نثره وشعره، وخطبه ورسائله، عارفا بأيّام العرب وغزواتهم، وفصحاء خطبائهم، وله معرفة بالأسماء والألقاب والكنى، وأسماء الأماكن، وبمصطلحات علوم الأدب والبلاغة والعروض"**.[1]

وأخيرا تكمن أهمية رحلة العبدري في الصورة التي تقدّمها عن الحياة العلمية في المدن والحواضر الإسلامية، التي زارها الرحالة خلال القرن السابع الهجري (الثالث عشر ميلادي)، فالرحلة كشفت عمّا بلغته المعارف والعلوم في ذلك الوقت ممثلة في شخصية العبدري الذي ظهر رحالة، ومؤرّخا، وفقيها، وأديبا شاعرا ا يتمتع به من ثقافة واسعة ما دلّ على علّو كعبه في العلم. تبقى رحلته وثيقة تاريخية حافلة بمجالات متنوعة، وهي حلقة من حلقات التواصل الحضاري بين المشرق والمغرب، من خلال الآثار، والمشاهد الموجودة في متون الرحلة.

[1]-رحلة العبدري، ص08.

خاتمة:

بعد هذه الجولة التي نحسبها قد طالت في ثنايا أدب الرّحلة، الذي تنوع بين الرحلات القديمة والحديثة، خلصنا إلى النتائج الآتية:

1- تعدّدت مفاهيم الحضارة عند ابن خلدون، ومالك ابن نبي ؛ والحضارة في مفهومهم تشمل كل ما أبدعه وأنجزه الفرد من أعمال بغية تحقيق التواصل مع أفراد المجتمع.

2- أمّا المستشرقون فربطوا مفهوم الحضارة بالإنسان باعتباره صانع حضارته.

3- شكّل أدب الرحلة اهتمام الباحثين والمثقفين على حدّ سواء، فكانت الرّحلة الوسيلة التي عبر بها الرحالون عن تطلعاتهم وأفكارهم.

4- تنوعت بواعث الرّحلة بين طلَب العلم والتجارة والرغبة الشخصية، إلاّ أنّ باعث الحجّ كان الدّافع الأساس الذي اشترك فيه جميع الرحالين.

5- اعتمدت نصوص الرّحلات على السرد والوصف اللّذان يمثلان بؤرة الحدث في متون الرّحلة.

6- ركزت الرّحلات الجغرافية على وصف الأقاليم والسهول، وكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه نموذجًا للجغرافية الوصفية.

7- يمكن للباحث أن يدرس الرحلة من مقاربات وزوايا مختلفة، كونها وثيقة تاريخية تعنى بدراسة تاريخ البلد المقصود في معالمه الحضارية، وصورة اجتماعية من خلال عادات وتقاليد الشعوب المزارة؛ ومعرفة مذاهبهم، ولوحة فنية بدراسة نماذج لرحالة أبدعوا وتفننُوا بإظهار ملكتهم الأدبية.

8- حظيت مكة المكرمة ومدينة الرسول صلّى الله عليه وسلم بوصف مشفع عند جميع الرّحالة المسلمين.

9- حضور الآخر في أدب الرحلات دليل على وجود التواصل الإنساني بين المجتمعات العربية الإسلامية والغربية.

10- الدارس لرحلة ابن بطوطة يلمس النزعة الصوفية المتحكمة في نصوص الرّحلة، والتي عكست شخصية الرجل المتدينة.

11- رحلات العصر الوسيط اشترك أصحابها في المطلب الديني والعلمي؛ فركزوا في نصوصهم على وصف الأماكن المقدّسة، والمشاهد الدينية ودور العلم.

12- الرحلة الحديثة أخذت منحى آخر حيث كشفت عن مظاهر الحضارة الغربية وقوة تمدُّنها وتقدّمها.

13- رحلة أحمد فارس الشدياق إلى مالطة وأوربا كبيرة في حجمها ؛ غنيّة بمادة معرفية شملت الجانب العمراني والإقليمي والاجتماعي والثقافي، كما انبهر الطهطاوي بحضارة باريس، انبهر فارس الشدياق بحضارة أوربا، فالرحلتان متقاربتان في المدّة الزمنية.

14- رحلة الطهطاوي إلى باريس مثّلت الانفتاح على العالم الغربي، بتعلّم لغته وفنونه وآدابه، لذا طالب الطهطاوي في مشروعه الإصلاحي بتعليم المرأة.

15- رحلة محمد عياد الطنطاوي إلى روسيا، أماطت اللّثام عن حضارة هذا البلد في عمرانه وعاداته ومذاهبه...، مقارنة مع ما أقرّه ابن فضلان في رسالته إلى بلاد الترك والخزر والروس، فرأى أنّ هذه البلاد ما زالت تعيش الجاهلية الأولى ؛ وهذا ما ألفيناه في نصوص رحلته التي أكدّت غياب الجانب الأخلاقي والحضاري في الرّحلة.

16- رحلة العبدري كانت بدافع الحج وطلب العلم، فكانت رحلته دينية علمية.

17- استطاع العبدري بواسطة ريشته أن يرسم لنفسه شخصية تعدّدت أدوارها، فوجدناه رحالة زار مدناً عربية كثيرة، وشاعرا مجيدا مكثرا في القصائد التي عرضها في الرّحلة، سواء أكانت من نظمه أو نظم غيره، وناثرًا محيطا بأمثال العرب وفق الحدود التي وضعت فيها.

18- نلمس الحاسّة النقدية للعبدري والتي تكرّرت في مواطن مختلفة، فنجده يسقط وابل من الانتقادات للمدن التي زَارَهَا من الناحية العمرانية، والثقافية والاجتماعية، فلم يسلم من نقده اللاّذع إلاّ تونس التي اعتبرها المكان الذي أسرَ قلبه.

19- تنوّعت المظاهر الحضارية في رحلة العبدري بين الجانب التاريخي، والاقتصادي والاجتماعي، والثقافي والفنّي، إلاّ أنّ المظهر الفنّي غلب على نصوص الرّحلة ؛ فأظهر العبدري من خلالها موهبته الأدبية وحسّه الفني.

20- استطاع الرّحالون من خلق مستويات من التثاقف، وذلك بالاندماج مع المجتمعات التي زارُوها.

21- ساهم أدب الرحلة في إثراء المكتبات العربية بفروع من العلم والمعرفة، ما فتح مجال الإبداع والتأليف.

قائمة المصادر والمراجع:

*القرآن الكريم برواية حفص.

1. ابن بطوطة الرجل والرحلة ؛أسماء أبو بكر محمد ؛دار الكتب العلمية ؛بيروت ط1 1998.
2. ابن بطوطة وصناعة أدب الرحلة ؛نسيج الواقع والخيال ؛رسالة ماجستير في الآداب ؛ إعداد شادي حكمت ناصر؛الجامعة الأمريكية بيروت.
3. ابن خلدون إنجاز فكري متجدّد ؛إسماعيل سراج الدين ؛مكتبة الإسكندرية ؛دط.
4. أدب الرحلة ؛حسين نصّار؛الشركة العالمية لون جمان ؛دار نوبا للطباعة ؛شبرا القاهرة ؛ دط.
5. أدب الرحلة عند العرب ؛الدكتور حسني محمود حسين ؛دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع؛ ط2 1983.
6. أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني ؛الحسن الشاهدي ؛الجزء الأول ؛منشورات عكاظ؛ دط.
7. أدب الرحلة في التراث العربي ؛فؤاد قنديل ؛مكتبة الدار العربية للكتاب ؛دط.
8. أدب الرحلات ؛محمد حسين فهيم ؛سلسلة كتب شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ؛الكويت ؛دط.
9. الأدب العربي في آثار أعلامه ؛الجاهلية وصدر الإسلام ؛واصف بارودي خليل تقيّ الدين ؛ الجزء الأول ؛المطبعة الكاثوليكية بيروت ؛دط.
10. أدب الرحلة الحجازية عند الأندلسيين من القرن السادس حتّى سقوط غرناطة ؛أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي ؛إعداد الطالب عبد الله بن عثمان الياقوت ؛ إشراف الدكتور محمود حسن زيني 2001.
11. الأوضاع الحضارية في مصر والشّام في العصر المملوكي ؛الدكتورة سماح السلّاوي ؛دار الآفاق العربية القاهرة؛ط1 2014.

12. إحياء علوم الدين ؛الإمام الغزالي مع مقدمة في التصوّف الإسلامي ودراسة تحليلية لشخصية الغزالي وفلسفته في الإحياء بقلم الكتور بدوي طبانة ؛الجزء الثاني ؛مكتبة ومطبعة كرياط فوتر ؛ أندونيسيا ؛دط.

13. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ؛شمس الدين أبي عبد الله محمد المقدسي ؛طبع في مدينة ليون المحروسة 1877.

14. أعلام العرب ؛عبد الرحمان ابن خلدون حياته وآثاره ومظاهر عبقريته ؛الدكتور علي عبد الواحد وافي ؛مكتبة مصر ؛دط.

15. أعلام العرب ؛أحمد فارس الشدياق ؛محمد عبد الغني حسن ؛دار المصرية للتّأليف والترجمة ؛ دط.

16. أحمد فارس الشدياق حياته وآثاره وآراؤه في النهضة العربية الحديثة؛ محمد الهادي المطوي؛ دار الغرب الإسلامي ؛بيروت ؛دط.

17. الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة للهجرة ؛زكي محمد مجاهد ؛الجزء الثالث؛ دار الغرب الإسلامي ؛ط2.

18. 15-الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي؛التمدّن والحضارة والعمران؛دراسة وتحقيق محمد عمارة ؛دار الشروق ؛دط.

19. أعلام الحضارة العربية الإسلامية في العلوم الأساسية والتطبيقية ؛زهير حميدان ؛المجلد الأول ؛ وزارة الثقافة دمشق ؛دط.

20. أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث ؛أحمد تيمور باشا ؛دار الآفاق العربية ؛القاهرة ؛ ط2.

21. الإعلام بمن حلّ مرّاكش وأغمات من الأعلام ؛الجزء الثالث.

22. أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام ؛عمر رضا كحالة ؛مؤسسة الرسالة ؛الجزء الخامس ؛ ط5 1984.

23. بحوث ودراسات في العمارة الإسلامية ؛محمد حمزة إسماعيل الحدّاد ؛أستاذ العمارة والآثار والحضارة الإسلامية ؛كلية الآثار جامعة القاهرة ؛ط2 2004.

24. جوانب من الحضارة ؛الدكتور عبد الرحمان علي الحجّي ؛مكتبة الصحوة بيروت ؛دط.

25. جمهرة الأمثال ؛أبي هلال العسكري ؛ حقّقه محمد أبو الفضل ابراهيم وعبد المجيد قطامش؛ الجزء الأول ؛دار الجيل بيروت ؛دط.

26. جمالية الفن العربي ؛عفيف بهنسي ؛سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس للثقافة والفنون والآداب ؛الكويت ؛دط.

27. جمالية المشهد في أدب الرحلة الجزائري الحديث ؛رسالة ماجستير في الأدب الجزائري الحديث؛ إعداد الطالب عيسى بخيتي ؛إشراف الدكتور محمد مرتاض ؛جامعة تلمسان 2011.

28. الجغرافيا والرحلات عند العرب ؛نقولا زيادة ؛الشركة العالمية للكتاب ؛بيروت ؛د

29. جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس ؛أحمد ابن القاضي المكناسي ؛دار المنصور للطباعة والورّاق الرباط ؛دط.

30. ديوان ابن خفاجة ؛دار بيروت للطباعة والنشر ؛دط.

31. دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ؛سعيد عبد الفتّاح عاشور؛منشورات ذات السلاسل الكويت ؛ط2 1989.

32. دراسات في التراث الجغرافي العربي الإسلامي؛عبد علي الخفاف؛ ومحمد أحمد عقلة ؛دار الكندي للنشر والتوزيع ؛المملكة الأردنية الهاشمية ؛دط0

33. الدرر الكامنة في أعيان المائة والثامنة ؛ابن حجر العسقلاني ؛السفر الثالث ؛دط.

34. دعوة الحق؛كتاب شهري محكّم يصدر عن إدارة الثقافة والإعلام برابطة العالم الإسلامي ؛ العدد 256

35. الواسطة في أحوال مالطة وكشف المخبأ عن فنون أوربا؛ أحمد فارس صاحب الشدياق صاحب الجوائب ؛ط2 مطبعة الجو ائب القسطنطينية .

36. الحسرات فيمن رحل للسّماع على محدّث فوجده قد مات ؛الدكتور محمد بن عزوز؛ مركز التراث الثقافي المغربي ؛دار ابن حزم الدار البيضاء ؛ط1 2005.

37. الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ؛ هي معلمة أندلسية تحيط بكل ما جاء عن ذلك الفردوس المفقود ؛شكيب أرسلان ؛الجزء الثالث ؛منشورات دار مكتبة الحياة ؛بيروت لبنان؛ د ط

38. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام ؛آدم ميتز؛ تعريب محمد عبد الهادي أبو ريدة ؛المجلد الأول ؛دار الكتاب العربي بيروت؛ دط.

39. الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة ؛شوقي ضيف ؛دار المعارف ؛دط.

40. الحضارة الإسلامية وآثارها على المدنية الغربية؛ موسى عبد اللّاوي ؛دار العلوم للنشر والتوزيع؛ عنابة؛ دط.

41. الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطوّرها ؛ حسين مؤنس ؛عالم المعرفة ؛سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب؛ الكويت؛ دط.

42. لسان العرب؛ ابن منظور الأنصاري الإفريقي ؛المجلد السادس ؛دار صادر للطباعة والنشر؛ص ب01 ؛بيروت لبنان.

43. مالك بن نبي ومشكلات الحضارة ؛ دراسة تحليلية نقدية تقديم جرر سعيد ؛دار الصفوة بيروت ؛لبنان ؛دط .

44. ماذا قدّم المسلمون للعالم؛ إسهامات المسلمين في الحضارة الإنسانية؛ الدكتور راغب السر جاني؛ مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة؛ القاهرة؛ ط2 2009.

45. مبادئ العمارة الإسلامية وتحوّلاتها المعاصرة ؛قراءة تحليلية في الشكل ؛ هاني محمد القحطاني ؛ مركز دراسات الوحدة العربية ط1 2009.

46. مجمع الأمثال ؛الميداني؛حقّقه وضبط حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد؛ الجزء الثاني دط.

47. مدخل إلى الحضارة الإسلامية ؛عماد الدين خليل ؛المركز الثقافي العربي ؛الدار العربية للعلوم ؛ ط1 2005.

48. موسوعة الحضارة الإسلامية ؛أحمد شلبي أستاذ ورئيس قسم التّاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بكليّة دار العلوم؛ القاهرة مكتبة النهضة المصرية ؛دط.

49. موسوعة أعلام الحضارة الإسلامية ؛مصطفى فتحي ؛دار أسامة للنشر والتوزيع؛ دط.

50. موسوعة شعراء العصر العباسي ؛عبد عون الروضان ؛دار أسامة للنشر والتوزيع ؛ الأردن ؛ عمان ؛الجزء الثاني ؛ط1 2001.

51. الموجز في تاريخ الكشف الجغرافي؛ جورج هراب ؛المترجم الدكتور عبد العزيز طريح شرف ؛ مؤسسة الثقافة الجامعية الإسكندرية ؛ دط.

52. ملوك العرب ؛أمين الرّيحاني ؛دار الجيل بيروت ؛ط8 1987.

53. من روائع حضارتنا ؛مصطفى السباعي ؛دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة؛ القاهرة ط1؛ 1998.

54. معجم القاموس المحيط ؛مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي ؛ تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ؛إشراف محمد نعيم العرقسوسي ؛مؤسسة الرسالة .

55. معجم الصّحاح ؛الإمام إسماعيل بن حمّاد الجوهري ؛دار المعرفة ؛بيروت ؛لبنان.

56. معجم مقاييس اللغة ؛أبي الحسين بن فارس بن زكريا بتحقيق وضبط عبد السلام هارون؛المجلد الثاني ؛دار الجيل بيروت.

57. المعجم الوسيط واستدراكات المستشرقين ؛محمد داود ؛دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ؛ القاهرة ؛ط1 2006.

58. معجم أعلام شعراء المدح النبوي ؛محمد أحمد درنيقة ؛قدّم له وضبط أشعاره الدكتور ياسين الأيّوبي ؛دار ومكتبة الهلال ؛بيروت ؛دط.

59. معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوربية ؛عبد الله ناصح علوان ؛دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ؛دط.

60. المساجد ؛حسين مؤنس ؛عالم المعرفة ؛سلسلة كتب شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ؛الكويت ؛دط.

61. المسالك المالك ؛أبي عبيد البكري ؛الدّار العربية للكتاب ؛الجزء الأول ؛دط.

62. المسالك والممالك ؛أبو القاسم عبيد الله ابن خرداذبه ؛ طبع في مدينة ليون المحروسة 1889.

63. مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وآرنولد توينبي ؛آمنة تشيكو؛المؤسسة الوطنية للكتاب ؛ الجزائر.

64. مقدّمة ابن خلدون ؛الإمام عبد الرحمان بن خلدون ؛تحقيق الأستاذ درويش الجويدي ؛ماجستير في اللغة العربية ؛المكتبة العصرية صيدا؛بيروت

65. المقدّمة ؛تاريخ العلّامة ابن خلدون ؛دار الكتاب اللّبناني ومدرسة بيروت ؛لبنان ؛دط.

66. مقوّمات الحضارة وعوامل أفولها من منظور القرآن الكريم ؛رسالة ماجستير في أصول الدّين بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية ؛ نابلس فلسطين ؛إعداد الطالب عمّار توفيق أحمد البحري ؛إشراف الدكتور محسن سميح الخالدي.

67. المرشد الأمين للبنين والبنات ؛ في الفكر النهضوي الإسلامي ؛ رفاعة الطهطاوي؛تقديم منى أحمد أبو زيد ؛دار الكتاب المصري؛ القاهرة ؛دط.

68. مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا ؛الدكتور سيّد حامد النسّاج ؛مكتبة غريب ؛دط.

69. المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة المنوّرة ؛اختيار وتهذيب وفهرسة الدكتور محمد بن حسن الشريف ؛المجلد الأول ؛دار الأندلس الخضراء ؛ط1 2000.

70. نفح الطّيب في غصن الأندلس الرّطيب ؛أحمد المقّري التلمساني؛ المجلد الاول ؛حقّقه الدكتور إحسان عباس ؛دار صادر بيروت ؛دط.

71. نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ؛أحمد المقّري التلمساني ؛المجلد الثاني .

72. النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين ؛رجب البيّومي ؛ الجزء الثاني؛دار القلم؛ دط.

73. نهاية الأرب في فنون الأدب ؛النويري ؛تحقيق الاستاذ عبد المجيد ترحيني ؛منشورات محمد علي بيضون ؛دار الكتب العلمية ؛بيروت ؛لبنان ؛الجزء الثامن عشر ؛دط.

74. العجائبية في أدب الرحلات ؛رحلة ابن فضلان نموذجا ؛رسالة ماجستير في الادب العربي ؛ إعداد الطالبة علّاوي الخامسة ؛إشراف الدكتور حمّادي عبد الله ؛ 2005.

75. علماء العرب وما اعطوه للحضارة ؛فدوى حافظ طوقان ؛منشورات الفاخرية ؛الرياض ودار الكتاب العربي ؛بيروت؛دط.

76. العمارة الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها ؛فريد محمود شافعي ؛أستاذ العمارة الإسلامية؛ كلية الهندسة جامعة الملك سعود؛ط1 1989.

77. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ؛ابن رشيق القيرواني؛ الجزء الأول؛ دار الجيل؛ ط1 1981.

78. صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية ؛رسالة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها ؛إعداد الطالب بلال سالم الهروط ؛إشراف الدكتور فايز القيسي ؛جامعة مؤتة 2008.

79. سفرنامة ؛ناصر خسرو علوي ؛ترجمة الدكتور يحي الخشّاب ؛الهيئة المصرية العامة للكتاب ؛ دط.

80. القاموس المحيط ؛مجد الدّين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي ؛الجزء الثالث ؛دار الجيل بيروت

81. القيم والاخلاق في الحضارة الإسلامية ؛راغب السرجاني ؛تصميم وإخراج موقع نصرة الله؛ دط..

82. رحلة ابن جبير ؛دار بيروت للطباعة والنشر؛دط.

83. رحلة ابن جبير؛ أبو الحسن محمد ابن جبير الكناني الأندلسي ؛مركز ودود للمخطوطات.

84. الرحلات ؛شوقي ضيف ؛دار المعارف ط.4

85. الرحلة الحجازية كتابات بعض الرحالة المسلمين ؛الدكتور رحاب السيّد جناحة ؛دارالآفاق العربية القاهرة؛ط1 2014.

86. الرحلة المغربية في القرن التّاسع عشر(مستويات السرد)عبد الرحيم مودّن؛دار السويدي للنشر والتوزيع ؛ط1 2006.

87. الرحلة في الأدب العربي (حتّى نهاية القرن الرابع الهجري) ناصر عبد الرزّاق الموافي نقلا عن إنجيل بطرس ؛الرحلة في الأدب الإنجليزي.

88. الرحلة الحجازية ؛محمد السنوسي ؛تحقيق الدكتور علي الشنوفي ؛الشركة التونسية للتوزيع ؛الجزء الأول؛دط.

89. رحلة السيرافي؛تحقيق عبد الله الحبشي ؛المجمع الثقافي أبو ظبي الإمارات العربية المتحدة ؛دط.

90. الرحلة في طلب الحديث ؛الخطيب البغدادي ؛حقّقه وعلّق عليه نور الدّين عتر؛دار الكتب العلمية ؛بيروت لبنان ؛ط1 1975.

91. الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ؛الدكتور زكي محمد حسن ؛شركة نوابغ الفكر؛ القاهرة؛ ط1؛ 2008

92. رحلة ابن بطوطة ؛دار بيروت للطباعة والنشر ؛دط

93. رحلة القلصادي ؛أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي ؛دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان ؛ الشركة التونسية للتوزيع ؛دط

94. الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين ؛دراسة تحليلية نقدية مقارنة ؛رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي ؛إعداد الطالبة محمد يوسف نواب.

95. الرّحل في المغرب والأندلس ؛الدكتور علي إبراهيم الكردي.؛دراسات في الأدب العربي ؛وزارة الثقافة ؛الهيئة العامة السورية للكتاب ؛دط.

96. رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية ؛المسمّاة بتحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا ؛قدّم لها وحرّرها الدكتور محمد عيسى صالحية ؛مؤسسة الرسالة بيروت؛دط.

97. رحلة العبدري ؛أبي عبد الله محمد بن سعود العبدري ؛حقّقها وقدّم لها الدكتور علي ابراهيم الكردي ؛ط2 2005.

98. روّاد النهضة الحديثة ؛مارون عبود ؛مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ؛جمهورية مصر العربية ؛ دط.

99. رسالة ابن فضلان؛ أحمد ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والرّوس والصقالبة؛ حقّقها الدكتور سامي الدّهان ؛دط.

100. شجرة الحضارة ؛رالف لينتون؛ تقديم محمد السويدي.

101. شمس العرب تسطع على الغرب ؛أثر الحضارة العربية في أوربا ؛المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه؛ نقله عن الألمانية فاروق بيضون وكمال دسوقي ؛راجعه ووضع حواشيه مارون عيسى الخوري؛ منشورات دار الآفاق بيروت ؛دط.

102. تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ؛فخري خليل الدّين النجّار؛دار الصفاء للنشر والتوزيع ؛ عمان ؛دط.

103. تاريخ الأدب الجغرافي ؛كراتشوفسكي ؛نقله إلى العربية صلاح الدّين عثمان بن هاشم ؛الجزء الاول ؛دط.

104. التّاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر ؛جمال الدّين الشيّال ؛مكتبة الثقافة الدينية ؛ ط1؛ 2000.

105. تاريخ الادب العربي ؛الأدب في المغرب والأندلس من الفتح الإسلامي إلى آخر عصر ملوك الطوائف ؛عمر فروخ ؛دار العلم للملايين ؛بيروت ؛لبنان ؛الجزء الرّابع ؛ط2 1984.

106. التّعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ؛عبد الرحمان ابن خلدون ؛دار الكتاب اللبناني ؛ بيروت لبنان؛دط.

107. تخليص الإبريز في تلخيص باريز ؛رفاعة رافع الطهطاوي ؛مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ؛ دط.

108. تراجم مغربية من مصادر شرقية ؛علّق عليه الدكتور محمد بن شريفة؛عضو أكاديمية المملكة المغربية.

109. ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ؛لأبي منصور عبد الملك بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري؛ المكتبة العصرية صيدا ؛بيروت؛دط.

110. الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ؛المرّاكشي ؛المجلد الثالث .

111. بعض ما يمكن قوله أوراق ليست شخصية؛ محمود الورداني ؛ الهيئة العامة لقصور الثقافة ؛ ط2.

112. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ؛ابن خلّكان ؛حقّقه الدكتور إحسان عباس ؛المجلد الخامس؛ دار صادر ؛بيروت ؛دط.

113. غربال الزمان في وفيات الأعيان ؛العامري الحرضي اليماني ؛صحّحه وعلّق عليه محمد ناجي زعبي العمر؛ المشرف القاضي عبد الرحمن بن يحي الإرياني ؛طبع بدمشق 1985.

114. الأدب العربي في العصر العباسي، د. ناظم رشيد، مديرية دار الكتب للطباعة و النشر، الموصل، د.ط.

115. الحياة الأدبية في العصر العباسي، د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الوفاء للطباعة والنشر، الاسكندرية، ط1 ، 2004.

116. العمارة الاسلامية في مصر (النظرية والتطبيق)، رسالة دكتوراه في العمارة، إعداد الأستاذ شوكت محمد لطفي عبد الرحمان القاضي، إشراف الاستاذ الدكتور كامل عبد الناصر أحمد، جامعة أسيوط، 1998.

117. المدينة الإسلامية، د. محمد عبد الستار عثمان، سلسلة كتب ثقافية شهرية، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون الآداب، الكويت، د ط.

118. علم الجمال وفلسفة الفن، فريديريك هيجل، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، مكتبة دار الحكمة، ط1، 2010.

119. معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1980.

120. نيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا التنبكتي، عناية وتقديم الدكتور عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات دار الكاتب، طرابلس، ط2.

121. الأعلام قاموس وتراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط15، 2002.

فهرس الموضوعات

ملخص:

أدب الرحلة تراث غني بما تحويه نصوص الرحلات من مظاهر حضارية، شملت الجانب الثقافي، والاجتماعي، والعمراني...الخ.

الرحالة المشارقة والمغاربة كانت لهم إسهامات كبيرة في هدا الفن الأدبي من خلال مصنفاتهم الأدبية التي غلب عليها الطابع الديني، والعلمي . العبدري واحد من أولائك الذين تركوا بصماتهم في سجل التاريخ و الحضارة في رحلته المغربية التي أماطت اللثام عن واقع العالم العربي الإسلامي في تكوينه الثقافي والحضاري وأهم التجليات الحضارية التي حوتها نصوص الرحلة .

الكلمات المفتاحية: المظاهر – الحضارة – مدونات – الرحالة العرب – العبدري.

Résumé

Le récit de voyage est patrimoine riche en récits de voyage révélant les aspects civlisationnels incluant les cotes culturel, social, et architectural…etc.

Les voyageurs orientaux et occidentaux ont largement contribue a cet art littéraire a travers leurs ouvrages qui, pour leur majeur partie, traitaient du religieux et du scientifique.

Al-Abdary en est un .Il a laisse de grandes références en histoire et civilisation lors de son voyage maghrébin qui a dévoile la réalité du monde arabe- islamique dans sa formation culturelle et civilisationnelle.

Mots- Clés : Aspects – Civilisation – Blogs – voyageurs arabes – Al-Abdary

Abstract

The travel story is a rich heritage of travel stories displaying civilizational aspects including the cultural, social and architectural…etc.

Oriental and occidental travellers widely contributed in this literal art through their litteral issued production mostly showing religious and scientific sides ; Al-Abdary is one of those who left a great heritage in history and civilization during his Maghrebine travel which unveiled the reality of the Arab Islamic world and how it was brought up in culture and civilization .

Keywords : Aspects-civilization-blogs-Arab travellers-Al-Abdary.

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد -تلمسان-

كلية الآداب واللغات

قسم : اللغة العربية وآدابها

تخصص: آداب المغرب الإسلامي والحضارة المتوسطية

ملخص أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه نظام ل م د في الأدب والحضارة الموسومة:

المظاهر الحضارية في مدونات الرحالة العرب

رحلة العبدري نموذجا

إعداد الطالبة:

زواوية طيبي

إشراف:

أ.د. محمد زمري

السنة الجامعية: 2016 - 2017

ملخص الأطروحة

الحمد لله الذي خلق الإنسان وأعماله وراقب بمشيئته نواياه وأفعاله ؛ والصّلاة والسلام على من قال: "اعملوا فكلّ ميسّر لما خُلق له" ؛ ورضي الله عن العلماء العاملين الذين قد ساروا في الناس سيرة الجادّين المهتدين؛ وعلى أصحابه الذين اهتدوا بهديه إلى يوم الدّين.

وبعد:

لقد جاب الرّحالة العرب والمسلمون العالم القديم ؛وسجّلوا ملاحظاتهم ودوّنوا معلومات في غاية الأهمية عن التضاريس الجغرافية ؛من جبال وسهول ومواقع المدن الكبرى ؛وأهميتها السياسية والاقتصادية ؛ودرسوا البحار والأنهار والخلجان ؛ومواقع المدن ؛وتحدّثوا عن طرق المواصلات وقاسوا المسافات بينها ؛وسجّلوا في مدوّناتهم أحوال السكان الاجتماعية والاقتصادية.....إلخ ؛وربطوا بين البيئة والنشاط البشري ؛لما للعوامل الجغرافية من أثر على السكّان وصفاتهم وأخلاقهم وعاداتهم ؛وكانت المعلومات الجغرافية الوصفية والسكّانية ؛ومعرفة المسالك وطرق القوافل البريّة ؛والخطوط البحرية بين موانئ مدن الإسلام ذات أهمية بالغة لدولة إسلامية مترامية الأطراف ؛نشطت منها حركة النقل والتجارة ؛ بسبب ما تمتّعت به من أمان واستقرار وازدهار اقتصادي.

ارتبط لفظ رحلة بالانتقال من مكان إلى مكان، ومن حالة إلى حالة فهو فعل سبق كلّ الأفعال، وسمة سبقت كل السّمات؛ وتحوّلت إلى حلم وشوق تتطلّع إليه كل نفس، وهاجس ملّح يحوم في أعماق الكثير من المخلوقات حتّى الحيوان والطّير، ولعّل الطيور المرتحلة و المهاجرة معلم شهير من معالم الطبيعة التي تبحث عن وجودها وأحلامها في الأمن والطعام، فتندفع بالأجنحة والقلوب نحو بلاد بعيدة وآفاق رحبة، تعانق فيها صورا جديدة من صور الحياة وتجلّياتها.

الرحلة حركة، والحركة روح الحياة، وقد هيّأ الله لها جيناتها وخلاياها فيما خلق، وصمّم لها التّشكيل الجسدي والنفسي والعقلي كأدوات لازمة لتعمير الأرض بالحركة، وبثّ الحياة بالعمل والتنقّل ليكون الإنسان من صنّاع الحياة وعمّار الكون لقوله تعالى:" هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها" (سورة هود الآية 61).

عرف العرب الرحلة منذ القديم، فكانت رحلتا الشتاء والصّيف أول رحلة مارسها العرب للتجارة من اليمن إلى الشّام، وبعد الفتوحات الإسلامية اتّسع نطاق الرحلات لتشمل الرحلة الدينية والعلمية، حمل لواءها كلّ من ابن جبير وابن بطوطة...إلخ ؛ فعرف هذا الفن (أدب الرحلة) ازدهارا بسبب تنوّع الموضوعات والمشاهد التي شاهدها الرحالة، فكان الوصف زبدة الرحلة باعتماده على المشاهدة والمعاينة، فاصطبغت الرحلات بصبغة دينية علمية، ومع نهاية القرن التاسع عشر ميلادي اكتسى أدب الرحلة بحلة جديدة تمثّلت في الانبهار بالحضارة الغربية، ومعرفة مقوّمات تمدّنها فكان رفاعة الطهطاوي سفير المشرق العربي إلى باريس، وبعده أحمد فارس الشدياق ومحمد عياد الطنطاوي ؛ فكانوا روّاد النهضة في العصر الحديث لما حملته نصوص رحلاتهم من مظاهر حضارية شملت الجانب العلمي ؛ والعادات والتقاليد والعمران ؛ وبذلك خرجت الرحلة عن المألوف من وصف للأماكن المقدّسة ولقاء العلماء، إلى رؤية العالم الغربي من خلال الرحلات التي أثرت التراث العربي بهذه المادة العلمية. ويبرز التنوّع في الرحلات ؛لا بمستواها الأدبي فحسب ؛بل بمنحاها التّاريخي والجغرافي؛أو الأثنوغرافي في قوالب يتآزر فيها الجانب التعليمي بالإمتاع الأدبي.

أمّا اختياري للموضوع فيرجع إلى دافعين:

إنّ الدّافع الذاتي الذي جعلني أطرق باب أدب الرحلة باعتبار هذا الأخير أكثر استجابة للتحوّلات، والأحداث التي تعبّر عنها الأمم والمجتمعات، إضافة إلى انجذابي نحو نصوص هذا الفن من حبّ الإطّلاع الجغرافي واكتشاف الجديد، بغية تحصيل المعرفة من هذا النّبع الذي لا ينضب معينه، ثمّ تحقيق حلمي كمشروع كانت الرغبة فيه منذ أن كنت طالبة بالماستر.

أمّا الدافع الموضوعي فتمثل في استنطاق نصوص الرحلات وكشف خباياها، لما يتمتّع به هذا الفن من متعة أدبية، جعلتني أخوض البحث فيه، متمنّية أن يكون عملي هذا المتواضع مشروعا أضيفه إلى ما كتبه السابقون في هذا المجال.

وبعد هذه التوطئة أطرح الإشكاليات الآتية:

-ما مفهوم الحضارة عند العرب والمستشرقين؟

- ما مقوّمات الحضارة العربية الإسلامية؟

-ما علاقة الرحلة بالأدب؟ وما الذي يضفي عليها صفة الأدبية؟

- ما هي الدوافع الأساسية وراء الرحلات القديمة والحديثة؟

- أين تكمن جماليات أدب الرحلة؟

-ما هي نقاط التشابه والاختلاف بين رحلات العصر الوسيط ورحلات العصر الحديث؟.

- أين تتجلّى المظاهر الحضارية في رحلة العبدري؟

إنّ أيّ بحث لا يستطيع أن يبني نفسه من فراغ، لذلك اعتمدنا على دليل أو معين ييّسر عملنا، فهذا البحث اتّكأ على دراسات سبقته ومصادر أضاءت دربه، ولاسيما المضان الأكثر التصاقا بهذا الموضوع على غرار:

- الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر عبد الرحيم مودّن.

- أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، الحسن الشاهدي.

- أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع عشر، نوال عبد الرحمان الشواكبة.

- الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، دراسة تحليلية نقدية مقارنة، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، إعداد الطالب عواطف محمد يوسف نواب.

- وبعد اطّلاعي على مختلف المناهج الفنّية بدا لي أنّ أنسب منهج لبحثي هو المنهج الوصفي القائم على التحليل، مع الاستعانة بالمنهج التاريخي.

ولمحاولة إيصال ذلك إلى المتلقّي فقد اتّبعنا خطة تتمثل في مدخل وأربعة فصول وخاتمة وفهرس الموضوعات.

ففي المدخل تعرضنا لمفهوم الحضارة العربية الإسلامية عند العرب المسلمين والمستشرقين، ومقوّماتها، وخصائصها ؛وذكرنا بعض أعلام الحضارة ومنجزاتهم العلمية.

وفي الفصل الأول: الذي كان عنوانه:" لمحة عن أدب الرحلة" تناولنا فيه التعريف بأدب الرحلة لغة واصطلاحا، ثم أشرنا إلى بواعث الرحلات، ثم تطرقنا إلى الرحلة والجغرافيا الوصفية ؛ ثمّ تبعنا ذلك بعلاقة الرحلة بالعلوم (علم التاريخ والآثار علم الاجتماع...) وانهينا الفصل بالحديث عن الخصائص الفنية لأدب الرحلة الذي اعتمد على الوصف والسرد.

وفي الفصل الثاني:**الموسوم**:" مدونات رحالة العصر الوسيط" حاولنا أن نتناول فيه الرحلات التي بدأت من القرن الرابع الهجري إلى القرن التاسع الهجري، بداية من ابن فضلان وابن جبير وابن بطوطة والعبدري، فتطرقنا إلى التعريف بكلّ رحالة، ومضمون رحلته، وانتقينا المشاهد والأماكن التي كانت تمثل بؤرة الحدث في متون هذه الرحلات.

وفي الفصل الثالث: الموسوم" مدونات رحالة العصر الحديث" التي كانت بالانفتاح على الغرب وأهمّ منجزاته، فكان رفاعة الطهطاوي رائدا لتنوير العقل العربي بالاطّلاع على فنون وعلوم الغرب؛ وتبعه أحمد فارس الشدياق الذي اختار مالطة وأوربا نموذجا في رحلته الحضارية، أمّا محمد عياد الطنطاوي فاختير مدرسا بكلية بتربورغ بروسيا. فرحل ليعلّم ويتعلّم .

أمّا الفصل الرابع:توجّهنا فيه بالتحليل للجانب التطبيقي، حيث قمنا بدراسة المظاهر الحضارية في رحلة العبدري التي تنّوعت بين الجانب التاريخي والاقتصادي ؛ والاجتماعي والثقافي والعمراني، وكان للجانب الفّني نصيبا كبيرا أثبتنا من خلاله شاعرية العبدري وأدبيته.

وأنهينا بحثنا بخاتمة كانت عبارة عن أهمّ النتائج التي توصلنا إليها في البحث.

وفي الأخير أقول أنيّ لا أدّعي أنيّ بلغت الكمال في إنجاز هذا العمل ؛ ولا أزعم حاجة هذا البحث إلى المزيد ؛ إذ سيكون فتحا لدراسات أخرى، فالحمد لله والشكر لكل من كان لي عونا من قريب أو بعيد في إنجاز هذا العمل المتواضع، خاصة الرجّل الذي تبنّى فكرة الموضوع، وتتبّع خطواته وأشرف على إنجازه، الأستاذ الدكتور محمد زمري أدام الله عطاءه.

تعريف الحضارة لغة:

جاء في القاموس المحيط **حَضَر** كنصَر وعَلم، حضُورًا أو حضارة: ضد غَابَ **كاحتضَر وتحضَّر**، ويعدى يقال: حَضَرهُ وتحضَرّهُ، واحْضَرَ الشيء وكان بحَضرته **وحَسَنُ الحضْرَة** بالكسر إذا حضَر بخَيْر **والحَضَرُ الحَضْرَةُ والحاضرَةُ والحضَارَةُ** خلاف البادية، **الحضارةُ** الإقامة في الحضَر[1].

ورد لفظ الحضارة في معجم الصّحاح للجوهري على أن:

حَضَر، **حضرَةُ** الرجل قرّبَهُ، **الحَضْرُ**: بلدٌ بإزاء مَسْكن ويقال كلمته **بحضَرة** فلان و **بمحْضَر** من فلان أي بمشهد منه، **المَحضَرُ** السجل **المحضَرُ** المرجع إلى المياه، **الحُضْرُ** بالضم العَدُو ويقال **أَحْضَرَ** الفرسَ **احْضَارًا واحْتَضَرَ** أي عدَا، هذا فرسٌ **محْضرٌ** أي كثير العدو.

الحضر: الحي العظيم، قال حسّان (الطويل):

لنا **حاضرٌ** فَعْمٌ وباد كَأنّهُ قَطين الإله عزّةً وتَكُّر مَا [2].

جاء في معجم مقاييس اللغة **حضر**: الحاء والضاد والراء، إيراد الشيء وورده ومشاهدته، وقد يجيء ما يبعد عن هذا وإن كان الاصل واحد، فالحضر خلاف البدو وسكون الحضرِ الحِضَارَةِ قال:

فمن تكن الحضارة أعجبته فأي رجال البادية ترانا

قال أبو زيد بالكسر، وقال الأصمعي هي الحَضارة بالفتح، يقال المحاضرة المغالبة، وحاضرت الرجل جاثيته عند سلطان أو حاكم، ويقال ألقت الشاة حضيرتها وهي ما تلقيه بعد الولد من المشيمة وغيرها وهذا قياس صحيح .

الحضيرة ما اجتمع من المدة في الجرح يقال: حضرت الصلاة، ولغة أهل المدينة حضِرَتْ[3]

---

[1]– معجم القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيزور أبادي؛ تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة؛بإشراف محمد نعيم العرقسوسي؛ مؤسسة الرسالة ؛ ص377.

[2]– معجم الصحاح للإمام اسماعيل بن حماد الجوهري، ، اعتنى به والأمثال العربية، دار المعرفة بيروت، لبنان؛ص241-242.

تعريف الحضارة اصطلاحا:

اصطلح الناس على تعريف الحضارة على أنها" **كل ما ينشئه الإنسان في مختلف جوانب حياته خدمة لبقائه واستكمالا لمسيرة بنائه من بعده أو هي كل ما انجزه الإنسان على اختلاف العصور وتقلّب الأزمان"[4]**

تعريف الحضارة يشمل كل ما أبدعه وأنشأه الإنسان في جوانب متعدّدة من حياته بغية الحفاظ على الاستمرارية والبقاء وهذا يعني أنّ الحضارة في ديمومة مستمّرة.

الرحلة لغة:

وردت في لسان العرب كلمة رَحَلَ والرَّحلُ لتدل على مركب للبعير والناقة وجَمَعَهُ أرحُلٌ ورِحالٌ قال طرقة

جَازَتْ البَيْدَا إلى أَرْجُلِنَا آخِرَ اللَّيْل بِيَعْفُورٍ خدِرِ

الرَّحْلُ: رَحْلُ البَعير وهوَ أصْغَرُ من القُتَبِ وثلاثةُ أرْحُلٍ، ورَحَلَ البَعِيرُ يرحَلُهُ رَحْلاً فَهُوَ مَرْحُولٌ ورَحيلٌ وارتَحَلَهُ جعَل عليه الرَّحْلَ، رَحَلَهُ رَحْلَةً شَدَّ عليه آداته، قال الأعشى:

رَحلتْ سُمية غُدوةَ أجْمالِها غَضَى عليْكَ فما تقُولُ بدا لها؟

وإنه لحسن الرّحلةِ أي الرّحلٌ للإبل أعْني شدّها لِرِحالِها.[5]

جاء في القاموس المحيط رَحَلَ الرَّحلُ : كالرّحُول حول جمْع أرْحُلِ وَرِحالُ مَسْكَنُكَ وما تستصحبهُ من الأثاثِ، رَحَل البعيرُ كنع وارتَحَلَهُ حطّ عليه الرّحْلُ فهو مرحُولٌ ورحيلٌ، وإنه كحَسَنُ

---

[3]– معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بتحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، ، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991.؛المجلد الثاني ص75-76.

[4]–تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، فخري خليل الدين التجّار؛ ، دار الصفاء للنشر والتوزيع عمّان، ط1 2009.؛ص20.

[5]– لسان العرب، ابن منظور الأنصاري الأفريقي، مج 1218/6. دار صادر للطباعة والنشر، ص ب 01بيروت، لبنان.

الرّحِلَةِ بالكسر أي **الرّحْلُ** للإبل و**المُرَّحَلَةُ** كعُظةٍ وإبلٍ عليها رحالُها والتي وُضعتْ عَنْها و**ارتَحَلَ** البعيرُ سارَ ومضَى، والقَوْمُ عن المكانِ انتقلُوا **كترحَّلُوا** والاسم **الرُّحَلَةُ** و**الرِّحْلة** بالضم والكسر، **وراحيلُ** أم يوسف عليه السلام. [6]

مادة **رحَلَ** في المعجم الوسيط: **تَرحِيلٌ**، تهجير، هجرة، نزوح، جلاء، طرد، نفيٌ، إبعاد، تحويل، نقلٌ.

حياة **الترْحالِ**: الحياة البدوية، كثرة السفر[7].

الرحلة اصطلاحا:

تجمع معاجم اللغة على أن الرّحلة هي الانتقال من مكان إلى آخر، وبهذا المعنى يكون العديد من المشارقة والمغاربة، وغيرهم من البشر قديما وحديثا قد أنجزوا رحلات لا تعدّ ولا تحصى، لأن الحركة والتنقل من مقتضيات الحياة وطبيعة البشر بيد أننا لا نعرف أي شيء عن كل تلك الرحلات لأنه ليس كل من ارتحل قد دوّن رحلته "**فالرحلة كتابة ملتبسة سواء على مستوى الهوية الأجناسية أو على مستوى محاورتها في سياق نظرية الأدب الأجناس أدبية أو غير أدبية**"[8]

فالرحلة جنس أدبي انفرد عن سائر الأجناس الأدبية الأخرى باعتماد الوصف والمشاهدة اللذان يعتبران اللبنة الأساسية لمسار الرحلة. فالرحلة تجمع بين معنيين، المعنى الأول هو الانتقال والحركة المتعارف عليهما. أما الرحلة بالمعنى الثاني فهي كتابة وخطاب، هي كتابة يحكي فيها الرحالة أحداث سفره وما شاهده وعاشه مازجا ذلك بانطباعاته الذاتية حول المرتَحِلَ إليهم، ويجب أن يكون

---

[6]– القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي الجزء الثالث، ، دار الجيل بيروت.؛ص 394.

[7]– المعجم الوسيط واستدراكات المستشرقين، محمد محمد داود، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2008، ص 89.

[8]– الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر (مستويات السرد) عبد الرحيم مودّن، ، دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1، 2006.؛ص23.

الرحالة ذا مستوى ثقافي يؤهله لنقل أحداث سفره إلى كتابة، أما الخطاب فهو يواكب انتقال الرحالة في أماكن متعددة، من ومختلفة واصفا إيّاها جغرافيا وعمرانيا واجتماعيا وبشريا، وذاكرًا ما لقيهُ من رجالات العلم والأدب، وما دار في مجالسهم من مناقشات، إضافة إلى ذكر الفوائد العلمية والدينية والتاريخية والأدبية، وكل ذلك يسوقه الرحالة بأساليب مختلفة يكسب الخطاب الرحلي صبغة أدبية وفنيّة.

عرف إنجيل بطرس أدب الرحلات **"هو ما يمكن أن يوصف بأدب الرحلات الواقعية وهي الرحلة التي يقوم بها رحّال إلى بلد العالم ويدوّن وصفا لها يسجّل فيه مشاهداته وانطباعاته بدرجة من الدّقة والصّدق وجمال الأسلوب....**"[9]

من خلال هذا التعريف نفهم بأن الرحلة هي رصد للواقع والمجتمع البشري الذي زاره الرّحالة وعليه أن يلتزم الصدق والدّقة في وصف الأماكن التي زارها ويراعي براعة الأسلوب وجماليته في تصوير الحقائق.

اعتنى الرحالة بأدب الرحلة، و أولوه اهتماماتهم؛ فتعدّدت الدوافع للتأليف في هذا الفن ، فمنهم من دوّن يوميات رحلته لتكون مرجعا يستفيد منه القارئ في مختلف المجالات العلمية ؛و منهم من قام بالرحلة لكنه امتنع عن تدوينها و أبقاها في سجل الذاكرة ؛يسترجع الرحالة أحداثها بين الفنية و الأخرى؛ و الشيئ المشترك بين هؤلاء الرحالة الذين جابوا البلاد العربية الإسلامية ؛هو التعريف بالمدن التي زارها الرحالة كالأماكن المقدّسة و المعالم الحضارية ؛التي خلفها العرب و المسلمون خلال الحقب الزمنية المتعاقبة. فأدب الرحلة هو تراث ثري لما تحويه نصوص الرحلات من روافد تاريخية و اجتماعية و ثقافية و عمرانية...

9– الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع الهجري) ناصر عبد الرزاق الموافي نفلا عن إنجيل بطرس، الرحلة في الأدب الإنجليزي، ص 38.

تنضوي هذه المدوّنات تحت لواء أدب الرحلة؛ الذي نهض به ثلة من الرحالة المشارقة والمغاربة؛ فوصفوا و أبدعوا في ذكر المشاهد و الأماكن التي شدّت انتباههم؛ فحوّلوا الوصف المحسوس والمرئي إلى نص أدبي؛ تتحرك معانية بواسطة لغة أدبية فصحى و أسلوب مسترسل ؛عبّر عن أحاسيس وعواطف الرحالة الذين تأجّجت نار الشوق فيهم لزيارة بيت الله ؛فكان المطلب الديني هو الذي غلب على معظم الرحلات ؛فطغت عليها الصبغة الدينية، فمن الرحالة الذين سجلّت أسماءهم بحروف من ذهب في سجل التاريخ و الحضارة.

إنّ حملة نابليون على مصر سنة 1798م أفرزت نتائج إيجابية ؛حيث أزالت ذلك الحاجز بين الشّرق و الغرب ؛و أخذت الرحلة منعرجا آخر؛ حيث احتكّ العرب بالحضارة الغربية عن طريق البعثات العلمية التي اختلفت دوافعها من رحالة لآخر؛ لكنّ الهدف الأساسي المشترك بين تلك الرحلات هو التعرّف على العالم الغربي؛ الذي ظلّ يمثّل الآخر المختلف عقائديّا و فكريّا واجتماعيّا و ثقافيّا عن الأنا (الشرق العربي) ؛ لذلك كان لزاما على الرحالة المسلمين أن يتّصلوا بهذا الآخر (الغرب) والتعرّف على حضارته.

لقد افتتن بعض المسلمين بالمدنيّة الحديثة و ببريقها اللّامع ؛و ظلّ هاجس السّفر إليها يراودهم بين الفينة و الأخرى بهدف التعرّف على عمرانها؛ و النّهل من علومها و فنونها، و من هؤلاء الذين جبلوا على حبّ السّفر إلى ديّار الغرب رفاعة رافع الطّهطاوي؛ الذي زار باريس و انبهر بحضارتها ؛و سجّل كل مارآه في هذه المدينة في رحلة طويلة جمع فيها بين علوم باريس ؛ و تقاليد وأعراف شعبها و عوائده و أحواله في رحلته الموسومة : " **الدّيوان النفيس في إيوان باريز** " أو "**تخليص الإبريز في تلخيص باريز**".

رحلة العبدري جاءت ثرية لما تحويه من معلومات جغرافية تاريخية، اجتماعية، ثقافية، عمرانية، وهذا ما سنراه بالتّفصيل عند عرضنا للمظاهر الحضارية التي رصدها العبدري في رحلته، فاعتمد على مشاهداته المباشرة وملاحظاته الدقيقة في نقل هذه الأوصاف على صورتها الحقيقية والتّعريف بسيّر

الرجال والعلماء، ومن هذه الزاوية غدت رحلته مصدرا مهما لعدد من التراجم المغربية ترجم لها بإسهاب وفق معايير تاريخية وعلمية.

بدأ العبدري رحلته بحمد الله والثناء عليه على جزيل نعمه وكريم فضائله "**أحمد الله تعالى حَمْدَ مُعْتَرِف بالتّقصير، عائذٍ بوجهه الأكرم، وجلاله الأعظم من سوء المصير، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، شهادة تتكفّل لي بالسلامة من كل مَلاَمة وتُضِيء في ظلمتي القبر والقيامة، وتُنير، وأصلّي وأسّلم على سيّدنا محمد نبيّه وخيرته وصفوته....**"[10]

وقد نهج العبدري نفس الطريقة التي تعّود عليها الإنسان المسلم عندما يقدم على سفر أو فعل أي شيء يتردّد في القيام به فيلجأ إلى استخارة الله سبحانه وتعالى حتى يتبيّن له إن كان خيرا أقبل عليه، وإن كان شرّا أحجم عن فعله "**فإني قاصدٌ بعد استخارة الله سبحانه إلى تقييد ما أمكن تقييده، ورسم ما تيسّر رَسمُهُ وتسويدهُ ممَا سما إليه الناظر المطرق، في خبر الرحلة إلى بلاد المشرق من ذكر بعض أوصاف البلدان، وأحوال من بها القطّان حَسْبَما أدركه الحسّ والعيان، وقام عليه بالمشاهدة شاهد البرهان من غير تورية ولا تلويح، ولا تقبيح حسن، ولا تحسين قبيح بلفظِ قاصدٍ لا يُحْجِم مفردا...**"[11]

بدأ العبدري في تقييد نص رحلته عندما كان في تلمسان ولم يظهرها للناس لأنها كانت غير منتظمة في بعض الأشياء فرأى أنه من الأحسن أن يطلّع عليها الشيوخ الذين لقيهم بمصر حتى يصوّب ما بها من خطأ أو تحريف "**وهذه الرحلة بدأت بتقييدها في تلمسان، ولم يمكنّي إظهارها هنالك، وأظهرتها بعد خروجنا منها ووقف عليها شيوخنا بمصر وغيرها، وكان شيخنا زين الدّين بن المنيّر حفظه الله يستحسن ما يقف عليه منها، وقد أكمَلْتُها والحمد لله منتظمة على**

---

[10]– رحلة العبدري؛ أبي عبد الله محمد العبدري، ص27.

[11]– المصدر نفسه ؛ ص28.

نسقها، ومستتّةً في سننها جاريًا معها حسبما جرتْ، مستمليا لها فيما قدّمت وأخّرت حتى أُستُوْفي الغرض المطلوب..."[12]

بعد هذه الجولة التي نحسبها قد طالت في ثنايا أدب الرّحلة، الذي تنوع بين الرحلات القديمة والحديثة، خلصنا إلى النتائج الآتية:

1- تعدّدت مفاهيم الحضارة عند ابن خلدون، ومالك ابن نبي ؛ والحضارة في مفهومهم تشمل كل ما أبدعه وأنجزه الفرد من أعمال بغية تحقيق التواصل مع أفراد المجتمع.

2- أمّا المستشرقون ربطوا مفهوم الحضارة بالإنسان باعتباره صانع حضارته.

3- شكّل أدب الرحلة اهتمام الباحثين والمثقفين على حدّ سواء، فكانت الرّحلة الوسيلة التي عبر بها الرحالون عن تطلعاتهم وأفكارهم.

4- تنوعت بواعث الرّحلة بين طلَب العلم والتجارة والرغبة الشخصية، إلاّ أنّ باعث الحجّ كان الدّافع الأساس الذي اشترك فيه جميع الرحالين.

5- اعتمدت نصوص الرّحلات على السرد والوصف اللّذان يمثلان بؤرة الحدث في متون الرّحلة.

6- ركزت الرّحلات الجغرافية على وصف الأقاليم والسهول، وكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه نموذجًا للجغرافية الوصفية.

7- يمكن للباحث أن يدرس الرحلة من مقاربات وزوايا مختلفة، كونها وثيقة تاريخية تعنى بدراسة تاريخ البلد المقصود في معالمه الحضارية، وصورة اجتماعية من خلال عادات وتقاليد الشعوب المزارة؛ ومعرفة مذاهبهم، ولوحة فنية بدراسة نماذج لرحالة أبدعوا وتفننُوا بإظهار ملكتهم الأدبية.

8- حظيت مكة المكرمة ومدينة الرسول صلّى الله عليه وسلم بوصف مشفع عند جميع الرّحالة المسلمين.

9- حضور الآخر في أدب الرحلات دليل على وجود التواصل الإنساني بين المجتمعات العربية الإسلامية والغربية.

---

[12]- رحلة العبدري، أبي عبد الله محمد العبدري، ص39.

10- الدارس لرحلة ابن بطوطة يلمس النزعة الصوفية المتحكمة في نصوص الرّحلة، والتي عكست شخصية الرجل المتدينة.

11- رحلات العصر الوسيط اشترك أصحابها في المطلب الديني والعلمي؛ فركزوا في نصوصهم على وصف الأماكن المقدّسة، والمشاهد الدينية ودور العلم.

12- الرحلة الحديثة أخذت منحى آخر حيث كشفت عن مظاهر الحضارة الغربية وقوة تمدُّنها وتقدّمها.

13- رحلة أحمد فارس الشدياق إلى مالطة وأوربا كبيرة في حجمها ؛ غنيّة بمادة معرفية شملت الجانب العمراني والإقليمي والاجتماعي والثقافي، كما انبهر الطهطاوي بحضارة باريس، انبهر فارس الشدياق بحضارة أوربا، فالرحلتان متقاربتان في المدّة الزمنية.

14- رحلة الطهطاوي إلى باريس مثّلت الانفتاح على العالم الغربي، بتعلّم لغته وفنونه وآدابه، لذا طالب الطهطاوي في مشروعه الإصلاحي بتعليم المرأة.

15- رحلة محمد عياد الطنطاوي إلى روسيا، أماطت اللّثام عن حضارة هذا البلد في عمرانه وعاداته ومذاهبه...، مقارنة مع ما أقرّه ابن فضلان في رسالته إلى بلاد الترك والخزر والروس، فرأى أنّ هذه البلاد ما زالت تعيش الجاهلية الأولى ؛ وهذا ما ألفيناه في نصوص رحلته التي أكدّت غياب الجانب الأخلاقي والحضاري في الرّحلة.

16- رحلة العبدري كانت بدافع الحج وطلب العلم، فكانت رحلته دينية علمية.

17- استطاع العبدري بواسطة ريشته أن يرسم لنفسه شخصية تعدّدت أدوارها، فوجدناه رحالة زار مدنًا عربية كثيرة، وشاعرا مجيدا مكثرا في القصائد التي عرضها في الرّحلة، سواء أكانت من نظمه أو نظم غيره، وناثرًا محيطا بأمثال العرب وفق الحدود التي وضعت فيها.

18- نلمس الحاسّة النقدية للعبدري والتي تكرّرت في مواطن مختلفة، فنجده يسقط وابل من الانتقادات للمدن التي زَارَهَا من الناحية العمرانية، والثقافية والاجتماعية، فلم يسلم من نقده اللاّذع إلاّ تونس التي اعتبرها المكان الذي أسرَ قلبه.

19- تنوّعت المظاهر الحضارية في رحلة العبدري بين الجانب التاريخي، والاقتصادي والاجتماعي، والثقافي والفنّي، إلاّ أنّ المظهر الفنّي غلب على نصوص الرّحلة ؛ فأظهر العبدري من خلالها موهبته الأدبية وحسّه الفني.

20- استطاع الرّحالون من خلق مستويات من التثاقف، وذلك بالاندماج مع المجتمعات التي زارُوها.

21- ساهم أدب الرحلة في إثراء المكتبات العربية بفروع من العلم والمعرفة، ما فتح مجال الإبداع والتأليف.

ملخص:

أدب الرحلة تراث غنيّ بما تحويه نصوص الرحلات من مظاهر حضارية شملت الجانب الثقافي؛ والاجتماعي والعمراني .....الخ؛ والرحالة المشارقة والمغاربة كانت لهم إسهامات كبيرة في هذا الفن الأدبي من خلال مصنّفاتهم الأدبية التي غلب عليها الطابع الدّيني والعلمي . العبدري واحد من أولئك الذين تركوا بصماتهم في سجّل التّاريخ والحضارة ؛ في رحلته المغربية التي أماطت اللّثام عن واقع العالم العربي الإسلامي في تكوينه الثقافي؛ والحضاري ؛وأهمّ التجلّيات الحضارية التي حوتها نصوص رحلته .

الكلمات المفتاحية: المظاهر – الحضارة –مدونات – الرحالة العرب – العبدري.

Résumé :

Littérature voyage un patrimoine riche et contenant les textes de voyage des aspects culturels inclus l' aspect culturel et sociale et urbain……etc, et les voyageurs orientaux et les Marocains ont eu des contributions importantes à cet art littéraire , à travers la littérature de leurs œuvres ,qui dominaient la nature religieuse et scientifique .Abdari un de ceux qui ont laisse leur marque dans le dossier de l'histoire ,la civilisation dans le voyage du Maroc ,qui a réalité du monde arabo –musulman dans la composition culturel et la civilisation ,et les manifestations culturelles qui Hetea des textes de son voyage.

Mot –clés : Manifestations –civilisation –Blogs – Voyageurs arabes –Abdari.

Abstract:

The travel literature is a rich heritage , including the texts of the journeys from cultural aspects ,including the cultural , social , urban ,etc, the oriental travelers and Moroccans had great contributions to this literary art through their literary works ,which were predominantly religious and scientific. Al`Abdari is one of those who left their mark on history , and civilization on his Moroccan journey , which revealed the reality of the Arab –Islamic world in the its cultural and cultural composition, and the cultural manifestations of the texts of his journey.

Key words: Themes –civilization –Blogs –Arab travelers – Al'Abdari.

INTRODUCTION :

All the Praise is to Allah who created man and his actions and watched with his will and his intentions and deeds, and may peace be upon his messenger and be pleased with the working scholars who have followed the path of guided people ; and on his companions to the Day of Judgment.

The term "journey" was associated with the transition from place to place, and from case to case, it was an act that preceded all acts and the character preceded all features; and turned into a dream and longing to look at each soul, and the obsession of salt hovering in the depths of many creatures, even animal and bird, and perhaps the migratory birds and migratory landmark of the features of nature looking for existence and dreams in security and food, Far away and wide horizons, embracing new images of life and its manifestations.

The journey is a movement, and the movement is the spirit of life. God has created her genes and cells in the creation, and designed her physical, psychological and mental formation as tools necessary for the reconstruction of the earth by movement and the transmission of life by work and mobility to be man of the makers of life and the universe, (Surah Hud verse 61).

The Arabs knew the journey from ancient times. The winter and summer journeys were the first journey of the Arabs to trade from Yemen to the Levant. After the Islamic conquests, the scope of the flights expanded to include the religious and scientific journeys. They were carried by Ibn Jubayr, Abdi, Ibn Battuta, The voyage was flourishing due to the variety of subjects and scenes seen by the travelers. The description was the butter of the trip by virtue of its observation and inspection. The journeys were scientifically religious, and by the end of the nineteenth century the literature of the journey was a new one, which was a dazzling civilization, Tahtawy Arab Mashreq ambassador to Paris, and after Ahmed Faris Chidiac and Mohammed Ayad Tantawi; They were the pioneers of the Renaissance in the modern era of what the texts of his journeys from the cultural aspects included the scientific side, customs, traditions and urbanization; thus the trip went out of the ordinary from describing the holy places and meeting the scientists, to see the Western world through the trips that influenced the Arab heritage with this scientific product.

The self-motivation that made me touch the door of the literature of the journey as the latter more responsive to the transformations, events expressed by nations and communities, in addition to my attraction to the texts of this art of love of geographical knowledge and discovery of the new, in order to collect knowledge from this spring, My dream as a project has been wanting since I was a student at MASTER.

As for the choice of the topic, it can be referred to two reasons :

The self-motivation that made me touch the door of the literature of the journey as the latter is more responsive to the transformations, events expressed by nations and communities, in addition to my attraction to the texts of this art of love of geographical knowledge and discovery of the new, in order to collect knowledge from this spring, My dream as a project has been wanting since I was a Master student.

As for the objective motive,it is indeed to explore the texts of the trips and reveal their secrets, because this art enjoys literary pleasure, made me go into the research, hoping that my work this modest project added to what the previous writers in this area.
After this introduction , I shall deal with the following issues:
-What are the fundamentals of the Arab-Islamic civilization?
- What are the main motives behind the old and modern trips?
- Where are the aesthetics of travel literature?
- Where are the cultural aspects of Al-Abdri's journey?

Admittedly,no research build itself out of a vacuum, so we relied on a guide or a facilitator to facilitate our work. This research was based on previous studies and sources that illuminated its path such as :
-The Maghreb Journey in the 19th Century by Abdel Rahim Moden.
- Literature of the journey in the Marghreb in the era of Marini, Hassan Shahidi.
-Andalusian and Moroccan journeys literature until the end of the nineteenth century, Nawal Abderrahmane Shawaqaba.

-Moroccan and Andalusian trips from the origins of Hijaz history in the seventh and eighth centuries AH, a comparative analytical analytical study, a master's thesis in Islamic history, the preparation of the student Awatif Mohammed Yusuf Nawab.
- After reading the various technical approaches, I found that the most appropriate approach to my research is descriptive method based on analysis, using the historical approach.
To try to convey this to the recipient, we followed a plan consisting of an introduction, four chapters, a conclusion, and a subject index.

In the introduction we presented the concept of Arab-Islamic civilization among Arab Muslims and orientalists, their components and characteristics; and mentioned some of the flags of civilization and their scientific achievements.
In the first chapter, which was entitled: "An overview of the literature of the journey", we discussed the definition of the journey literature language and terminology, and then referred to the motives of the trips, and then we touched on the journey and descriptive geography;) And finished the chapter by talking about the technical characteristics of the literature of the trip, which relied on description and narrative.
In the second chapter, we have tried to deal with the journeys that began from the fourth century AH to the ninth century AH, beginning with Ibn Fadlan, Ibn Jubayr, Ibn Battuta and Al-'Abdari, so we touched on the definition of each traveler, the content of his journey, Which was the focus of the event in the tone of these flights.
In the third chapter, which was the opening of the modern era of the West and its most important achievements, Rafaa Tahtawi was a pioneer in enlightening the Arab mind by reading the arts and sciences of the West. He was followed by Ahmad Fares Al-Shadiq who chose Malta and Europe as a model in his cultural journey. He is a teacher at the University of Petersburg in Prussia. He went to learn and learn.
The fourth chapter deals with the analysis of the practical aspect. We studied the cultural aspects of the journey of Al-Abraliti, which varied between historical and economic, social, cultural and urban aspects.
We concluded our research with a conclusion that was the most important conclusion we reached in the research.
Finally, I say that I do not claim to be perfect in accomplishing this work; I do not claim the need for this research to be more: it will be open to other studies. Praise be to God and thanks to all those who

have helped me from near or far in accomplishing this humble work, The idea of the subject, and follow the steps and supervised the completion, Professor Dr. Mohamed Zemri Adhamullah Atta.

Conclusion :

After this survey that we have undergone in the folds of the literature of the journey, which varied between ancient and modern journeys, we reached the following results:

1- The various concepts of civilization in Ibn Khaldun, and the owner of the son of a prophet; and civilization in their concept include all the creativity and achievement of the individual in order to achieve communication with members of society.

2 - Orientalists linked the concept of civilization to man as the maker of his civilization.

3. The literature of the journey was of interest to researchers and intellectuals alike. The journey was the means by which travelers expressed their aspirations and ideas.

4- The motives of the journey between the request of science and commerce and the personal desire varied. However, the emir of Hajj was the main motive for all the apostates.

5. The texts of the voyages were based on the narratives and descriptions that represent the focus of the event in the flight attendant.

6. Geographical trips focused on the description of the regions and plains, and the tracts and kingdoms of his son as a model of descriptive geography.

7 - The researcher can study the journey from different approaches and angles, as it is a historical document concerned with studying the history of the country in which it aims at its cultural features, and a social image through the customs and traditions of the peoples who visited, and the knowledge of their doctrines and the art of studying models of travelers who were created and dedicated by showing their literary property.

8 - Mecca and the city of the Prophet peace be upon him described as a shield in all Muslim travelers.

9 - The presence of the other in the literature of trips is evidence of the existence of human communication between the Arab Muslim and Western societies.

10 - The student of the journey of Ibn Battuta touches the Sufi trend controlling the texts of the trip, which reflected the personality of the religious man.

11 - Medieval Journeys The owners participated in the religious and scientific demands; they concentrated in their texts on the description of the holy places, religious scenes and the role of science.

12 - The modern journey took another direction where it revealed the manifestations of Western civilization and the strength of civilization and progress.

13- The journey of Ahmed Fares al-Shdeiq to Malta and Europe is great in size; rich in knowledge material that included the urban, regional, social and cultural aspects. As Tahtawi was impressed with the civilization of Paris, Fares Chidiac was fascinated by the civilization of Europe.

14 - Tahtawi journey to Paris represented openness to the Western world, by learning its language, arts and literature, so Tahtawi called for his reform project to educate women.

15 - The journey of Muhammad Ayad Tantawi to Russia, Amatat revealed the civilization of this country in its architecture, traditions and missions ..., compared with what was acknowledged by Ibn Fadlan in his letter to the country of Turk, the Caucasus and the Russians, he saw that this country is still living the first ignorance; In the texts of his journey which confirmed the absence of moral and cultural aspect of the journey.

16. Al-'Abdari's journey was motivated by Hajj and seeking knowledge. His journey was scientific and religious.
17- Al-Abdri, through his feathers, was able to paint for himself a man whose roles were varied. We found him as a traveler who visited many Arab cities and was a great poet in the poems he presented in the journey, whether he organized or organized others.
18. We see the critical feeling of al-'Abdari, which has been repeated in different countries, so we find a drop of criticism of the cities he visited in terms of architecture, culture and socialism.
19. The cultural aspects of Al-Abdri's journey varied between the historical, economic, social, cultural and artistic aspects. However, the artistic appearance dominated the texts of the journey. Al-Abdri showed his artistic talent and artistic sense.
20. The backpackers were able to create levels of acculturation by integrating with the communities they visited.
21. The literature of the journey contributed to enriching Arab libraries with branches of science and knowledge, which opened the field of creativity and writing.

العدد 20

دراسات أدبية
LITERARY STUDIES

دورية مُحكمة تصدر عن مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعلمية
العدد العشرون - نوفمبر 2016 - صفر1438

تأسست سنة 1999

الترقيم الدولي ISSN 2170-046X

دراسات أدبية

دورية فصلية محكمة تصدر عن:

مركز البصيرة



للبحوث والاستشارات والخدمات التعلّمية

- العدد العشرون -

(20)

د. عبد الحليم ريوقي

eladabiya@hotmail.fr



المراسلات باسم مدير مركز البصيرة

46 تعاونية الرشد القبة القديمة. الجزائر

ها: 0021321289778

فا: 0021321283648

البريد الالكتروني:

markaz_ bassira@.yahoo.fr

الموقع الالكتروني:

www.albasseera.net

رقم الإيداع القانوني : 2008/1900

ر د م د ISBN 2170-046X

التوزيع



دار الخلدونية للنشر والتوزيع

05، شارع محمد مسعودي القبة الجزائر.

الهيئة العلمية

آراء الباحثين لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدورية

مركز البصيرة يرحب بأبحاثكم واقتراحاتكم ونصائحكم.

قائمة المحتويات

الحضارة الغربية في: تخليص الإبريز في تلخيص باريز لرفاعة الطهطاوي

زواوية طيبي

اشراف الأستاذ الدكتور: زمري محمد

جامعة تلمسان

ملخص:

رحلة الطهطاوي إلى باريس مثلت الانفتاح على الحضارة الغربية ؛وما وصلت إليه من رقي وازدهار شمل جميع المجالات العلمية ؛والرحالة انبهر بواقع المجتمع الغربي فنقل لنا مشاهدآته وانطباعاته الشخصية حول عادات وأخلاق أهل باريس ؛كما تحدث عن العمارة والصنائع والفنون وعقد مقارنة بين الغرب والشرق الإسلامي الذي رآه مازال متخلفا لذا طالب في مشروعه الإصلاحي بتعليم المرأة وتثقيفها.

فكانت رحلته جسرا للتواصل الحضاري مع المدنية الغربية الحديثة.

الكلمات المفتاحية: الحضارة الغربية – رحلة – رفاعة الطهطاوي

Abstract

The voyager tahtaoi trip to Paris which is a gate to the open minded western world and to what they have achieved from process and flourishment in all scientific domains.

He was astonished about the core of their societies and he transmitted what he witnessed as well as his personal impressions about the tradition customs crafts and even arts. Then he made a comparison between the westerns that were still underdeveloped he added tahtaoi in his renaissance project he asked responsible to raise women's rights teach and educate them so his trip was a cross cultural bridge with the western world.

توطئة:

إن ما وصلت إليه المدنية الغربية من تقدّم باهر وتطوّر حاصل ما كان لتتضح معالمه، وتظهر نتائجه لولا الأسس المتينة والقواعد الصحيحة التي وضعها المسلمون في العصور الذهبية التي ازدهرت فيها المعارف والعلوم فظهرت اكتشافات شتّى في ميادين الحياة، في الطب والهندسة والفلك...إلخ.

لقد افتتن بعض المسلمين بالحضارة الغربية وببريقها اللاّمع وظلّ هاجس زيارتها يراودهم بين الفينة والأخرى محاولين التعرّف على عمرانها. والنهل من علومها ومعارفها، ومن هؤلاء المغمورين بحب السفر إلى ديار الغرب الرحالة رفاعة رافع الطهطاوي الذي زار باريس، وانبهر بحضارتها وسجّل كل ما رآه في هذه لمدينة في رحلة جمع فيها بين علوم باريس وتقاليد وأعراف شعبها وعوائدهم وأحوالهم في رحلته المسمّاة "الدّر النفيس في إيوان باريز" أو "تخليص الإبريز في تلخيص باريز".

التعريف بصاحب الرحلة:

رفاعة رافع الطهطاوي هو واحد من رو ّاد النهضة العلمية في مصر. ولد في مدينة طهطا إحدى مدن محافظة سوهاج بصعيد مصر يوم 15 أكتوبر 1801م (1) وكان نسب والده ينحدر من أشراف الصعيد وعلمائه، حفظ لقرآن الكريم في صغره وأجاد تعلـّم القراءة والكتابة في سن الثانية عشر، بعد وفاة والده تكفّل به أخواله الذي ينتمون إلى أسرة زاخرة بالشيوخ والعلماء والصالحين منهم : الشيخ الانصاري، الشيخ عبد الصمد الأنصاري... وفي هذا الجو العلمي نمت معارك رفاعة وحرص أخواله على تحفيظه جميع المتون المتداولة في المعقول والمنقول. ولمـّا بلغ سن السادسة عشر قر ّرت أمـّه إلحاقه بجامع الأزهر ليكمل مساره العلمي فصار يلقي دروسا بجامع مدينته ملوى يشرح فيها كتاب صغرى الصغرى للسنوسي فاندهش أقاربه وجيرانه عند سماعهم الدرس المذكور "(2).

شيوخ الطهطاوي:

وفي تلك السنوات تلقى رفاعة الطهطاوي العلم على عديد من شيوخ الأزهر منهم الشيخ الفضالي الذي قرأ عليه صحيح البخاري.

درس جمع الجوامع في الأصول ومشارق الأنوار في الحديث على الشيخ حسن القويسني.

درس الحكم لابن عطاء السكندري على الشيخ البخاري.

درس شرح أبي عقيل على الشيخ الدمنهوري(3)

وكان أهم أستاذ تتلمذ عليه الطهطاوي الشيخ حسن العطـّار فشاء القدر أن يجلس بين يديه ينهل من علمه، ويصقل من حكمته فكان وجود الشيخ العطار في حياة الطهطاوي بمثابة المعلـّم والصديق. فلمس فيه الشيخ حدّة الذهن والدأب المتواصل في تحصيل العلم.

وكان الشيخ يعامل تلميذه رفاعة معاملة خاصـّة عن سائر طلبته "فكثير ما كان الطهطاوي يلازم بيت أستاذه المذكور في غير الدروس ليتلقى منه علوما أخرى كالتاريخ والجغرافيا والأدب... " (4).

مؤلفات رفاعة الطهطاوي:

ترك الطهطاوي تراثا أدبيا زاخرا في مختلف العلوم نذكر أهم ّ مؤلفاته:

- رحلته المشهورة: تخليص الابريز في تلخيص باريز.
- المرشد الأمين للبنات والبنين وهو عبارة عن مشروع تربوي إصلاحي يحوي نصائح مفيدة إلى فئة الشباب متمثلة في التشبـّث بالدّين وبتعاليمه والتحلـّ ي بالأخلاق الفاضلة لأن صلاح المجتمع يكون بصلاح الفرد وطالب بتعليم المرأة وتثقيفها.

كان مشرفا على مدرسة الألسن بمصر سنة 1835م(5).

كان مشرفا على جريدة الوقائع المصرية.

تولـّى رفاعة نظارة مجلة "روضة المدارس" هي مجلة علمية (6)

توفي الطهطاوي سنة 1873م(7) بعد أن وضع مصر على بداية حركة ثقافية وعلمية جديدة.

سبب القيام بالرحلة:

طلب محمد عليّ أن ينتخب من علماء الأزهر إماما للبعثة المسافرة الى فرنسا. فرشـّح الشيخ العطار تلميذه الطهطاوي على رأس تلك البعثة وكان هدف محمد علي يرمي إلى تلقي العلوم الحديثة من أجل النهوض بمصر والدفع بها إلى مصاف الدول المتقدمة والوقوف على منجزات الحضارة الأوربية الحديثة. كان الطهطاوي يرأس الوفد لمتوجـّه إلى باريس باعتباره إماما لهم يؤمهم وقت الصلاة ويذكرهم بتعاليم الشرع الإسلامي كما أوصى الشيخ حسن العطـّار تلميذه عند سفره "ألا يكتفي بعمله كإمام للصلاة بل عليه أن يسجّل كل ما يراه أثناء رحلته وأن يحاول الاستفادة من علوم الغرب"(8)

لما زار الطهطاوي باريس انبهر لما وصلت إليه المدينة الحديثة من تطو ّر وازدهار في جميع العلوم، فدخل حياة جديدة لم يكن يعرفها من قبل رأى عادات واعراف منافية لما يعيشه الشرق الإسلامي رفح يتعلـّم لغة القوم الذين احتك بهم ليأمن شر ّهم ويرسم بقلمه أفكارهم ، في هذه الرحلة يلوح فيها صراع بين القديم والجديد بين الاصالة والمعاصرة وهذا ما ستكشفه لنا نصوص الرحلة التي نحن بصدد دراستها.

نهر السين:

ومن طباعهم الحميدة وفاء الوعد وعدم الخيانة، ومن صفاتهم القبيحة كفر النعم. فبعضهم يرون أن شكر المنعم واجب، وآخرون يفتقدون إلى هذه الصفة بالرغم أنها جبلة عند سائر الأمم والملل(14).

أخلاق نساء باريس:

المرأة في باريس ملكة أمرها لها كامل الحرية باعتبارها كفؤًا للرجل. فمن الخصال التي عابها الطهطاوي على المرأة منطلقا في حكمه من ثقافته الإسلامية : "ومن خصالهم الرديئة قلّة عفاف كثير من نساءهم وعدم غيرة رجالهم فيما يكون عند الإسلام من الغيرة بمثابة المصاحبة والملاعبة والمسايرة، وممّا قاله أهل المجون الفرنساوية: "لا تغتر بإباء امرأة إذا سألتها قضاء الوطر ولا تستدل بذلك على عفافها..كيف والزنا عندهم من العيوب والرذائل لا من الذنوب الأوائل خصوصا في حقّ غير المتزوّج فكأن نسائهنّ مصداق قول بعض الحكماء : لا تغتر بامرأة ولا تثق بمال وإن كثر، وقال آخر: النّساء حبائل الشيطان"(15).

إن المرأة في باريس لها مطلق الحرية في مصاحبة من تشاء دون مراعاة مشاعر الزوج وهو في هذا يعقد مقارنة في وضع المرأة في الشرق التي هي عبارة عن متاع البيت، وفي بلاد الإفرنج سلعة في متناول الجميع.

كان سكان فرنسا يقدّسون العقل حتى وصل الأمر أنه ذكر نقلا عنهم: "إن عقول حكمائهم وطبعهم أعظم من عقول الأنبياء وأذكى منها"(16)

الحضارة الغربية لن تستطيع الوصول إلى ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية التي أرسى قواعدها الإسلام حاملا رسالة عالمية تحثّ على طلب العلم من منابعه المختلفة. فكيف لهؤلاء الغرب أن يجعلوا عقل الحاكم أعظم من عقل النبيّ والرّسول صلى اللهّ عليه وسلّم قد أوتي بمجامع الكلام فصاحة وبلاغة فكان نبيّا معلّما ومربيّا.

كما نعلم بعد وصول الطهطاوي إلى أرض فرنسا انكبّ على تعليم اللغة الفرنسية، ولمّا حصل له ذلك بدأ بدراسة الجغرافيا عن طريق ترجمة بعض الكتب الجغرافية، ثم درس الدستور الفرنسي فحاول فهم نظام فرنسا عن تدبير شؤون رعيتها قائلا: "...ليكون تدبيرهم العجيب عبرة لمن اعتبر، فنقول : قد سلف لنا أن باريس هي كرسي بلاد الفرنسيس، وهي محل إقامة ملك فرنسا وأقاربه وعائلته المسمّاة البربر ون، ومملكة الفرنساوية متوارثة وملك فرنسا ليس مطلق التصرّف، وأنّ السياسة الفرنساوية هي قانون مقيّد بحيث إنّ الحاكم هو الملك بشرط أن يعمل بما هو مذكور في القوانين التي يرضى بها أهل الدواوين ...والقانون الذي يمشي عليه الفرنساوية الآن يتخذونه اساسا لسياستهم هو القانون الذي ألّفه لهم ملكهم المسمّى لويز الثامن عشر، ولا زال متبعا عندهم ومرضيا لهم وفيه أمور لا ينكر ذووا العقول أنها من باب العدل"(17).

إن أصحاب السلطة من الفرنسيين يسيرون وفق القانون الذي سنّه ملكهم لويز الثامن عشر وبنود هذا القانون يجب اتباعها حتى من قبل ملك فرنسا، فحريته ليست مطلقة ليأمر وينهي كما يحب بل يجب أن لا تخرج قراراته عن القانون المذكور مع مصادقة وموافقة أهل الدواوين باعتبارهم أعضاء رسميين.

وقد أشار الطهطاوي إلى بعض البنود التي تنطوي تحت القانون العام: "الفرنساوية مستوون في الأحكام على اختلافهم في العظم والمنصب والشرف...ومن الأشياء التي ترتبت على الحرية عند الفرنساوية أن كل إنسان يتبع دينه الذي يختاره يكون تحت حماية الدولة ويعاقب من تعرّض لعابد في عبادته ولا يجوز وقف شيء على الكنائس أو إهداء شيء لها إلا بإذن صريح من الدولة وكل فرنساوي له أن يبدي رأيه في مادة السياسات أو في مادة الأديان بشرط أن لا يخلّ بالانتظام المذكور في كتب الأحكام"(18).

إن هذه البنود تمنح الفرنسيين حق التساوي في الحقوق والواجبات مع احترام رغبة كل شخص في اتباع الدّين الذي يريده مع مراعاة عدم الإخلال بالنظام المذكور في الأحكام التي وضعتها الدولة.

طقوس أهل باريس الدينية:

بعدما ظهر الطهطاوي بصورة الرجل السائح المعجب بحضارة باريس وعمرانها يظهر لنا في موقف آخر مهاجما لسكان باريس. فنجد من العبارات التي تُفصحُ عن نفوره من الأجانب واستنكاره

لمعتقدهم ما ورد في مقدمة الرحلة قوله: "في ذكر ما يظهر لي من سبب ارتحالنا إلى هذه البلادة، التي هي ديارُ كفرٍ وعناد بعيدة عنّا غاية الابتعاد." (19)

فهذه العبارة توحي بشدّة تمسّك الطهطاوي بدينه الإسلامي وبشرائعه المقدسة ونفوره من معتقدات النصارى. سكان باريس لا يدينون بدين الإسلام، فهم على الإطلاق ينتمون إلى الديانة النصرانية فقط بالاسم لا بالشرائع التي جاءت في الإنجيل ويعبّر عن ذلك بقوله: "إن الفرنساوية على الإطلاق ليس لهم من دين النصرانية غير الاسم فهم يدخلون في اسم الكتابيين"(20) فلا يحترمون ما حرّمه دينهم أو أوجبه ففي أيام الصيام لا ينقطعون عن أكل اللّحم في سائر بلاد فرنسا إلاّ ما ندر.

ومن الخصال التي شانها الطهطاوي وهو ببلاد الفرنسيين وضع قسا وسهم الذين هم على مرتبة من الدّين النصراني وتعظم مكانتهم في الكنائس فهم أناس لا يحلّ لهم الزواج: "عدم الإذن بزواج القسيسين على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم"(21) هذا ما يسهّل وقوعهم في الرذيلة لقوله: "إن عدم زواجهم يزيدهم فسقا على فسقهم"(22).

ومن الخصال الذميمة التي عابها عليهم منطلقا في حكمه هذا من ثقافته الإسلامية أنّ المذنب في دين الإسلام توبة تكون بينه وبين خالقه في وضع سرّي لكن في معتقد النصارى غير ذلك: "إن القسيسين يعتقدون أنه يجب على العامّة أن يعترفوا لهم بسائر ذنوبهم ليغفروها لهم..." (23)

فيتمثل المذنب بالجلوس على كرسي الاعتراف أمام القسيس فيعترف بذنوبه فيغفر له.

ومن أعياد النصارى يذكر الطهطاوي عيد الاحتفال بظهور السيّد المسيح: "ويسمّى عند الفرنسيس عيد الملوك، وذلك أن كل عائلة تصنع فطيرة عظيمة وتضع فيها حبّة فول في عجينها. ويقسمون الفطير على الندامى ، فكل من جاءت حبّة الفول في نصيبه فهو الملك ويختار من النساء امرأة يجعلها الملكة" (24).

ومن جملة بدعهم في عيد القربان أنهم يصنعون: "موكبا ويلبسون فيه حللا مطرزة ويدورون المدينة بشيء يسمّونه البونديو... والمراد عندهم بالبونديو عيسى عليه السّلام"(25). هذه القربان تعوّد القسيسين فعلها في موسمها المعتاد من كل سنة ظنّا منهم أن سيدنا عيسى عليه السلام منهم لذا وجب تقديم القربان تعبيرا عن انتمائهم لدين عيسى.

علوم وصنائع أهل باريس:

الحياة العلمية في باريس بلغت أوجّها والنخبة البشرية كان لها الدّور الفعّال في تنمية الحياة الثقافية بباريس، إنه "لا يوجد من حكماء الإفرنج من يضاهي حكماء باريس؛ بل ولا في الحكماء المتقدمين كما هو الظاهر أيضا"(26). حيث أن سائر الفنون العلمية التي يظهر أثرها بالتجارب تبرز مدى معرفة العلماء لها من خلال إتقانهم لعملهم والتفاني في تحصيل العلم ومن العوامل التي ساعدت الفرنسيين على التقدم في العلوم والفنون سهولة لغتهم التي تجعل الإنسان بمقدوره قراءة أي كتاب باللغة الفرنسية. فلا يحتاج إلى شرح أو استفسار؛ ويعقد الطهطاوي مقارنة بين لغة أهل باريس وبين اللغة العربية التي تحتاج إلى شروح وحواشي لفهم مضامينها: "بخلاف اللغة العربية مثلا فإن الإنسان الذي يطالع كتابًا من كتبها في علم من العلوم يحتاج أن يطبقه على سائر آلات اللغة ويدقّق في الألفاظ ما أمكن، ويحمل العبارة معاني بعيدة عن ظاهرها"(27) اللغة العربية واسعة المعاني كثيرة العبارات دون أن ننسى أنها لغة اشتقاقية، فالكلمة الواحدة تحمل في طيّاتها معاني ورموز كثيرة، إضافة أنّها لغة القرآن الكريم ولغة أهل الجنّة. فالحمد للهّ الذي انعم على أمته الإسلامية بالإسلام وبالعلم ووحّد المسلمين على لغة واحدة ودين واحد.

إن الحركة العلمية المتطوّرة في باريس ترجمتها مجامع العلماء ومدارسهم. وخزائن الكتب المتنوعة ومن هذه الخزائن يذكر : "الخزانة السلطانية وهي تحوي سائر الكتب بلغات مختلفة إضافة إلى وجود المصاحف يقدمونها لمن يريد قراءة القرآن أو ترجمته إلى لغة أخرى. وتوجد في مدينة باريس مصاحف للبيع وبعضهم لخّص بعض سور القرآن التي يختارها للترجمة ويضمّ إليها قواعد الإسلام

وبعض شعبه"(28) هذا يدلّ على أن دين الإسلام هو أصفى الأديان وأنه يشتمل على ما لا يوجد في غيره من الأديان.

احتوت رحلة الطهطاوي مختلف العلوم والفنون المنتشرة في بلاد فرنسا فلم يكن في وسع الطهطاوي الوقوف عندها جميعا فكثيرا من الأحيان يشير إلى بعض العلوم والفنون مكتفيّا بالاسم فقط كأسماء الجمعيات والمعاهد والمدارس، ومن المصطلحات التي لمّح إليها قوله: "وفي باريس مدارس سلطانية تسمّى الكوليج وهي مدارس يتعلّم فيها الإنسان العلوم المهمّة يدرس فيها صناعة الإنشاء والتأليف والألسن القديمة الغربية، الرياضيات. علم التاريخ، الجغرافيا، الفلسفة وأصول الطبيعيات.." (29).

مدارس باريس قديما تعادل الجامعات في وقتنا الحالي، فهذه الكوليجات يوجد بها أكابر الأساتذة الذين يتميزون بمستوى علمي راقي ما يجعلهم ينجحون في تأطير تلامذتهم في مختلف التخصّصات إضافة إلى تكوين مهندسين في العلوم العسكرية مثل إعداد مخططات هندسية للقلاع والحصون والبروج وحمايتها من هجومات الأعداء، وأصحاب هذه المدارس لهم باع كبير في سائر العلوم ويتمنى أي شخص أن يكون من تلامذتها يلقى الحظوة من مدرسيها وينهل العلوم من مصنفاتها العلمية المختلفة.

وفيما يخص الصحافة التي أشار إليها الطهطاوي باسم "الجرنلات" ومفردها جرنال وهو وسيلة من وسائل الإعلام التي لم تكن تعرف في بلاده فوصفها إلى طريقة بيعها ومحتوياتها وكذبها أحيانا: "ثباع لسائر الناس وسائر أكابر باريس يرتبونها كل يوم وكذلك سائر القهاوي وهذه الجرنلات مأذون فيها لسائر أهل فرنسا أن تقول ما يخطر لها وأن تستحسن وتستقبح ما تراه...وأن تقول رأيها في تدبير الدولة فلها حرية تامة ما لم تضر بذلك فإنه يحكم عليها وتطلب بين يدي القاضي"(30).

أشاد الطهطاوي بحريّة الصحافة لأنها تعبّر عن صوت الشعب مشاكله وتطلعاته المستقبلية كما ترصد الصحافة علاقة الدولة بالشعب، فحرية الصحافة من أبرز أسباب التقدم والتمدّن فهي العاملة على إصلاح المجتمع عن طريق حريّة التعبير دون المساس بقاعدة الدول الكبرى.

الطهطاوي شاهد واقع المجتمع الغربي وشعر بالفرق الشاسع بينه وبين مجتمعه الشرقي في المضمار السياسي والعلمي والاجتماعي فأبدى إعجابه بما رأى في الغرب، كما أعرب عن ألمه لتخلف الشرق وأحسّ أن هذا الشرق لن يتطوّر إلاّ إذا اقتبس علوم الغرب ونظمه السياسية والاقتصادية...وعليه قال الطهطاوي أنه وصف مشاهداته في فرنسا كي يوقظ: "من نوم الغفلة سائر أمم الإسلام من عرب ومن عجم"(31) من هنا نشأ الصراع الفكري والحضاريفخرجت بذلك الرحلة عمّا ألفناه مع الرحلة في القديم من وصف البلدان والأقوام، كما وصف الطهطاوي الجمال كذلك وصف القبح وكما أعجب بحضارة باريس وعبّر عنها بانبهاره بعلومها وفنونها كذلك أبدى نفوره من طباع أهل باريس فتولّد في نفسه صراع يتأرجح بين التشبث بخيوط الموروث الثقافي وبين الأخذ بالجديد المستحدث من حضارة باريس.

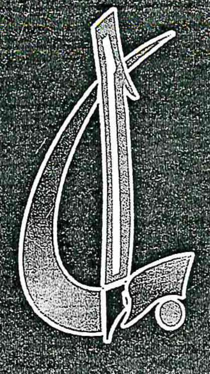
لم يتأثر الطهطاوي فقط بما شاهد من مظاهر الحضارة الغربية. ففي مؤلفاته ما يثبت اطلاعه على نتاج الغرب الفكري والأدبي. فقد ذكر الطهطاوي في رحلته أنه "قرأ من كتب الفلسفة الفرنسية مؤلفات "كوندياك" في الفلسفة والمنطق، وبعض مؤلفات فولتير منها معجم الفلسفة، وبعض مؤلفات روسو "عقد التأنس والاجتماع الإنساني"(32) وكتاب الطهطاوي "المرشد للبنات والبنين" ألّفه بعد رجوعه إلى مصر فتأثّر بعلوم باريس وأراد أن يكون المسلمون مثل النموذج الفرنسي في كل شيء، وقارن بين المرأة في باريس والمرأة في مصر، فلاحظ تخلف المرأة الشرقية . لذا طالب في مشروعه الإصلاحي بتعليم المرأة حتى تصل إلى مرتبة المرأة الفرنسية. وأقام جامعة الألسن لتعليم اللغات الأجنبية.

كانت هذه رحلة الطهطاوي التي كانت ترمي إلى تعلّم علوم الغرب وتطوير الحركة العلمية والثقافية في مصر بتطوير اللسان العربي والتطلع إلى آفاق جديدة في ظل الحضارة العربية الإسلامية، وظلّت رحلة الطهطاوي جسرا للتواصل مع الآخر (الغرب) للتعرف على مظاهر الحضارة الغربية آنذاك.

الهوامش:

1- الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي، التمدّن والحضارة والعمران، دراسة وتحقيق محمد عمارة، دار الشروق 2011/2010، ص 49.
2- المصدر نفسه، ص 43.
3- المصدر نفسه، ص 44.
4- المصدر نفسه، ص 45.
5- التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر، جمال الدين الشيّال، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 2000. ص 54.
6- المرشد للبنات والبنين، رفاعة رافع الطهطاوي، تقديم منى أحمد أبو زيد، دار الكتاب المصري القاهرة، ص 33.
7- المصدر نفسه، ص 36.
8- المصدر نفسه، ص 24.
9- تخليص الإبريز في تلخيص باريز، مؤسسة هنداوي، ص 89.
10- المصدر نفسه، ص 120.
11- المصدر نفسه، ص-ص: 58-59.
12- أدب الرحلات، محمد حسين فهيم، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ص 128.
13- تخليص الإبريز في تلخيص باريز، ص 84.
14- ينظر المصدر نفسه، ص 85.
15- تلخيص إبريز في تلخيص باريز، ص 88.
16- المصدر نفسه، ص 89.
17- المصدر نفسه، ص-ص: 104-105.
18- المصدر نفسه، ص 116.
19- المصدر نفسه، ص 14.
20- المصدر نفسه، ص 173.
21- المصدر نفسه، ص 174.
22- المصدر نفسه، ص 174.
23- المصدر نفسه، ص 174.
24- المصدر نفسه، ص-ص: 174-175.
25- المصدر نفسه، ص 175.
26- المصدر نفسه، ص 176.
27- المصدر نفسه، ص 177.
28- ينظر المصدر نفسه، ص 181.
29- المصدر نفسه، ص 189.
30- المصدر نفسه، ص 192.
31- المصدر نفسه، ص 12.
32- المصدر نفسه، ص-ص: 149 -150.

LITERARY STUDIES





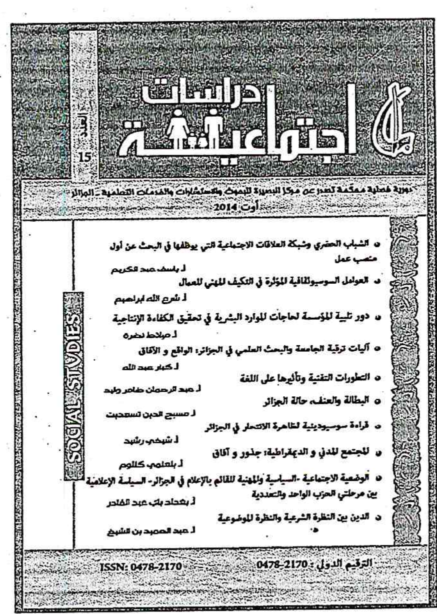
دراسات إسلامية

دورية فصلية محكمة تعنى بالبحوث والدراسات في مختلف العلوم الإسلامية

جانفي 2015 / ربيع الأول 1436هـ

العدد 22

ISSN 1112 - 8011 الترقيم الدولي



دراسات اجتماعية

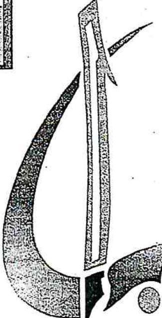
SOCIAL STUDIES

العدد 15

دورية فصلية محكمة تصدر عن مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعلمية - الجزائر

أوت 2014

الترقيم الدولي: 0478-2170 ISSN: 0478-2170



مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعلمية

46 تعاونية الرشد القبة القديمة- الجزائر

هاتف: 78 97 28 021 فاكس: 48 36 28 021

www.baseeracenter.com / Email:markaz_bassira@yahoo.fr



مجلة

النقد والدراسات الأدبية

دورية محكمة يصدرها فريق البحث لمخبر مجلة النقد والدراسات الأدبية واللسانية

جامعة سيدي بلعباس الجزائر

العدد الرابع

2016

دار الأصول للطباعة والنشر ــــ سيدي لحسن ــــ سيدي بلعباس

الجزائر

ردمك: 1112-6566

بسم الله الرحمن الرحيم





مجلة النقد والدراسات الأدبية واللغوية

دورية محكّمة يصدرها فريق البحث لمخبر مجلة النقد والدراسات الأدبية واللسانية

جامعة . سيدي بلعباس . الجزائر

العدد الرابع

2016م

مجلة النقد والدراسات الأدبية واللغوية

دورية محكّمة يصدرها فريق البحث لمخبر مجلة النقد والدراسات الأدبية واللسانية

جامعة . سيدي بلعباس . الجزائر

العدد الرابع

2016م

دار الأصول للطباعة والنشر - سيدي لحسن - سيدي بلعباس

الجزائر

مجلة النقد والدراسات الأدبية واللغوية

دورية محكّمة يصدرها فريق البحث لمخبر النقد والدراسات الأدبية واللسانية . كلية الآداب واللغات والفنون . قسم اللغة العربية وآدابها . جامعة . سيدي بلعباس . الجزائر

العدد الرابع

2016 . 2015



الإيداع القانوني : 58 . 2006

ردمك : ISNN 1112 . 6566

المراسلات

توجّه جميع المراسلات باسم السيّد رئيس تحرير المجلّة

ص ب 89 جامعة جيلالي ليابس

سيدي بلعباس . الجزائر

أو عن طريق البريد الإلكتروني www univ sba dz / cell

مجلة النقد والدراسات الأدبية واللغوية

دورية محكّمة يصدرها فريق البحث لمخبر النقد والدراسات الأدبية واللسانية . كلية الآداب واللغات والفنون . قسم اللغة العربية وآدابها . جامعة . سيدي بلعباس . الجزائر

قواعد النشر

. يتمّ قرار النشر في مجلّة النقد والدراسات الأدبية واللغوية بناء على توصية من الهيئة العلمية لمخبر النقد والدراسات الأدبية واللسانية .

. لا تنشر المجلّة إلّا الدراسات العلمية الأصيلة ، ذات الصلة الوثيقة بالجانب الأدبي والنقدي واللغوي القديم منه والحديث وما له علاقة بذلك .

. تنشر في المجلّة أعمال الملتقيات والندوات التي ينظّمها المخبر .

. لا تنشر المجلّة المقالات التي سبق نشرها .

. يكتب نصّ المقال للمجلّة مطبوعا مرفقا بنسخة في قرص مرن .

. يكتب نصّ المقال بخطّ Traditionnel Arabic حجم 14 في المتن ، و12 في الهامش .

. مقاس الصفحة 24 / 17 .

. توضع الهوامش أو الإحالات في آخر المقال .

. ترتيب البحوث في المجلّة يخضع لاعتبارات فنية .

. الدراسات والمقالات التي تصل المجلّة لا تردّ لأصحابها سواء نشرت أم لم تنشر .

كلّ ما ينشر في المجلّة لا يعبّر بالضرورة عن رأي المجلّة .

مجلة النقد والدراسات الأدبية واللغوية

دورية محكّمة يصدرها فريق البحث لمخبر النقد والدراسات الأدبية واللسانية . كلية الآداب واللغات والفنون . قسم اللغة العربية وآدابها . جامعة . سيدي بلعباس . الجزائر

كلمة العدد

في إطار النشاطات العلمية التي يبادر فريق البحث لمخبر النقد والدراسات الأدبية واللسانية إلى ترتيبها نظّم اليوم الدراسي الوطني حول "الشعر العربي المعاصر قضاياه وخصائصه الفنية" يوم 06 أفريل 2016 م شارك فيه نخبة من الأساتذة وفدوا من مختلف جامعات الوطن ميلة، الجلفة، الشلف، تلمسان، وهران، سعيدة، عين تموشنت، ... إلى جانب عدد من طلبة الدكتوراه، وإيمانا منه بقيمة التوثيق والتقييد للنشاطات العلمية اهتدى فريق البحث بالتنسيق مع الأساتذة والطلبة المشاركين إلى نقل المداخلات التي ألقيت في الملتقى إلى مقالات تنشر في عدد خاص من مجلة النقد والدراسات الأدبية واللسانية بقسم اللغة العربية وآدابها التابع لكلية الآداب واللغات والفنون بجامعة جيلالي ليابس بسيدي بلعباس. وبالتنسيق بين مختلف الجهود العلمية والتنظيمية هاهو ذا الطموح العلمي يتحقق مضاعفا ، ليس بإفراد عدد واحد للجميع وإنّما بعددين، واحد للأساتذة وثان لطلبة الدكتوراه.

وهذا العدد الذي بين يديك أيها القارئ العزيز خاص بطلبة الدكتوراه. لماذا؟

فتح باب النشر أمام الجميع لما ينجم عنه من تسابق علمي هادف.

التشجيع على نشر الدراسات والبحوث، وتنمية المواهب تربية القدرات وتهذيب المحاولات والتمارين حتى يكون هؤلاء خير خلف لخير سلف، يشقون الطريق بكلّ بصيرة وأناة، وبكلّ بيّنة ورزانة، مؤمنين بدورهم بسنّة الحياة في التحوّل والتبديل ، وفي التواصل والتسلسل.

والذي ينبغي التنبيه عليه بكل واقعية أن ما يحتمل أن يظهر في جهود الطلبة من نقائص أمر عادي ومتوقع لا يسلم منه أيّ طالب مجتهد في بداية مشواره العلمي؛ ومسؤولية الأساتذة في هذه الحال مطلوبة جدا؛ فالبتوجيه الهادئ المؤسس والنصيحة الحانية العارفة تسد النقائص وتستدرك الأخطاء.فالتجربة تدل أن النقائص والأخطاء في بعض الأوقات إذا أحسن المربيّ والمعلم استثمارها كانت القبس الذي يعتق ،والدرع الذي لا يوبق.

أ.د/ كاملي بلحاج

المحتويات

صورة الأماكن المقدسة في رحلة العبدري

زواوية طيبي طالبة دكتوراه جامعة تلمسان

يعدّ أدب الرحلات من أثرى الفنون النثرية في أدبنا العربي لما يحمله من قيمة تاريخية وحضارية وأدبية؛ أهّلته أن يكون مصدرا للباحثين في مجالات مختلفة. لقد تفوق المغاربة في أدب الرحلة تفوقا كبيرا حتى أصبحوا من روّاده بلا منازع؛ هذا لا يعني أن المشارقة لم يعرفوا أدب الرحلة لكنّ كتب رحلاتهم اعتمدت على النقل من كتب التاريخ والجغرافيا والرحلات.أمّا المغاربة فقد ألّفوا رحلاتهم اعتمادا على مشاهداتهم الشخصية وتجاربهم الذاتية فأعطوا للرحلة طابعا خاصّا ومن هؤلاء الرحالة الذين تركوا بصماتهم في سجل التاريخ العبدري صاحب الرحلة المغربية.

التعريف بصاحب الرحلة: العبد ري هو محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود العبد ري إلحاحي[1] وتشير النسبة أنّ اسم العبدري ينحدر من عبد الدار من بني قصي وهذا الأخير هو الذي تنسب إليه الأسطورة توحيد قبيلة قريش[2]؛ مرتبط ببلنسية من حيث أصل أسرته بالصويرة (على مقربة من مغادور) بمرّاكش من حيث سكنى هذه الأسرة[3]. إذا كنّا لا نعرف الكثير عن نشأة العبد ري الأولى؛إلّا أنه من الثابت أنّه عاش هو وأسرته فترة من حياته على الصويرة في المغرب الأقصى حين عزم الخروج لتأدية فريضة الحج[4]. تشير المصادر أنّ العبد ري من أصل عربي قرشي إلّا أنّ بعض الباحثين ينسْبه الى بلنسية[5] (الاندلس) ولم نعثر في المصادر التي بحثنا فيها عن سنة الولادة والوفاة للعبدري وعن أسرته والظروف التي كوّنته وجعلت منه رحّالة ومؤرخا وفقيها وشاعرا فحلا؛وأديبا ناقدا. ما نعرفه عنه أنّه أخذ العلم والمعرفة عن جماعة يطول ذكرهم موجودة أسمائهم في الرحلة؛منهم شرف الدين الدمياطي؛ابن دقيق العيد؛عبد الله بن هارون والطائي القرطبي نزيل تونس وعبد الرحمن الاسدي القيرواني[6]. بالرّغم من تنوّع مشارب العبدري الثقافية إلّا أنّه لم يخلّف سوى رحلته المسمّاة"الرحلة المغربية أو رحلة العبدري".

دوافع الرحلة: العبدري كغيره من الرحالة كان له هدفان جعلاه يمضي في سفره دون تراجع.

السبب الأول: ديني وهو القيام بفريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة والإتّصال بالمتصوفة والصالحين؛وقد صرّح مرارا بأنه كان ينوي الإقامة بمكة ومجاورتها؛وأنّه قد اكترى منزلا وجهّز لوازمه وصرف الركب الى المغرب لولا حدوث فتنة أرغمته على الرحيل من مكة[7].

السبب الثاني: علمي تمثل في رغبته في لقاء العلماء والمشايخ والأخذ عنهم والبحث عن السند العال فصرف جلّ اهتمامه للناحية العلمية في البلدان التي زارها؛وترجم للعديد من العلماء الذين لقيهم ترجمة وافية شملت أخلاقهم

وثقافتهم ومصنفاتهم العلمية.....وتنوّعت المصادر العلمية التي نقل عنها العبدري في رحلته من مصادر تاريخية وجغرافية؛كتب الحديث والفقه؛دواوين شعرية متنوعة.

رحلة العبدري رحلة ثرية لما تحويه من معلومات جغرافية؛تاريخية؛إجتماعية ؛ثقافية وعمرانية؛وصف الأماكن المقدسة شغل حيّزا كبيرا في نصوص الرحلة؛وهذا ماسنراه بالتفصيل من خلال عرضنا لبعض النماذج.

وصف مكة: ويصل العبد ري الى مكة البلد الذي ظلّ يلهج بذكره؛وشدّ الرحال من أجل الوصول إليه فيحس بالغبطة والسرور وقد عبّر عن ذلك بقوله:"ثم نزل الركب بالمحصّب يوم الاثنين سابع ذي الحجة وبات به ليلة ثم رحل من الغد؛وهو يوم التروية إلى منى وفي يوم التروية دخلت الى البلد الأمين؛مقرّ المجد الصميم والشرف المكين فخر بقاع الأرض كلّها على مرّ السنين؛فأقسم بالله أعظم يمين قسما لا يكذب ولا يمين ما حرّم سكناه إلّا ذو حظ غبين"[8]. يصف العبد ري مكة المكرمة بأنّها أجمل بقاع الأرض أمنا وسلاما؛وقد عبّر عن ذلك في قصيدتين مهّد بهما لوصف هذا البلد الذي ظلّ تذّكره على مدى الأيام يذكي فيه نار الشوق والحنين؛ ويحيي في نفسه أمل العودة إليه للتملّي من جمال المكان وقدسية هذه الرباع؛ فلقد قال في القصيدة الأولى:

أسعداني بذكره يا خليليّ — فلقد يسعد الخليل الخليل

وعداني ومنيّاني وصولا — فقصارى منى الفؤاد الوصول

يالربع غدا به ربع صبري — وهو مستعجم الرّسوم محيل[9]

ويعبّر عن أمنيته التي يرجو باستمرار تحقيقها؛وهي العودة الى هذه البقاع من جديد؛فلقد جاء في القصيدة الثانية قوله:

ألا ليت شعري هل يساعدني الوقت — وتدني لي الأيّام ما نحوه تقت؟

وهل لي إلى تلك المعاهد عودة — بسكنى مغان قربها كلّ ما اشتقت؟[10]

فوصفه للبلد الأمين يشفي غليل المتشوّق إلى زيارتها؛ فقد أحسّ وكأنّه قد خلق خلقا جديدا؛بمجرّد دخوله إلى مكة التي أنسته المعاناة والآلام التي لقيها من متاعب السفر. فيلتفت وهو بمكة إلى معالمها الأثرية والعمرانية؛ فيصف المسجد الحرام قائلا:"وأمّا المسجد الحرام زاده الله تشريفا فهو وسط البلد كبير متّسع يكون طوله أزيد من أربع مئة ذراع؛كما ذكر الأزرقي رحمه الله وطوله من الشرق إلى الغرب؛وهو قريب من التربيع يخيّل للناظر إليه أنّه مربّع مفروش برمل أبيض جميل المنظر جدّا محكم العمل عجيب الصنعة؛كثير الإشراف ؛ مرتفع الحيطان نحو عشرين ذراعا ودوره كلّه مسقّف على أعمدة عالية ؛ثلاثة صفوف بأتقن ما يكون من العمل وفي كل جهة أبواب جملتها تسعة وثلاثون وباب بني شيبة في ركن الحائط الشرقي من جهة الشمال أمام باب الكعبة متياسرا ؛ وفي جهة الشمال باب دار الندوة؛ودار الندوة قد جعلت مسجدا شارعا في الحرم[11]."

العبدري أعطانا وصفا مفصّلا عن المسجد الحرام من حيث المساحة والطول والعرض؛مستندا بقول الأزرقي كما أشار الى ذلك فهو دقيق في تحديد المسافات والأبعاد لأنّه عاين هذا المكان بنفسه لذلك جاءت أوصافه مطابقة لأوصاف ابن جبير وابن بطوطة.

وصف الكعبة المشرّفة: ينطلق لسان العبدري ليصف الكعبة قائلا:"وأمّا الكعبة شرّفها الله في وسط المسجد وفي موضعها يسير نتوء بيّن للمتأمّل؛وبنائها عجيب متقن من حجر منحوت محكم الإلصاق؛ولونه الى الحمرة مع دكنة يسيرة وارتفاعها في السماء كما ذكروا ثلاثون ذراعا.....بعلمين مثبتين في البناء وهما اسطوانتان خضروان والمطاف لاصق بالمسجد؛ والمسجد على يسار الذّاهب من الصفا والمروة ناتئ مثل الصفا أو دونه قليلا ولها درج لا أقف الآن على حقيقته وذكر الأزرقي أنّه خمس عشرة درجة وأنا أرى غير ذلك"[12]. لقد فصّل العبدري في وصف الكعبة على صورتها الحقيقية كما رآه؛إلّا أنّنا نجده دائما يرجع الى المصادر التاريخية باعتبارها مرجعا مهّما ليتأكّد من صحة المعلومات.

وصف المسجد الحرام: المسجد الحرام هو من أعظم المساجد الإسلامية عمارة على وجه الأرض يقع في مكة والعبدري يصفه قائلا:"وأمّا المسجد الحرام صانه الله تعالى فإنّه لم ين قديما ؛ولا كان حول البيت حائط وفي البخاري عن عمرو بن دينار وعبد الله بن أبي يزيد قالا" لم يكن في عهد النبيّ صلّى الله عليه وسلم حول البيت حائط كانوا يصلّون حول البيت حتى كان عمرفبنى حوله حائط؛ قال عبد الله:جداره قصير فبناه ابن الزبيرقلت:والمسجد الحرام هو ما دار بالكعبة وهو المصلّى ويطلق على الكعبة؛وهو الظاهر من حديث أبي ذر أنّه سأل رسول الله صلّى الله عليه وسلم:أي مسجد على ظهر الأرض وضع أولا؟قال: المسجد الحرام قال:ثم أيّ؟قال:المسجد الأقصى؛قال:كم بينهما؟قال:أربعون سنة"[13].

العبدري يستند في وصفه للمسجد الحرام الى الرواية الصحيحة؛التي تقول بأنّ هذا المسجد لم يكن موجودا في القديم ولما فتح النبيّ عليه الصلاة والسلام مكة طهّرها من الأوثان والتماثيل؛وصار النّاس يصلّون حول الكعبة ولم تكن ذلك الوقت محاطة بجدار أوسور حتى تظهر حدود المسجد الحرام.

وصف المدينة المنورة: العبدري لما وصل الى مكة المكرمة وقام بأداء مناسك الحج زار الأماكن المحيطة بها؛بعدها توجّه الى المدينة المنورة فوصفها قائلا:" وفي ضحى يوم الاثنين الثامن والعشرين من ذي الحجة وصلنا الى معهد الفضائل المشهورة؛ومعقد ألوية الدين المشهورة ومحتد المآثر المذكورة المأثورة؛مجمع محاسن الدّارين ومنبع مفاخر العصرين ومطلع سعادة الثقلين؛وروضة أزهار الأنام ومشرق أنوار بدر التمام؛وحمى كرم ما حام حوله حام ولا سام بصفقته سام؛حمى آدم فأدم عيشه القشف بإكرام وأولاه مناه ولولاه لاستمرّ أذاه ودام[14]."

كما نظم العبدري قصيدة ميمية استهلّها بالحديث عن مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام؛الذي اعتبره بلد الهجرة ويكنّ له منزلة خاصة جاء فيها قوله:

مقام للعلاء به مقام ... وفيه انجاب عن ضوء ظلام

به مثوى السيادة غير شكّ ... به للدّين والدّنيا انتظام

به قمر السعود ثوى مقيما ... فسار بنور غرّته الأنام

به حلّت نجوم الأفق طرّا ... فصار لها بساحته التئام

به أهل المعاني والمعالي ... إمام في الشريعة أوهمام(15)

هذه القصيدة تحفل بالمشاعر الجيّاشة للعبدري تجاه البلد الأمين الذي آوى إليه النبيّ عليه الصلاة والسلام؛فكان فيه مرقده ومثواه فالرحالة أسقط على المدينة صفات جليلة كونها تحوي قبر المصطفى وصحابته الكرام؛بلد العلم والدّين فكم من عالم سما شأنه به إضافة أنّ المدينة يقصدها النّاس من كلّ حدب وصوب أثناء قيامهم بمناسك الحج؛فالمكان بجماليته وروحانيته أصبح مشهدا حسيّا تهتز له القلوب بمجرّد ذكر المدينة المنورة.

وصف مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام: ورد في الأثر أنّ النبيّ عليه الصلاة والسلام قال بأنّ ثلاثة أماكن تشدّ الرّحال إليهم وهم:مسجد الحرام ومسجد الأقصى ومسجد رسول الله؛فكلّ رحّالة زار المدينة المنورة كان يقوم بوصف الأماكن المقدسة الموجودة فيها والعبدري أفاض في وصف المسجد النبوي قائلا:"وأمّا مسجد النبيّ صلّى الله عليه وسلم فعلى صورة المسجد الحرام؛إلّا أنّه في المساحة دونه بكثير وعرضه من الشرق الى الغرب؛وهو عالي السمك مبيّض مدوّر بالسقائف ؛عجيب المنظر ووسطه فضاء مفروش برمل أحمر؛وأساطينه مبيّضة بالفضة عالية متّسع ما بينها؛وأوسع سقائفه ناحية الجنوب وفيها المحراب وهي خمسة صفوف؛وفي مؤخر المسجد وهي ناحية الشمال أربعة صفوف؛ وفي ناحية الشرق ثلاثة صفوف وفي الغرب أربعة صفوف وفي الناحية الشمالية من فضاء المسجد بيت مربّع مليح هو مخزن المسجد؛وبالقرب منه نخلات صغار ناضرة عليها أثر التعاهد بالصون(16)." المسجد النبوي لا يختلف عن المسجد الحرام من حيث العمارة والتصميم؛إلّا أنّه يصغره مساحة فالعبدري فصّل في الحديث عنه بإعطائنا وصفا شاملا دقيقا من خلال معاينته لهذا المكان المقدّس الذي حظي بوصف مشفع عند كلّ رحّالة قام بزيارته.

وصف الروضة الشريفة: ارتسم المشهد الدّيني في رحلة العبدري بالحديث عن أبرز الشواهد والآثار الدينية المتمثلة في وصف قبور الصحابة والصالحين قائلا:"وأمّا الروضة المقدّسة زادها الله شرفا وجلالة؛فهي في داخل المسجد عند الجدار الشرقي قريبا من الركن الذي على يسار المحراب؛وبينها وبين الرّكن الصّف الأول؛وبينها وبين الجدار الشرقي ممرّ ضيّق حسبما تقدّم وهي شرّفها الله معمولة بالرّخام الأبيض من الأساس الى سقف المسجد بأتقن ما يكون من

الصنعة وأعجبه؛وهي موضوعة على شكل التّربيع ولكنّ ربعها الشمالي ينحو نحو الاستدارة وفيه أركان وبعض انخراط الى الجهة الشرقية؛وفي ركنها الواصل بين الجدار الغربي والجنوبي صندوق مليح من الخشب مبني في الحائط بإزاء راس النبيّ صلّى الله عليه وسلم؛وعلى يمينك وأنت مستقبل له علم بإزاء رأس أبي بكر رضي الله عنه؛ثمّ آخر بإزاء رأس عمر رضي الله عنه ويعطي ذلك أنّها على هذه الصورة........وقد قيل فيها صفة أخرى غير هذه والله أعلم[17]." المتأمّل لهذه الفقرة يجد أنّ ألفاظها تفيض بالمعاني الإيمانية والروحية؛ فالعبدري أعطانا صورة حيّة تتحرّك بوصفه لقبره النبيّ عليه الصلاة والسلام؛وبجانبه قبر أبو بكر الصدّيق وعمر بن الخطاب الذين كانوا من خيّرة أصحابه فشاءت الأقدار أن يجاوروه في دار الخلود؛ فياله من مشهد عظيم ووصف جليل فاق حدود المشاهد الدينية التي ذكرت في الرحلة. ثم يشدّ العبدري الرحال إلى القدس الشريف باعتباره أولى القبلتين وثالث الحرمين؛ليصف المسجد الأقصى قائلا:"وأمّا المسجد المقدّس فهو من المساجد الرّائقة العجيبة؛المنشرحة الفسيحة وهو متّسع جدّا طولا وعرضا وذكر أبو عبيدة البكري أنّ طوله سبع مئة وإثنان وخمسون ذراعا بالمالكي؛وهو ثلاثة أشبار وطوله من الجنوب إلى الشمال؛ وعرضه أربع مئة وخمس وثلاثون وهو من الشرق إلى الغرب وله أبواب كثيرة من الشرق والغرب والشمال؛ولا أعلم له بابا قبليّا سوى الباب الذي يدخل منه الإمام وذكر بعض النّاس أنّ عددها خمسون بابا[18]."

إنّ عمارة المساجد وحي من الله سبحانه وتعالى أوحى بها إلى نبيّه؛ الذي بنى أوّل مسجد جامع للمسلمين يرمز الى أصالة وعراقة الحضارة العربية الإسلامية؛التي مازالت شامخة وخالدة بارتكازها على الدّين الإسلامي الذي ترجمته كثرة المساجد وعمارتها التي تعتمد على الزخرفة الإسلامية؛وترفض التجسيم والتصوير الموجود في الكنائس.

وصف قبّة الصخرة: معظم الرحّالة الذين زاروا بيت المقدس شاهدوا الصخرة الكبيرة التي عرج عليها النبيّ صلّى الله عليه وسلم من السماء الدّنيا إلى السماء العليا؛ فقدّم هؤلاء الرحّالة وصفا مشفعا لهذه الصخرة؛ والعبدري لم تفته فرصة معاينة هذا المشهد المرئي الجميل قائلا:"وفي وسط فضاء المسجد قبّة الصخرة وهي من أعجب المباني الموضوعة في الأرض؛وأتقنها وأغربها وقد نالت من كلّ حسن بديع أوفر حصة وتلت من الإتقان ظاهره ونصّه وتجلّت في جمالها كعروس حسناء؛ جليت على منصّة قامت مشرفة متبرّجة على يفاع تصرّح وتلوّح بالإعراب والإبداع؛وتفصح بما يشرح عن فضيلة الصنّاع[19]." مسجد قبّة الصخرة إحدى المعالم الإسلامية الخالدة التي تعكس شخصية الفنّان المسلم؛فهذا الصرح المقدّس هو من إبداع المسلمين الذين كانت لهم إسهامات كبيرة في بناء الحضارة العربية الإسلامية من بينها إنشاء المساجد ودور العلم لتكون شاهدا حيّا على تراث العالم العرب الإسلامي.

وصفوة القول أنّ رحلة العبدري جاءت لتكشف النقاب عن واقع العالم الإسلامي؛ في تكوينه الثقافي والإجتماعي والحضاري.لقد انصبّ اهتمام العبدري بالناحية العلمية للمدن التي زارها ليقدّم صورة متكاملة واضحة المعالم لجميع مظاهر النشاط العلمي في كلّ بقعة وطأتها قدماه في المشرق والمغرب وجعل من رحلته مرآة صافية عكست ثقافته وسعة اطّلاعه؛ وملكته الأدبية وموهبته الشعرية. تبقى رحلة العبدري وثيقة تاريخية وحلقة من حلقات التواصل بين المشرق والمغرب؛من خلال الآثار والمشاهد الموجودة في متون الرحلة.

الإحالات:

(1)- الأعلام بمن حلّ مرّاكش وأغمات من الأعلام؛العبّاس بن إبراهيم السملالي قاضي مرّاكش؛الجزء الرابع راجعه عبد الوهّاب بن منصور؛ المطبعة الملكية الرباط؛ ص288.

(2) – تاريخ الأدب الجغرافي؛ كراتشوفسكي الجزء الأول؛ص367.

(3) – الجغرافيا والرحلات عند العرب؛ نقولا زيادة؛ الشركة العالمية للكتاب دار الكتاب اللبناني؛ د.ط؛ ص170-171.

(4) – الرحلة والرحّالة المسلمون؛ أحمد رمضان أحمد؛ دط؛ ص347.

(5)– الرحّالة المسلمون في العصور الوسطى؛زكي محمد حسن؛ص107.

(6)– جذوة الإقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس؛أحمد بن القاضي المكناسي؛دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط؛ د.ط؛ص287.

(7)– رحلة العبدري؛أبي عبد الله محمد بن محمد العبدري؛حقّقها وقدّم لها الدكتور علي إبراهيم الكردي؛ دار سعد الدّين للطباعة والنشر والتوزيع؛ ص391.

(8) – المصدر نفسه؛ص358.

(9) – المصدر نفسه ؛ص359

(10) – المصدر نفسه؛ص360

(11) – المصدر نفسه؛367

(12) – المصدر نفسه؛ص375

(13) – المصدر نفسه؛ص384

(14) – المصدر نفسه؛ص419

(15) – المصدر نفسه؛ص421

(16) – المصدر نفسه؛ص424

(17) – المصدر نفسه؛ص425

(18) – المصدر نفسه؛ص469-470

(19) – المصدر نفسه؛ص470-471

REVUE

DE CRITIQUE E ETUDES LITTERAIRES ET LINGUISTIQUE



Revue académique éditée par laboratoire de critique et études

Littéraires et linguistique-université DE SIDI BEL ABBES-ALGERIE

Numéro 04

2016

ISSN :1112-6566